

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

سلطان بن محمد القاسمي

أمير من هذا الزمان



دراسات مهداة
إلى سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي
بمناسبة بلوغه سن السبعين

تحرير
عُبادة كُحيلة

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

سلطان بن محمد القاسمي

أمير من هذا الزمان

دراسات مهداة إلى سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي بمناسبة بلوغه سن السبعين

تحرير

عُبادة كُحيلة

١٤٣١-٢٠١٠

رقم الإيداع: ١٣٤٠٩ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى: 6-9117-17-977

المحتويات

المحور الثالث : الوطن العربي

المشاركون في هذا الكتاب

- **أحمد زكريا الشِّلق** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة عين شمس .
- **أحمد الشربيني السيد** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة القاهرة .
- **أيمن فؤاد سيد** : أستاذ التاريخ الإسلامي . عالم في تحقيق التراث ونشره .
- **جمال محمود حجر** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة الإسكندرية .
- **خلف عبد العظيم الميرى** : عضو هيئة التدريس (**تاريخ حديث ومعاصر**). كلية البنات- جامعة عين شمس
- **عادل حسن غنيم** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة عين شمس . رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- **عُبادة كُحيلة (أبو أدهم)** : كاتب ومؤرخ . أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة . محرر الكتاب .
- عبد **المنعم إبراهيم الجميعي** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة الفيوم .
- **علي السيد علي محمود** : أستاذ تاريخ العصور الوسطى . كلية الآداب – جامعة الفيوم .
- **فايز علي** : كاتب وناقد ومترجم .

- **ماجدة النويعمي** : أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية . كلية الآداب – جامعة الإسكندرية .
- **محمد رفعت عبد العزيز** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية التربية – جامعة عين شمس .
- **محمد صبري الدالي** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد . كلية الآداب – جامعة حلوان .
- **ناصر أحمد إبراهيم** : أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد . كلية الآداب – جامعة القاهرة .

تصدير

لرئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

يسرني أن أقدم إلى القارئ العربي هذا الكتاب التذكاري الذي قامت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بإعداده تكريماً لصاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة والرئيس الفخري للجمعية .

ترجع فكرة إعداد هذا الكتاب إلى عامين خليا عندما اقترح المؤرخ الكبير الراحل الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد رئيس الجمعية على مجلس الإدارة إعداد هذا الكتاب تقديراً وعرفاناً لسمو الأمير نظراً لرعايته الدائمة للجمعية وبمناسبة بلوغه سن السبعين في ٦ من يوليو (تموز)٢٠٠٩.

وفضلاً عن قيام سموه بإهداء الجمعية مبناها الحالي ذا الطراز المعماري المتميز بمدينة نصر، فإنه يتابع أنشطة الجمعية ويدعمها بما تحتاجه من إمكانات.

وعندما نبحث في تاريخ الحضارة الإنسانية في مختلف العصور نجد الملك أو السلطان أو الخليفة أو الحاكم المستنير أو الصفوة الحاكمة هم الذين يرعون الآداب والعلوم والفنون، وأضرب على ذلك مثالاً من التاريخ الحديث لسلاطين الدولة المغولية (التيمورية) الأوائل من بابر إلى أورنكزيب والذين شهدت الهند في عهودهم نهضةً أدبيةً وعلميةً تجلَّت في تشجيعهم لها، وفي استقدامهم للأدباء والعلماء والمؤرخين ومراسلتهم، وفي إنشاء المدارس والمكتبات، بل إن بعض هؤلاء السلاطين كانوا أدباءً وعلماءً، فقد كان بابر أديباً ومحباً للفنون الجميلة وترك لنا سيرته الذاتية المعروفة باسم "بابرنامة" وذلك في وقت مبكر من القرن السادس عشر الميلادي، وكان همايون عالماً في الجغرافيا

والفلك ، وكان أكبر متعمقا في مسائل الدين والفلسفة، وتم في عهده ترجمة أهم كتب الأدب والتاريخ والعلوم إلى الفارسية، وكان لجهانگير إلمام بعلمي الحيوان والنبات، كما كان شاهجهان محباً للعلم مشجعاً على التأليف، وفي عهد أورنگزيب ازدهر التعليم أيما ازدهار، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب ليتفرغوا لدراساتهم، وكانت عنايته كبيرةً بالثقافة والآداب والعلوم الإسلامية .

وفي تاريخنا الحديث في مصر نجد مثالاً آخر في الأميرة فاطمة بنت إسماعيل التي تبرعت للجامعة المصرية بهبة كبيرة وأوقفت عليها أرضاً من أجود أطيانها بالدقهلية قدرت مساحتها بـ ٦٦١ فداناً، كما وهبتها قطعة أرض مساحتها ستة أفدنة قرب قصرها ببولاق الدكرور وخصصتها لبناء دار جديدة للجامعة، كما تبرعت بجواهر وحلي قيمتها ثمانية عشرة ألف جنيه للإنفاق من ثمنها على إقامة هذا المبنى، وقد بلغت قيمة ما تبرعت به نحو مائة ألف جنيه وهو مبلغ كبير بحسابات ذلك الزمان، واحتفل في ٣٠ من مارس (آذار) ١٩١٤ بوضع حجر الأساس للجامعة في الأرض التي تبرعت بها الأميرة .

لكننا في تاريخنا العربي المعاصر لم يعد هناك كثيرون ممن يقومون بهذا الدور في رعاية العلوم والفنون والآداب، ورغم ذلك فهناك مجموعتان تقومان حالياً بهذا الدور، المجموعة الأولى ممثلة في مؤسسات محدودة، والمجموعة الثانية ممثلة في أفراد قلائل.

أما بالنسبة للمجموعة الأولى فأبرز مثال عليها هو مؤسسة يماني الخيرية التي أنشأها في لندن الشيخ أحمد زكي يماني والتي تعتبر مؤسسة الفرقان إحدى ثمراتها، وهي المؤسسة التي ترعى المخطوطات الإسلامية بكل اللغات التي كتب بها المسلمون في العصور المختلفة مثل العربية والفارسية والتركية والأوردية والبوسنية وغيرها .

وأما المجموعة الثانية فأبرز مثال عليها هو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي الرئيس الفخري للجمعية والذي يمكن أن نطلق عليه في اطمئنان **"الرجل المؤسسة"**، حيث يتمثل في شخصه نموذج المؤسسة التي ترعى العلوم والآداب والفنون، فمن إنشائه لجامعة الشارقة والعديد من المتاحف والمعاهد بالشارقة، إلى إنشائه لمكتبة كلية الزراعة بجامعة القاهرة، إلى بنائه مبنى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمدينة نصر، إلى دعمه الكبير لصندوق رعاية الكتاب المصريين، إلى إنشائه حالياً مبنىً خاصاً لجمعية اتحاد المؤرخين العرب بمدينة نصر، وكذلك مبنى حديثاً لدار الوثائق المصرية بمنطقة عين الصيرة، إلى غير ذلك من المشروعات التي تخفى علينا تفاصيلها، فالرجل المؤسسة نموذج للعمل المثمر في صمت، ورعاية الآداب والعلوم دون ضوضاء، فهو لا يبتغي بأعماله البارزة تلك سوى وجه الله والنهوض بالمؤسسات الثقافية في وطنه العربي وفي غيره من أوطان عربية.

من أجل هذا كله فقد أحسنت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية صنعاً بإعداد هذا الكتاب التذكاري على شرف سموه، وتقديراً لدوره البارز في رعاية العلوم والفنون والآداب .

تحية عرفان إلى سموه، ودعوات إلى الله تعالى أن يبارك لنا فيه، وأن يكثر من أمثاله في خدمة الثقافة العربية المعاصرة .

في النهاية أقدم أخلص الشكر للدكتور عُبادة كُحيلة (أبي أدهم) عضو مجلس إدارة الجمعية لقيامه بعملية تحرير هذا الكتاب .

والله ولي التوفيق

المقطم في يوليو (تموز ٢٠٠٩) **عادل حسن غنيم**

تقديم

أبو أدهم

في زماننا هذا ... زمان العولمة، جرى اختراق للهويات الوطنية، وبينها هويتنا الوطنية العربية، ووجدنا بعضاً ممن كانوا يتشدقون بهذه الهوية، يصدفون عنها، وينصرفون إلى عالم بلا هوية، ويرفعون في هذا السياق شعارات مثل الحداثة وما بعد الحداثة، وشعارات أخرى، لا يدركون معناها، وما تصبو إليه ومبتغاها .

اليسير من العروبيين، وبينهم أميرنا العروبي المكرم، لم تزدهم تلك العولمة إلا عروبيةً والمزيد ثم المزيد من العروبية .

هذا الأمير تلقى تعليمه في مصر في زمان الوَهَج الناصري، فأحبها كما لم يحبها بعضٌ من أبنائها، وتواصل هذا الحب بعد زوال هذا الوَهَج، وكانت له تجليات ما تزال تتدفق عبر الأيام وكرور الأعوام .

لله دَرُّ أبي الطيب حين يقول :

قد شرَّف الله أرضاً أنت ساكنها وشرف الناس إذ سوّاك إنسانا

نحن في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لا ننسى ولا يمكن لنا أن ننسى حب هذا الأمير لمصر وكل ما يتصل بمصر وتراث مصر، ولا يمكن لنا كذلك أن ننسى أنه – وحده – هو الذي أقال هذه الجمعية من عثرتها، فهيأ لها المبنى الذي يليق بها والمحتوى الذي يضارع ما لدى غيرها من جمعيات .. وهو لم يقف عند هذا الحد، فقد أتاح لها من فيض نعمائه وكرمه وسخائه، ما يكفل لها حسن أدائها لمهامها .

وأعاود أبا الطيب إذ يقول :

وكل أناس يتبعون إمامهم وأنت لأهل المكْرُمات إمامُ

وكانت مبادرةً من الراحل الكبير رءوف عباس حامد بأن تنتهز الجمعية فرصة الاحتفال ببلوغ سموه سن السبعين من عمره المديد بإذن الله، فتصدر كتاباً تذكارياً، يهدى إليه عرفاناً بفضل يليق به ومكان هو أهل له وقامة تقصر دونها قامات غيرها .

من هنا كان همنا – نحن أصفياءَ رءوف عباس ورُصفاءَه ومجايليه – أن ننهض بما بادر هو إليه، فنهدي هذا الكتاب إلى الأمير النبيل والأديب والمؤرخ الجليل، وفاءً بحق وفضل وسبق وعلم وخلق .

هذا وقد تفرَّد سموه عن غيره من أمراء زمانه، وأمراء في غير زمانه، بكونه مؤرخاً وأديباً، يصدر فيما كتب ويكتب عن أشواق عصره وطموحات أمته، فجعلنا لسلطان المؤرخ وسلطان الأديب محوراً .

ونحن لا ندعي أننا أوفينا هذا الأمير حقه، إنما نحن أوفيناه بعض حقه، وفي قابل من الأيام سوف توفيه أجيال تالية من أبناء مصر وأبناء أقطار عربية أخرى غير مصر بعضاً آخر من حقه . والله وحده هو الذي يجزي من أحسن عملاً وإليه الرجعة والمآب .

والحمد لله.

المحور الأول

سلطان بن محمد القاسمي

سيرة ذاتية

المعلومات الشخصية :

الاســـــــــم : سلطان بن محمد القاسمي

تاريــخ الميـــلاد : ٦ من يوليو (تموز) ١٩٣٩م

الحالة الاجتماعية : متزوج

الأبنـــــــاء : (خمسة)، ولد وأربع بنات

المراحل التعليمية :

- التعليم الابتدائي والتكميلي والثانوي – الشارقة – الكويت – دبي.
- البكالوريوس في العلوم تخصص الهندسة الزراعية، جامعة القاهرة – مصر ١٩٧١م.
- دكتوراه الفلسفة في التاريخ بامتياز، جامعـــة إكِــسْتر ١٩٨٥م، إكِــسْتر – المملكة المتحدة.
- دكتوراه الفلسفة في الجغرافية السياسية للخليج، جامعة دِرَم ١٩٩٩م، دِرَم – المملكة المتحدة.

الشهادات الفخرية والجوائز :

- العضوية الفخرية. معهد الدراسات الإفريقية ١٩٧٧م. جامعة الخرطــوم – السودان.
- الدكتوراه الفخرية في الآداب ١٩٨٥م. جامعة إكستر – المملكة المتحدة.
- الدكتوراه الفخرية في الحقوق ١٩٨٦م. جامعة الخرطوم – السودان.

- الدكتوراه الفخرية. جامعة فيصل أباد البنجاب – باكستان.
- الدكتوراه الفخرية في التاريخ. معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية عام ١٩٩٥م.
- الدكتوراه الفخرية. جامعة إدنبره.
- جائزة معهد الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في اسطنبول التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي. اسم جائزة المركز لتدعيم المحافظة عل الإرث الثقافي وتشجيعه المنح الدراسية.
- وسام المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو).
- الدكتوراه الفخرية. الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام والمسلمين لعام ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
- الميدالية الذهبية الممتازة للثقافة العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- الدكتوراه الفخرية. جامعة ساوث بانك البريطانية.
- وسام الجمهورية الفرنسية للفنون والآداب برتبة الفارس الآمر عام ٢٠٠٣م.
- ميدالية حقوق الإنسان. برنامج الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) الخاص بتوفير التعليم للأطفال المحرومين في ١٧ ديسمبر ٢٠٠٣م.
- شخصية مهرجان القرين الثقافي العاشر. الكويت – يناير (كانون الثانى) ٢٠٠٤م.
- عضو الجمعية الوطنية للجغرافيا. يناير (كانون الثانى) ٢٠٠٤م. تقديراً لدعم سموه لمنظمة الجمعية الوطنية للجغرافيا التي أسست في عام ١٨٨٨ للعناية بعلم الجغرافيا وتطوير البحث والاستكشاف.
- الدكتوراه الفخرية في القانون. جامعة ماكماستر الكندية مايو (آيار)٢٠٠٤م.

- عضو مجموعة المتبرعين الرئيسيين لجامعة كمبردج البريطانيـــة، يونيـــو (حزيران) ٢٠٠٤.

(Companion of the Guild of Cambridge Benefactors)

- الدكتوراه الفخرية. أكاديمية أرمينيا للعلوم سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٥.
- الدكتوراه الفخرية. جامعة تيبنجن الألمانية أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٦.
- عضو مؤسس في مجموعة المتبرعين الرئيسيين لجامعة إكستر البريطانية، أبريل (نيسان) ٢٠٠٧.
- الدكتوراه الفخرية. الجامعة الأردنية مايو (آيار) ٢٠٠٨.
- الدكتوراه الفخرية. جامعة شيفلد البريطانية نوفمبر (تشرين الثانى) ٢٠٠٨.

المناصب التي تقلدها ويتقلدها :

- وزير التربية والتعليم. دولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧١ – ١٩٧٢م.
- حاكم إمارة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة منذ عام ١٩٧٢م.
- عضو المجلس الأعلى لاتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة. منـــذ عـــام ١٩٧٢م.
- العضوية الفخرية في مركز الدراسات الشرق أوسطية والإسلامية ١٩٩٢م جامعة دِرّم – المملكة المتحدة.
- الرئيس الأعلى لجامعة الشارقة منذ عام ١٩٩٧م.
- الرئيس الأعلى للجامعة الأمريكية بالشارقة منذ عام ١٩٩٧م.
- الرئيس الفخري لمدينة الشارقة للخدمات الإنسانية منذ عام ١٩٩٨م.
- أستاذ زائر. جامعة إكستر منذ عام ١٩٩٨م.
- رئيس المجلس الفخري، للخدمات الجامعية العالمية منذ عام ١٩٩٨م.
- محاضر بجامعة الشارقة. تاريخ الخليج الحديث منذ عام ١٩٩٩م.
- الرئيس الفخري للجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ عام ٢٠٠١م.

المنظمات التعليمية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي أســسها سموه :

- الجامعة الأميركية بالشارقة.
- جامعة الشارقة.
- حصن الشارقة.
- المتحف الإسلامي في الشارقة.
- متحف الشارقة للتراث.
- متحف الشارقة للآثار.
- متحف الشارقة للتاريخ الطبيعي.
- الحديقة الصحراوية ومركز حيوانات الجزيرة العربية.
- متحف الشارقة للعلوم.
- كلية الشارقة للفنون.
- معهد الشارقة المسرحي.
- المكتبة العامة بالشارقة.
- نادي الثقة للمعاقين.
- مدينة الشارقة للخدمات الإنسانية.
- متحف المحطة.
- مركز الاستكشاف في إمارة الشارقة.
- أكاديمية العلوم الشرطية.
- معهد الشارقة للتكنولوجيا.
- متحف إمارة الشارقة للفنون.
- مركز التدخل المبكر.
- جمعية الشارقة الخيرية.

الكتب التاريخية والجغرافية والثقافية عن العالم العربي التي ألفها سموه :

- أسطورة القرصنة العربية في الخليج، كروم هلم – لندن ١٩٨٦م.
- تقسيم الإمبراطورية العمانية (١٨٥٦- ١٨٦٢م) باللغة العربية، مطبعة الغرير ١٩٨٩م.
- الاحتلال البريطاني لعدن، باللغة العربية، مطبعة الغرير، ١٩٩٢م.
- الوثائق العربية العمانية في مراكز الأرشيف الفرنسية، باللغة العربية، ١٩٩٣م.
- جون مالكوم والقاعدة التجارية البريطانية في الخليج (١٨٠٠) باللغة العربية، دار الخليج ١٩٩٤م.
- يوميات ديفيد سيتون في الخليج (١٨٠٠- ١٨٠٩م) أعدها سلطان بن محمد القاسمي، ١٩٩٥م.
- الشيخ الأبيض، دار الخليج ١٩٩٦م.
- العلاقات العمانية الفرنسية (١٧١٥- ١٩٠٥م) فوريست رو ١٩٩٦م.
- الخليج في الخرائط التاريخية (١٤٩٣- ١٩٣١م) أعدها سلطان بن محمد القاسمي، ثينك برنت ليمتد ١٩٩٦م.
- رسائل زعماء الصومال إلى الشيخ سلطان بن صقر القاسمي (١٨٣٧) باللغة العربية. دار الخليج ١٩٩٦م.
- الأمير الثائر. باللغة العربية، الهيئة العامة للكتاب، مصر ١٩٩٨م.
- عودة هولاكو. مسرحية باللغة العربية، مطبوعات المركز الثقافي، الشارقة – الإمارات العربية المتحدة.
- صراع القوى والتجارة في الخليج (٦٣٠- ١٨٢٠) فوريست رو ١٩٩٩م.
- الخليج في الخرائط التاريخية (١٤٧٨- ١٨٦١) أعدها سلطان بن محمد القاسمي. ثينك برنت ليمتد ١٩٩٩م.

- القضية. مسرحية باللغة العربية، فبراير ٢٠٠٠م.
- بيان للمؤرخين الأماجد في براءة ابن ماجد – تحقيق سلطان بن محمد القاسمي (الكتاب باللغات العربية والإنجليزية والبرتغالية) الطابعون : مداد الشارقة ٢٠٠٠م.
- الواقع صورة طبق الأصل – مسرحية.
- الحقد الدفين. كتاب باللغة العربية، الناشر مركز الشارقة للإبداع العربي ٢٠٠٤م.
- بيان الكويت. الشارقة ٢٠٠٤م (خلفية تاريخية عن مرحلة مهمة من تاريخ الكويت وهي مرحلة الشيخ مبارك الصباح).
- الإسكندر الأكبر. مسرحية باللغة العربية ٢٠٠٦م.
- النمرود. مسرحية باللغة العربية ٢٠٠٧م.

انجازات صاحب السمو شملت المجالات التالية :

الاقتصاد والصناعة والزراعة :

- تنمية البنية التحتية الأولية التي مهدت الطريق إلى تطوير الإنتاج والأجهزة الحكومية في جوانبها المختلفة مما أدى إلى زيادة في التجارة المحلية والخارجية في القطاع الصناعي.
- تبني الطراز المعماري الإسلامي في المباني والأسواق العامة.
- زيادة الرقعة الخضراء، الحدائق والمتنزهات العامة.
- إنشاء الحديقة المتعلقة بعلم النبات التي تعد الأولى من نوعها في المنطقة، وتنافس نظيراتها على المستوى العالمي.
- إنشاء المناطق الحرة النموذجية في الحمرية ومطار الشارقة الدولي.

حماية التراث القومي والهوية العربية :

- ترميم المنازل والمباني القديمة وإعادة إفتتاح سوق العرصة.
- إعادة بناء الحصن القديم الذي يضم وثائق ومحفوظات عن إمارة الشارقة.

تشجيع الثقافة والفنون والعلم :

- تأسيس مؤسسة الشارقة للتفكير الإبداعي التي ساهمت في نشر الموسوعة الإسلامية في ٣٤ مجلداً.
- تأسيس دائرة الثقافة والإعلام في ١٩٨١م.
- إنشاء منطقة الفنون في ساحة الشويهيين بالشارقة.
- افتتاح تلفزيون الشارقة في فبراير ١٩٨٩م، والذي انضم إلى خدمة القمر الصناعي في ١٩٩٧م.
- التنظيم سنوياً لمعرض الشارقة الدولي للكتاب.
- إنشاء شبكة حديثة من المكتبات العامة وتحديث مكتبات المدارس.
- منح جائزة الشارقة للعلوم الشرطية في العالم العربي.
- استضافة بينالي الشارقة كل عامين والذي يصنف كأحد أهم التجمعات الفنية في المنطقة.

الاهتمام بكل الفئات الاجتماعية :

- افتتاح النوادي الثقافية والعلمية والرياضية ومشاريع الشباب.
- رعاية مؤتمر الأطفال العربي السنوي.
- افتتاح الأندية للفتيات.
- إنشاء مركز لرعاية كبار السن.
- تأسيس المراكز لإعادة تأهيل المعاقين والمتخلفين عقلياً.
- تأسيس جائزة الشارقة للتميز للمعاقين لتحسين سهولة إعادة تأهيلهم اجتماعياً.

مؤسسة جائزة الشارقة للثقافة العربية :

جاءت فكرة الجائزة على خلفية اختيار الشارقة العاصمة الثقافيـــة للعـــالم العربي في ١٩٩٨م. تبنت الجائزة رسمياً على أساس مبادرة كريمة من صاحب السمو حاكم الشارقة الذي خصص مبلغ (٢٥٠٠٠٠) دولار لليونـــسكو. هـــدف الجائزة هو مكافأة البارزين من مواطني البلدان العربية وغير العربيـــة الـــذين ساهموا بأعمالهم الفكرية أو الفنية في نمو الثقافة العربية خلال العالم وإثرائهـــا ونشرها.

سلطان مؤرخًا

أحمد الشربيني(*)

التاريخ من العلوم الإجتماعية المهمة لتشكيل هوية الأمم ووجـدانها، والإطار المعرفي لأبنائها . لهذا تسعي الأمم التي ليس لها تاريخ إلي صـناعة تاريخ لها ولو علي حساب غيرها من الأمم . كما تسعي إلي هدم تاريخ الأمـم وتشويهه ...وبخاصة ذات التاريخ الممتد، والتي تعتز به، وتحسن توظيفه فـي بناء نفسها والحفاظ علي هويتها ومكتسباتها .

من هنا يأتي اهتمام الغياري علي هويتهم بتاريخهم، مهما كانت منحنياته، أو حتي انكساراته، لقناعتهم بأن دروس التـاريخ بحلوهـا ومرهـا يجـب أن تستوعبها الشعوب، إذا كانت تتطلع للوقوف علي واقعها، واستشراف مستقبلها .

والشيخ سلطان بن محمد القاسمي واحد من السياسيين العـرب الـذين يقدرون التاريخ، ويدركون أهميته في فهم أبعاد السياسة التي يمارسونها، ولعل هذا الإدراك هو ما دفعه إلي دراسة التاريخ، والاشتغال به، بعد الحصول علـي الدكتوراه في التاريخ من إحدي جامعات الغرب .

فمن خلال السيرة الذاتية للشيخ سلطان لوحظ أنـه درس أول مـا درس العلوم الزراعية بجامعة القاهرة، وكان أيسر عليه أن يتجه الي إحدي الجامعات الغربية لاستكمال دراسته العليا في الهندسة الزراعية، لكنه آثر أن يتجـه الـي دراسة التاريخ، ليعطي نموذجًا لأهمية التاريخ بالنسبه للسياسي .

ويبدو أن اتجاه الشيخ القاسمي لدراسة التاريخ لم يكن بدافع الاشتغال به، بقدر ما كان بدافع اكتساب مهارات الكتابة التاريخية، وتوظيف التاريخ من أجل دراسة بعض الموضوعات والقضايا المهمة في تـاريخ العـرب والمـسلمين،

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كليةالآداب – جامعة القاهرة.

وبخاصة عرب الجزيرة العربية، في مرحلة الإستهداف الغربي للمنطقة العربية بصفة عامة، ومنطقة الخليج بصفة خاصة، لأن وصول الغـرب إلـي الميـاه الآسيوية مع مطلع العصر الحديث بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان بداية النهاية للمصالح العربية في منطقة المحيط الهندي، وجنوب آسيا وشرقها، كما كان بداية البداية للمواجهات العربية الغربية في المياه الآسيوية.

والاهتمام بهذه الفترة كان مرده كذلك الرد علي الدعاوي الباطلـة التـي كان يروج لها الغرب وكتابه من البرجوازيين، لتبرير ما اقترفه الغرب في حق العرب في تلك الفترة من هدم وتدمير وقتل وتشويه، والذي شاركت فيـه كـل الدول الأوربية التي عملت بالمياه الآسيوية بدايةً من البرتغاليين وحتي الانجليز.

لهذا اعتبر الشيخ سلطان أن مهمته التأريخية تقتضي منه الخـوض فـي موضوعات تتصل بالعلاقات الغربية –العربية في تلك المرحلـة الممتـدة مـن تاريخ الخليج والمياه الشرقية في العصر الحديث .

ويعد اتهام العرب بالقرصنة في المياه الشرقية من الموضـوعات التـي أعطي لها الشيخ سلطان القاسمي مساحة كبيرة في دراساته التاريخية، باعتبارها أحد المبررات التي استخدمها الغرب لضرب السواحل العربية وتمشيط الميـاه الشرقية من السفن والأساطيل العربية، والإجهاز علي مصالح العرب التجاريـة في المحيط الهندي، والمياه الآسيوية، ثم احتلال أراض عربية بدعوي وضع حد لهذه القرصنة، . لهذا جاءت إحدي دراسات الـشيخ سـلطان القاسـمي عـن " أسطورة القرصنة العربية في الخليج "، وهي دراسة حاول من خلالها دفع اتهام الغرب للعرب بالضلوع في أعمال قرصنة بالخليج والمحيط الهندي، وأنه لـيس الا ادعاء، و محض افتراء، ولا يمت للحقيقة بأي صلة، ولا يدخل إلا في عداد الأساطير، التي لا يجد الغرب أدني مشكل في اختلاقها، حتي يبـرر سياسـاته الإقصائية للنشاط الملاحي والتجاري العربي في المنطقة . ومن أجل شغل الشيخ القاسمي بدفع اتهام الغرب للعرب بأعمال القرصنة في دراساته، فقد ذهب فـي

إحدي هذه الدراسات " العلاقة العمانيـة الفرنـسية ١٧١٥ – ١٩٠٥ " الـي أن الدول الغربية التي طرحت مشاريع استعمارية في المنطقة وعكفت علي تنفيذها، بسبل شتي، هي التي يجب أن تتهم بممارسة أعمال القرصـنة فـي المنطقـة، وبخاصة بعد أن اتخذت من ممارسة القرصنة وسيلة لتشهيل مهمتها، والـدفاع عن منجزاتها الاستعمارية، ولعل هذه القناعة هي التي جعلت الـشيخ سـلطان يضمن دراسته عن العلاقات العمانية الفرنسية فصلاً عـن " سـفن القرصـنة الفرنسية في مسقط " .

وفي الاتجاه ذاته اعتبر الشيخ القاسمي، في دراسـته عـن " الاحـتلال البريطاني لعدن " أن احتلال بريطانيا لعدن بـدعوي القيـام بوقـف أعمـال القرصنة التي كان يقوم بها سلطان لحج " باليمن " ضد السفن البريطانية، عمل غير مبرر، وزعم لا أساس له من الصحة، وأن إسراع بريطانيا فـي احـتلال عدن في هذا التوقيت مرده رغبتها في الحصول علي ميناء علي مدخل البحـر الأحمر، يساعدها في وقف تحركات محمد علي في الجزيرة العربية، وحمايـة امبراطوريتها في الهند، وبخاصة بعد أن فشلت في الحفاظ علي وجودهـا فـي جزيرة مدغشقر، في وقت كان تهديد فرنسا لمصالحها في المنطقة ما يزال قائماً رغم إقصائها من آخر معاقلها بشرق إفريقيا .

وفي تقديرنا أن اهتمام الشيخ القاسمي بطرح موضوع القرصنة في أكثر من دراسة، بعد أن أفرد له دراسة مستقلة لهو أمر يستحق الإعجاب، بعـد مـا أصبح كثير من الباحثين العرب أسري النقل عن الدراسات الغربية عن المنطقة، والحبلي بالمقولات التي تحمل العرب أو بالأحري من ارتبط نشاطه من العرب بالتجارة البحرية مسئولية التصرفات الغربية تجاه المنطقة منـذ مطلـع القـرن السادس عشر، والتي اعتبروها بمثابة رد فعل لغياب ما أسموه السلم البحـري، نتيجة أعمال النهب والخطف التي يقوم بها العرب في عرض البحـر، والتـي امتدت الي سواحل الهند وشرق إفريقيا . لكـن غـاب عـن هـؤلاء الكتـاب

٥

البرجوازيين الغربيين أن العرب كانت لهم مصالح اقتصادية في المياه الشرقية، ووصلت هذه المصالح إلي حد أن عرب الخليج أو بالأحري عرب الجزيرة الذين امتهنوا الملاحة والتجارة، أصبح وجودهم أساسًا مرتبطاً باستمرار قيامهم علي حركة التجارة بين الخليج والمحيط الهندي، وأن التأثير علي هذه الحركة يعني فناءهم، ولهذا اهتم عرب الخليج وغيرهم ممن كانت لهم مصالح في المحيط الهندي، وفي استمرارالتواصل التجاري والحضاري مع آسيا وشرق إفريقيا، بالسعي إلي وقف المشاريع الغربية التي استهدفت ضمن ما استهدفت فرض حصار علي المنطقة العربية وتجويعها، وتحويل التجارة الشرقية بعيداً عنها وتمكين الغرب من حصد كل فوائضها . ولهذا اعتبرت الدول الغربية أن وسائل العرب التي لم تتوقف حتي نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر، للدفاع عن وجودهم ومصالحهم بمثابة أعمال قرصنة تؤثر علي المصالح الغربية في المنطقة، يجب أن تستخدم لفرض معاهدات غير متكافئة عليهم، من شأنها الحد من نشاطهم البحري، وإطلاق أيدي الدول الغربية في المنطقة، وبخاصة تلك التي ربطت بين المنطقة وبين مشاريعها الاستعمارية في إفريقيا وآسيا .

وكما انشغل الشيخ سلطان في جزء مهم من كتاباته بدفع تهمة القرصنة عن العرب، وتصحيح مسار التفسير التاريخي بشأن هذه المسألة، فقد عني بتصحيح خطأ شاع بين المعنيين بكتابة تاريخ العرب والخليج في مطلع العصر الحديث، وبخاصة من أصبحوا يستسهلون النقل عن المراجع دون نقد أوتحقيق، والذين ما زالت دراساتهم تؤكد علي دور أحمد بن ماجد في قيادة البرتغاليين إلي ساحل الملبار، أو ما يعرف بساحل الهند الغربي، وذلك من خلال الأسانيد المادية التي قدمها، والتي من شأنها هدم المقولات التي يرددها بعض المؤرخين في هذا الشأن .

ومن أهم الأسانيد التي قدمها الشيخ سلطان في دراسته المعنونة " بيان للمؤرخين الأماجد في بيان براءة ابن ماجد " لإثبات وجهة نظره، يوميات

الرحلة الأولي لفاسكوداجاما إلي الهند ١٤٩٧ – ١٤٩٩ والتي نشر الجزء الخاص منها بمرشد البرتغاليين من ساحل إفريقيا الشرقي إلي ساحل الهند الغربي، والتي تؤكد علي أن المرشد الذي أوصل فاسكوداجا كان هنديًا، ينتمي الي إحدي الطوائف الهندوسية الاجتماعية " التي تضم المنجمين والمتخصصين بالفلك ومؤلفي التقويم من منطقة غجرات او كوجارات الهندية، مما يدفع عن ابن مجد اتهام إرشاد فاسكو داجاما الي الهند .

وبالاضافة الي الدراسات التي أعدها الشيخ القاسمي وتناولت قضايا مهمة في تاريخ العرب الحديث وتحديداً تاريخ الخليج، فقد اهتم بتاريخ عمان في عهد آل بو سعيد، وبخاصة في عهد السيد سعيد بن سلطان الذي نجح في تكوين امبراطورية عمانية جمعت بين عمان وزنجبار، لهذا أبدي الشيخ القاسمي اعتزازه بهذا التاريخ حتي أنه ذهب في تقديمه لهذه الدراسة إلي أنه " لا يستطيع المرء، إلا أن يقف وقفة إجلال وإعجاب لأولئك الأئمة الأقوياء، الذين حكموا عمان في فترة كانت فيه الدولة العثمانية مسيطرةً علي جميع الاراضي العربية واستطاعوا بشجاعتهم ان يحتفظوا باستقلال دولتهم علي مر العصور ضد كثير من النزعات القبلية والأطماع الخارجية " . كذلك أبدي تأثره بانهيار هذه الامبراطورية التي أفني سعيد بن سلطان حياته من أجلها، نتيجة أسباب خارجية وأخري داخلية، حتي أنه خصص دراسةً مستقلة للوقوف علي ظروف " تقسيم الامبراطورية العمانية ١٨٥٦ – ١٨٦٢ " .

ورغم أن هذه الدراسة جرت علي فترة محدودة من تاريخ عمان إلا أن فصلها الأول اهتم برصد العلاقة بين العرب وزنجبارمنذ العصور الإسلامية الأولي، والمكانة التي أسسها العرب لأنفسهم بشرق إفريقيا حتي وصول الغرب إلي المنطقة، في أواخر القرن الخامس عشر، ونجاح البرتغال في اكتشاف طرق رأس الرجاء الصالح . كذلك خصص مساحة بالفصل لتتبع علاقة العمانيين بشرق إفريقيا، منذ اصطدام اليعاربة بالبرتغاليين في الخليج ونجاحهم في

إجلائهم عنه، وانطلاقهم نحو شرق إفريقيا لملاحقة البرتغاليين هناك، وإبدائهم الاهتمام بها، وتمسك آل بوسعيد بزنجبار حتي نجح سعيد بن سلطان في استعادة سيطرة عمان عليها، واهتمامه بها، ونقل عاصمته اليها منذ سبتمبر ١٨٤٣ .وكيف حولهاالي مفتاح لشرق إفريقيا أمام العرب، ومركزاً للثقافة العربية والإسلامية في المحيط الهندي .

والمهم أن الدراسة تابعت علاقة سعيد بن سلطان ببريطانيا والقوي الأوربية الأخري التي أخذت تهتم بزنجبار بعد أن أدركت أهميتها السياسية والتجارية للسيطرة علي شرق إفريقيا، وإلي أي مدي نجح سعيد بن سلطان بفضل حنكته السياسية من الإفلات من المحاولات البريطانية لربطه بدائرة نشاطها، وذلك باتجاهه إلي عقد صلات ومعاهدات صداقة مع أمم أخري علي قدر كبير من القوة لموازنة النفوذ البريطاني المتزايد في المنطقة، كفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، واهتمامه بتأمين مستقبل أملاكة لأولاده . ثم تابعت الدراسة التطورات المأساوية السريعة التي طرأت علي الإمبراطورية العمانية في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وما آلت اليه بعد وفاة سعيد بن سلطان، وكيف فتح الصراع بين أبنائه في عمان وزنجبار الطريق أمام انجلترا الي التدخل بينهم والإسراع بتفكيك هذه الإمبراطورية، وفرض الهيمنة علي حكامها، بعد أن رأت في هذه الهيمنة ما يحول بين فرنسا والتسلل إلي المنطقة، واقامة علاقات طبيعية مع حكامها، وبخاصة بعد أن اعتبرت أن هذه الهيمنة ستؤمن وجودها في الهند وستدعم استراتيجيتها هناك .، ولعل هذا ما دفع أحد المسؤلين البريطانيين في الهند " حاكم بومباي " إلي التصريح بأن" نتيجة التحكيم المرضية مساوية لحصول.....الانجليز..... علي الهند " .

واعتبر الشيخ القاسمي أن لا غرابة في هذا، بعد أن لاحظ من خلال الدراسة كيف انطلقت بريطانيا بعد التقسيم لعقد اتفاقيات غير متكافئة مع سلاطين زنجبار البوسعيديين حتي أحكمت قبضتها علي شرق إفريقيا، وانفردت

دون سائر القوي الغربية المنافسة، بالنفوذ والسيطرة والاستغلال في المناطق التي كانت تضمها الإمبراطورية الموحدة التي خلفها سعيد بن سلطان كافة .

ولعل هذا الاستخلاص هو ما جعل الدراسة تهتم بمراجعة ما ذهب اليه بعض المعنيين بكتابة تاريخ عمان بشأن عزوهم الي سعيد بن سلطان تقسيم امبراطوريته بين أبنائه، اعتمادًا علي الرسالة التي بعث بها لوزير الدولة البريطانية للشؤون الخارجية ... فبعد أن أعاد الشيخ قراءة هذه الرسالة، وجد انها لم تتضمن ما يفيد هذا لا تصريحاً ولا تلميحاً . كذلك أبدي الشيخ تحفظه علي رأي من اعتبر أن تقسيم الامبراطورية العمانية كان من المسلمات ومن الأمور المتوقعة، نتيجة التحكيم بين طرفين متنازعين، واعتبر أصحاب هذا الرأي غير منصفين، وبأنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقةً من أجل معرفة الحقيقة .

ولعل إعجاب الشيخ القاسمي بحكام عمان من البوسعيديين هو ما دفعه كذلك إلي دراسة علاقاتهم بفرنسا من خلال دراسته التي جاءت تحت عنوان " العلاقات العمانية الفرنسية ١٧١٥ – ١٩٠٥ " والتي صدرت طبعتها الأولي في ١٩٩٣ . وهي دراسة رصد من خلالها الصراع الأنجلو فرنسي في المحيط الهندي والخليج العربي، بعد أن تحولت المياه الآسيوية إلي واحدة من أسخن مناطق الصراع بين الدولتين الاستعماريتين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبخاصة بعد أن تطلعت فرنسا إلي تعويض نفسها استعمارياً، بالابقاء علي نفوذها وحضورها في المياه الشرقية، من أجل الاحتفاظ بمصالحها الاقتصادية في المنطقة، والاستمرار في الضغط علي بريطانيا، وتهديد وجودها في الهند، في الوقت الذي اهتمت فيه انجلترا بالعمل علي الاحتفاظ بالمركز الممتاز في المنطقة حماية لمصالحها في الهند والمياه الآسيوية من أية أخطار، وبخاصة بعد أن قررت فرنسا إرسال حملة إلي الشرق في نهاية القرن الثامن عشر، وتطلعها إلي توقيع معاهدات مع مسقط وفارس في ذات توقيت إرسال الحملة الفرنسية، بشكل أفزع انجلترا ودفعها إلي العمل لإقصاء فرنسا من

المحيط الهندي، وبخاصة بعد أن وعي حكام مسقط التناقضات الدولية، وأجادوا اللعب عليها، عندما فتحوا الباب أمام عقد اتفاقيات مع فرنسا وشرعوا في استقبال مبعوثيها إلي بلادهم .

لهذا اهتمت الدراسة بالكشف عن استراتيجية حكام عمان في التعامل مع المعطيات التي فرضها الصراع الامبريالي، وكيف نجحوا في تجنيب بلادهم مغبة التورط في هذا الصراع، وكيف حافظوا علي وجود علاقات متعددة الأبعاد مع فرنسا حتي نهاية القرن التاسع عشر، حتي مع انهيار مشروع سعيد بن سلطان بعد وفاته علي يد انجلترا، و انتهاء أهم فترة شهدتها العلاقات العمانية الفرنسية، في عهد سعيد بن سلطان، الذي كان يعد من أجرأ حكام عمان الذين أبقوا علي علاقات مع فرنسا، في وقت كانت انجلترا تجهز فيه لأحكام سيطرتها علي الخليج ومنطقة المحيط الهندي .

هذا التجهيز تجلي في ضرب القواسم، والإجهاز علي رأس الخيمة في ١٨١٩، وفرض معاهدة ١٨٢٠ علي كيانات الخليج السياسية، والهيمنة علي بقايا مراكز الوجود الفرنسي في شرق إفريقيا، ثم احتلال عدن في ١٨٣٩ .

لهذا انطلقت الدراسة التي أعدها الشيخ القاسمي عن " الاحتلال البريطاني لعدن ١٨٣٩ م " لتحديد الدوافع الحقيقية لهذا الاحتلال، ونفي الروايات البريطانية التي أعلنت في هذا الشأن، والتي اعتبرت احتلال بريطانيا لعدن عملا شرعياً، ومبرراً، باعتباره إجراءً قامت به بريطانيا لحماية السفن التي تحمل علمها من الاعتداءات التي كانت تتعرض لها في مياه بحر العرب والمياه اليمنية.

وحتي لا تختزل الدراسة الأسباب الحقيقية لاحتلال عدن في السبب التبريري المعلن من جانب بريطانيا، فقد اتجهت الي ربط إقدام بريطانيا علي احتلال عدن بسعيها لحماية وجودها في شبه القارة الهندية، و مصالحها في المنطقة العربية، في ظل حالة التوتر التي أصابت المنطقة، بعد ان اهتمت فرنسا

بنقل جزء مهم من مواجهتها مع بريطانيا إلي الشرق، ونجاح محمد علي باشا في خلق حالة، لم تكن بريطانيا تنتظرها أو تتوقعها في الجزيرة العربية والخليج، لهذا اعتبرت الدراسة أن احتلال عدن كان محاولةً من جانب بريطانيا للسيطرة علي مدخل البحر الأحمر، لمحاصرة محمد علي باشا في الجزيرة العربية، وحماية الإمبراطورية البريطانية في الهند من التحركات الفرنسية في المياه الشرقية، وكذلك تأمين طرق التجارة البريطانية في المنطقة، بعد أن تغيرت نظرة بريطانيا للبحر الاحمر، باهتمام شركة الهند الشرقية البريطانية بإعادة حركة التجارة بين الشرق والغرب إلي مساراتها التقليدية، والتي اعتبرتها من أقصر الطرق، بين الهند والجزر البريطانية . ومن هنا ذهبت الدراسة إلي أن احتلال انجلترا لعدن في هذا التوقيت كانت تفرضه حتميات الحفاظ علي المصالح البريطانية في المياه الشرقية، وبخاصة بعد أن فشلت بريطانيا في الاحتفاظ بوجود آمن لها في سقطرى، بعد الاجهاز علي الوجود الفرنسي في المحيط الهندي .

وبهذا نجد أن الشيخ المؤرخ سلطان القاسمي قد قدم للمكتبة العربية مجموعةً من الدراسات المؤصلة لتاريخ المنطقة العربية في فترة مهمة من تاريخها، بحكم تحولها إلي واحدة من أهم حلبات المواجهة الاستعمارية بين أهم أقطاب الاستعمار الأوربي الحديث، في الوقت الذي بدأت تشهد فيه المنطقة محاولات عربية لاستعادة التواصل مع آسيا والحفاظ علي المصالح الآسيو عربية، بعد أن شرع القواسم في مخر عباب مياه المحيط الهندي، والعمل بالتجارة بين موانيه، والسعي لكسر الحصار الاقتصادي الذي فرضه الغرب علي العرب منذ نجاح الكشوف الجغرافية في إيصاله إلي المياه الشرقية . هذا في الوقت الذي شهدت فيه المنطقة محاولات وحدوية لدمج ما يمكن دمجه منها في دول وامبراطوريات، لانقاذها من حالة الترهل التي كانت تمر بها، ومن براثن الاستعمار الذي بدأ يسعي لنصب شباكه حول المنطقة العربية مشرقها

ومغربها . والملاحظ أن كل المشاريع الوحدوية التي طرحت جعلت من الجزيرة العربية جزءاً من اهتمامها بدايةً من المشروع السعودي الأول ومروراً بمشروع محمد علي باشا وانتهاءً بمشروع سعيد بن سلطان .

والمهم في أمر هذه الدراسات أنها لم تجتر المقولات التي عجت بها الدراسات التي كتبت بأقلام غربية عن تاريخ المنطقة، كما أنها لم تقم علي الفرضيات التي طرحها المؤرخون الغربيون، والتي حاولوا من خلال اثباتها، ولو بالالتفاف حول الحقيقة تبرير فرضهم لمعاهدات واتفاقيات مشبوهة ، واتهاماتهم الزائفة للعرب، ثم احتلالهم لأراضيهم ، وشفط فوائضهم وخيراتهم، وتجويع أبنائهم .

أما الأهم في أمر هذه الدراسات أنها قامت بالأساس علي الوثائق الأصلية التي توزعت في الأرشيف الغربي بمستوياته ومواقعه المختلفة، بدايةً بالأرشيف البريطاني ومروراً بالأرشيف البرتغالي والفرنسي وانتهاءً بالأرشيف الأمريكي . هذا علاوة علي الجهود التى بذلها الشيخ سلطان للوصول إلي وثائق المنطقة بدور الأرشيف الشرق إفريقية، وبخاصة أرشيف زنجبار الوطني National Archives of Zanzibar . لهذا أزعم أن مكتبة الشيخ القاسمي تزخر بكم هائل من الوثائق البكر، التي يحتاج تحقيقها ونشرها الي فريق بحث، وهذا ما لمسناه من خلال المحاولة التي قام بها لنشر رسالة زعماء الصومال الي الشيخ سلطان بن صقر بن راشد القاسمي، والتي تتعلق بطلبهم الدعم والمساعدة منه، والتي تمكنهم من مجاهدة الصوماليين من غير المسلمين وإدخالهم في الإسلام والإيمان، وبلغ من حاجة زعماء الصوماليين لهذا الدعم أنهم أبدوا استعدادهم أن يكونوا له " عساكر مجاهدين وفوارس مساعدين. يسعون لتمليكه فيهم " ، والملفت للنظر من خلال الوثيقة أن أهل الصومال رغم أن سعيد بن سلطان كان له نفوذ قوي بشرق إفريقيا فانهم لم يلجأوا اليه في مهمتهم وفضلوا اللجوء إلي سلطان القاسمي، باعتباره علي الكتاب والسنة . والمهم أن الشيخ القاسمي أنهي

دراسته بخاتمة عن موقف انجلترا من هذه الدعوة، والذي تبلورفي عملها من أجل منع الشيخ من الوصول إلى الصومال، من خلال ممارستها ضغوطاً عليه حتي قبل بتفتيش السفن البريطانية لسفن القواسم التي تتحرك في اتجاه السواحل الصومالية وحجزها في أعالي البحار في حال شكها في نقلها لرقيق من شرق إفريقيا إلي منطقة الخليج، وهذا ما حال بين الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، والشروع في اتخاذ إجراءات عملية للوصول إلي أرض الصومال لتقديم المساعدة لطالبي النجدة من أهلها .

هكذا قدم الشيخ سلطان بن محمد القاسمي دراسات مهمة في تاريخ الخليج والجزيرة العربية، سدت فراغاً في المكتبة العربية، التي لم تشهد إسهاماً بذات القدر لمؤرخ عربي، عني باجراء دراسات انطلقت من فرضيات محددة، اعتمدت بالأساس علي المصادر الأولية الوثائقية لإثبات هذه الفرضيات أو نفيها، والابتعاد قدر الامكان عن الكتابات الغربية عن تاريخ المنطقة والتي اهتم معظمها بتبرير الممارسات الغربية فيها . ولعل هذا ما جعل الشيخ القاسمي يحتل مكانةً بارزةً في قائمة المؤرخين المعنيين بإعادة كتابة تاريخ المنطقة من منظورقومي عربي .

سلطان أديباً

فايز علي*

مقدمة

ليس المسرح في تصورنا إلا محاولةً لإعادة قراءة التاريخ (الماضي) أو الواقع المعيش (الآن) وفق رؤية المؤلف.والمسرح عندنا له أصول وتقاليد عريقة تضرب بجذورها في التاريخ..وما هذه الورقة إلا قراءة للأعمال الروائية المسرحية لأديبنا الأمير سلطان بن محمد القاسمي. وقبل أن نعرّف بالأعمال موضوع الدراسة علينا أن نعرّف بصاحبها، فهو عضو المجلس الأعلى للإمارات، وحاكم الشارقة. وقد عرفت الإمارات العربية ظواهر شبه مسرحية – شأنها شأن البلاد العربية–منها الحكواتي والمطوع وخيال الظل وصندوق الدنيا (السفيرة عزيزة) والأراجوز والسامر والدراما الدينية. وعرفت من الأعمال المسرحية الحديثة وكلاء صهيون سنة ١٩٥٦، ١٩٦٣؟، وغير ذلك مما لا يتسع له هذا المختصر[١].

وأديبنا ينتمي للأدباء الأمراء، ترجمت أعماله إلى لغات أوربية وشرقية كثيرة، وهو متبحر في حضارة الخليج وتاريخه وأدبه، ذو نزعة عربية أصيلة. ولا غرو فبلاده عموماً وأسرته خصوصاً لهما مكانة عالية في الأدب والعلم. وما أجدرنا بتجاوز النظرة المركزية المعيبة في دراستنا لأدبنا معاصره وقديمه.

وفي هذه الدراسة رتبنا أعماله ترتيباً زمنياً من الأقدم إلي الأحدث، ليس حسب صدورها، لكن حسب الحقبة الزمنية التي تتعلق بأحداثها. هي كلها أعمال مستقاة من التاريخ البشري عموماً، والإسلامي علي وجه الخصوص، تقوم علي

---

* كاتب وناقد ومترجم.

إعادة تشكيل العناصر الدرامية تشكيلاً دراميا، قوامه صدق التحليل المبني علي وقائع التاريخ وأسانيده، بقدر ما هو متاح.

أما سياق الأحداث فيفضي في تلقائية إلي عقدة المسرحية، والدرس المستفاد منها عبر تطور واقعي منطقي لتلك الأحداث، ليس فيه إطالة ولا إقحام لوقائع ثانوية مختلقة أو أصلية. والبعد الإنساني الاجتماعي هو مبتغى تلك الأعمال، فنحن من ثم بإزاء أدب إنساني هادف، لكنه غير موجه وفق رؤى أيديولوجية مسبقة، إنه أدب يناقش- في سياق درامي- قضايا الإنسان عموماً، والإنسان العربي خصوصًا: الحرية والعدالة، والوعي بالتاريخ وسننه، والإدارة البشرية للمحكومين والحاكمين وأثرها في مسار الحياة الاجتماعية، التعاون والتكامل في مقابل التناحر والأثرة. إنه عرض واقعي لمشاكل الواقع المعيش مع استلهام لتاريخية الخبرة البشرية وفق رؤية ذات خصوصية.

وظف أديبنا الأمير وسائل اللامعقول مثل التابوت الطائر والبعوضة القاتلة، كما ورد في الروايات الكتابية في "النمرود" التي تدور أحداثها في بابل عارضاً طباع التحدّي والتمرّد والعجب بالذات، في سياق عمليّ يدعو إلى إقرار مبادئ الحرية والعدل، والعمل الجاد لبلوغ الآمال. وفي "شمشون الجبار" يقدم أديبنا قضية الصراع في أرض فلسطين وهزيمة شاؤول في الذكري الستين للنكبة، محققاً أحداث ذلك التاريخ القديم الذي تعرّض إلى التشويه، كدأبه في سائر رواياته. ويجلي أديبنا في "الإسكندر الأكبر" روح الطموح لدي بناة الإمبراطوريات بأسلوب يجمع بين الواقعية والرمز والنزعة الموضوعية والتحليل النفسي.

وأما مسرحيات "الواقع صورة طبق الأصل" "وعودة هولاكو" "والقضية" فتشترك في أنها مستقاة من التاريخ الإسلامي، مصورةً محنة الحروب الإفرنجية وهجمة المغول وسقوط غرناطة. فجلّي عظمة المقاومة في أحلك الظروف

ليبعث الأمل في نفوسنا،ونحن نمر بمثل تلك الظروف الآن، ويؤكد أن التـاريخ عادل جداً رغم ما يظهر لنا من شواهد علي عكس ذلك. فلـيس الأعـداء هـم الخطر الأوحد ولا الشر الأعظم. ولكنها الفرقة وتشتت القوى الوطنية والأطماع الشخصية في داخل النفوس- فأعظم بها من أعداء !،وأما قصة "الأمير الثائر" أو الأمير مهنا أمير بندر الرق في القرن الثامن عشر، فهي قصة واقعية تكشف عن معادلة تاريخية واقعية: لا نهضة بغير تعاون،ولا سقوط بغير خيانة.

وأسلوب المسرحيات/ الروايات أمين للواقع التاريخي الاجتمـاعي، وإن وظف أديبنا أساليب شاعت نسبتها إلـى الغـرب. وإن كنـا نمتلـك أصـولها وإرهاصاتها، مثل الرمزيـة والموضـوعية واللامعقـول والتحليـل النفـسي، والأتوتشرك أو التحقيق التاريخي.والآن دعنا نحلل المسرحيات.

١- النمرود:

النمرود حمو إيبر بن شالح، فهو إذن لم يعاصر إبراهيم عليه الـسلام، لأنه سبقه بستة أجيال.كذلك يدحض مؤلفنا رأيـاً غيـر مبـرهن ردده جميـع المؤرخين القدماء.تطرح هذه المسرحية أزمة الحكم منذ قديم الزمان، إذ عادةً ما تحاول الشعوب التخلص من حاكم مستبد، ولكن سرعان ما تقع تحت سطوة آخر أشد استبدادًا. وهو ما يعبر عنه المثل الشعبي: " خرج مـن نقـرة ليقـع فـي "دُحديره" .فهل تطرح هذه القصة في مرماها الأخيـر تـساؤلاً عـن جـدوى الثورات؟

ففي البداية يتخيل القارئ (والمشاهد) أن الحل بسيط وهو الثورة علـي الضحّاك، ذلك الملك المستبد: كابي: قتل الضحاك أبنائي. ثوروا علي الـضحاك قبل أن يقتلكم (ص٦٨). وكم من ثورة في التاريخ استبشر بها الناس ثم عـادت عليهم بعواقب وخيمة! ولكننا لم ندرك عقدة القصّة بعد، فالمسالة أعقد كثيراً! إذ من سيحلّ محلّ الضحّاك؟ بعد حوار مستفيض يقرّ قرار الناس علي تفـويض

النمرود – رمز القوة – لإزالة الضحاك،ظناً منهم أن ذلك نهاية المطاف فحتى شالح بن أرفخشد ليس مؤهلا للملك، وإن كان سليل ملوك.(راجع سلسلة نسل سام: النمرود:ص٥٩– ٦٢).

ولكن النمرود يلعب لصالحه، ويفرض نفسه ملكا بلا مشير ولا شريك، فكأنه رمز الحاكم الذي يأتي بلا تفويض ولا شرعية، وهو فظ: أدخلوه أي الضحاك – في الغار... وابنوا عليه ليموت وهو بداخل الغار (ص٧٢). وعبر حديث ذاتي يجريه النمرود مع نفسه، وحواره مع وزيره نتعرّف علي لب القضية، ونوجزه فيما يلي: رغبة النمرود– ويرمز إلي الإنسان القوي– في الصعود إلي السماء، والأمر يبدو مشروعاً لو أنه يعني تجاوز العالم المادي إلي حيث عالم الروح والخلود. كذلك طمح الإنسان منذ فجر التاريخ إلي الأعالي، فحدثتنا مترن الأهرام عن البساط السحري الذي يرقي به فرعون إلي السموات بتلاوة تعازيم سحرية[٢].

بيد أن الصعود هنا يشير إلى رغبة التحدي الكامنة في الإنسان، فالنمرود يتساءل وهو يصعد في أجواز السماء: أين الإله؟ وهو ما يذكرنا رغم اختلاف التفاصيل بالبشر الذين عصوا إله الشمس، وعزفوا عن عبادته فأرسل إليهم ابنته البقرة حتحور لتقتلهم[٣].إن الصعود هنا جواز مرور إلى الطغيان والرغبة في التأله. ويجد النمرود من مستشاري السوء من يغريه بالتحكم في مصائر البشر حتى يعترفوا بربوبيته ..(من ربك؟ ربي النمرود – أعطوه الطعام(ص٧٨).

ويتفتق ذهن خبير البناء عن فكرة شرود: سأبني لك صرحاً عظيماً، تبلغ به أسباب السماء. أما الناس فيستطيعون أن يعملوا في البناء، ويؤجروا. علي ذلك فتخف المجاعة.(ص٧٩). هكذا إذن تشاد الحضارات– ممثلةً في برج بابل، ولكن السؤال الكبير هو عن مغزى هذا.

ويبلغ الغرور البشري غاية تألقه في موقفين: مشهد التابوت الطائر(يشبه

بساط الريح). وهذا يستثير لدي المتابع رغبة تجاوز القدرات البشرية المحدودة.وأما الآخر فتشييد برج بابل العظيم من الطوب المحروق (تكوين:١١: ١- ٥)، وفي هذا دليل علي أ ن الطوب المحروق عرف قبل الرومان بقرون، وقد ورد تأكيد هذا في القرآن: " **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ". (سورة القصص:٣٨) والموقف هنا أيضاً يثير شغف الإنسان لكشف المجهول بوسيلة التخريب، وهذا لمشروع لولا ما فيه من مصادرة علي المطلوب بإنكار الإله سلفًا.

وتأتي أولى ضربات القدر. فرغم فشل النمرود في بلوغ السماء بالتابوت الطائر أو عن طريق البرج يهرول وزيره قائلا : "أيها الرب العظيم مصيبة حلت بالبلاد" (ص٨٣) إذ بلبلت ألسنة الناس، فأصبحوا يتكلمون باثنين وسبعين لسانا... النمرود مندهشا.. من سيتكلم مع من؟ (ص ٨٤) (راجع سفر التكوين:١١: ٨) [٤].

هنالك تتدخل الإرادة المطلقة أو العناية الإلهية،فترسل ملكاً لا يراه أحد ولا يسمعه أحد غير النمرود، وتواجه تحدّيا بتحدٍّ، وتحدد موعد المعركة.. النمرود: عجبًا! البعوض يأكل جنودي ولا يأكل المواطنين.. جيشي أصبح هياكل عظمية(ص٩١)[٥].

وينهدم برج بابل المنيف وقد بلغ النمرود أوج غروره: لا رب هناك غيري، ولو وجدت من ادعى الربوبية، سأحضره وأقتله أمامكم.. وإذا بريح شديدة ..ويصير البرج كومة حجارة ...(ص٨٢) ويصاب النمرود بالجنون.. إنه ينادي مذعوراً.. اضربوني فوق رأسي (ص ٩٣- ٩٤).إن العقاب الذي حل بالنمرود فظيع بلا شك وفاجع، ولكنه نتيجة منطقية لما تقدم من بغيه وتجبره وتحدّيه للقوى غير المرئية، وإنكار وجود الإله. لهذا نتقبل هذا العقاب قبولاً

حسناً، ونرى فيه درساً واقعياً إلى أبعد حدّ، وإن بدا رمزًا مأخوذاً هنا من تاريخ معرق في القدم.

إذن فأعظم ما شادته مدنية بابل، وهو البرج[٦] لم يوصل الإنسان إلـــى السماء. وادعاء الربوبية لم يجلب إلا الشقاء لمدعيها ولمن اضطر إلى اتباعـــه حرصاً علي الرزق. والقصة رغـــم واقعيتهـــا التاريخيـــة – تطـــرح عنـــصر اللامعقول[٧]، المتمثل في التابوت الطائر، وصعود الإنسان إلي السماء، والبحث عن الإله، وتحقيق الخلود والبقاء الأبدي.. وهي قضايا تتصل بالميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة أيضاً. ورغم استعصاء تلك الأفكار علي التجسيد، فقد نجح أديبنـــا في تجسيدها. كما تطرح القصة رؤية فلسفية لسقوط الإمبراطوريات، وفلـــسفة القوة التي تجني علي صاحبها.

٢- شمشون الجبار(مشكلة فلسطين):

رأينا في "النمرود" نموذجاً لفلسفة القوة –التي نادي بها من بعد فلاسفة– مثل نيتشه (ت١٩٠٠ م)، وذلك علي المستوي الخلقي (الأخلاق الاجتماعيـــة)، والمستوي السياسي (الحكم داخل البلاد،والعلاقات بين الدول). وتعتبر شمـــشون مكملة للنمرود من هذه الزاوية والقصة أمينة للتاريخ كما نعرف مـــن الكتـــاب المقدس. وتعرض للصراع الذي دار قديماً علي أرض فلسطين (كنعـــان) بـــين الإسرائيليين والفلسطينيين. فالفلسط قدموا إلى أرض كنعان قديما (باكنعانا فـــي النصوص المصرية) وهم من شعوب البحار[٨]. وتفوقوا كما يقول المؤلف فـــي العلوم التطبيقية والحروب والفنون الجميلة(ص ٧٩).بطل القصة هو شمـــشون الجبار (سفر القضاة:١٤) [٩]. ولبها هو الرغبة البشرية في الانتقام.

وإذا كانت القوة تغري صاحبها بالبطش، فإن ما يعـــزى الخـــصوم هـــو قدرتهم علي استخدام الخيانة. ودليلة حبيبة شمشون وزوجه–هـــي الأداة التـــي يستخدمها خصوم شمشون للإيقاع به، وسلب قوته.فنحو سنة ١١٠٥ق.م نـــري

في المشهد دليلة مضطربة تذرع البيت جيئةً وذهاباً، ويـأتي حكـام فلـسطين طارقين الباب .. وقد أحضر كل منهم ألفاً ومائة قطعة فضية (ص ٩٣- ٩٤). وهكذا اصطلحت علي شمشون قوى الخارج. (حكام فلسطين) والـداخل (فـي بيته).

وتبدو (المعرفة) في القصة -كما في الأصل التاريخي- سلاحاً قوياً،ولكنها هنا تقترن بالمؤامرة (أو وسائل التجسّس والمخـابرات وجمـع المعلومـات...) فالمعرفة قوة في ذاتها، ولكن الإنسان هو الذي يوجهها إلى الخير أو الشّر. وعلي عاتقه تقع المسئولية الخلقية كاملةً، ولكن من قال إن السياسة تجري وفق معـايير الأخلاق؟ وخصلات شعر شمشون السبع هي رمز قوته. يقول شمشون لدليلة:لـو حلقوا خصلات شعري السبع ستزول قوتي ..(ص ٩٦) وتحكم دليلة مع الحكـام نسيج المؤامرة ..وبعد قص خصلات شعر شمشون تهجم دليلة عليـه فتـصرعه ..(ص٩٧) وهنا تصدق الحكمة القائلة: يؤتي الحذر من مأمنه.

وبعدما يقع شمشون في الأسر، وقد قصت خصلات شعره،يبدو ذلـيلاً لا حول له ولا قوة. والحكمة هنا أن أية قوة بما في ذلك جيوش الإمبراطوريـات الجرارة ليست قوةً مطلقة. وهي إلى زوال ذات حين. فالعاقل من وظف القـوة والحق في سبيل الخير.

ولكن الدافع للانتقام يحدو شمشون إلى هدم المعبد علي نفسه، وعلي كـل من كان فيه من الفلسطينيين وحكامهم (أكثر من ثلاثة آلاف نفس). هنالك تقـع الكارثة، ويحيق المكر السيئ بالجميع. والرمزية هنا قوية جداً، إذ إن ما أمكـن بناؤه – مع دقة العمارة والتنفيذ- في سنوات كثيرة يمكن هدمه في ثوان. فمـا أصعب البناء! وما أيسر الهدم! وإذا كان المعبد هنا يرمز إلـى إبـداع العقـل البشري من عمارة دينية، وشمشون يرمز إلى القوة المجـردة، فـالهلاك هـو المصير إن لم ترشّد القوة، والقصة تعرض كذلك لتنصيب شاؤول[١٠]. علي يـد

القاضي صموئيل (١ صمويل: ١: ٥): "جئت لأنصب شاؤول أول ملك لمملكة إسرائيل(المسرحية:١٠٨). كما نعرف عن إعداد مملكة إسرائيل للحرب، وكـذا الفلسطينيين (١ صموئيل:١: ١٦) (شاؤول: سـأحارب العمـونيين والعمالقـة، وأقضي عليهم : ص ١١١).

ونري كيف ينهزم شاؤول وجنده، فيقتل أبناؤه الثلاثة: يوناثان وأبينا داب وملكيشوع ثم يقتل شاؤول نفسه (اصموئيل: ٣١: ١- ١٣).هنالك تبلغ المأساة ذروتها إذ يأمر شاؤول أحد جنوده بأن يقتله سريعاً قبل أن ينال منه الأعـداء، فيرفض الجندي، وإذا بشاؤول يخز نفسه بالسيف فيخرّ قتيلاً (ص١١٥- ١١٦)، إن هذا المشهد من أدق المشاهد تصويراً لتداعي ملك إسرائيل، ومن ورائه نـدم صموئيل علي تنصيب شاؤول، وذهاب حلم الشعب جميعه أدراج الرياح.وكـأن المسرحية تقدم لنا العظة أنه ليس ثمة هزيمة نهائية، ولا نصر نهائي. إن غرور المنتصر قد يفضي إلى هزيمته. وإذا أحسن المنهزم فهم أسباب هزيمته، وضـع قدميه علي بداية طريق النصر. والمتصور أن مثل هذه الأحداث لم تكن لتحدث علي هذا النحو لولا تغير جوهري حدث قبلها فـي مـوازين القـوى، بحيـث تضعضعت المملكة المصرية ونظيراتها في بلاد الرافدين وفي الـشمال حيـث كانت مملكة الحيثيين.

لقد نجحت المسرحية في تقديم صـورة حيـة مـن عدوانيـة شمـشون وشعبه،وهي مأخوذة من الكتاب المقدس (سفر القضاة: الإصـحاحان ١٤، ١٥) ولكنها مصورة تصويراً درامياً أخاذاً. هذه المـسرحية تفـتح شـهية القـارئ (المشاهد) لمعرفة التاريخ القديم للصراع في أرض كنعان، تلك التـي شـبهها بريستد بكرة قدم دولية تتقاذفها القوى الدولية[١١]. وفي هذا الإطار يتضح أنـه من الخطل – بل من التعمية أحياناً – أن يستخدم مصطلح الـصراع العربـي الإسرائيلي لستر أطماع دولية قديمة لدي أطراف دولية عديدة.

٣- الإسكندر الأكبر(الروح اليوناني):

أحسن أديبنا الاختيار فشخصية الإسكندر تمثل أصدق تمثيل الروح اليوناني في حيويته واقتحامه الأخطار، فالإسكندر تحديداً كانت حروبه توسعية بخلاف حروب فاتح عظيم مثل تحتمس الثالث مثلاً، أو حروب المسلمين الأوائل. ولكنه قائد بارع وحاكم عظيم نعمت معه اليونان بالحرية والوحدة والاستقلال[١٢].

إن لب قصة الإسكندر هو الطموح الإنساني الجامح، الذي يسوغ لصاحبه ارتكاب أكبر الجرائم، وإن كان يحفزه علي اقتحام الأهوال، والكشف عن الجديد، وتطوير أساليب القتال، وأساليب الإدارة والحكم، مما أحدث انقلاباً في أحوال اليونان والعالم القديم بأسره. كان هم الإسكندر دائماً توسيع رقعة امبراطوريته مهما كانت التكلفة. يقول لقادة جيشه أثناء الحرب ضد الفرس : " لا سلام مع هؤلاء الناس"، ولعله كان علي صواب حينذاك إذ نعلم من سياق الأحداث أن داريوس (دارا) الملك الفارسي لم يكن جاداً في عرض السلام[١٣]. بل كان يبغي المناورة والخداع وهنا تتضح خصلة هامة من خصال القائد، وهي بعد النظر بصرف النظر عن مدى قبولنا لسلوكيات هذا البطل. وكان رأي بارمنيون: " أن تطلق سراح الأسري مقابل فدية .. ما الفائدة من هذه الأراضي التي تم احتلالها..؟ ارجع إلى مقدونيا بدلا من التقدم إلي الهند". ذلك كان رأي واحد من أكفأ قادته (راجع ص ٧٦ من المسرحية).

ولولا روح المغامرة لدي الإسكندر ما أرسل ببعض رجاله لاستكشاف الهند. ويتجسّد لنا الإسكندر لحماً وشحمًا في موقف لقائه بمبعوثه نيرخوس لدي عودته: ما إن اقترب الإسكندر من نيرخوس حتى ركض كل منهما تجاه الآخر ليعانقه ومن تأثير الانفعال لم يستطيعا التحدث مع بعضهما البعض..." (ص١١٢- ١١٣). ومن العقد الهامة موقف الإسكندر من القائد بارمينيون. إذ

حين دبرت مؤامرة لقتل الإسكندر نجده يعتقد أن بارمينيون وراء تلك المؤامرة! إذ يخاطب الإسكندر بوليداموس قائلاً ما هذا الذي بيدك؟ بوليداموس : هذا رأس بارمينيون حسب أوامرك يا مولاي" لذلك يعنف كليتوس الإسكندر قائلا: "قتلت صديقي بارمينيون بعد أن قدم لك الانتصارات ...(ص ٩١- ٩٤).

وكليتوس نفسه وهو أخو لاينس مربية الإسكندر- يخر صريعاً علي يد الاسكندر: "آه يا لاينس، يا مربيتي لقد قتلت أخاك ..أنا القاتل ..لأصحابه" (ص ٩٥- ٩٩). وهنا نلاحظ تحولاً جوهرياً في شخصية الإسكندر أشبه بالتغير الذي طرأ علي أوديب حين حاول معرفة قاتل أبيه[١٤].

ولعل من حسنات المعارك أنها أثارت الجدل بين الجند والقادة والإسكندر نفسه. إنه يعي أن الجند قد أنهكوا. لكنه يستجمع مواهبه الخطابية، فيؤكد لهم أن التقارير التي وصلتهم مزيفة ومليئة بالشائعات والأكاذيب.

ويسألهم متوسلاً: أين هتافاتكم؟ أين النظـرة المقدونيـة؟ ويهـددهم: أنـا سأهجرهم وأسلم نفسي للأعداء.. وما زال بهم يؤنبهم حتى غرقوا في بكاء شديد.. هنالك يتملك القائد كوينوس زمام الموقف، ويعد الإسكندر أن الجميع مخلص لـه، ولكن ليس أمام الجميع إلا حرب مجهولة وخيمة العواقب... وهنا أيـضاً نـشعر بتحول قوى لدي أشخاص الرواية (شخصيات نامية بالتعبير الأرسـطي)، ممـا يدفعنا خطوات علي طريق التعاطف مع ذلك الفاتح الذي لا يكـلّ. وربمـا لفـت نظرنا وزاد من تعاطفنا مع الإسكندر موقفه من القائد الفارسي بـورس المقـاوم الصنديد: عاملني يما يتوجب عليك أن تعامل به أميـراً!، فأبقـاه الإسـكندر علي الأراضي التي تم احتلالها واكتسبه لقاء ذلك نصيراً لـه فـي حروبـه القادمـة |(ص١٠٨)، هكذا تكون الدراما - كما قال أرسطو - محاكاة لأفعال النبلاء.

ويكشف حوار الإسكندر مع نيرخوس - مبعوثه لاستكشاف الهند - عـن جوانب إنسانية ولمسات فكاهية في شخصية الإسكندر علي نحو ما قدمنا. وهذه

الجوانب تسهم بلا شك في إضفاء درجة من الواقعية علي ذلك البطل. ويزداد القارئ (المشاهد) لهفةً لمعرفة ما سيحدث عندما يكفهر الجو ويتصاعد قرع الطبول، ويتأهب القائد للخطر القادم مهيباً بجنده أن يستعدوا... وفجأة نكتشف أن القادم أحد القادة وقد أتي بعربة الطعام والنبيذ: ص (١١٦). هنالك انفجر الإسكندر والقادة والجنود بالضحك بصورة هستيرية". وتلك حيلة درامية تفاجئ المشاهد دون أن تقطع تسلسل الأحداث؛ بل وتؤكد علي المشاركة الوجدانية. وتتأكد روح المغامرة عندما يهزأ الإسكندر بنبوءة موته في بابل وهو في أوج أبهته وتمام تأهبه لغزو الجزيرة العربية، ويمرّ سرب من الغربان.. وتتحقق النبوءة (ص ١٢٠). هنالك تتكامل الدراما التاريخية الفريدة إذ يأتي الموت فجأة لا ليفاجئ المشاهد وحده، بل البطل التراجيدي أيضاً، الذي توافرت فيه وفي أحداث المسرحية عناصر الدراما التامة.

٤- الواقع صورة طبق الأصل:

كان الإسكندر بطلاً ذا ثقافة، وكانت ذريعته في محاولته الدءوب لإخضاع العالم المعروف آنذاك هي نشر الفلسفة والقوانين والفلسفة اليونانية. وفي العصور الوسطى اتخذ الفرنجة حيلةً أقل كياسة وأشد فجاجةً، فادعوا أنهم ينشرون تعاليم المسيح، وتستروا بالصليب، وميزة الأدب- المسرح تحديداً – أنه يكشف عن مثل تلك الدوافع ويبدو أن جوهر القصة هو الصراع بين الشرق والغرب، الذي كان يهدف إلي استعادة مجد الإمبراطورية الرومانية، وإن اتخذ قناعاً دينياً كاذبًا، ليخفي الطموح السياسي، الذي عبّر عنه "اللنبي" حين وقف علي قبر صلاح الدين سنة ١٩١٨ ليعلن عن نهاية الحروب الصليبية حسب زعمه[١٥].

كانت الذريعة اضطهاد مسيحي بيت المقدس، وهي التي تذرع بها البابا أوربان الثاني، الذي كان يطمح إلي إزاحة بابا روما كليمنت الثالث عن كرسي

البابوية. فألقي أوربان موعظته الشهيرة في مجمع كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥م منادياً بالحرب[١٦]. أي بعد ربع قرن من انتصار السلاجقة علي الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٠٧١ م في معركة ملازكرد (مانزيكرت).

وما أنجح الدراما في التعبير عن التاريخ عندما نتأمل الرابطة الإشكالية بين الشيخ محمد والناسك بطرس! ففي حين يدافع محمد عن بطرس حتى دميت رأسه وحماه حتى أخذ الرسالة من البطريرك شمعون في القدس لينقلها إلى البابا؛ يتطوع بطرس بعد ما حقق هدفه بقتل الشيخ محمد: منتهى الخسة لقاء الشهامة! (ص ١٨، ٣٣). هذا الموقف يجسد مأساة العالم الإسلامي الذي كان منقسمًا إلي دويلات متصارعة للأسف بما ينطوي عليه من إسقاط علي واقعنا الحالي.

ويعمق هذا الجرح الدامي مشاهد الصراعات والحروب الأهلية في الشرق، وحراك التعبئة والحشد في الغرب رغم الصراع البابوي الشديد. ففي مصر مثلاً يقضي الخليفة المستعلي نحبه (١١٠١م)، ويقيم الأفضل شاهنشاه (ت١١٢١ م) نفسه وصياً علي الخليفة الشرعي الآمر بأحكام الله، الذي لم يزل بعد ابن الخامسة، ولكن جنوده ينهزمون مرتين أمام الصليبيين[١٧]. (ص ٣٨-٤٣). وتظهر علامات مضيئة. فها هم ابن الخشاب والهروي والسلطان محمد، يحاول كل منهم أن يرأب الصدع، وكأنهم يمهدون لمجيء صلاح الدين بعدهم بنحو سبعين عاماً. وهو الذي انتصر في حطين (هديم) سنة ١١٨٧م.

تضيء القاعة علي منظر اللاجئين المسلمين ..في بغداد سنة ٥٠٤هـ/١١١١م، وابن الخشاب يندفع إلي المنبر الخشبي مقتحماً حشود المصلين، وإذا بالمنبر يتهاوى بالخطيب. فأية إشارة رمزية هذه! (ص ٤٦).

وتتوه أنات المسلمين بين نداءات الخليفة العباسي مسلوب السلطان، والسلطان محمد الذي يردد: بشراك يا حلب ! روح المقاومة إذن لم تخفت،

والأمل لا ينقطع رغم مرارة الواقع:

ولولا أماني النفس وهـــي حياتهـــا .:. لما طار لي فوق البـسيطة طـــائر

ولكن أية بشرى؟ وابن الخشاب نراه يخرّ قتيلاً في سنة ١١١٣م؟ وكـذلك الأمير مودود ذو النجدة، وأما قوات السلطان محمد فشتتها عساكر حلب قبل أن تواجه العدو!(ص ٥٠..) وتحل سنة ١١٨٧م لنرى وجه الأرض قد تغير،وقـد مرت ثمان وثمانون سنة من احتلال الفرنجة القدس[١٨].(ص٥٦).

لقد جاء النصر والصفح، والعزم والنبالة، والتحرير علي يد صلاح الدين (١١٣٧- ١١٩٣م):عليكم بالمحافظة علي كل بيت من النهب..فديـة الرجـل ١٠دنانير: إطلاق سراح الأسرى.. العفو عن المسيء.. (ص٦١- ٦٤).. ومـا هي إلا سنوات قليلة حتى يلقي صلاح الدين ربه، وما في خزانته كما قال ابـن شداد إلا سبعة وأربعون درهماً ناصريًا، ودرهم ذهبي واحد.

ويمتد زمان المسرحية أجيالاً لنري أن نصر الفرنج قبل صلاح الدين لـم يكن نهائيا.كما أن نصر صلاح الدين لم يكن نهاية المطاف إذّ يـسلم القاضـي شمس الدين مفاتيح القدس للإمبراطور، فينطلق العويل من النساء..." حدث هذا وفق الاتفاق الذي وقعه السلطان الكامل سـنة ١٢٢٩م (ص٦٩..) مـع الملـك فرديدريك،وهو ما صوره المقريزي في تاريخه[١٩].

وحين تحل سنة ١٢٤٤م يتردد سؤال أحد المسنين: مـن لـي بتحريـر القدس؟.. ثم تتعالى أصوات الجهـاد "أنظـر إنهـم المـسلمون الخوارزميـة الأشداء..ألف مقاتل حرروا المدن وطردوا الفرنجة إلى بلادهـم ... الله أكبـر" (ص ٧٣) . لقد استرد الصالح نجم الدين أيوب القدس، والحرب سجال . ويردد أهالي القدس نشيد الختام، وهو نشيد النـصر الله أكبـر كبيـراً .. والحمـد لله كثيراً[٢٠].

نسجت القصة خطوطاً دراميةً ليس أوهاها ذلك الحقد الدفين عند بطرس علي الشيخ محمد، برغم التعايش السلمي في القدس بين أهل الديانات المختلفة، وتناغم مع هذا المشهد ذلك التحريض المتصاعد من البابا لغزو بيت المقدس، والتحم مع المشهدين تيار التسامح العظيم من لدن صلاح الدين، وهو طاقة النور والأمل التي مهدت لها بلا شك مواقف النبلاء من أمثال ابن الخشاب القتيل والقصة بعد لا تقدم نصراً نهائيًا، ولكنها تبعث الأمل في النفوس في زماننا المعاصر.

٥- عودة هولاكو:

ما أشبه هذه القصة في صدقها التاريخي ودلالتها علي واقعنا المعيش اليوم بسابقتها، فلبّ القصة أن قوة القصر من داخله، وهو ما يتسق مع حكمة خيتي الملك الإهناسي: فإذا نطقت العدل (ماعت) في قصرك فإن المتسلطين علي الأرض خارجه سيها بونك[٢١]. وعظة القصة أن النصر يكون بالرأي قبل السلاح، فالكلمة إذن أقوي من السيف. "هيهات ما النصر في حد الأسنة بل.. بقوة الرأي تمضي شوكة الأسل". ولكن هذه الحكمة لم تكن في حسبان الخلافة، فقد كان الخليفة المستعصم بالله (١٢١٢هـ- ١٢٥٨م) في بغداد أمره لا يجزم إلا بعد استشارة الوزير الخائن ابن العلقمي، عين هولاكو قائد المغول الشرس،وكان المستعصم لا يأخذ زمام الأمور بيده فهو يقول: " وأنت ما رأيك يا ابن العلقمي؟(ص١١) وحتى رسالة الخليفة يترك للعلقمي أمر كتابتها (ص١٣).

وأما الدويدار ذو الحزم والرأي، فكان الخليفة لا يستمع إلي مشورته، وقد ولي المستعصم الخلافة من سنة ١٢٤٢م إلى سنة ١٢٥٨م، وبمقتله انتهت الخلافة العباسية في بغداد. ونري في مشهد مؤثر كيف طرق شبان صالحون أبواب القصر ذات مرة لإيقاظ الخليفة، ولكنهم رُدوا علي أعقابهم خائبين من قبل

الشرابي "..مولاي إنهم مجموعة من الغوغائيين.. المستعصم اطردهم يا شرابي (ص١٦). هنالك يستبد الحنق حتماً بالمشاهد الذي ربما – رغم كل ما تقدم – لم يكن يتوقع أن تبلغ استهانة الخليفة بالأمور إلى هذا الحد.

وقامت خطة ابن العلقمي علي بث الرعب من المغول في نفس الخليفة، فالمغول محاربون أشداء، مدججون بالسلاح، ومعهم خبراء الحرب الصينيون الأكفاء، وقد أخضعوا الممالك، ودانت لهم الأرض! وتلك خطة المستسلمين، الذين لا يعدون للأمر عدته:

فلا قضي حاجته طالب .:. فؤاده يخفق من رعبه

ونتيجة لكل هذا خضع الخليفة لابتزاز ابن العلقمى _ المتواطئ مع الأعداء دون علم الخليفة، فمضى يسترضى هولاكو..ارجع إلى خراسان، ونتنازل لك عن الأراضي التي احتللتها برضانا واختيارنا .. ضمها إلي دولة المغول (ص ٢٩).

هكذا عمقت أحاديث الخليفة ورسائله موقف الاستسلام. وأما خطة هولاكو (١٢١٧-١٢٦٥م) فهي شراء الذمم، كما فعل مع ابن العلقمى وركن الدين خورشاه، ومبدؤه : " القوة هي الحق " (ص ٣٤). وهو لا ينفك يكرر هذه المقولة . ولعل القارئ يتساءل : إذا كان الخليفة لم يعلم بتواطؤ ابن العلقمي، فكيف لم يسعفه حدسه ؟ وقد أوجز الدويدار المشكلة في قوله : " إنها الخيانة التي مكنته _ أي هولاكو _ من احتلال تلك القلاع" (ص ٢٦) إنه قول تقريرى، ولكنه يأتى نتيجةً منطقيةً لسياق الأحداث . ولو أن الخليفة أطاع الدويدار، لأنفق الأموال في بناء جيش قوى، وأخذ بمشورة القادة الأكفاء، وقربهم إليه. ولكن ما الجدوى من بذل الهدايا والأموال لعدو فاجر طاغية إلا المزيد من البغى والتجبر؟ هنالك يشعر القارئ بندم شديد على ما حدث من ضياع الملك نتيجة سوء التدبير، فينتقل من مقعد المشاهد إلى المشارك _ ولو

وجدانياً – في سياق الأحداث.فيزول الحائط الفاصل بينه وبين خشبة المسرح فيما يشبه الأوتشرك أو الريبورتاج الدرامي: وكأنه استطلاع للرأي والأحداث والظاهرة السياسية(٢٢).

ويسفر الصراع، فتعلو نبرة الدويدار أمام الخليفة وابن العلقمي، قائلا " الله الله كملتها يا ابن العلقمي.." (ص ٣٢) بل يتكشف للخليفة أن ثمة مؤامرة دبرت ضده، وكان ابنه مشاركاً فيها، ويصبح الخليفة في حال زرية:

إذا ساء رأي المرء ساءت ظنونه .:. وصــدق ما يعتاده من توهــم

وعادى محبيــه بقــول عداتــه .:. وأصبح في ليل من الشك مظلم.

وهكذا التزمت المسرحية وقائع التاريخ لدى تصوير شخصية الخليفة، فأدت رسالةً إيجابيةً مفادها أن لا مكان لمتردد، ونفاجأ بالخليفة وقد أحيط به، فهولاكو لا يكتفي بما قدمه له من هدايا، بل طلب منه المثول أمامه وهنالك يقول الخليفة يائسًا " دبرني يا دويدار" (ص ٣٥) ولات حين مدبر! هنا ندرك أن الحدث الدرامي ينمو ويتطور بصورة واقعية، واتساق منطقي، دون افتعال(٢٣).

تتتابع الأحداث: المستعصم: "ليتني قابلت الشبان المسلمين ..(ص ٣٥) وقتها ألهيت مع النساء .. خذوا هذه الأموال إلي هولاكو. هولاكو: "وما بال الذهب المدفون في حوش القصر؟ المستعصم: نعم. تحت أمرك.. هولاكو: كان الأجدر بك أن تصرف هذه الأموال علي تكوين جيش للدفاع .. خذوه واسلخوا جلد وجهه حيا.. المستعصم..أريد أن أتوضأ..أن أصلي.. بهذا تكامل تصوير نفسية الخليفة، وقد مرت بأطوار الندم والخوف والجزع .. وابن العلقمي الخائن يصير وزير هولاكو، لكن لا مهابة له، إذ يتحكم فيه أمير مغولي فظ، ويهينه ويهين القرآن، ثم يرفسه برجله.. فيقع ابن العلقمي علي الأرض ميتًا" (ص ٥٢)

ونهايته الزرية تجعلنا نجزع له ولأمثاله من المفرطين في كرامة أوطانهم، ونتخذ العبرة.ومع انطلاق هولاكو إلى الشام يتجدد الخطر، ولكنه خطر خارجي. أما الخطر الداهية فهو خطر داخلي، فبعد مقتل ابن العلقمي يظهر ابنه ..أنا ابنه أنا ابن العلقمي...رمز الخيانة مرة ثانية ؟! يقول أحد البغداديين ويضيف: ومن يدري لربما هو موجود بينكم الآن" (ص٥٤). المقصود بابن العلقمي ونسله الخيانة بلا مراء، وطالما بقيت الخيانة ستكون عودة هولاكو – أي هولاكو – ممكنة، وتلك هي الرؤية الروائية الحقة.

٦- القضية (سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢):

أين القضية؟ سؤال فلسفي تطرحه المسرحية. إننا بصدد مسرح هادف إلى استخلاص العبرة من الأحداث، وربما كان فقدان الوعي التاريخي أو ضعفه دافعاً لأن تتكرر مآسي التاريخ. لذلك يقول الشاهد – وهو يقوم بدور المعلم– لصاحب القضية : قضيتك ليست هنا في هذا الكتاب، ولكن قضيتك هنا (يشير إلى رأس صاحب القضية). هذا مشهد الختام (ص ٦١، ٦٢) وهو عماد القصة بحيث لا نتوه وسط أحداثها. نحن بدأنا بنهاية المسرحية، وفحواها أن الوعي بأحداث التاريخ ودروسه يزع الأمة إلي النهوض واطراح أسباب الشقاق والفرقة، ومن ثم التخلف والنكوص.. يقول الشاهد: كانت الأندلس دولةً عربيةً عظيمةً ظهرت عندما اختلفت النفوس في البيت الأموي في بداية القرن الحادي عشر، فتجزأت هذه الدولة إلي اثنتي عشرة دويلة تعرف بالطوائف(١٣).

تجلى المسرحية صراع ملوك الطوائف في إسبانيا، مما يحقق لدي المشاهد الشفقة علي ما حدث لتلك الدولة العظيمة، هنا تتجلى عظة التاريخ أن قوة القصر في داخله[٢٤]، والقصر هو قصر الحمراء، والزمان سنة ٨٩٧هـ، ١٤٩١م. والملك هو أبو عبد الله الصغير. والموضوع توقيع اتفاقية استسلام مهينة لفرديناند وإيزابيلا في غرناطة (ص٢٢، ٢٧) [٢٥].

وتدور أحداث المسرحية في حوار تعليمي بين صاحب القضية في وقتنا الحاضر والشاهد علي تلاوة بنود الاتفاقية، وما يشّع به موقف الملك محاطاً بأمه اللائمة له، ورجاله الذاهلين... كل ذلك ينقل لنا جو المأساة بدقة، ويغني عن أقوي التعليقات المشهد الخامس إذ تجري عملية مطاردة عنيفة مع الموسيقي والهرج والصهيل والصرخات" (ص ٣٩). ثمة واقعية في الأخذ من الوقائع التاريخية، وتكاملٍ لعناصر الأزمة بحيث يتلمسها القارئ.

ومن المواقف المؤثرة مشهد الأم وهي تؤنب ابنها الملك المستسلم "حولك العرب، أرسلوا لك الوفود .. ولكنك في غفلة .. وترتب الأمور وحدك.. وتخاصم المخلصين .."وتلومه قائلة : (إذن ابك مثل النساء ملكاً مضيعاً .. لم تحافظ عليه مثل الرجال) (ص ٤٣ ..).

هنالك يخطط الملك لمغادرة الأندلس والفرار إلى المغرب وسط دهشة أمه والمخلصين من رجال الدولة (ص ٤٥).والأم كانت مؤازرةً لاتجاه المقاومة وعدم الاستسلام، مثلها مثل ابن أبى الغسّان :" من السابق لأوانه الاستسلام .. مواردنا لم تنفد بعد، فهناك مصر .." (ص ٢٨).وفى مقابل ذلك كان هناك المستسلمون، ومنهم أبو القاسم وابن ساري. صحيح أن التوازن مفقود بين اتجاهي الاستسلام والمقاومة.وفى صفوف المقاومة نرى جموعا من الملثمين مستبشرين بالنصر القريب، ومعهم سيدة البشرات التي لن تبوح بمعلومات عن المقاومة، وإذا بها تقطع لسانها لحظة القبض عليها ... هذه اللمحات المشرقة – على صغرها – تبعث الروح من جديد، وتجعلنا نعيش الأحداث – كما لو كانت تحدث الآن، وكأننا مدعوون إلى المشاركة في إعادة صنعها. إذن فالتزام الأمانة التاريخية لم يجّرد الأحداث من جدتّها، فأفلتت المسرحية من برودة التقرير .

ونتساءل : ماذا كان في انتظار مسلمي الأندلس بعد نحو ثمانية قرون؟ لقد أقام فرديناند الخامس وإيزابيلا سنة ١٤٩٩م لهم محاكم التفتيش للتثبت من اعتناقهم المسيحية خوفا من أن يرتدوا. وبقيت تلك المحاكم جهازاً لمراقبة الفكر

وما يدور في الضمائر . وكان شعارها : " مسلم ميت خير من مسلم حي " (ص ٥٤) . وتصور لنا المسرحية هزلية تلك المحاكم ومآسيها القاسية غير المحدودة، فهذا حكم على رجل بالحرق وهو حي، وهذا إعدام " يعدم بإدخال الأسياخ المحمية في جسده " .. لقد هدموا المساجد .. لا، بل حولوها إلى كنائس .. نهبت أموالنا .. هتكت أعراضنا .. لقد مزقوا القرآن .. أين العهود ؟ وا إسلاماه .. (ص ٥٧ ـ ٦٠) . وقد يري البعض أن ثمة بشاعة في مثل هذه المواقف، ولكنها الوقائع التاريخية بحذافيرها. قد تبدو صادمة، ولكن علي الأديب ألا يتجاهلها.

ورغم هذا الجو المشحون بالمنغصات تتعالى أصوات متفائلة : عائدون.. عائدون .. (ص ٦٣) . وهي نهاية متفائلة، تضيء بصيصًا من أمل لمن يبحث عن المخرج . إن الشاهد علي التاريخ يجسد الوعي الإنساني في أعلي صوره حين يدرك جوانب المعاناة في حياة الأمم، ونواحي الضعف في سياسات الحكام، ويطرحها دروساً لمن عليه أن يستفيد بها ... هكذا تخاطب المسرحية شعوبنا العربية خطاباً واعياً بعيداً عن النمطية المعهودة.

وصاحب القضية (لعله يرمز إلي شعوبنا الآن) يبدو غافلا: يا لله نسمع المغنيات والموشحات" (ص١٢).ولكنه يريد أن يستيقظ من غفوته، لأن لديه قضية، ويريد – علي الأقل– أن يستفهم عنها وما أحوجه إلى من يمده بالوعي.

والمسرحية تتجنب أسلوب المواعظ المكررة، وأسلوب اللوم والتأنيب إلا ما اقتضته الضرورة. وتطرح في حيادية قضية الوعي الغائب الذي لن يعود إلا إذا قرأنا التاريخ، وفهمناه فهماً جيداً. هنالك نعرف كيف ولماذا سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢م، آخر معاقل العرب، وحصنها المنيف في قصر الحمراء.

٧- قصة الأمير الثائر:

هذه القصة هي الأحدث في تلك المجموعة. إذ تحكي عن الأمير مهنا الذي تولي إمارة بندر الرق في القرن الثامن عشر قبل قيام دولة الإمارات، وكانت جزيرتا خرك و خركو تتبعان تلك الإمارة، التي تناوبت السيادة عليها قوي إقليمية ودولية آنذاك.

ولعل شخصية الأمير ناصر والد الأمير مهنا هي الأكثر مأساوية، بحيث نتعاطف معها، فالأمير ناصر كريم الخلال لولا قليل من الحيلة والمخادعة اللازمتين. ومن الأسف أن يقتل علي يد أتباع ابنه مهنا، وهو يتظاهر بضربه. وقد تمكن من مد سلطانه إلي البحرين. وهكذا تُفشل الخيانة مشاريع يمكن أن تؤدي إلى الوحدة، ومع ابنه تزداد الأحداث مأساوية.

وأما الأمير مهنا فميزته أنه ثائر مطالب باستقلال العرب عن القوى الأجنبية التي كانت تتدخل في المنطقة، وهي فارس وتركيا بحكم الموقع والنفوذ السياسي، فضلاً عن إنجلترا وهولندا الدولتين ذواتي النفوذ البحري العريض. وتعدّ هذه النزعة الاستقلالية مأثرةً، اكتسبها من خاله كايد، والتف حوله من أجلها مجموعة من الشباب.

الأمير مهنا مخاتل محنك، وقد اتسم سلوكه بقدر من الشر- أو كثير من الشر، وليس أدني شروره أن والده قتل علي يد أحد رفاقه كما تقدم ولو في ظروف ملتبسة. كما قتلت والدته علي إثر مقتل أبيه في مشهد مأساوي، إذ دفعها بقوة لما كانت تجهش بالبكاء، فسقطت قتيلةً ثم قتل أخويه حسيناً وعلياً." فأمر بإعدام أخيه الأمير علي واثنين من أقاربه"، وكان قتلهم في سبيل الإمارة أيضاً. وهكذا يفقد الإنسان أحبابه كسباً لمزيد من النفوذ الموهوم.

هذا من الوجهة الخلقية، أما من حيث السياسة فعلينا أن نعيش ظروف القرن الثامن عشر لا ظروف اليوم حتى نكون منصفين في حكمنا علي أحداث التاريخ. فمنطقتنا العربية كانت عرضة.. لأطماع الدول الاستعمارية الأوربية الصاعدة.ولكن يصعب أن نتخيل ذلك الأمير مجرد قائد لمجموعة من القراصنة يعيشون علي نهب السفن التجارية مثل دراك وتايجر الهولنديتين.

وهو أيضا ليس مجرد سارق للحقول المجاورة مثل حقول بلدة "جناوة" أو زعيم لمجموعة من الخارجين علي القانون، وهنا الشعرة الفاصلة بين العدالة والخروج عن الشرعية. إنه رجل حرب وتكتيك، ويستطيع أن يحبط عدواناً دبره ضده الفرس، بإرسال من يغتال قائدهم في فراشه حتى إذا ما جاء وقت الهجوم إذا بالضباط يجدون قائدهم غارقاً في دمائه(ص٥٧).

ومهنا يقدر أن يقاوم الحصار حتى ييأس المحاصرون، ويقرروا الانسحاب من بندر الرق، وأن يهاجم" قافلتين قادمتين من شيراز وقد حملتا بالبضائع في طريقهما إلى أبو شهر" (ص ٦٠). ولكن ما تلبث سفن الأمير مهنا أن تصادر في سبتمبر من عام ١٧٦١م. وينزل مهنا الهزيمة بقوة فارسية في نهاية ١٧٦٣م. فبسط نفوذه علي جناوة بلد خاله الشيخ كايد، ودشستان كاملة، وأبو شهر ومحيطها.. ويتزايد الحنق ضد ذلك الأمير الطموح من قبل منافسيه وأعدائه. هكذا تزداد العقدة إحكاماً.

والرجل مناور قدير يظهر الحسنى للأعداء ريثما تمر العاصفة ثم نراه يعود إلى مواجهتهم. وهو أكثر قوةً من ذي قبل.وإن فشل في فتح بوشهر أولاً، فإنه يخطط وينتصر علي تحالف الهولنديين والفرس علي كثرة عتادهم ودرايتهم بحروب البر والبحر: " في منتصف ١٧٦٣ م بدأت الانتصارات العسكرية تتوالى علي كريم خان زند (حاكم فارس) (ص٧٠).

إنه- أي الأمير مهنا- رجل سياسة استطاع أن يقيم لنفسه نفوذاً يعتدّ به في عالم سادته الأطماع الاستعمارية في إحدى أكثر مناطق العالم ازدحاماً

بالقوى الاستعمارية.كانت كذلك ولازالت. ومن هنا أهمية الدراية بالتاريخ. وتمكن أميرنا من أن يجعل لإمارته نفوذًا بإزاء مملكة فارس وملكها العنيد كريم خان زند.وبقدر الطموح الكبير تكون الأهوال كبيرةً، فإضافة إلى كل ما تقدم نجد الأمير مهنا، وقد اقتادته القوة الفارسية إلى شيراز، وهناك أودع السجن، حيث قضى سنة ثم أفرج عنه كريم خان إذ أفلح الأمير في كسب وده.(ص٥٠). وبعد سيطرة الأمير مهنا علي خرك وقلعتها يبدأ العد التنازلي له، فنري كريم خان يتآمر ضده مع الإنجليز، ومع والي البحرين، الذي نجح في تحطيم تحصينات الأمير مهنا ثم يحتل الإنجليز مدينة خرك .. ونمت نوازع الانتقام عند كل من الخصمين.. وينضم الشيخ خليفة حاكم الكويت إلى التحالف المناوئ.. وفي فبراير ١٧٦٩م ترد حملة تركية لطلب الأمير مهنا أيضاً (ص ١٠٩). وفي صباح الرابع والعشرين من مارس وجدت في شوارع البصرة جثته تنهشها الكلاب بدون رأس (ص١١١) ". هكذا نهاية الأمير مهنا، برفاقه استطاع أن يهزم أقوى دول العالم، ويوم أن غدر بهم، كان سقوطه المخزي، فما أكثر أشباه الأمير مهنا في وطننا العربي!" (ص١١٢).

خلاصة الدراسة

هكذا يعيدنا المسرح إلى عمق التاريخ لنستنطقه العبر المفيدة لنا في زماننا الحاضر، ولعلنا نلاحظ أن هذه المجموعة من المسرحيات مأساوية (تراجيديا)، وإن كنا لا نؤمن بمسألة التصنيف الجامد. إن كل هذه المسرحيات تشتمل علي مواقف بهيجة، وفكاهات، وفيها فوق هذا مسحة تفاؤل رغم مأساوية الأحداث. وذلك أن حياة الإنسان فوق البسيطة إن هي إلا مرحلة ما بعد السقوط (الخروج من الفردوس)، والصراع الأبدي بين الحق والباطل. ولكن عزاءنا في كل هذه الدراما أن ثمة أملاً في إقامة العدل وانتصار الحق. ولا عجب أن تكون دراما انتصار حور علي ست إحدى أقدم الأنماط المسرحية في التاريخ، ظهرت في مصر، واستوحاها أدباء العالم في عصور شتى.

وقد قدم لنا أديبنا الأمير رؤيته للتاريخ في هذه الأعمال القيمة، التي تعد إسهاماً عظيماً في الحركة المسرحية المعاصرة. بل هي مدعمة بوقائع التاريخ، ومشيدة علي سننه، التي حاول أديبنا استنباطها وتقديمها في هيئة أحداث تجري الآن أمام أعيننا، لنزداد وعياً بالتاريخ وفهماً لدروسه.

هذا عن موضوع المسرحيات، وأما أسلوبها فيعبر عن ذاتية كاتبها أصدق تعبير، وهذا شأن الأدباء الأمراء كما أوضح شيخنا العلامة حسين المرصفي في "الوسيلة الأدبية". وآية الأدب الصادق الجدير بالخلود أن تجد فيه ملامح الأديب الذي أبدعه، كما قال عن حق أستاذنا العقاد. وإلي لقاء آخر مع أعمال جديدة لهذا الأديب المبدع نرجو أن نكون قد أسهمنا في التعريف بأعماله. والله الموفق والمستعان.

الهوامش

(١) راجع تفصيلاً: حبيب غلوم العطار: المسرح في الإمارات: في: الحياة الثقافية في الإمارات، دولة الإمارات، وزارة الثقافة والشباب، ص ٨١ وما بعدها.

(٢) فايز علي: الديانة المصرية، القاهرة ٢٠٠٢، وفيه إشارة لمؤلفات زيته وتشيرني ولبسيوس وبادج وغيرهم.

(٣) وتلك أسطورة هلاك البشرية وإنقاذها، وهي توازي أسطورة الطوفان البابلية. راجع: السابق: ص ١٥٢.

(٤) لذلك دعي اسمها بابل.لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددّهم الرب علي وجه كل الأرض (التكوين:١١ :٩). راجع: أندريه بارو: سومر – فنونها وحضارتها، ت. عيسي سلمان وسليم التكريتي، بغداد ١٩٧٩.

(٥) هذه القصة تذكرنا بالطير الأبابيل التي هاجمت جيش أبرهة الأشـرم القائـد الحبـشي الذي حاول الاستيلاء علي الكعبة في القرن السادس الميلادي. قارن: ابن كثير: صفوة السيرة النبوية، مجلس الشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، جـ ١، ص ٤٩-٥٠.

(٦) وصف هيردوت برج بابل بأنه كتلة ضخمة من القرميد،علي شـكل هـرم مدرج،سـماه البابليون زاجورات (زاقورة).لم يبق منه شيء الآن تقريبا.راجع: الموسوعة الأثريـة العالمية، كوتريل (محرر)، ت. محمد عبد القادر، الهيئة المصرية للكتـاب، القـاهرة ١٩٧٧، ص ٢٤٢- ٢٤٣.

(٧) عن اللامعقول راجع: محمد مندور: الأدب ومذاهبه، نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٩، ص ١٧١- ١٨١. ونري أن نماذجها الأولى ظهرت في قصة "الملاح" المصرية. راجـع: الهامش رقم (٢٢).

(٨) عبرت شعوب البحار إلى مصر وآسيا الغربية تجاه سنة ١٢٠٠ق.م، ومنهم الشردان (من سردنيا) والشكلش (صقلية) والفسلط..راجـع: الموسـوعة الأثريـة:٥٠٥. Moscati, S.,"Die Altsemitischen Kulturen" Kohlhamer, uebert. B. Sandkuehler, 1961, S.S. 89- 90 .
وكذا كتاب مورتين عن مدينة هابو، ص ١٦. وقد أكد أديبنا أسبقية حضارة الفلسطينيين للعبرانيين، وهذا ما أورده بريستيد في: فجر الضمير، ت. سليم حسن، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، ص ٣٧٢.

(٩) عن شمشون راجع: Moscati, op.cit.,123, علي خليل: اليهودية بين النظرية والتطبيق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٧، ص ٦٦- ٦٧، من الدراسات القيمة: محمد جواد مغنية: إسرائيليات القرآن، دار الجواد، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤رغم خلافنـا مع بعض استنتاجاته.

(١٠) راجـــع:
Grant,M., Das Heilige Land, ueb. J.Rehork, B.Gladbach 1984, S.S. 162- 168

(١١) بريستد: فجر الضمير: ٣٧٣.

(١٢) عن الإسكندر الأكبر راجع: الموسوعة المصرية: تاريخ مصر القديمة وآثارها: العصر اليوناني الروماني، مجموعة مؤلفين، مجلد ١، جـ٢، ص ٤٨٧.
Bury, J., B., A History of Greece, Mod. Libr., New York 1927, p.p 675- 724,....

(١٣) المرجع السابق:٤٨٧.

(١٤) وفق نظرية أرسطو في: فن الشعر،ت شكري محمد عياد، القاهرة١٩٦٧.
قارن:Sloterdijk، P., Aristotles, dtv Verl., 1997, S.427ff, 431- 435

(١٥) لم ترد كلمة صليبية أو صليبي في كتب القدماء إلا في "رحلة ابن جبير" لتدل علي المعني المعروف في هذا السياق. راجع: محمد سيد كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي، دار الفرجاني، القاهرة١٩٨٤، ص ١١.

(١٦) ورد في ختام خطبته: " إذا انتصرتم علي أعدائكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسما وميراثاً. وأما إذا قتلتم فلكم المجد، لأنكم تموتون في المكان الذي مات فيه يسوع المسيح" راجع: كيلاني: السابق: ١٣- ١٤.

(١٧) وفي أثناء تلك الصراعات الدامية كان مولد صلاح الدين سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٩م وهو الذي علي يديه سيتم فتح بيت المقدس سنة ١١٨٧.

(١٨) كانت الموصل وحلب قد تم الاستيلاء عليهما من قبل صلاح الدين. راجع: محمد عمارة: معارك العرب ضد الغزاة، المركز العربي الدولي، ط٢، القاهرة، ١٩٩١، ص ٣٣ – ٦٧ (عن حطين).

(١٩) بتصالح الكامل (ت ١٢٣٧) مع الصليبيين علي هذا النحو أفسد خطتهم في إخضاع العالم الإسلامي، بالتحالف مع المغول القادمين الشرق، ولهذا يلتمس البعض للكامل هذا التصرف باعتباره تكتيكاً مرحلياً وليس سياسةً بعيدة المدى. راجع: محمد عمارة: السابق:٨٢ وما بعدها.وعن تاريخ القدس وآثارها راجع: المعالم الأثرية في البلاد العربية، المنظمة العربية للتربية، جـ٢. ص ٨١-١٠٣.

(٢٠) في الوقت نفسه أرسل الصالح أيوب قوةً من مصر بقيادة بيبرس لتعضيد القوة الخوارزمية في الشام،لكن الخوارزمية تمردوا علي الصالح أيوب لأنه لم يعطهم الأراضي المحررة كما كانوا يأملون، ولكنه قضي علي تمردهم.. راجع: محمد عمارة: السابق: ٩٤ وما بعدها.

(٢١) خيتي ملك إهناسيا (ح.٢٠٧ق.م) من الأسرة العاشرة. وقد خطا نحو إعادة توحيد مصر إبان فتن العصر الانتقالي الأول. ترجمنا تعاليمه وشرحناها في دراستنا: تعاليم الملك الفيلسوف، القاهرة٢٠٠٥.

(٢٢) راجع: محمد مندور: الأدب ومذاهبه: ١٦٤- ١٦٥. وقد أوضحنا أننا سبقنا إلى اللامعقول في القصص والدراما... راجع دراستنا: الأدب المصري منذ اختراع الهيروغليفية، القاهرة ٢٠٠١.

(٢٣) وبهذا تكتمل المحاكاة للواقع بالمعني الأرسطي- أي أن تكون النتائج مبررة ومتضمنة في مقدمة الأحداث بصورة تبدو كما لو كان الواقع قد أنتجها. راجع: أرسطو: فن الشعر. وأيضا:

Losev, A., Aristotle, Progress Pub., Moscow1982,p.157ff

(٢٤) هذا ما يقوله خيتي في تعاليمه. راجع: هامش (٢١) وأيضا:

Brunner, H., Altaegyptische Weisheit, WBG, Darmstadt 1988,S.141 ff.

(٢٥) في سنة ١٤٧٩م تم اتحاد مملكة قشتالة (كستلا) وأراجون بزواج ملكيهما إيزابيلا الأولي، وفرديناند الثاني، وأصبحت مدريد العاصمة بعد القرن ١٦ وصارت القشتالية هي اللهجة الأدبية السائدة في عموم إسبانيا..عن تاريخ غرناطة وقصر الحمراء راجع: طاهر مظفر العميد: آثار المغرب والأندلس، جامعة بغداد ١٩٨٩، ص ٣٠٥- ٣١١.

خُلــود

محمد رفعت عبد العزيز *

سألوني عن معنى الخلود
قُلتُ: الخلود لمن وَهَبْ
قالوا: حَنانَكْ .. بيننا
قلت: البشر
قالوا: نعم
قلت الحسيب كما كسب
إن كان عِلماً ألَّقهْ
أو كان مالاً
للتصدقِ أنفَقهْ
أو كان كشفاً للوجودِ
قد انجلى في الخافقينْ
أو كان إبداعاً
يسرُّ الناظِرينْ
أو كان شراً ...
للوجودِ قد اتّقَهْ
إن كان ذلك ما جرى
هو الخلود قد اكتسبْ

.....

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية التربية – جامعة عين شمس .

قالوا: وحال القاسمّيْ
قلتُ: الأميرْ ؟
قالوا: الأثيرْ

....

سلطان ما بين المَلا
مثلُ النخيلِ الباسقةْ
سلطان مجدٌ قد علا
بين الملوكِ الفائقةْ
هو المثالُ ..
هو الأرَبْ

....

هو كالنجوم ؟
قلتُ: النجوم الشارقةْ
هو كالسماء ؟
قلتُ: السماء الرائقةْ
بل والسماء البارِقَةْ
تنبئك بالسُحْبِ الثِّقالْ
المفعماتِ .. المغْدِقَةْ
تكفيك من حُبٍ .. وحَبْ

....

هَلاّ حَفَوْتَ بضيفنا !
سلطان قد أضفَيْتَ ضياً
فوق ضَيّ القاهرةْ
سلطان أهلاً ..
بين أهلٍ
خيِّراتٍ .. شاكرةْ
سلطان قد
أشْرَقْتَ في
جمعِ " النجوم الزاهرةْ "
بِكمُ ستفتخرُ العَرَبْ

المحور الثانى

الخليج العربي

الشعر الروماني : مصدراً لتاريخ الجزيرة العربية

ماجدة النويعمي *

قد يبدو أن المؤرخ والشاعر يقفان على طرفي نقيض، الأول بموضوعيته ودقته، والثاني بمبالغاته وعواطفه وانفعالاته، ولكن الأمر ليس على هذا النحو من التناقض الظاهر.

تسعى هذه الدراسة إلى طرح الشعر الروماني مصدرًا من مصادر تاريخ العرب القديم. ويرد هذا الطرح للقضية من منطلق التفاعل الضروري بين الأدب والتاريخ(١). فلا شك أن الأدب من الفنون المساعدة للتاريخ بعد أن يخضع لضروب من الاختبار والتصفية.

وأحسبه نوعًا من الاستطراد الزائد أن استفيض في الحديث عن أهمية المصادر الأدبية، بما فيها الشعر، لدعم المصادر الأثرية والوثائقية. ولكني أوجز الأمر كله، فيما يتعلق بالشعر، بالقول إن الشعر هو الإحساس بالعصر..هو استيعاب العصر والتفاعل معه، مع القدرة على احتواء أفكاره. وأحسب أنني لست مغاليةً في ذلك لأكثر من حجة وسبب:

أولا: رغم كل ما أحيط بقضية الشعر الجاهلي من ملابسات، إلا أن أية دراسة لتاريخ العرب القديم، في فترة ما قبل الإسلام، لا تخلو من الاعتماد على هذا المصدر(٢)، حتى وإن كان يشوبه الحذر. ومن هذا المنطلق، وبالمنطق نفسه، فمن أجل فهم أبعاد العلاقة بين العرب القدامى والرومان أرى أنه لابد من قراءة أشعار كلا الطرفين.

---

*أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية. كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

ثانيا: المعروف أن المؤرخ الإسلامي للعصر العباسي اعتمد على الشواهد الشعرية، وأحالها إلى أدلة تاريخية استعان بها على توثيق الحدث، على نحو ما حدث مع شعر أبي تمام والبحتري، فيما يتعلق بحروب العرب والروم(٣). ومن هذا المنطلق، وبالمنطق نفسه، أقول إنه لايمكننا إهمال الشعر الروماني عند كتابة تاريخ الجزيرة العربية القديم. وفي الوقت نفسه لا أدعو إلى التسليم به دون وجود ما يشهد على صحته، لذا علينا أن نخضعه للفحص.

ثالثا: الثورة الفكرية التي أحدثها المفكر الفرنسي ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤)، مؤخرًا في المنهج التاريخي، والمعرفة التاريخية، ومن واكبه أمثال المؤرخ الفيلسوف المعاصر بول فين(٤) وغيره، قد أتاحت الفرصة للعلوم الإنسانية لتكون عونًا للتاريخ، أكثر من ذي قبل، والأدب فرع من فروع المعارف الإنسانية.

تعد المصادر الأدبية اليونانية والرومانية القديمة من المصادر العديدة التي يعتمد عليها المؤرخون في العصر الحديث لدراسة تاريخ الجزيرة العربية القديم(٥). ويقصد عادةً بهذا النوع من المصادر كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة والكتاب الموسوعيين، من اليونان والرومان. ويغفل المؤرخون عادةً دور الشعر الروماني كواحد من هذه المصادر الأدبية.

تبحث هذه الدراسة في الإشارات إلى الجزيرة العربية التي وردت في بعض نصوص الشعر الروماني في محاولة لوضعها على ميزان النقد لمعرفة قدر الموضوعية بها، وبالتالي تحديد أهمية هذه النصوص الشعرية في كتابة تاريخ الجزيرة العربية. وتنتهج الدراسة المنهج المقارن بين النصوص الشعرية المعنية والمصادر التاريخية الأخرى لمعرفة مدى التوافق بينهما. وفي سبيل ذلك تجمع الدراسة المتشابهات من المصادر حول حدث واحد أو قضية واحدة مثل ثراء الجزيرة العربية، والعلاقات التجارية معها، مع مقارنة النصوص الشعرية

بهذه المصادر لإيجاد ما يؤكدها أو ينفيها، بحثًا عن مؤشرات اليقين. ومن حسن الطالع أن لدينا مصادر كلاسيكية متعددة تسهل عملية التحليل.

إذن فقبل أن نوجه سهام النقد إلى الشعر الروماني كمصدر علينا أن نطرحه على مائدة البحث لتقييم مدى قربه من الحقيقة أو بعده عنها. ولما كانت المصادر الأدبية عامةً تحتمل المناقشة، فإن النصوص الشعرية بصفة خاصة بحاجة أكبر إلى الاختبار والتنقية لما يحف بها من مخاطر المبالغة وجنوح الخيال والانفعالات. وليس هناك غضاضة في أن يناقش المؤرخ هذه النصوص بعد جمعها وتوثيقها، وانتزاع الدلالات، فإن كانت تتفق والأحداث التاريخية على نحو ما وردت في المصادر الموثوق بها فلا مانع من احتسابها سندًا إضافيًا، وللمؤرخ أن يرفضها إذا ثبت أنها جنوح خيال. وعلى هذا الأساس، لا أهدف بهذا البحث إلى إقامة الدفاع عن الشعراء الرومان، وإنما هو محاولة لاستكشاف ما يتسق ومنطق الأشياء وحقائق التاريخ في طياتِ هذا الشعر.

تتشابه القصائد الرومانية في بعض مضامينها مع ما نعرفه من المصادر الكلاسيكية الأخرى فيما يتعلق بالإشارة إلى بلاد العرب. ولم تكن هذه القصائد ذات صبغة تاريخية قصد بها أن تكون معنية بسرد الأحداث، وإنما كانت في معظمها ذات صبغة اجتماعية، تعرض لما حدث في المجتمع من تغيرات. وعندما تحدث الشعراء الرومان عن العرب فقد كان ذلك من منطلق ما أفادته روما من بلاد العرب، أو ما تتوق إلى الإفادة منه، وتأثير ذلك كله على المجتمع الروماني. وهذا في معظمه يدور في فلك المصالح التجارية، من ناحية، والمتغيرات الاجتماعية، من ناحية أخرى.

تنتمي الشواهد الشعرية التي اعتمدت عليها في هذا البحث إلى فترة حكم الإمبراطور أوغسطس Augustus(٢٧ ق.م- ١٤م). ولعل السبب في ذلك أن جميع شعراء العصر الأوغسطي العظام[٦]، بلا استثناء، تحدثوا بصورة أو

بأخرى عن بلاد العرب، وخاصة عن المنطقة المسماة بـــ "العربية الميمونة" Arabia felix[٧]، أو "العربية السعيدة" Arabia beata، أو "العربية المباركة" Arabia Eudaemon، وكلها مسميات لمنطقة واحدة، هي جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي المنطقة التي تعنيني في هذا البحث، والتي قال عنها الكاتب الموسوعي بلينيوس Plinius الأكبر في موسوعته ("التاريخ الطبيعي"، ٥/١٢/٦٥):

"odiferam illam ac divitem et beatae[8] cognomine inclutam"

"اشتهرت بعطورها وثروتها (وعرفت) باسم السعيدة".

تقوم هذه الدراسة على رصد ما لايقل عن أربع عشرة قصيدة رومانية، تشير إشارات متفاوتة الطول والموضوع إلى بلاد العرب. ولكي أتوخى الدقة لا أدعي أن هذا هو كل ما ورد من إشارات إلى بلاد العرب في الشعر الروماني الأوغسطي، وإنما ما أوردته جاء من موقعي الانتقاء والاختزال.

يمكن تقسيم الموضوعات التي تعرض لها أو ناقشها، الشعراء الرومان فيما يتعلق ببلاد العرب إلى ثلاثة أقسام:

أولا: ثراء بلاد العرب.

ثانيا: البخور والطيوب والتوابل، التي كانت تأتي إلى روما من بلاد العرب.

ثالثا: الإشارة إلى الحملة العسكرية التي قام بها الوالي الروماني الثاني على مصر، إيليوس جالوس Aelius Gallus، على بلاد العرب الميمونة، في٢٦-٢٥ ق.م. [٩]

سأتناول في هذا البحث النقطتين الأولى والثانية، المتعلقتين بثراء بلاد العرب، ثم الطيوب والبخور والتوابل الآتية إلى روما من بلاد العرب، على اعتبار أن هاتين النقطتين وثيقتا الارتباط. أما النقطة الثالثة، المتعلقة بالحملة

العسكرية فهي، وإن كانت بشكل أو بآخر تتصل بالنقطتين السابقتين، إلا أنها تحتاج إلى دراسة منفصلة كي أوفيها حقها.

اقتبس فيما يلي موجزًا يسيرًا من الشعر الروماني، في هذا الشأن، وأحسب أن الشعراء الرومان كانوا على درجة من الإدراك لما كانوا بصدد عرضه شعرًا، على نحو ما سنرى:

أولا: بالنسبة لمسألة ثراء بلاد العرب:

أشارت المصادر القديمة كثيرًا إلى ثراء بلاد العرب، إلى درجة أن الجغرافي استرابون قد أورد في (١٦/٤/٢٢) أن أحد الأسباب القوية التي جعلت الإمبراطور أوغسطس يطلق حملته على بلاد العرب (وهي حملة إيليوس جالوس، سالفة الذكر) هو ما سمعه عن ثراء العرب الفاحش، فقد كانوا يبيعون الطيوب والأحجار الكريمة في مقابل الذهب والفضة، ولا ينفقون شيئًا من ذلك[١٠]. ويضيف استرابون مقولته الشهيرة عن الإمبراطور أوغسطس إنه كان يتطلع إلى أن يتعامل مع أصدقاء أثرياء، أو أن يسيطر على أعداء أثرياء.

ولننظر إلى ما ذكره الكاتب الموسوعي بلينيوس الأكبر، في الكتاب السادس من موسوعته ("التاريخ الطبيعي"، ٦/٣٢/١٦١) من أن السبئيين كانوا أكثر العرب ثراءً، بسبب إنتاج الطيوب، والذهب، ووفرة الأراضي الزراعية، وإنتاج العسل والشمع. ويضيف بلينيوس، في الكتاب الثاني عشر، من موسوعته ("التاريخ الطبيعي"، ١٢/٤١) سببا آخر، وهو اللآليء، كل هذه المقومات مجتمعةً تجعل من بلاد العرب، في هذا القسم الجغرافي، سعيدة.

وفي عبارة تحمل الكثير من الدلالات، يقول بلينيوس ("التاريخ الطبيعي"، ٦/٣٢/١٦٢) عن العرب إنهم من أكثر أجناس العالم ثراءً[١١]، نظرًا لما يتجمع في أيديهم من ثروات آتية إليهم من الرومان والبارثيين، مقابل ما يبيعونه لهم

مما يستخرجونه من البحر، أي اللآليء، ومن منتجات الغابات، أي الطيوب. ويضيف بلينيوس عبارةً ربما حملت قدرًا من المبالغة، ولكنها مبالغة لا تخلو من دلالة[١٢]، وهي أن العرب لم يشتروا شيئًا في المقابل. وليس من المقبول و لا من المعقول تصديق أن العرب لم يستوردوا شيئا، ولكن من الواضح أن صادرات العرب كانت تفوق وارداتهم[١٣].

وقد جاء الشعر الروماني دليلاً إضافيًا يؤكد تلك النظرة إلى بلاد العرب. فها هو الشاعر الأوغسطي هوراتيوس يستهل القصيدة التاسعة والعشرين، من الكتاب الأول من "الأغاني"، بحديث عن كنوز بلاد العرب، ويطلق عليها تعبير:

..beatis…gazis (Odes, I. 29. 1-2)

"الثروات..السعيدة"

وصفة السعيدة هنا فيها إشارة إلى ما أطلق على جنوب الجزيرة العربية من أنها بلاد العرب السعيدة، على نحو ما ذكرت آنفًا.

ومرةً ثانيةً، في موضع آخر من العمل نفسه، يذكر هوراتيوس، في القصيدة الثانية عشرة من الكتاب الثاني، أمثلة للثراء شائعة في العالم القديم، ويذكر من بينها:

Plenas…Arabumdomos. (Odes, 2. 12. 24)

"بلاد العرب.. العامرة بالخيرات"

وفي موضع ثالث، من العمل نفسه أيضًا، في القصيدة الرابعة والعشرين من الكتاب الثالث، حين يذكر هوراتيوس ثروات العرب، يقول عنها:

Intactis…thesauris Arabum. (Odes, 3. 24. 1-2)

"كنوز العرب.. التي لم تمس".

ولعل الشاعر يقصد هنا بقوله: intactae "لم تمس"، أن الرومان لم يصلوا إليها بعد، وأن غير الرومان لم يغزوها من قبل. أما إذا ما كانت هذه القصيدة قد نظمت في وقت لاحق لحملة إيليوس جالوس، سالفة الذكر، فتكون الصفة intactae "لم تمس"، هي إشارة من الشاعر إلى الفشل العسكري للحملة.

والأرجح أن نظم هذه القصيدة كان سابقا على الحملة، حيث إنه من الصعب قبول أن الصفة "لم تمس"، التي ذكرها الشاعر، جاءت في وقت فاخر فيه الإمبراطور أوغسطس في "المنجزات" Res Gestae، بأن حملة إيليوس جالوس سارت "بأمره وتحت رعايته": meo iussu et auspicio، بل وفاخر بأنها ألحقت الخسائر بجيوشهم، واستولت على عدة مدن:

"magnaeque hostium gentis utriusque copiae caesae sunt in acie et complura oppida capta". (Res Gestae, 26.5)

ولنا أن نتأمل لغة التكرار[١٤] التي عمد إليها الشاعر هوراتيوس، في هذه المواضع الثلاثة، وكأني بالشاعر هنا يمهد لما يعرضه بعد ذلك من أمنية متفائلة، أنهى بها إحدى قصائده: (Odes, 1. 35. 38-40)، وهي أن يوجه الرومان أسلحتهم ferrum ضد العرب Arabas. ولعل الشاعر هنا يجمع بين الحس الفردي، والشعور الرسمي في آن واحد.

كان هوراتيوس، كغيره من الشعراء الأوغسطيين[١٥] ينظرإلى الحروب على أن الدافع من ورائها هو الجشع، لذلك نراه في القصيدة التاسعة والعشرين من الكتاب الأول من "الأغاني"، حين خاطب صديقه إكيوس، الذي كان يعد نفسه للخروج إلى الحرب، لم يذكر ما يدل على أن صديقه كان يؤدي واجبه نحو الإمبراطورية، وإنما أشار إلى تطلعه إلى ثروات بلاد العرب

: Icci, beatis nunc Arabum invides

Gazis,...

(Horatius, Odes, I.29.1-2)

"أيا إكيوس، أتنظر الآن بعين الحسد إلى ثروات بلاد العرب السعيدة"

أي أن ثروات بلاد العرب كانت مطمعاً لكل متطلع إلى الثروة ومطمحاً.

ثانيا: البخور والطيوب والتوابل، التي تأتي إلى روما من بلاد العرب:

اشتهرت الجزيرة العربية قديما بنباتاتها مثل المر، واللبان، والقرفة، والقصيعة، واللادن. وأفاضت المصادر الكلاسيكية في الحديث عنها، منذ زمن المؤرخ الإغريقي هيرودوتوس (منتصف القرن الخامس ق.م). ومن أشهر المصادر في هذا الشأن ما كتبه ثيوفراستوس Theophrastus باستفاضة عن نباتات بلاد العرب ("عن تاريخ النباتات" ٩/ ٤-٥) [١٦]. وقد وجدت هذه المعلومات صداها في الشعر الروماني.

يخبرنا الشاعر الأوغسطي فرجيليوس Vergilius، في قصيدته *"الزراعيات"* *Georgica*، في سياق حديثه عن أماكن زراعة الأشجار المختلفة، أن:

"شجرة البخور توجد في إقليم سبأ فقط":

Solis est turea virga Sabaeis.
(Vergilius,*Georgica*, 2. 117)

والمعلومة ذاتها، ترد عند الكاتب الموسوعي بلينيوس الأكبر، في موسوعته (*"التاريخ الطبيعي"* 12/29/51-52)، حيث يقول:

"لا يوجد مكان آخر ينتج البخور سوى بلاد العرب":

tura praeter Arabiam nullis

ثم يستدرك قائلا:

"وليست كل بلاد العرب منتجة له":

ac ne Arabiae quidem universae

وإنما إقليم ساريبا Sariba التابع لسبأ، فقط.

ما إن اقترب القرن الأول ق.م. من نهايته إلا وكانت حدود الإمبراطورية الرومانية قد اتسعت شرقًا وغربًا، بصورة فاقت أية إمبراطورية

أخرى سابقة عليها. وصارت روما بحق سيدة البحر المتوسط، مما هيأ لها السيطرة على طرق التجارة المتصلة به. وتمتع المجتمع الروماني بفترة من الازدهار الاقتصادي، وعرفت سلع الرفاهية طريقها بجرأة إلى روما[١٧]. ومن ثم لعبت التجارة الشرقية، بصفة خاصة، دورًا رئيسًا في الحياة الاقتصادية في روما في العصر الإمبراطوري، فإلى جانب استيراد المواد الضرورية كالقمح والأخشاب، قام الرومان باستيراد مواد الترف، كالعطور، والتوابل، والبخور، والأحجار الكريمة، واللآليء، وما إلى ذلك من بلاد العرب، ومن الشرق الأقصى، وكذلك من إفريقيا[١٨]. وصار المجتمع الروماني مجتمعًا استهلاكيًا، من الدرجة الأولى، لمواد الترف، مما حمل ميزانية الدولة مبالغ باهظةً لتغطية تكاليف استيراد هذه المواد، الأمر الذي تؤيده شهادة الكاتب بلينيوس الأكبر، حيث يقول في ("التاريخ الطبيعي"، ٨٤/٤١/١٢) إن استيراد سلع الترف من الهند والصين وبلاد العرب يكلف الإمبراطورية الرومانية سنويًا مائة مليون سيستركيس على الأقل[١٩]. ولا شك أن هذا المبلغ كان كبيرًا بمعايير ذلك العصر بدليل أن بلينيوس أضاف عبارة أن رجلا مثل كاتو[٢٠] Cato لينتابه الفزع لمثل هذا الإسراف في الأموال، وهو الرجل المعروف بمحاربته للتبذير والإسراف.

ولا ريب أننا حين نكون بصدد الحديث عن التجارة، التي هي أحد أعمدة الاقتصاد في الإمبراطورية الرومانية[٢١]، فلا مناص من الاعتماد على الشعر الأوغسطي كأحد المصادر في هذا المجال. فمن الموضوعات المهمة التي عني الشعراء الأوغسطيون بالنظم فيها، حياة الترف والرفاهية التي عاشها المجتمع الروماني، منذ بداية عصر الإمبراطور أوغسطس، ومن هنا جاء حديث الشعراء الرومان عن استيراد مواد الترف من بلاد العرب، حتى أن روما صارت إحدى المدن الرئيسة في العالم القديم استهلاكًا لتلك المواد. ويأتي البخور واحدا من منتجات بلاد العرب الشهيرة التي ورد ذكرها في الشعر الروماني، نظرًا لاستخداماته العديدة.

يقول الشاعر الروماني تيبولوس، في قصيدة مهداة لأحد أصدقائه، بمناسبة عيد ميلاده، إن من مظاهر الاحتفال بعيد الميلاد العادة التالية:

Urantur pia tura focis, urantur odores
Quos tener e terra divite mittit Arabs.
(Tibullus, 2.2 3-4)

"يحرق البخور المقدس في النار، وتحرق الطيوب التي أرسلتها بلاد العرب الناعمة من أرضها الثرية".

ويؤكد تيبولوس، في موضع آخر، ذات الفكرة، عن المنتجات التي ترسلها بلاد العرب الثرية. ويذكر اسم مدينة باناكيا Panachia الثرية، وهي جزء من العربية الميمونة Arabia Felix ، اشتهرت بالبخور: (3.3 23-24).

ولعل من الخصائص المكملة لحياة الترف في روما، مصاحبة الفتيات، وما يتطلبه ذلك من نفقات على ثيابهن الفاخرة، وعلى أدوات الزينة، والعطور، والحلي، التي تهدى إليهن، وما إلى ذلك. ومن هنا يأتي ذكر بلاد العرب. وفي هذا السياق يتحدث الشاعر تيبولوس، في إحدى قصائده، وهي القصيدة الثامنة من الكتاب الثالث، عن فتاة حازت إعجابه، قائلاً:

sola puellarum digna est cui mollia caris
vellera det sucis bis madefacta Tyros,
possideatque, metit quidquid bene olentibus arvis
cultor odoratae dives Arabs segetis,
([Tib.] 3.8.15-20)

"هي الوحيدة من بين جميع الفتيات، التي تستحق أن تمنحها (مدينة) صور الصوف الناعم المغمور مرتين في السائل عالي الثمن، و(تستحق) أن تمتلك ما يرسله العربي الثري، زارع المحصول العطر، في الحقول طيبة الرائحة".

ولا يخفى على القارىء أن صفة الثراء، التي وردت في النص سالف الذكر، كانت ملازمةً لذكر العرب دومًا في الشعر الروماني، على نحو ما رأينا في القسم الأول من هذه الدراسة. والمحصول العطر الذي يشير إليه الشاعر هنا هو الطيوب، التي اشتهر العرب بإنتاجها، وهذا ما حدثتنا عنه المصادر القديمة. ولعل وصف تيبولوس، في النص سالف الذكر، لحقول بلاد العرب بأنها طيبة الرائحة يعكس العبارة التي ذكرها المؤرخ الإغريقي هيرودوتوس في تاريخه (٣/ ١١٣) من أن رائحة عطرية عبقة تفوح من أرض بلاد العرب[٢٢].

يهاجم الشاعر الروماني بروبرتيوس Propertius، في واحدة من أبدع قصائده، وهي القصيدة الثالثة عشرة، من الكتاب الثالث من ديوان أشعاره، ولع النساء الرومانيات بمظاهر الترف، الذي صاحبه التدهور الأخلاقي. ويطالعنا في مستهل القصيدة بمخاطبة جمهور قرائه، قائلا:

quaeritis, unde avidis nox sit pretiosa puellis,
et Venere exhaustae damna querantur opes.
Certa quidem tantis causa et manifesta ruinis:
luxuriae nimium libera facta via est .
(Propertius, 3.13.1-4)

"تتساءلون لماذا صارت ليالي الفتيات الجشعات مكلفةً، ولماذا تشكو خزائننا، التي جف معينها بسبب (إلهة الحب) فينوس، من النقصان. السبب في مثل هذا الدمار الكبير مؤكد وواضح حقًا: فقد صار طريق الترف حراً تماماً".

ومقصد الشاعر من قوله "صار طريق الترف حرًا تمامًا" أي صار باب استيراد سلع الترف والبذخ مفتوحًا على مصراعيه أمام روما[٢٣]. ثم يعدد الشاعر منتجات الرفاهية، التي ترد إلى روما من الشرق، ولا يفوته أن يذكر من بينها القرفة والعطور من بلاد العرب:

cinnamon et multi pistor odoris Arabs.

(Propertius, 3.13.8)

"القرفة يرسلها العربي، طاحن الطيوب الثرية".

ويوجز الشاعر الواقع الروماني، في عبارة بنهاية القصيدة يتنبأ فيها بمصير روما، التي استوردت هذه الرفاهية من الشرق، فيقول:

frangitur ipsa suis Roma supreba bonis .

(Propertius, 3.13.60)

"روما المتغطرسة، ذاتها، ستدمر بثرواتها".

وإذا ماانتقلنا إلى الشاعر الروماني أوفيديوس Ovidius، نجده في واحدة من قصائده "رسائل البطلات"، يجعل بطلته تكتب لحبيبها رسالة تعبر فيها عن بؤسها في غيابه، وأحد مظاهر هذا البؤس أنها لم تعطر شعرها بمنتجات بلاد العرب:

non Arabum noster dona capillus habet.

(Ovidius, *Heroides*, XV. 70)

"يفتقر شعري إلى هدايا العرب".

والمقصود بهدايا العرب في البيت السالف هو الزيوت العطرية المستوردة من بلاد العرب، والتي كانت المرأة الرومانية مولعةً باستخدامها[٢٤]. وجدير بالذكر أن أي حديث عن زينة المرأة الرومانية لا يعد كاملاً بدون الإشارة إلى عناية المرأة بشعرها كي تجذب الرجل إليها. ومن هنا صارت العطور العربية جزءًا لا يتجزأ من ثقافة المرأة الرومانية فيما يتعلق بزينتها من أجل الرجل.

يوضح الشعر الروماني، على نحو ما رأينا، نوعًا من الصلات التي كانت قائمةً بين العرب والرومان. وأستطيع أن أزعم أن الشعر الروماني يعد مصدرًا له طرافته في ذات الوقت. ورغم أن الشعر الروماني لا يقدم معلومات تاريخية، أو جغرافية وفيرة، فالإيجاز هو الطابع الغالب على لغة هؤلاء الشعراء، وفي

تعبيراتهم عن بلاد العرب، ورغم أنهم لا يتحدثون عن السياسة، أو الإدارة، أو النظم، وما إلى ذلك، في بلاد العرب، فليس لنا أن نلوم هؤلاء الشعراء على اختيارهم لبعض الأمور دون غيرها لتكون مجالاً لنظمهم، فالفن انتقاء.

وقد جاء هذا الشعر ذا طابع اجتماعي، يحمل في طياته معلومات اقتصادية باعتبار أن لها من التأثير على المجتمع الروماني ما لا يمكن تجاهله بحال، ولا عجب في ذلك، وقد اعتمد المؤرخون على كتابات بلينيوس الأكبر ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي. أليس من المناسب إذن ان يعتمد المؤرخون كذلك على الشعر الروماني الذي يحمل الخصائص ذاتها؟

وخلاصة القول إنه إذا تجاوزنا حدود الإبداع، وقضايا الشكل الفني، والصياغة الجمالية، بما تقتضيه من مظاهر فنية، كالمجاز والتصوير والمبالغة، فإن ما أعزوه للشعر الروماني من قيمة تاريخية يجد له سندًا في المصادر الكلاسيكية الأخرى، على نحو ما رأينا، بالإضافة إلى قيمة هذا الشعر التي تنبع من الفترة التي عاصرها.

وفي النهاية أقول إنني لا أدعو إلى اتخاذ الشعر قاعدة للتأريخ، وإنما أدعو إلى الاستناد إليه في دعم الموقف والتدليل عليه، فقد يحتاج المؤرخ إلى رؤى أخرى تؤكد ما لديه من شواهد، وهذا ما يقدمه لنا الشعر.

الهوامش :-

(١) من العبارات الطريفة عن العلاقة المتبادلة بين الأدب والتاريخ، تلك التي قالها هابينيك:

T. Habinek, *The Politics of Latin Literature: Writing, Identity, and Empire in Ancient Rome* (Princeton 1998) 5: " But for all that literature is part of history, it seems important to recognize that history can be part of the pleasure of literature".

Cf .B. Southgate, *History: What and Why* (Routlege, 1996) 14 f.; P. Hardie, "The Historian in Ovid. The Roman History of Metamorphoses 14-15", in: D. S. Levene & D. P. Nelis (eds.), *Clio and the Poets: Augustan Poetry and the Traditions of Ancient Historiography*, 191-209.

انظر كذلك:

عبد الله التطاوي، *الشاعر مؤرخا* (دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦).

(٢) انظر، على سبيل المثال، لطفي عبد الوهاب يحيى، *العرب في العصور القديمة*، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩)، ص ص ٢٣٨ – ٢٨٥.

(٣) انظر، على سبيل المثال، عزالدين إسماعيل، *في الشعر العباسي*، (المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤) ص ص ١٥ وما بعدها، ١١٩ وما بعدها.

(٤) انظر: بول فين، *أزمة المعرفة التاريخية: فوكو وثورة في المنهج*، ترجمة وتقديم إبراهيم فتحي (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣).

(٥) جدير بالذكر أن الاهتمام بشبه الجزيرة العربية قد ظهر بصورة واضحة اعتبارا من القرن الخامس ق.م.، وتزايد فيما بعد، وكان هناك أكثر من سبب وراء هذا الاهتمام المتزايد، ولعل أهم هذه الأسباب جميعا فتوحات الإسكندر الأكبر، واعتزامه غزو هذه المنطقة، بل والاستعداد الفعلي لذلك. ولكن حال موته المفاجىء في ٣٢٣ ق.م دون تحقيق هذه الخطوة.

انظر: لطفي عبد الوهاب يحيي، "الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية"، دراسات *في تاريخ الجزيرة العربية*، الكتاب الأول، جـ ١: *مصادر تاريخ الجزيرة العربية*، (الرياض، ١٩٧٩)، ص ص ٥٥ وما بعدها. عن اهتمام الإسكندر الأكبر والبطالمة من بعده ببلاد العرب، انظر:

محمد عبد الغني، *شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة*، (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩) ص ص ١٧ وما بعدها.

(٦) المقصود بالشعراء الأوغسطيين العظام: فرجيليوس (٧٠- ١٩ ق.م)، هوراتيوس (٦٥- ٨ ق.م)، تيبولوس (من حوالي ٥٥- حوالي ١٩ ق.م)، بروبرتيوس (من حوالي ٥٤- ١٦ ق.م))، أوفيديوس (٤٣-١٧ ق.م).

(٧) أول تقسيم دقيق ورد للجزيرة العربية في الكتابات الكلاسيكية ذلك الذي قدمه الجغرافي إيراتوستنيس Eratosthenes (٢٧٥- ١٩٤ ق.م). وقد قسمها إلى "العربية الصحراوية" في الشمال، و"العربية الميمونة" وتمتد من الوسط إلى أقصى الجنوب. وقد وصلتنا كتاباته عن طريق الجغرافي استرابون (Strabo,*Geographica*, XVI.4.2, 3, 4). أما بلينيوس فقد حدثنا عن أربعة مناطق أطلق عليها اسم "العربية": ("التاريخ الطبيعي"، ٥/١٢/٦٥؛ ٥/١٥/٧٢؛ ٥/٢/٨٥). لتحليل وصف بلينيوس المعقد للعربية، انظر: هنري ماك آدم، "استرابون، بلينيوس الكبير، بطلميوس الإسكندري: ثلاثة تصورات عن العربية القديمة وشعوبها، ترجمة مصطفى العبادي، *رسائل جغرافية*، ١٤٦(الكويت، ١٩٩٢) ص ص ٨ وما بعدها.

(٨) في موضع آخر ("التاريخ الطبيعي"، ٦/٣١/٣٨) أطلق بلينيوس، على هذه المنطقة، مسمى "العربية المباركة" Arabia Eudaemon. وفي موضع ثالث من نفس العمل (١٢/٣٠/٥١) تحدث بلينيوس عن "الأسباب التي منحتها لقب المباركة والسعيدة":
(causasque quae cognomen illi felicis ac beatae dedere).

(٩) انظر مناقشة تاريخ بداية هذه الحملة ونهايتها في:
S.Jameson, "Chronology of the Campaigns of Aelius Gallus and C. Petronius", *JRS*, vol. 58 (1968) 76 ff.

(١٠) يعتبر باورسوك، وهو واحد من أشهر الدارسين الذين كتبوا في تاريخ بلاد العرب القديم، أنه من المؤكد أن الإمبراطور أوغسطس كانت لديه، في تلك المرحلة، اهتمامات توسعية للسيطرة على التجارة الثرية للتوابل والطيوب، من أجل ذلك أرسل حملة إيليوس جالوس على بلاد العرب الجنوبية، انظر:
G. W. Bowersock, "A Report on Arabia Provincia", *JRS*, vol. 61 (1970) 227.

(١١) انظر كذلك المثال، الذي مر بنا آنفا، فقد ذكر بلينيوس في ("التاريخ الطبيعي"، ٥/١٢/٦٥) أن هذه المنطقة اشتهرت بثروتها: divitem... inclutam. وفي ("التاريخ الطبيعي"، ١٢/٣٠/٥١) كذلك يتحدث بلينيوس عن"ثروات العربية": Arabiae divitias. انظر كذلك: بلينيوس ("التاريخ الطبيعي"، ١٢/٤١/٨٢).

(١٢) لم تكن هذه هي المبالغة الوحيدة في المصادر القديمة عن ثراء العرب، هناك ما أورده استرابون في (١٩/٤/١٦)، على لسان كل من أجاثارخيديس Agatharchides، وأرتميدوروسArtemidoros ، عن حياة الترف والبذخ عند السبئيين والجرهائيين.

(١٣) يعلق ماك آدم (١٩٩٢) ص ١١، على هذه العبارة بقوله: "ليس هناك في "التاريخ الطبيعي" مثال آخر أكثر دلالة أن بلينيوس كان مشغولا باختلال ميزان المدفوعات، كما يشغل به بعض علماء الاقتصاد اليوم".

انظر كذلك مناقشة عبارة بلينيوس في: محمد عبد الغني (١٩٩٩) ص ص ١٨٩ وما بعدها، وحاشية ٤٦ ص ٢٠٠.

(١٤) حين أراد هوراتيوس أن يؤكد إصراره على حريته في (*الرسائل*" ١/٧/٣٥-٣٦) وأنه لا يرضى عنها بديلا، تخير بديلا قويا، يمكن أن يضعف أمامه أي شخص من معاصريه، ألا وهو ثروات بلاد العرب، يقول الشاعر: "لن أستبدل راحتي وحريتي بكل ثروات بلاد العرب". يعلق ستار على هذا الموقف بقوله إنه يوجد إحساس خفي في "رسائل" هوراتيوس بأن حرية الشاعر الفكرية، بل والحرية الحقيقية للإنسان صارت في خطر داهم بسبب إغراءات هدايا الذهب:

C. G. Starr, *Civilization and the Caesars* (Ithaca & New York, 1954) 191.

(15)Cf. Tibullus, I. 10. 7; II.3. 35 f.; Propertius, III. 5. 3 f.

(١٦) انظر الدراسة التالية:

سهير زكي بسيوني، "ثيوفراستوس ونباتات شبه الجزيرة العربية"، *مجلة كلية الآداب*، جامعة الإسكندرية، مجلد ٣٨ (١٩٩٠).

(١٧) هذه الحالة التي عبر عنها توماس هابينيك خير تعبير بقوله إن روما صارت هي العالم، لأن العالم صار عليه آنذاك أن يأتي إلى روما، انظر:

Thomas Habinek, "The Invention of Sexuality in the World-City of Rome", in: T. Habinek & A. Schiesaro (eds.), *The Roman Cultural Revolution* (Cambridge, 1997) 26.

(١٨) عن علامات الرفاهية الآتية إلى روما من الشرق، انظر:

J. Griffin, "Augustan Poetry and the Life of Luxury", *JRS*, vol. 66(1976) 92 ff.

(١٩) لم يكن إرسال هذه المبالغ الكبيرة إلى الشرق دليلا على عدم التوازن في تجارة سلع الرفاهية فحسب، بل هناك رأي بأن روما مارست بهذه الطريقة نوعا من المضاربة من أجل تحقيق مصالح بعيدة المدى، تأكيدا لسيادتها ومكانتها عبر البحار، انظر في ذلك:

E.W. Gray, Rev.of J. Miller, *The Spice Trade of the Roman Empire*, (Oxford, 1969), in: *JRS*, vol. 60 (1970) 223 f.

(٢٠) المقصود هنا ماركوس بوركيوس كاتو، الخطيب الروماني الشهير (ولد عام ٢٣٤ ق.م.). انظر:

أحمد عتمان، *الأدب اللاتيني ودوره الحضاري حتى نهاية العصر الذهبي* (دار المعارف، ١٩٩٥) ص ص ١٢١ وما بعدها.

(٢١) عن التجارة كعامل رئيس في الحياة الاقتصادية في الفترة الأولى من الإمبراطورية الرومانية، انظر:

م. رستوفتزف، *تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي*، ترجمة ومراجعة: زكي علي ومحمد سليم سالم (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧) ص ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢٢) للمعنى نفسه، انظر كذلك: ديودوروس الصقلي (٣/٤٦).

(٢٣) يلفت كلارك أنظارنا إلى مسألة عدم تحبيذ الشعراء الرومان للتجارة ويعلق على هذا الموقف بقوله إنه في حين رحب الرجل العادي والسلطات في روما بازدهار التجارة الذي تبع انتشار السلام، نجد ان طبقة المفكرين كانت تميل إلى فكرة الاكتفاء الذاتي وإدانة دعوة التجار على اعتبار أن الدافع من ورائها هو الجشع. ويضيف كلارك قائلا إننا بذلك نلاحظ لدى الكثيرين من الكتاب الأوغسطيين مقابلة حادة بين المجتمع الذي يعيشون فيه والذي قبلوه وأيدوه، من ناحية، وبين نظرتهم الأخلاقية، من ناحية أخرى، انظر:

M. L. Clarke, *The Roman Mind* (The Norton Library, 1968) 101.

(24) Cf. Propertius, 1.2.3.

دفع الشبهات وما حوّم حول أحمد بن ماجد من تُرّهات

عُبادة كُحيلة *

أسد البحار شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي ملاح عربي نابغة، أشهر من أن يعرَّف به، وقد وصف نفسه في صفحة العنوان بكتابه " الفوائد " بأنه " رئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله ".

من عجب أننا لا نعلم الكثير عن حياته، وهو في مؤلفاته الكثيرة التي تناهى إلينا بعضها، لا يأتي بما يفيد عن حياته، ومن الثابت أنه ينتمي إلى أسرة لها باع كبير بركوب البحر، ولأبيه مصنف يعرف " بالأرجوزة الحجازية " في نيف وألف بيت، استدرك هو عليه.

ولد أحمد بن ماجد حوالي سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م[١] أو في سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٥م [٢] بجُلْفار (أو جُرْفار وهي رأس الخيمة الحالية) وأخذ بمقود السفينة، وهو بعد في السادسة عشر من عمره، وظل لسنين يتنقل بين شواطئ ما نعرفه اليوم بالمحيط الهندي، وخرج علينا قبل وفاته حوالي سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م باثنين وثلاثين إلى خمسة وثلاثين مؤلفاً[٣].

على أن مؤلف أحمد بن ماجد الرئيس " الفوائد في أصول علم البحر والقواعد " الذي أخرجه في العام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م، بعد أن نقحه عدة مرات [٤] وهو معلمة بحرية واسعة تتضمن اثنتى عشرة فائدة (أي فصلاً).

وإذا كان ابن ماجد قد استخدم لغة النثر في كتابه " الفوائد " فإنه استخدم لغة الشعر ونعني بها هنا الرجز في سائر كتبه، وهي تتناول موضوعات متفرقة، لكنها تدور في إطار المرشدات البحرية السپورتولانية[٥].

---

* كاتب ومؤرخ. أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة. محرر الكتاب

أهم تلك الكتب هي " حاوية الاختصار في أصول علم البحار " وهو أول مؤلفاته و" ثلاث أزهار في معرفة البحار "[٦].

عنى بتراث هذا الملاح العظيم وقام على دراسته ونـشره المستـشرق الفرنـسي فيـرّان G.Ferrand والمستـشرق الروسـي شوموفـسكي T.Shumovski.

يقول فيران[٧]:

" إن كتاب الفوائد يدعو إلى الإعجاب، وأعتبره ذروة التـأليف الفلكـي الملاحي لعصره، كما أعتبر ابن ماجد أول مؤلف للمرشدات الملاحية الحديثـة، ووصفه للبحر الأحمر لم يفقه ولم يعادله – باستثناء بعض التـصحيحات فـي العروض – أي مرشد أوروبي في الملاحة الشراعية، كما أن معلوماتـه عـن الرياح الموسمية والرياح الملاحية وطرق الملاحة الساحلية والبعيـدة المـدى، تتميز بأقصى درجة من الدقة والتفصيل، يمكن أن نتوقعها في ذلك العصر ".

لذلك يعد أحمد بن ماجد هو مؤسس علوم البحار Oceanographia[٨]، سبقت مؤلفاته مؤلفات أقدم أوقيانوغرافي غربي، وهو لويجي فرناندو مارسيللي Luigi Fernando Marsigli بسنوات مديدة [٩]، كما يعد " الفوائد " مـصدراً رئيساً من مصادر سيدي علي ريس (٩٧٠هـ/١٥٦٢م) أمير البحر التركي في كتابه " المحيط " الذائع الصيت عند الأوربيين[١٠].

تناهت مرشدات ابن ماجد إلى البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين، مثلما تناهت مرشدات غيره من المسلمين، ومن الملاحظ أن أول مؤلفاته وهو حاويـة الاختصار يعود – كما ذكرنا – إلى سنة ٨٩٦هـ/١٤٦٢م، أي قبـل مقـدمهم بنيف وثلاثين سنة.

نعرض الآن لنظرية مهمة، مؤداها أن أحمد بن ماجد كان دليل داجاما في رحلته من مَلِنْدَه على ساحل الزَّنْج إلى قاليقوط على ساحل مليبار في بلاد الهند.

في أول الفصل الثاني من كتابه " البرق اليماني في الفتح العثماني " يقول قطب الدين النهروالي(١١)

"وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفُرْتقال اللعين(١٢)، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند، وكان طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ويلجون في الظلمات، ويمرون بموقع قريب من جبال القمر – بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أي أبيض، وهي مادة اصل بحر النيل – ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقربه سفائنهم وتتكسر ولا ينجو منهم أحد(١٣). واستمروا على ذلك مدةً، وهم يهلكون في ذلك المكان، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن خلص منهم غراب(١٤) إلى الهند، فلازالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر، إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له إلى ملندي (١٥)، وعاشره في السكر، فعلمه الطريق في حال سكره. وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند، وبنوا كوة(١٦) من بلاد الدكن قلعة يسمونها توتا، ثم أخذوا هرموز(١٧)، وتقووا هنالك، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال، فساروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ".

يذهب نفر من الفرنج إلى أن نص النهروالي واضح من حيث نسبته إرشاد البرتغاليين إلى أحمد بن ماجد. ويحاول فيران[١٨] أن يوفق بين هذا النص وبين ما ورد في المصادر البرتغالية من أن الذي ارشدهم رَبَّان مسلم من أهل كَجرات Cujarat (بالهند) اسمه المعلم كاناكا (أو كانا) Malemo Canaqua (Cana) وأنه قاد داجاما إلى ملندة (في كينيا الحالية) في يوم الثلاثاء ٢٤ من أبريل ١٤٩٨، فوصل إلى قاليقوط (على ساحل مليبار) في يوم الأحد ٢٠ من مايو من العام نفسه. ويذهب إلى أن ماليمو تعني باللغة السواحلية (وبعض أصولها عربية) الشخص الماهر، أما كاناكا فليست اسماً، إنما هي صفة مستمدة من اللفظة السنسكريتية Ganika وتعني الحاسب أو المنجم، أما عن أنه مسلم من كَجرات، فلأن ابن ماجد كان يعطيها اهتماماً خاصاً في مؤلفاته، وربما كانت مركزاً لرحلاته البحرية[١٩].

مما يعزز ما يذهب إليه فيران أن النهروالي عاش في زمن قريب من زمن ابن ماجد، فقد ولد في سنة ٩١٧هـ/١٥١١م، ومات في سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٢م، كما أن كتابه " البرق اليماني " يعود تأليفه إلى سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٧م.

تحمس لهذه النظرية – التي ما يزال الفرنج يتمسكون بها – عدد من العرب، ووجدوا فيها مدعاةً لزهوهم[٢٠]. على أنه يتضح لدينا أن هذه النظرية غير صحيحة.

١- فالنهروالي تفرد بين كتاب عصره بهذه الرواية، ولا نجد خبراً عنها عند سليمان المهري (ت قبل ٩٦١هـ/١٥٥٤م) في " العمدة المهرية " ولا زين الدين (ت بعد ٩٩١هـ/١٥٨٣م) في " تحفة المجاهدين "، وكان قميناً بسيدي علي ريس – وهو شبه معاصر لابن ماجد – أن يشير إليها، خصوصاً وأنه نفسه كان له دور في مناهضة البرتغاليين، فضلاً عن أن كتب ابن ماجد – باعترافه – كانت مصدراً رئيساً من مصادر كتابه " المحيط "[٢١].

٢- ولا يرد اسم ابن ماجد في المصادر البرتغالية، رغما عن سهولة نقله إلى لغتهم، حتى وإن أتى هذا النقل محرفاً، والجدير بالذكر أن البرتغاليين كانوا حريصين على ذكر أسماء من كانوا يعاونونهم في المشرق والمغرب معاً، وبعض هؤلاء كانت أسماؤهم أصعب في نقلها إلى البرتغالية من اسم ابن ماجد[٢٢].

ننوه هنا إلى ان أميرنا المكرَّم سلطان بن محمد القاسمي - نضَّر الله أيامه وأبقاه- له كتاب وسمه " ببيان للمؤرخين الأماجد في براءة ابن ماجد"[٢٣] عاود فيه الوثائق البرتغالية، وهو ما لم يتهيأ لنا، وتوصل فيه إلى ما توصلنا إليه، ويزيد علينا بأن كاناكا هذا ليس مسلماً إنما هو نصراني من أهل كَجرات.

٣- ولا يشير ابن ماجد إلى تلك الواقعة في كتبه، برغم من غزارة إنتاجه، وبرغم من إشارته إلى البرتغاليين في غير موضع من كتبه، وهو في تلك الإشارات، يرتبط ذكرهم عنده بذكريات غير طيبة.

يقول في الأرجوزة السُّفالية، وتعود إلى سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، وهو يصف وصول البرتغاليين إلى الهند [٢٤] :

وجالكاليكوت خذ ذي الفايدة   لعام تسعماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما   والسامري برطله وظلما
وسار فيها مبغض الإسلام   والناس في خوف واهتمام

وفي الأرجوزة المعلقية يقول [٢٥] :

يزوج الكافر مسلمات   ويأخذ المسلم كافرات
إن قلت كفاراً فما هم كفرة   أو قلت إسلاما فغير مخبره
عندهم السرقة قد سنوها   بينهم فليس ينكروها
ويأكل الكلب لحم المسلم   ما بينهم فليس فيهم محتم
ويشربون الخمر في الأسواق   ولا يصلون على الإطلاق

٤- ومع خبرة ابن ماجد العظيمة ببحر الهند، إلا أنه لدى وصول البرتغاليين إلى ملندة كان شيخاً كبيراً في السبعين أو نحوها، أي إنه صار في سن لا تسمح له ببذل الجهد في مرافقتهم، ونعلم أنه حول هذه السن كف عن تأليف مرشداته الملاحية.

٥- بدأت رحلة داجاما في ٢٤ من إبريل، وكان شهر رمضان قد بدأ قبل ذلك بأيام [٢٦]، فكيف يجوز لشيخ كبير أن يعاقر خمراً في شهر الصيام، وهو من هو في تمسكه بأهداب هذا الدين القيم.

يقول في الفوائد[٢٧] الذي ألفه قبل مقدم البرتغاليين بسنوات قليلة :

" وينبغي أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة، فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل، فلا تغفل عن ذكره، فإنه شديد العقاب، وإنه لغفور رحيم، لأنه يمهل ولا يهمل، فلا يغرنك بالله الغرور ".

يتبين لنا مما سبق أن مرشد البرتغاليين إلى الهند، هو الشخص نفسه الذي ورد ذكره في كتبهم أي " المعلم كاناكا " ويلوح لنا أنه اسم دارج عند الهنود، فمن الأطباء الذين ورد ذكرهم في كتاب " الفهرست " لابن النديم (ت ٤٣٨هـ) [٢٨] هندي اسمه " كنكه " له أربعة كتب في الطب، كما كان على دراية بالنجوم.

أما أن يكون إرشاد ابن ماجد للبرتغاليين مدعاةً لزهو العرب، فالصحيح عكس ذلك تماماً، لأن أي ملاح أقصر قامةً من ابن ماجد، كان في إمكانه أن يقوم بهذه المهمة، خصوصاً وأن الطريق إلى بلاد الهند وبلاد أخرى أبعد من الهند كانت مطروقةً بالنسبة للعرب منذ آماد بعيدة، وتوافرت لديهم خبرة بها ودربة عليها، كما أن البرتغاليين ونظراءهم الإسبان كان لديهم تاريخ أسود مع المسلمين في بلاد الأندلس وفي بلاد المغرب، أعادوه مرة أخرى، حين أشعلوا النار في البحار الشرقية.

يبقى لنا أن نتساءل في نهاية تلك الأطروحة لماذا أتى النهروالي بهذه الرواية.

نعتقد أن الدافع إليها، هي أنه من عادة الناس أن ينسبوا االحوادث الكبيرة إلى شخصيات كبيرة، وكان اقتحام البرتغاليين للبحار الشرقية حادثةً كبيرةً، وكان ابن ماجد شخصيةً كبيرةً.

لا يبعد أيضاً أن يكون ولاء النهروالي للعثمانيين وثناؤه عليهم[٢٩] دافعاً للطعن في غيرهم[٣٠] وكان ابن ماجد ينتمي إلى عُمان، ولم تكن عُمان تنتمي إلى العثمانيين.

الهوامش :

(١) كما يذهب عبد الهادي التازي : ابن ماجد والبرتغال. مسقط. وزارة التراث ١٩٨٦. ص ص ٥٠-٥١.

(٢) كما يذهب أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح. القاهرة، دار الكاتب العربي ١٩٦٧. ص ص ٤٢-٤٤.

(٣) ثلاث أزهار في معرفة البحار. تحقيق ثيودور شوموفسكي. نشر محمد منير مرسي. القاهرة، عالم الكتب ١٩٦٩. ص ص ٧٧-٨٧.

(٤) كراتشكو فسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين هاشم. القاهرة ١٩٦٣ ج٢ ص ٥٧٤، عبد العليم : المرجع نفسه ص ١٤.

(٥) ثلاث أزهار : ص ص ٩٠-٩١ من دراسة شوموفسكي.

(٦) نشر فيران الحاوية ضمن الكتاب الجامع الذي يشمل الفوائد. باريس ١٩٢٢ أما ثلاث أزهار فقد حققها شوموفسكي في ١٩٥٧ ثم أعيد نشرها في القاهرة ١٩٦٩.

(٧) كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٧٧.

(٨) أو Oceanologia.

(٩) أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب. الكويت، عالم المعرفة١٩٧٩ ص٨

(١٠) راجع بشأنه كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢ ص ص ٥٨٢ – ٥٨٥، وانظر أيضاً ثلاث أزهار، ص ص ٧١-٧٢ من دراسة شوموفسكي.

(١١) ط١ أشرف على طبعه حمد الجاسر. الرياض، دار اليمامة ١٩٦٧. ص ص ١٨-١٩.

(١٢) أي البرتغاليون.

(١٣) يقصد " رأس الزوابع " الذي صار بعد ذلك " رأس الرجاء الصالح ".

(١٤) نوع من السفن.

(١٥) أي الملندي، وهو كما يذهب فيران تحريف للفظة البرتغالية Almirante وهو اللقب الذي كان يحمله داجاما. كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٧١.

(١٦) جوا Goa المستعمرة البرتغالية الرئيسة في بلاد الهند.

(١٧) هرمز وكانت مملكة عربية ذات نشاط بحري واسع.

(١٨) في مقال له في حوليات الجمعية الجغرافية بباريس وحذا حذوه شوموفسكي في سنة ١٩٥٧ عندما نشر ثلاث أزهار ص ص ٨٤-٨٨ وكذلك كراتشكوفسكي : مع المخطوطات العربية. ترجمة محمد منير مرسي. القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٦٩. ص ص ١٠٩-١١٥.

(١٩) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ج ٢ ص ص ٥٦٩-٥٧٣.

(٢٠) مثل أنور عبد العليم في كتابه " ابن ماجد الملاح " الذي صدر في ١٩٦٧، لكنه عدل عن رأيه في كتابه الآخر " الملاحة وعلوم البحار " الذي صدر في ١٩٧٩.

(٢١) كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢. ص ٥٧١، عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار. ص ٥٥.

(٢٢) التازي : المرجع نفسه، ص ص ٢١-٢٢.

(٢٣) الشارقة ٢٠٠٠.

(٢٤) ثلاث أزهار ص ٤٣.

(٢٥) المصدر نفسه ص ٦٥.

(٢٦) أول رمضان ٩٠٤هـ= ٢ من أبريل ١٤٩٨م.

(٢٧) ج٣ من نشرة فيران ورقة ٥٨ ظهر.

(٢٨) تحقيق رضا – تجدد. طهران ١٩٧١ص ٣٣٠. وانظر أيضاً " عيون الأنباء " لابن أبي أصيبعة. تحقيق نزار رضا. بيروت، مكتبة الحياة ١٩٦٥. ص ٤٧٣.

(٢٩) يقول عن السلطان مراد الثالث (٩٨٢هـ/١٥٧٤م – ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م) " واستمر فشملني بإنعام، وأنعم على أولادي بالتدريس، وأولاهم بكل إكرام وإحسان لطيف " ص ٣٦٢.

(٣٠) يصف هؤلاء بأنهم " عربان حمقى جهلاء ليسوا عقلاء، بل غفلاء ينخدعون بالكلام الباطل، ويصدقون بالمموهات الأباطل، فركبوا من عقولهم متن عمياء، وخبطوا خبط عشواء " ص ص ٣٦-٣٧.

أثر القواسم إبان تكوين الخليج العربى الحديث

خلف عبدالعظيم الميرى (*)

بدأ ظهور الكيانات السياسية الحديثة فى منطقة الخليج العربى فى العصر الحديث منذ منتصف القرن السابع عشر؛إبان فترة من الحِـراك السياسى التى كان يعيشها العالم؛ بما فيها منطقة الخليج نفسها والمنطقة الإقليمية المُحيطة بها بعد رحيل البرتغاليين وحدوث حالة من الفراغ السياسى، وظهور قـوىً جديدةً فى المنطقــة، وصدامات بــين الهولنديين والإنجليز والفرنسيين، فضــلاً عن العثمانيين والصفويين، وبروز القوى العربية التى حاولت إيجاد كيانات سياسية خاصة بها، ومنهم اليعاربة ثم البوسعيد والقواسم وبنوياس والعتوب وبنوخالد وآل سعود وغيرهم .

وفى إطار الظروف الإقتصادية والسياسية التى عاشتها المنطقة، شرع القواسم شأنهم شأن قوى خليجية أخــرى فى الإستفادة من الظروف المُتاحة، فضلاً عما اتسمت به طموحاتهم من التحلى بروح الإقدام والجسارة؛ ولذا نجحوا فى بلورة كيان سياسى خاص بهم؛ امتد من رأس مُسَنْدَم (*) شمالاً إلى الشارقة جنــوباً وكان جُــلّ نشاطه بحرياً، وهذا الكيان من جانب أصبحت له شخصيته وتبوأ مكانته ردحا من الزمن فى إطار مفهوم الدولة فى التاريخ الحديث، ثم واكب التطور الحضارى فكان من أهم الروافــد المُعاصرة فى تكوين الدولة القــومية " الإمارات العــربية المتحــدة " بعد الإستقلال .

وتجدر الإشارة إلى وجود عــدة دراسات تناولت مثل هذه الموضوعات؛ وأيضا تاريخ القواسم، سواءً بتخصيص دراسة مُفردة لهم، أو بالكتابة عنهم فى فصول تضمنتها مؤلفات عن الخليج العربى فيما تم الرجوع إليه [1]، ولكن

(*) عضو هيئة التدريس (تاريخ حديث ومعاصر). كلية البنات – جامعة عين شمس.

الباحث يُحاول فى هذا المبحث إلقاء الضوء على بعض الأحداث من خلال مزيد من الرؤى التحليلية التى قد تتفق أو تختلف مع سابقاتها؛ أو تُمثل إضافة فى بعض جوانبها، وذلك فى إطار الاجتهاد ومُحاولة فهم تاريخ القواسم ودورهم، وأثر ذلك فى المنطقة الخليجية .

ويتم تناول هذا الموضوع من خلال عدة عناصر؛ أولها : القواسم بين أصولهم ووصولهم إلى المنطقة، الثانى : الحيز الجغرافى للقواسم بين التأسيس والتطور، الثالث : دور القواسم فى الخليج العربى وهو فى ثلاث نقاط؛ هى دور القواسم فى السواحل العربية؛ ثم امتداد نفوذ القواسم إلى الساحل الفارسى؛ ثم دورهم فى حل المُنازعات؛ الرابع : القواسم والصدام البريطانى؛ وسنتوقف فى هذا المبحث عند عام ١٨٢٠م؛ الذى شهد توقيع المعاهدة العامة بين بريطانيا وكل من إمارات الخليج العربى ومشيخاته فى أعقاب تدمير رأس الخيمة، وانتقال قاعـدة القواسم إلى " الشارقة "، وبعدها سارت الأمور لصالح تغلغل النفوذ البريطانى فى المنطقة وانتهت بفرض الحماية .

أولا : القواسم بين أصولهم ووصولهم إلى المنطقة :-

إذا تأملنا منطقة الخليج العربى سنجدها تشتمل على تركيبات سكانية تنتمى إلى قبائل ضاربة بجذورها عبر التاريخ؛ فيما يدعمه انتشارها فى مساحات مُتفـاوتة سواءً على صعيد الدولة الواحدة أو عدة دول، ومثلما حدث التفاوت فى المكان فقد كان كذلك بالنسبة للزمن والكم والكيف، الأمر الذى أدى إلى بروز قبيلة دون أخرى .

لعل ذلك مرجعه الهجرات العربية وهى قديمة قِـدَمْ الحضارة العربيـة ذاتها فى المنطقة؛ ويرجعها البعض إلى الألفية الثالثة قبـل الميلاد، اعتمادا على نتائج التنقيبات الأثـرية فى رأس الخيمة وعلى مُنحدرات جبل حفيت على مقربة من مدينة العين[٢]، وقد تعاقبت تلك الهجرات على مراحل تاريخية مختلفة سواءً فى

امتدادها الجغرافى الطبيعى البرى من شبه الجزيرة العربية إلى مياه الخـليج، أو من بلاد الرافدين إلى المنطقة الخليجية نفسها فى امتداد طبيعى أيضًا بمحاذاة المصب فى شط العرب أو موازاته، وسواءً كانت الهجرات من هنا أو هناك فهى بدورها عربية منذ القِدم .

ومع تنامى النشاط والعلاقات الاقليمية فى مراحل تاريخية تالية؛ يُرجح اختلاط تلك السلالات العربية وأجناس بشرية من حضارات أخرى مثل الفارسية والهندية وغيرهما؛ وذلك بعدما توصل أهل الخليج إلى استخدام السفينة أداةً لارتياد البحر؛ ولكن مع مُلاحظة أن هؤلاء الوافدين الجُـدد لن يُمثلوا بأية حال من الأحوال الغالبية؛ وإلا ما ظلت التركيبات القبلية العربية من بطون وأفخاذ وعشائر مستمرة بمثل هذا الكم من القوة والتماسك لعدة قرون، ولازالت حتى فى ظل سيادة الدولة فى التاريخ المُعاصر .

وقد إختلفت الآراء حول أصول القواسم وزمن وصولهم إلى المنطقة، وربما كان ذلك شأن كثير من القبائل العربية، ولكن الخصوصية هنا مبعثها هو ذلك الكم من التنـوع الكيفى لنشاط القواسم بين السلم والحرب والآثار التى ترتبت على ذلك، وقد تعددت الراوايات فى هذا الشأن، منها؛ أن القواسم ومفردها قاسم وبياء النسب قاسمى؛ دالة على الأسرة الحاكمة للشارقة ورأس الخيمة، وإنهم أشراف نزحوا من العراق إلى الساحل العربى فى مُنتصف القرن السادس عشر الميلادى، وأسس القاسم دولته على ذلك الساحل الممتد من الشارقة إلى رأس الخيمة والذى كان يُعرف بالصير، وقد كانت رأس الخيمة بإسمها القديم " جلفار" حينئذ تحت الإحتلال البرتغالى، وبعـد خروج البرتغاليين من المنطقة ١٦٥٠ م؛ أصبحت جلفار عاصمةً للقواسم (٣) .

ومن قائلٍ أنهم ينتسبون إلى قبيلة جاسم وهى من القبائل التى ظهرت قبل الإسلام مثل عاد وثمود وكانت مساكنها فى عُمان، وقيل أيضا إنهم من سلالة القاسم بن شعوة المُـزَنى، وهو القائد الذى أوفده الحجاج بن يوسف الثقفى إلى

عُمــان لإعادتها إلى حظيرة الدولة الأموية؛ وقد أورد المرجع نفسه وجهتى نظر أُخريين؛ أولاهمـا : أنهم أشراف نزحـوا من الحجـاز واستوطنوا ساحل عُمان وأسسوا إمارة فيها، والثانية : أنهم عرب من قبيلة الظفيروكانت لهم (دولة) فى أطراف الموصل ونزح بعضهم إلى الساحل الفارسى وأسسوا إمارةً عربيةً لهم فى بلدة (لنجة)، ثم انتقلوا منها إلى الساحل العربى وأسسوا إمارةً عربيةً أخرى فى جلفار، وهى المدينة التى عـمّ اسمها على المنطقة قبل ظهور اسم رأس الخيمة (٤) .

وهناك من يرى أن قبائل أخرى من الهولة (*) هى التى استقرت فى السواحل العربية التابعة للقواسم؛ مثلما كان قد امتد نفوذ القواسم إلى أماكن فى الساحل الفارسى بعد إنهيار الدولة الصفوية، وينفى أصولهم الفارسية أو وصولهم منها، مثلما فنّد روايات أخرى حدث فيها التباس– لدى من أوردوها – بأنهم عرب من آل الظفير، ويُرجح فى النهاية أصولهم النجدية اعتمادًا على شهادات معُاصرين عربًا وأجانب، وإن تسميتهم هذه نسبةً إلى جدهم الأكبر الشيخ قاسم الذى كان قد نصب خيمته على رقعة من الأرض مرتفعة عن شاطئ البحر وحولها خيام أتباعه، وكانت تعرفها السفن المارة وأطلقوا عليها رأس الخيمة، وكان لهذا الشيخ عدد كبير من النسل أصبحوا بعد عدة أجيال قبيلة كبيرة (٥) .

ومن قائل؛ إنه قد ظهر مع بداية دولة آل بوسعيد؛ قوتان سياسيتان جديدتان على ساحل عُمــان، استقلتا عن الدولة؛ القوة الأولى قوة بحرية تتألف من حلف قبائل يتزعمهم القواسم، وكان مقرهم رأس الخيمة ويمتد نفوذهم حتى الشارقة، وحين تناول البعض حلف القواسم ذكر أن هذه العائلة أو القبيلة تزعمت عددًا من قبائل ساحل عمان وأرض الظاهرة وساحل الشمالية أواخر القرن الثامن عشر. واعتبرت تقارير حكومة بومباى كل القبائل المُتحالفة مع هذه العائلة أفرادًا فى قبيلة واحدة كبيرة، أما القوة الثانية فقد كانت بريةً تتألف من قبيلة بنى

ياس وحلفائها من القبائل، ويتزعمهم آل نهيان ومقرهم الظفرة ومدينـــة أبوظبى، ويمتد نفوذهم على طول ساحل عُمـــان من دبى حتى حدود قطر (٦) .

وعلى أية حال فإن هذه الآراء تحسم أصولهم العربية، التى يؤصلونها هم أيضًا، وسواءً كانت هجرتهم من شبه الجزيرة إلى أماكنهم فى الخليج مُباشرةً، أو وصولهم إلى العراق ثم انتقالهم منه إلى أماكنهم الخليجية؛ فإن تلك الهجرات والانتقالات عرفتها القبائل العرية فى مُختلف العصور التاريخية .

أما بالنسبة لزمن وصولهم؛ فإن أرجح الروايات ترى أنهم وصلوا إلى ساحل عُمان فى القرن السابع عشر الميلادى، واستمروا فى موضعهم هذا خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، وأن تحرير دولة اليعاربة لعُمان من البرتغاليين أوائل القرن السابع عشر كان سببًا فى ظهور تنقلات جديدة للقبائل، لا فى عُمان وحدها بل فى شرقى الجزيرة العربية كله، نتيجة سيادة الأمان فى منطقة الخليج العربى بعد فترة من الإرهاب والرعب التى تميز بها العهد البرتغالى، وتوالت هجرات القبائل العربية من الداخل نحو الساحل، وعاودت نشاطها القـــديم فى الملاحة والتجارة والغوص وراء اللؤلؤ. وقد تحركت وقتذاك جماعات العتوب من نجد إلى البحرين والكويت واستقر آل صباح فى الكويت وآل خليفة والجلاهمة فى الزبارة والبحرين(٧) .

وإذا كان الباحث يرى أن حـــالة الفـــراغ السياسى التى وُجدت بعد رحيل البُرتغاليين؛ أو حالة الأمان كانت ضمن الظروف التى أدت إلى هجرة بعض القبائل العربية إلى منطقة الخليج العربى، فإنه يُضيف أيضًا الظروف الاقتصادية إزاء ما كانت تواجهه الصحراء من القحط، كما أن الاستقرار فى منطقة الخليج ــ قبل اكتشاف النفط ــ كان يُحتم مُمارسة النشاط البحرى خاصةً فى المناطق الساحلية، فضلاً عن مُمارسة بعض الحرف والمهن الأخرى ذات الصلة بالبحر والصيد والتجارة، وجنباً إلى جنب مع بعض الأنشطة الزراعية المُتاحة فى رحم

الطبيعة؛ وبصفة عامة فإن ممارسة الأنشطة الإنسانية حق مُتاح للجميع؛ ولكن تعتريها الفوارق فيمن يستطيعونها، وهو ما ينطبق بطبيـــعة الحال على القواسم.

ثانيا : الحيز الجغرافى بين التأسيس والتطور :-

يرى المتخصصون فى العلوم السياسية أن الدولة لكى تُصبح واقعًا فى حيز الوجود؛ مهما تعددت أشكالها وأحجامها، يلزم لقيامها توافر ثلاثة أركان رئيسية، هى الإقليم بكل أبعاده والشعب بكل أطيافه والسلطة السياسية التى تُمارس سيادتها[٨]، وإذا نظرنا إلى هذا المُثلث سنجده يشتمل على الجغرافيا والتاريخ والسياسة فى إطـــار المجتمع؛ أو العمـــران البشرى وتطـــوره فى سائر أحواله[٩] .

وإذا كان مُسمى الدولة يُطلـــق على تلك الكيانات أيا كانت أحجامها، طالما استوفت هذه الأركان الثلاثة؛ وتمتعت بشخصيتها السياسية والقانونيـــة ومارست سيادتها الداخلية والخارجية، فإنــــه على الرغم من ذلك فإن ثِقلها محليًا وإقليميًا ودوليًا لاشك يتأثر بالتطور الكمى فى مساحتها وعدد سُكانها، أو التطور الكيفى فى قُـــدراتها أو مواردها وثرواتها [١٠] .

وقد نجح القواسم فى تأسيس كيان سياسى له شخصيته بين إمارات ومشيخات المنطقة يفـــوق نسبيًا كيانات أخرى؛ لا ترقى إلى المستوى المُتعارف عليه للدولة؛ فقد كانت صغيرة الحجم سواء فى المساحة أو فى عـــدد السكان، ولا تستطيع أن تحيا بمفردها أو تُحافظ على كيانها السياسى أو تستغل مواردها الاقتصادية أو حتى تقوى على مواجهة الالتزامات الدولية، ويرى البعض " أنه لا يُمكن اعتبارها دولاً بالمعنى المُتعارف عليه لأنها لا تعدو أن تكون وحدات قبلية لم تندمج بعد القبائل التى يتألف منها كيانها السياسى إندماجًا كاملاً "[١١] .

وقد تناولت النظريات الجيوسياسية العلاقة الوثيقة بين البيئة البحرية وتأثيرها على قوة الدولة، وأن هذه القوة تقوم على عدة أسس؛ ومنها المركز الجغرافى

وهيئة أو طبيعة الأرض Geographical Position Physical Conformation والامتداد الإقليمى Extent of Territory (١٢).

وفى ضوء هذه النظريات؛ ليس هناك ثمة شك فى أهمية المركز الجغرافى المُتمثل فى موقع الخليج العربى سواءً كان طريقًا يتوسط العالم القديم بقاراته الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا، أو أنه الشريان الحيوى الذى يربط بحـــر العرب وشط العرب عبر مضيق هــرمز وما إلى ذلك، أو أنه يُمثل فى حد ذاته أهمية ملاحيةً استراتيجية بثرواته المحلية والإقليمية .

وإذا نظرنا إلى خريطة الإمارات والمشيخات العــربية (الإمارات العربية) بما فيها القواسم، نجدها تمتد إلى الشرق من شبه الجزيرة القطرية لمسافة ٦٠٠ كيلومتراً وتنتهى شمالاً فى شبه جزيرة مسندم، وتقــع هذه المنطقة بين دائرتى عرض ٢٢ درجة و٢٦ ونصف درجة شمالاً، وبين خطى طول ٥١ درجة و٥٦ ونصف درجة شرقاً (١٣) .

وهى فضلا عن كونها تُمثل الجونة داخل السواحل العربية لمنطقة الخليج، فهى ظهير الساحل العُمانى وهو ظهيرها أيضًا؛ وكذلك مساحة من شبه الجزيرة العربية، وبين كل هذا وذاك سلسلة من جـُـزر وأخوار قريبة نسبيًا من سواحلها، وكان يُطلق عليها ساحل القراصنة قبـل توقيع إتفاقية ١٨٢٠ مع بريطانيا، وهى التى عُرفت باتفاقيـــة السلام البحرى أو المعاهدة العامة، وفيما بعد إعلان الحماية البريطانية أُطلق عليها الساحل المُهادن .

وإذا حاولنا تطبيق هذه المُرتكزات على القواسم لأدركنا الحتمية التاريخية؛ وهى دخول البحر بكل نشاطاته التى تتطلب القُــدرة على مواجهة سائر ما يتصل به من خيرات أو أخطار؛ من علاقات أو صراعات، وبالتالى تجسيد ماهية القـــوة سواءً على صعيد الأفــراد أو الجماعات أو الكيان السياسى القائم نفسه؛ ولم يكن بوسعهم الفِكـــاك من نشاطهم القوى إلا بحدث جلل وكان قاسياً وهو التدمير فى الصدام مع الإنجليز ١٨١٩م !! .

وحسبما تذكرالمؤلفات الجغرافية فإن سواحل تلك المنطقة؛ تُعتبر من أنسب جهات العالم كقاعدة للقرصنة، فالساحل يمتد فى مواجهة شط اللؤلؤ العظيم، الذى يقع على بُعد ١٦٠ كيلو مترا منه، والذى يتألف من رصيف بحرى من صخور المرجان الجيرية وتكثر به المخاضات والشعاب والجزر الصغيرة؛ مثلما توجد على طول الساحل بعض القنوات البحرية والبحيرات الساحلية، وفى بعض الجهات توجد المُستنقعات التى تنمو بها أشجار المنجروف، وفيها تتعذر الملاحة وكثير منها لم يكن معروفاً للملاحين من غير أهلها؛ الذين كانوا يجيدون الملاحة فيها بقواربهم الصغيرة، وكان بوسع الأشـدّاء منهم الإنقضاض منها على السُفن التجارية، ثم العودة دون أن تتمكن هذه السفن من اللحاق بهم أو النيل منهم، وحسبما يرى البعض فقد كان لجدب الأراضى الصحراوية فى هذه المنطقة أثـــره فى تشجيع المخاطرات البحرية بممارسة القرصنة (١٤)، بيد أن للباحث رؤىً تفسيرية أخرى لمسألة القرصنة سيتم تناولها لاحقًا .

وعامةً فإن أهمية البحر لا تُبـارى؛ حيث تُـوجد حرف الغوص وصيد اللؤلؤ وتجارته فضلاً عن الأسماك، وأن السفينة تنقل ملاحيّها ومرتاديها وركّابها بأغراضهم وتجاراتهم إلى سواحل أخرى؛ سواءً كانت قريبةً أو إلى بلاد وقارات بعيدة، مثلما يأتى عبر البحر القادمون بسفنهم سواءٌ لتبادل المنافع قُربًا أو فى صراع المصالح حربًا، لذا فإن البيئات البحرية تَسِم أهلها بسمات خاصة عبر الأجيال، إذ تُحتم ظروفها على قاطنيها ضرورة استعدادهم وامتلاكهم أدوات أو آليات تُمكِنهم من التعامل مع هذه البيئات بكل ما فيها سلمًا أو حربًا، وأن يكونوا أكثر حذرًا ومهارةً وجسارة فى مُعتركها؛ سواءً فى الحصول على منافعها أو فى مُجابهة أخطارها؛ أو فيما يتصل بالدور أو النشاط الذى يُمكن أن يقوموا به أو يُمارسوه محليًا أو إقليميًا أو دوليًا .. الخ.

أما أهم الموانئ التى خضعت للقواسم؛ فقد كانت رأس الخيمة والشارقة والرمس وجزيرة الحمرا وأبوهايل وأم القيوين والعجمان وشناص وخورفكان

وخوركلبا وغيرها، وإنهم بعدما أصبحوا قوةً كبيرةً عبروا إلى الساحل المواجه (الفارسى) وأسسوا مُدنا أخرى وعدة قُــرى أخرى (١٥) . وعلى كلٍ فقد كانت رأس الخيمة مقرًا لشيخ القواسم بديلاً عن جلفار القديمة، ويحلو للبعض أن يُطلق عليها جلفار الجديدة، وقد ظلت هكذا عاصمةً إلى أن دمرها الإنجليز فى حملتهم الكُــبرى عام ١٨١٩ فتم اتخاذ الشارقة عاصمةً لإمارة القواسم الكُبرى، وتمضى الأمور تباعًا إلى أن تحدث ظروف تاريخية فيما بعد ينقسم فيها القواسم إلى إمارتين رئيستين (*)، وسُميت كل منهما بإسم قاعدتها فأصبحتا إمارتى رأس الخيمة والشارقة .

وبالنسبة لإمارة رأس الخيمة فهى تُوجد فى الشمال الشرقى الأقصى من الإمارات ابتداءً من رأس شعم مباشرةً، وقد كانت تمتد على طول الساحل فى اتجاه جنوبى غربى لمسافة ٤٠ كيلومترًا حتى تبلغ جزيرة الحمرة، وفى الطرف الشمالى لهذه الإمارة سهول رملية تنحصر بين مياه الخليج العربى وبين رءوس الجبال، أما بالنسبة للجنوب فإن هذه السهول تتسع تدريجيًا حتى إذا بلغت رأس الخيمة نفسها بدت الجبال مُتقهقرة نحو الداخل لمسافة عشرة كيلومترات تقريبًا، ويمتد ذراع من هذه الإمارة عبر قاعدة شبه الجزيرة لكى يضم إليها قرية دبا التى تقع على خليج عُمــان .

أما فيما يتصل بمدينة رأس الخيمة نفسها فهى تقع عند نهاية بحيرة ساحلية شأنها شأن كثير من مدن الإمارات العربية؛ وقد تكونت بسبب امتداد لسان رملى بموازاة الساحل وعلى مسافة قريبة منه، وتستطيع السفن الملاحة فى داخل البحيرة، بيد أن عُمقها لم يكن يتعدى ٢-٣ أقدام، ولذا كانت المدينة تُعتبر مركزًا لسفن الصيد والغوص المحلية، وقد كانت أغلب منازل المدينة حجريةً وبها عدد من الأبراج العالية، التى كانت تُستخدم فى عمليات الاستطلاع والدفاع ضد الهجمات التى كانت تُهددها من البر أو البحر، وإلى الشمال من المدينة بنحو ثلاثة كيلو مترات توجد قرية رمس وهى الأخرى تقع على بحيرة ساحلية

تستطيع السفن الصغيرة الملاحة فيها، وكانت كثرة موارد المياه العذبة من أهم مزايا الإمارة؛ مما وفر لها بساتين وزراعات داخلية فيما وراء البُحيرات الساحلية :

أما بالنسبة لإمارة الشارقة فهى تمتد نحو ٣٠ كيلومترًا على طول الساحل ونحو ٥٠ كيلومترًا الى الداخل، وهى بذلك تضم واحة الذيد الخصيبة، أما مدينة الشارقة فهى تقع على بعد ١٠ كيلومترات إلى الجنوب من عجمان، وهى على خور وبحيرة ساحلية ضحلة؛ تستطيع السفن الصغيرة الملاحة فيها، أما السفن الكبيرة فكانت تُفــرغ حمولتها فى البحر المفتوح على بُعــد كيلومتر من الشاطئ، ونظرًا لوقــوع هذه المدينة على مقــربة من النهاية الشرقية لشط اللــؤلؤ العظيم، فقد أصبحت مركزًا رئيسيًا لتجارته، وإلى الشمال والجنوب منها توجد بساتين النخيل وقد يمتد لمسافة كيلومتر أو أكــثر (١٦) .

وعلى كل؛ فإن المواضع التى كان يشغلها القواسم كانت تطل سواحلها على مياه الخليج مُباشرة، وكذلك مــدىً مائيا أكثر إتســاعًا وعُمقــًا صوب مضيق هرمز والسواحل الفارسية، ولذا فقد اشتهروا بأنهم القوة البحرية مثلما كان حلف بنى ياس القوة البرية، وكان نفوذ القواسم يمتد على طول الساحل حتى دبى، التى يبدأ منها نفوذ بنى ياس ومقر سلطتهم أبوظبى، وإن لفظ القواسم فى الإطار العام جغرافيًا؛ يُطلق على كل القبائل التى كانت تدين بالولاء لشيوخ القواسم فى الشارقة ورأس الخيمة، ولكن معناه الضيق لا يُطلق إلا على شيوخ القواسم وحدهم .

وإنه لا يُمكن تحديد عدد القبائل التى كانت تابعة لنفوذ القواسم فى تلك المناطق، وهى على وجه التقريب : بالنسبة لرأس الخيمة ينتمى غالبية السكان إلى الخواطر، وهم من فروع القسم الجنوبى من النُعَيْم الذين تُقيم أكثريتهم فى إقليم الظاهرة، وفى الرمس كانت تُقيم قبيلة طنيج وإلى الشمال منها توجد قبيلة الشحوح، وفى جزيرة الحمرة وأم القيوين يُقــيم آل زعاب وآل بوعلى، أما فى

عجمان آل بوخريبان وهم فرع من النعيم، أما بالنسبة للشارقة فتُقيم أكثرية من قتَب، وفى الأراضى الجبلية الداخلية توجد قبائل المزاريع والحُبوس وغيرهم(١٧).

وقد سجلت كتابات بعض الرحالة الإنجليز الذين زاروا المنطقة سمات الشخصية القاسمية، ومن هؤلاء بكنجهام Buckingham الذى جاءها عام ١٨١٦م، ووصف القواسم بأنهم مهرة جدًا ومخلصون لوعودهم، ودائما يتم الحديث عنهم كأحسن الشعوب فى الخليج، وكذلك رحالة آخر زار الشارقة؛ وصف أهلها بأنهم يتميزون بالأمانة والطبيعة السمحة وحُسن الضيافة وعراقة الأصل، مثلما ذكر أحد الضباط الذين عملوا فى مسح الساحل العربى، أن القواسم قد تعودوا على الأعمال الشاقة والخطرة وإنهم اشتهروا بالشجاعة والإقدام (١٨) وعلى هذا النحو لا يُمكن فهم دور القواسم وبروزهم كقوة عربية بحرية؛ بمعزل عن فهم أثر الموقع فى الإقليم الذى شغلوه .

وفيما يتصل بسُلطة القواسم السياسية؛ فقد كانت محدودة على تلك القبائل، ويُفسر البعض ذلك بأن ميزان القوى فى الشئون السياسية لجنوب شرق الجزيرة العربية كان يرجع دائمًا إلى القبائل البدوية، التى قد ينتقل تأييدها من شيخ إلى آخر؛ حسبما يمنحهم الشيخ من حرية أو يُمارسه عليهم من ضغط .

ومن قائل : أن السُلطة التى مارسها الشيوخ القواسم على جميع هذه القبائل لم تكن مُطلقة؛ فعلى الرغم من أن الشيخ الأعلى كانت له السُلطة العليا، إلا أنه كان لكل من الموانئ المُهمة شيخها الذى يُمارس الحُكم وفق الأسلوب القبلى، ويدين بالولاء للشيخ الأكبر.وتتم مناقشة القضايا الخطيرة بانعقاد مجلس كبير يرأسه الشيخ الأعلى، ويضم الشيوخ التابعين وكبار رجال القبائل، وفيه تُقرر الحلول للقضايا موضوع البحث، وقد أسماه البعض " مجلس القبيلة " .

كما أن هناك قيدًا آخر كان يحول دون استبدادية الشيخ يتمثل فى العادات القبلية المُتعارف عليها، والتى يتحتم على الشيخ الأكبر مُراعاتها لإبقاء ولاء

القبائل التابعة له، وتتمثل بالحكمة والشجاعة والكرم، كما كان عليه أن يتبع سياسةً مرنةً تجاه القبائل البدوية المُوالية خشية من تغيير ولائها، وتكمن قوة الشيخ القاسمى فى سيطرته على النواحى الاقتصادية والعسكرية، فهو المُهيمن على المراكز التجارية الهامة فى المنطقة، التى هى مصدر الرزق للسكان، ناهيك عن امتلاكه القــوة الضاربة فى البر والبحر بالنسبة لأتباعه، كل تلك الأمور؛ مكنت الشيخ القاسمى من السيادة على المنطقة بكاملها (١٩) .

وعلى هذا النحو فقد تحددت أبعاد إقليم القواسم (الدولة = الإمارة/المشيخة) جغرافيًا، واتخاذهم عاصمةً مركزيةً سواءً كان ذلك فى رأس الخيمة أو الشارقة؛ وفيها كان يُوجد مقر المسئول الأول عن البلاد ورأس السلطة السياسية (الأمير/ الشيخ)، وبالنسبة للشعب فهو يتكون من القواسم أنفسهم والقبائل الأخرى أوالأفراد الذين كانوا يقيمون من قبل أو آنئذ؛ بصفة دائمة ومستقرة فى الأماكن التى امتد فيها نفوذ القواسم أو حُكمهم، وكان طبيعيًا أن تمتد العلاقة بين هذا الكيان السياسى (دولة القواسم) والقوى المجاورة، وأن تتباين هذه العلاقة بين السلم والحرب فى إطار من علاقات أو صراعات المصالح، وتُــوجد أمثلة لذلك الدور أو النشــاط الذى مارسه القواسم فى المجالين .

ثالثا : دور القواسم بين العلاقات والصراعات :-

وهذا المبحث يتم تناوله من خلال ثلاث نقاط، وهى دورهم فى السواحل العربية ثم امتداد نفوذ القواسم إلى الساحل الفارسى، وبعد ذلك دورهم فى حل المُنازعات .

أ – دور القواسم فى السواحل العربية :-

يُرجح أن دور القواسم ومن ثم تأثيرهم؛ قد بدأ فى منطقة الخليج العربى منذ استقرارهم فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى على الساحل الممتد من الشارقة إلى رأس الخيمة فى عهد الجد الأكبر(القاسم) وشيئًا فشيئًا أخذ هذا الدور

فى الظهور، ففى تلك الأزمنة على وجه الخصوص إزاء حالة الفراغ السياسى والاضطراب التى كانت تمر بها المنطقة، كان الاعتماد على القوة الذاتية سبيلاً للأمن والاستقرار والانتقال وممارسة النشاط . وإنه فى أعقاب رحيل البرتغاليين من المنطقة سنة ١٦٥٠ م؛ وبعدما زالت الدولة الصفوية واحتل الأفغان إيران؛ دخلت بلاد فارس فى حالة من الفوضى والإضطراب، فاغتنم القواسم تلك الظروف واستولوا على أجزاء من سواحلها وبعض الجُـزر؛ واستطاع أحد أقربائهم ويُدعى الشيخ راشدًا؛ تأسيس قاعدة تجارية فى باسيدوه على جزيرة قشم إلى أن دمرتها بريطانيا فيما بعد [٢٠] .

وتُورد الروايات أن أول زعيم قاسمى ظهـر على صفحات التاريخ هو الشيخ كايد بن عدوان، ويرى البعض أن اسمه كان رحمة وإنما أطلقوا عليه كايد لسطوته؛ وقد برز اسمه أيام النشوء الأول للدولة اليعربية، وقد شارك فى حروب التحرير العُمانية ضد البرتغاليين، ثم تمكن بعد ذلك من جمع شمل القواسم واتخذ من جلفار عاصمةً له، وإن زعامة القواسم آلت بعده إلى الشيخ قُضيب الذى كان فى مدينة لنجة ومنه تسلسل النسب القاسمى هناك، كما آلت إلى زعيم آخر هو الشيخ مطر فى جلفار وكان اسمها (صير القواسم) ثم أصبح رأس الخيمة [٢١] .

وقد أفادت عدة روايات بروز زعامة الشيخ رحمة بن مطر القاسمى (١٧٢٢ – ١٧٦٠م) وأنه حين نشب النزاع الهناوى والغافرى فى عُمان ١٧٢٣م [٢٢]؛ وقف القواسم إلى جانب الزعيم محمد بن ناصر الغافرى، وقد تولى الشيخ رحمة قيادة إحدى فرق الجيش، وفرض حصارًا وحققت قـواته نجاحًا فى عدة معارك، ورجّح ذلك كفة محمد بن ناصر وتم انتخابه إمامًا سنة ١٧٢٤م إلى أن قُتل عام ١٧٢٨، ودخلت بعده عُمان فى حالة من الاضطراب .

وفى فترة لاحقة ــ بعد وفاة الزعيم الغافرى ــ أغارت حملة إيـرانية على عُمـان ١٧٣٧، وسارع القواسم بالوقوف إلى جانب القبائل العُمانية، وتعاونوا

مع الإمـــام أحمد بن سعيد أثناء حصار صحـــار، وهاجموا بنـــدر عباس على الساحل الفارسى، وقد وُصف الشيخ رحمة بأنه أقوى زعيم للقبائل على ساحل الشمال، وقد استقل القواسم فى عهده وأصبح لهم كيانهم السياسى الخاص، واعترف له السلطان أحمد بن سعيد البوسعيدى بذلك (٢٣) .

وقد تمكن القواسم من مد نفوذهم إلى جزيرة قشم١٧٦٠ وهاجموا هرمز ١٧٦١م، وهى أماكن تتسم بأهميتها الإستراتيجية والملاحية من الخليج العـــربى وإليه عـــبر مضيق هرمز؛ ولكنهم اضطروا إلى التخلى عنها فى مواجهات مع كريم خان الزند، مثلما حدثت خلافات مع الإمام أحمد بن سعيد الذى ناصروه قبلئذ، وذلك إثر إعتماده على الهناوية بعدما استقر له الحُـــكم، وتبعـــاً لذلك ناصب الغافرية والقواسم العداء .

وفى تلك الفترة كانت قد جرت لبعض الوقت معارك بين القواسم وسلطان مسقط، ثم حلّ الوئام بينهما وتعاونا معاً فى مواجهة الأطماع الفارسية التى تمثلت فى تهديدات كريم خان للسواحل العربية بصورة عامة فى عام ١٧٧٢م، وتكرر ذلك التعاون ثانية وشارك القواسم فى مُهاجمة الميناء الفارسى " بندر عباس" وتدمير سفينتين ومخزن للذخيرة فى لنجة (٢٤) .

واستمرت العلاقات بين القواسم وكل من عُمان ومسقط بين الصدام والوئـــام تباعـــاً فى الفترات التاريخية التالية، وكانت هذه هى سمة العلاقات القاسمية بالقوى المحلية والإقليمية والدولية، مثلما كانت سمة علاقات القوى وبعضها البعض تبعا لالتقـــاء المصالح أو صراعها؛ فيما لا يتسع المقام لتفصيله .

وقد تولى بعدئذ الشيخ راشد بن مطرالقاسمى، وشهد عهده أحداثـــاً مع بنى معين حكام جزيرة قشم وكذلك مع الفرس على الساحل الفارسى، ثم تنازل فى عام ١٧٧٥ عن الحكم لولده الشيخ صقر؛ الذى بدأ سياسة جديدة فسَـــوّى مشاكله مع الشيخ عبدالله بن معين، وقد حدثت فى عهد الشيخ صقر صدامات بين القواسم والدولة السعودية الأولى؛ وواجه حملةً عسكريةً سعوديةً جاءته عام

١٨٠٠م وألحق بها الهزيمة، ولم تمض عدة أيام حتى جاءه جيش سعودى قوامه أربعة آلاف رجل بقيادة مُطلَقْ المطيرى، وحاصر رأس الخيمة لمدة سبعة عشر يومًا، وقد تكررت مثل هذه الأمور فى فترات لاحقة ولكن تم فى النهاية الصلح بين الطرفين(٢٥)، واعتنقوا بعدئذ النهج السلفى للشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومما ساعدهم على ذلك أن أهل عُمان كانوا يعتبرون النجديين غافرية .

وقد امتد نفوذ القواسم فى عهده إلى بعض الأماكن عند مدخل الخليج على الشاطئين العـــربى والفارسى وبعد وفاته عام ١٨٠٣م؛ قيل بانتقال الحُكم إلى أخيه عبدالله بن راشد الذى لم يحكم سوى فترة قصيرة، ثم آل الحُـــكم إلى إبن أخيه الشيخ سلطان بن صقر(١٨٠٤ – ١٨٦٦)، الذى كان ــ حسبما تذكر الروايات ــ من ألمع أولاد الشيخ صقر بن راشد قريحةً وأصلبهم عودًا وأكثرهم جسارةً، والزعيم الذى لعب دورًا كبيرًا فى أحداث المنطقة (٢٦) .

وقد شهدت حياته أحداثـــًا جسامًا، ففى أوائل عهده؛ وحسبما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية؛ أن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت قد فرضت أسلوبًا نظاميًا فى محاولتها للسيطرة على الملاحة فى الخليج وذلك بإجبار جميع السفن العاملة فيه بحمل جوازات مرور تُمنح من قِـــبَل السُلطات البريطانية، الأمر الذى رفضه القواسم فمُنعوا من الوصول إلى الهند، الأمر الذى سيؤدى إلى إحتدام المواجهة القاسمية مع الشركة ومحاولة إعاقة نشاط سفنها والإعتداء عليها؛ ولم تصمد طويلا الإتفاقيات أو محاولات التهدئة، وتعرضت رأس الخيمة لحملات بريطانية مُدمرة أكثر من مرة وصولاً إلى الدمار الأعنف عام ١٨١٩م.

كذلك كان الخلاف حادًا مع سلطان مسقط سلطان بن أحمد البوسعيدى الذى قُتل ١٨٠٤، ثم حلّ الوئام مع ابنه سعيد بن سلطان، وكان من أثره اتفاق الإنجليز ــ بعد وساطات ــ مع سلطان بن صقر القاسمى فى ٦ فبراير عام ١٨٠٦م على تأمين السفن التى ترفع العلم البريطانى من هجمات حلفائه الوهابية(*)؛ والسماح للقواسم بالمتاجرة مع الهند، وكذلك تُعامل بالمثل السفن

التى ترفع أعلام القواسم فى الموانئ التابعة لشركة الهند وحكومة بومباى، وقد أُطلق عليه فى هذه الإتفاقية لقب (الأمير شيخ المشايخ)، اعترافا له بمكانته وهيبته (٢٧)، ولكن لم تدم هذه الحالة التى تُساعد على مُمارسة الملاحة والتجارة والازدهار الإقتصادى طويلاً؛ فقد تعرض الشيخ نفسه ــ بعد عامين ــ لأحداث عصفت به بعيدًا عن الحكم .

إذ يبدو أن التقارب بين الشيخ سلطان القاسمى وسلطان مسقط من جانب، وتوقيع هذه الإتفاقية مع الإنجليز من جانب آخر؛ قد أزعج الأمير السعودى أو المُتشددين، أو أنهم كانوا يُريدون الإستئثار بقوة القواسم البحرية؛ أو تطلعوا لمزيد من النفوذ على حسابهم؛ فى وقت كان سلطان القاسمى ذا شخصية زعامية مستقلة؛ لذا قام الأمير سعود بن عبد العزيز بعزل هذا الزعيم القاسمى أواخر ١٨٠٨م، بعدما دعاه إلى الدرعية وتم استبقاؤه هناك؛ مُعززًا مُكرمًا ينتقل فى المدينة كما يشاء ولكن لا يُغادرها(*) .

وتُرجح الروايات أن غيابه ترك فراغــًا كبــيرًا فى السلطة، لذا تم تعيين مجلس حُكم من حسين بن رحمة ويعاونه أخوه ابراهيم وحسين بن على، وقد توطدت العلاقات القاسمية السعودية، وحسبما يُرْوى فقد أخلص القواسم للدعوة السلفية حتى أن عبدالعزيز بن سعود أسماهم المُوحدة تكريمًا لهم وكان الشيخ على بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب لا يقبل أن يستضيف أحدًا أو يستضيفه أحد إلا أهل رأس الخيمة، ولم يكن يقبل إلا هداياهم، وكان يقول " كل ما غنمه أهل رأس الخيمة فهو أحلّ من حليب الوالدة " (٢٨) .

ويبدو أن غياب الشيخ سلطان بن صقر قد أثــر فى نوعية أنشطة القواسم فعادوا إلى مُهاجمة السُفن الإنجليزية مع تزايد المد السلفى وفيما اعتبروه جهادًا، وأدى ذلك إلى إرسال حملة عسكرية هاجمت رأس الخيمة وأماكن أخرى تابعة للقواسم أواخر عام ١٨٠٩ وأوائل ١٨١٠م .

وقد تمكن القاسمى من العودة بعد آداء فريضة الحج؛ فى سفينة عُمانية أبحرت من جدة أواخر عام ١٨١٢وأوائل عام ١٨١٣م ووصلت به إلى مسقط، واتفق وحاكمها سعيد بن سلطان على التعاون معا لاستعادة عرشه مُقابل امتناعه وقبيلته عن القيام بأية أعمال عدائية ضده؛ وقد فشلت حملتان عسكريتان خُصصتا لهذا الغرض، ثم جرت مُفاوضات شارك فيها سعيد بن سلطان مع الشيخ حسين بن رحمة حاكم رأس الخيمة وانتهت إلى اتفاق عام ١٨١٤ م؛ أصبح بموجبه سلطان بن صقر حاكمًا على الشارقة .

ومع ذلك فقد أوجدت تلك الأحداث حالةً من الانقسام فى الاتحاد القاسمى، ويُعتبر هذا هو الإنفصال الأول بين رأس الخيمة والشارقة وقد استمر قرابة ست سنوات، وبعد صدام الإنجليز المُدمر مع رأس الخيمة عام ١٨١٩م، نجح الشيخ سلطان بن صقر فى استعادتها مع الشارقة وأصبح زعيمًا للقواسم ومؤسسا للإمارة القاسمية الكُـبرى (٢٩) .

ويتضح مما سبق؛ أن القواسم فى ضوء ظروف زمانهم؛ كانوا أهل قوة وحرب وملاحة وتجارة؛ وإلا ما شاركوا فى تلك الأحداث، وإن مسألة العلاقات أو الصراعات أو الأنشطة لا تمضى على وتيرة واحدة؛ حيث كانت تُحركها المصالح سواءً كانت سياسيةً أو إقتصاديةً وخاصةً فى جوانبها الملاحية والتجارية، أو العصبيات القبلية أو صلات الدم والنسب أو المذهب والمُعتقـد مما كان يسود تلك الأزمنـة .

وعلى أية حال؛ فلا يُمكن القول بوجـود حالة ثبات أبدية فى العلاقات التاريخية بين القُـوى، فقد تتبدل الأحوال من صراعات إلى علاقات أو العكس،أو تسودها فترات من الهدوء النسبى؛إذ إن المنطقة الخليجية كانت تمر بمرحلة تشكيل فى طور تكوينها الحديث .

ب – امتداد نفوذ القواسم إلى الساحل الفارسى : –

امتد نفوذ القواسم إلى عدة أماكن على السواحل الفارسية، ففى أعقاب انهيار الدولة الصفوية استولى القواسم فى عهد الشيخ راشد بن مطر على باسيدو فى جزيرة قشم، وقد تأثرت بذلك مُتحصلات الجمارك فى بندر عباس، التى كان يتقاسمها الفرس وشركة الهند الشرقية البريطانية ولذا أعد المستر درابر W.H.Draper وكيل الشركة حملةً بحريةً ١٧٢٧م، اضطرّت الشيخ القاسمى على دفع تعويضات للشركة، وإنه فى أعقاب إغتيال نادر شاه تحالف مُلا على شاه ــ حاكم بندر عباس وتوابعها ــ مع القواسم وزوّج إبنته لشيخهم ١٧٥١م، وقد حقق هذا التحالف مصلحةً مشتركةً للطرفين، فقــد دعم قوة مُلا على شاه فى مواجهة تهديدات ناصر خان حاكم لار وأقوى حاكم فى الساحل الفارسى، ودعم مركز القواسم بين القبائل وإنهم بعدما أصبحوا قوةً كبيرةً عبروا إلى الساحل المواجه (الفارسى) وأسسوا مُدنا أخرى هى شيارك Chiarak ولنجه Lenghee ولافت Left وعدة قُــرى أخرى . كما سيطروا على كونك Kunk ورأس حتى Ras Heti بالقرب من بندر عباس(٣٠) .

وقيل إن القواسم أنقذوا حليفهم مُلا على شاه من ثورة ضده فى كل من هرمز وبندر عباس، وقد أدخلهم ذلك فى صراعات مع القوة العُمانية وتكوين تحالف ضدهم شارك فيه بنو معين وتخلوا عن النقاط الفارسية، مثلما تعرضت رأس الخيمة لإغارات بحرية من حاكم لار، وعلى الرغم من ذلك فقد دخلوا فى عدة حروب للإستيلاء على جزيرة قشم حتى سنة ١٧٧٧م وانتهت بالمُصاهرة مع بنى معين؛ إذ تزوج شيخ القواسم الجديد صقر بن راشد من إحدى بنات الشيخ الراحل عبدالله المعينى .

ويبدو أن سلطة البوسعيديين امتدت إليها، إذ نجح القواسم فى إنتزاعها من السلطان (سلطان بن أحمد البوسعيدى١٧٩٣-١٨٠٤م) ووقعوا معا هُدنة عام ١٧٩٨م فى عهد الشيخ صقر القاسمى، ولكنهم بعد وفاته استولوا لفترة قصيرة

على كومارو Kormaro وهى الميناء الوحيد على ساحل مكران مقابل مسقط، وطردوا منه الشيخ الذى كان السيد سعيد بن سلطان البوسعيدى قد عينه حاكمًا عليه، وساعدهم على ذلك حالة الضعف التى كانت تعيش فيها فارس، وعدم وجود أسطول بحرى أوروبى قـوى فى المنطقة (٣١)، بيد أن القواسم اضطروا إلى التخلى عن نفوذهم فى تلك المناطق أوائل القرن التاسع عشر جراء المواجهات مع كل من الإنجليز والعُمانيين من جهة أو فارس من جهة أخرى .

ج – دور القواسم فى حل النزاعات :-

تجدر الإشـارة إلى أن القواسم لم يكونوا بمعزل عن مُحيطهم، ولذا فقد شاركوا فى حل بعض الخلافات التى كانت تحدث بين القوى المجاورة ومن ذلك ما قام به الشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى ١٦٤٦م بالتوسط بين اليعاربة والبرتغاليين، وعقد بينهم صُلحا وخط بيده بنود الإتفاقية والتى انتهت بالصلح ١٦٤٦ م (٣٢) .

وإننا بموجب هذه الوساطة نلمح دورًا إقليميًا للقواسم، وما كان بوسع شيخهم القيام بذلك إلا إذا كان ذا شأن وهيبة ونفوذ، وله مكانة فى قومه؛ وله ولقومه وإمارته مكانة لدى القوتين أيضًا، وهذه المُهمة يُمكن اعتبارها وساطةً سياسيةً ودبلوماسية لا تقل عن نظيراتها فيما يجرى فى عالمنا المُعاصر، فقد ترتبت عليها تغيرات جوهرية بديلاً عن الحلول العسكرية، ورحيل قوة أجنبية مستعمرة وتحرر بقاعٍ عربية من قبضتها، وإنه قام بدور مهم فى العلاقات الدولية، رغم أن نصوصها أو نُظمها لم تكن وُجـدت لديه (٣٣) .

وفى أواخر ١٧٨٢ كانت قد نشبت خلافات بين العتوب بجناحيهم (آل صباح) فى الكويت و(آل خليفة) فى الزبارة فى شبه الجزيرة القطرية؛ وبين بعض القبائل فى السواحل الفارسية نتيجة المُنافسات الملاحية والتجارية وتعرضت سفنهم للعدوان؛ فقام عتوب الكويت بمهاجمة بعض القوارب التابعة لقبائل بنى

كعب وحلفائهم فى بندر ريق (ريج) وبوشهر، وقام عتوب الزبارة بمُباغتة البحرين التى كان يحكمها نصر آل مذكور (من بوشهر) فى ظل التبعية لفارس، وقد صدرت له أوامر شاه أصفهان من خلال حاكم شيراز بمهاجمة الزبارة، فتحرك صوبها بقوة كبيرة وفرض عليها حصارًا بحريًا، يُعاونه أسطول بوشهر الذى كان يجوب المياه بين الزبارة والبحرين، وعندها عرض آل خليفة الصلح ولكن فشلت وساطة الشيخ ميرغنى حاكم بندر ريج، لذا فوضوا حاكم جلفار (رأس الخيمة) الشيخ راشد القاسمى وأعطوه صلاحيات أوسع لتسوية الخلافات، وقبِل آل خليفة بـرد غنائمهم من البحرين، وأرسل القاسمى ابنه برسـالة إلى بوشهر فوصلها يوم ٢٢ ديسمبر ١٧٨٢؛ولكن الوساطة باءت بالفشل إزاء تعنت آل مذكور وإصرارهم على استسلام أهل الزبارة دون قيد أو شرط، وقد لقى الهزيمة بعدئذ وتبعها دخول آل خليفة البحرين وإنهاء حكم آل مذكور والتبعية الفارسية ١٧٨٣ م (٣٤) .

وفى رواية أخرى أن الزعيم القاسمى انتدب والده؛ الشيخ السابق راشد بن مطر، وإن الوساطة لم تنجح بسبب تشدد العتوب فى موقفهم، وقد دفع هذا بالشيخ صقر بن راشد القاسمى إلى الانضمام إلى حملة الشيخ ناصر على البحرين فى مُحاولة لاستعادتها، وكان سبب اتخاذه موقفه هذا غضبه من قيام العتوب بأسر إحدى سفنه وقتلهم ثمانية عشر من بحارتها(٣٥) .

وعلى أية حال فإن هذه المواقف تُوضح أن القواسم قد مارسوا دورهم فى حل الخلافات وفض المُنازعات؛ إنطلاقا من حالة فطرية دينية وأخلاقية ومروءة عربية، وإن دلّ هذا على شئ فإنما يدل على الهيبة وعِظم المكانة فى المنطقة، كما أن إزالة الخلافات تُساعد على تحقيق الاستقرار فى المنطقة، وبالتالى ازدهار الملاحة والتجارة ومختلف الأنشطة .ولكنه يكشف بطريقة غير مباشرة عن سمات العلاقة بين القوى المحلية فى المنطقة الخليجية آنئذ وبعضها البعض، وأن القوة كانت هى الحاكم الرئيسى فى علاقات قبائل المنطقة وإماراتها

ومشيخاتها وبعضها البعض، وغـدت القوة – فى غيبة المُؤسسات أو الهيئات المُنَظِمَــة– هى القانون، فيما ترك بصماته على مُمارسة الأنشطة وتداخلها حتّى وصمها البعض بالقرصنة .

رابعا : القواسم والصدام البريطانى :–

مَارَسَ القواسم نشاطهم فى الملاحة والصيد والتجارة شأنهم شأن القوى البحرية الموجودة فى المنطقة؛ وقد تطورت قوتهم البحرية منذ منتصف القــرن الثامن عشر، وتمكنوا من إقامة قواعد لهم على جانبى مدخل الخليج من خلال وجودهم فى بعض مناطق الساحل الفارسى، وبالتالى أصبحوا شركاءً أقوياءً فى ملاحة الخليج وتجارته، وحسبما جاء فى تقرير سيتون المُقيم السياسى البريطانى فى مسقط سنة ١٨٠٧ م؛ أن القواسم فضلاً عن امتلاكهم ساحل الصير العربى؛ فقد امتلكوا أيضًا أماكن أخرى على الساحل الفارسى، وقد أضافت سفن هذه الأماكن كثيرًا إلى أسطول القواسم والذى بلغ تعداد سفنه ٥٠٠ مركبًا، كما أن القواسم كانوا يستطيعون بعون حلفائهم فى الداخل أن يحشدوا مالا يقل عن ٢٠٠٠٠ رجل (٣٦) .

وفى تقديرات أخرى أن القواسم خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر كانوا يمتلكون ٨٧٣ سفينة منها ٦٣ سفينة كبيرة، وقد وصفهم أحد المقيمين الانجليز بأنهم أقوى من كل جيرانهم بما فيهم حاكم مسقط، وإنهم كانوا يُبحرون فى أسطول قوى مُكون من ٧٠ سفينة كبيرة على ظهر كل منها من ٨٠ إلى ٢٠٠ رجل، وكانوا يتبعون هذا النظام فى الإبحارالجماعى حتى يكون بوسعهم مُجابهة أية سفن مُعادية، وقد وصلوا بنشاطهم شرقا إلى سواحل الهند وجُزرالهند الشرقية، ويُرجح أبعد من ذلك وغربًا إلى البحر الأحمر، وكانوا يستوردون الأخشاب والحبال اللازمة لبناء السفن من ساحل المالابار،أما تسليحها فكانوا يجلبونه من البحرين والموانئ الفارسية ومسقط، ومُزودة بصفين من المجاديف

القوية وبحارة أشداء، ولذا كانت سُفنهم أسرع فى قيادتها من السفن الإنجليزية وأيسر، وقد بلغ شعورهم بقــوتهم وهيمنتهم على مياه الخليج؛ أن طلبوا من حكومة بومباى أن تدفع لهم ضريبةً نظير السماح للسفن البريطانية بالإبحار فى الخليج فى أمان [٣٧] .

ويذكر العابد وآخرون أنه لم تكن هناك أية علاقات ايجابية بين القواسم والانجليز فى الفترة من ١٧٧٨ -١٧٨٩م، وقد بدأت المُهاجمات القاسمية للسفن البريطانية منذ ١٧٧٨م، حيث قامت ست سفن بمهاجمه سفينة انجليزية تحمل رسائل رسمية، وبعد معركة استمرت ثلاثة أيام تم أسرها واقتيادها الى رأس الخيمة وتوالت الأحداث تباعاً، ومن أجرأ العمليات التى قام بها القواسم ضد الإنجليز مهاجمة أحد تشكيلاتهم البحرية للطراد البريطانى فايبر Viper ١٧٩٧م، بينما كان راسيًا فى بوشهر وكان مُزودًا بعشرة مدافع .

ولم يتعرض القواسم للسفن البريطانية لمدة سبع سنوات لانشغالهم فى الصراعات مع مسقط، ووقع أول حادث عام ١٨٠٤ بأسرهم بحارة طراد شركة الهند الشرقية (فلاى Fly) وفى أوائل ١٨٠٥ هاجموا سفينتين بريطانيتين يمتلكهما المقيم البريطانى فى البصرة وتم أسرهما، مثلما هاجمت عمارة قاسمية مؤلفة من أربعين سفينة صغيرة طرادًا كبيرًا تابعًا لشركة الهند، كان مزودًا بأربعة وعشرين مدفعًا أثناه مرور بجزيرة بليور Pilior [٣٨] .

وفى أعقاب ذلك أمكن التوصل إلى اتفاقية بريطانية مع القواسم فى السادس من فبراير ١٨٠٦م؛ نصت على احترام كل طرف لمُمتلكات الآخر أينما كانوا ولم توضع أية قيود على القواسم فى علاقاتهم مع الرعايا غير البريطانيين، مثما أعطت للقواسم الحق فى إهمال الإتفاقية إذا اضطروا إلى ذلك بسبب عقيدة الجهاد "على أن يُبلغوهم بذلك قبل ثلاثة أشهر"، وقد التزم بها القواسم لمدة سنتين؛ ولكن سرعان ما عاودوا نشاطهم عام ١٨٠٨، ويبدو أن استبقاء الشيخ سلطان بن صقر القاسمى وتولية حلفاء للعرش السعودى كان له أثر فى ذلك، أو

أنهم اعتبروا ما يقومون به حالة جهاد؛ رغم أنه لا يُمكن إنكار أثر الدافع الإقتصادى فى مثل هذه العمليات، وعلى كلٍ فقد بدت عمليات القواسم عنيفة وتمكنوا من ايصالها إلى الهند وأسروا عشرين سفينة تجارية هندية فى البحر العربى الى الشمال من بومباى، ثم قاموا بعملية كُبرى بأسرهم السفينة الإنجليزية منيرفا Minerva بالقرب من رأس مسندم، وقد جُردت السفينة من حمولتها وزودت بعشرين مدفعا وأصبحت احدى قطع أسطول القواسم .

وكان ذلك يعنى التخلى عن الإتفاقية والانزلاق صوب المُواجهة مع بريطانيا؛ وقد تزايدت عمليات القواسم بعدئذ؛ وفى رأيهم أنها عمليات جهاد دينى ضد سفن الأعداء؛ فقاموا عام ١٨٠٩م بمُهاجمة سفينة البحرية الملكية الضخمة (لايون Lion) المُزودة بخمسين مدفعًا، ثم مطالبتهم السفن البريطانية المارة فى الخليج بدفع رسوم، ولذا قامت حكومة الهند بإعداد حملة بمُعاونة رمزية من مسقط؛ هاجمت رأس الخيمة فى مارس ١٨٠٩م،واقترفت أعمال السلب والنهب وقامت باحـــراق السفن الراسية وبلغ عددها خمسين من مختلف الأحجام كافة، ونظّـــم القواسم صفوفهم وسَرت الأنباء بمقدم قوة بريـــة من الداخل، فانسحبت الحملة وتحركت شمالاً قاصدةً لنجـــة وهى ميناء قاسمى مزدهر على الجانب الشرقى من الخليج العربى وتم الاستيـــلاء عليها، ومن هناك جرى الاتفاق على الإلتقـــاء بقوات السيد سعيد بن سلطان لتنظـــيم هجـــوم مُشـــترك على شناص وخـــور كلبا وخورفكان، ثم اتجهت وحدات أخـــرى نحو النهاية الشرقية لجزيرة قشـــم لمُهاجمة لافت التى كان يسيطر عليها القواسم وحلفاؤهم بنو معين، وتوقفت الأنشطة القاسمية عن مهاجمة السفن البريطانية لبعض الوقت .

وسرعان ما أعاد القواسم بناء قوتهم؛ إذ كان القسم الأكبر من أسطولهم فى رحلات تجارية فى منطقة البحر الأحمر وشرق إفريقيا أثناء مقدم الحملة البريطانية؛ ومنذ مطلع عام ١٨١٢م قاموا بتدمير سفن عديدة منها التى كانت تحمل العلم البريطانى وأسرها وأصبحوا أكثر قوةً وقسوةً، وفى خريف ١٨١٣

ظهرت سفن القواسم على مقربة من سواحل الهند الشمالية، وقامت فى أوائل سنة ١٨١٤ بأسر بضعة مراكب؛ وفى أعقاب ذلك جرت مفاوضات انتهت بتوقيع إتفاقية بوشهر ١٨١٤م بين المقيم البريطانى المستر بروس ومثّل القواسم فيها حسين بن محمد بن غيث الذى حمل رسالتين الأولى من الشيخ حسن بن رحمة؛الذى كان قد حلّ محل حسن بن على زعيما للقواسم، والثانية من الأمير عبدالله آل سعود.

وقد كانت هذه الإتفاقية من سبع مواد نصت الأولى والثانية على المعاملة بالمثل بين القواسم والبريطانيين بإتاحة حرية ممارسة الأنشطة أمام السفن والتجار والرعايا فى الموانئ الهندية وتلك التابعة للقواسم فى الخليج العربى أسوةً بالموانئ الأخرى، ونصت المادة الثالثة على أن يوافق القواسم، منعًا من وقوع التباس بين سفنهم وغيرها من السفن العربية،على رفع علم أحمر مكتوب عليه (لا اله الا الله محمد رسول الله) فى الوسط وسيُعتبر هذا العلم رمزًا لدولتهم (٣٩) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الإتفاقية لم يُقــدر لها الصمود طويلاً، إذ إنه بعد عودة ابن غيث عارضها قسم كبير من القواسم بعدما اختلفوا فى تفسيرها، ولكن لم يتم رفضها رسميًا، ويبدو أن البعض كانت له طموحات تفوق الإتفاقية أو أنه فهم بنودها بطريقته الخاصة، وواصلت السفن القاسمية الإبحار على مقربة من السواحل الهنــدية وهاجمت بعض سفن السند والهنود، ويعتقدون أن ذلك لا يُخل بالإتفاقية حيث لا يتعرضون للسفن التى ترفع الأعلام البريطانية وكذلك اعتبارهم الهنود غير الإنجليز، ولم يكن التفسير كذلك بالنسبة لشركة الهند وحكومة بومباى؛ الأمر الذى كان يُنذر بحدوث صدام مع القواسم .

ثم شهدت فترة (١٨١٦-١٨١٨) تزايداً كبيراً فى نشاط القواسم؛ امتد إلى مناطق واسعة من سواحل الهند والبحر الأحمر إضافةً إلى الخليج العربى، وعلى سبيل المثال فقد تمكنت تشكيلة بحرية قاسمية مؤلفة من إحدى عشرة سفينة من

أسر اثنتى عشرة سفينة هندية، مثلما طاردوا السفينة الأمريكية برشيا Persia وكذلك هاجموا سفينة فرنسية بالقرب من موريشيوس، ثم كانت العملية الأكبر بأسرهم ثلاث سفن تجارية كانت قادمة من سوارت وترفع العلم البريطانى؛ وذلك بالقرب من مخا عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، وتم تفريغ شحناتها واطلاق سراح الأسرى، وكان يقود عملية القواسم الأمير ابراهيم بن رحمة أخو الشيخ القاسمي؛ وهنا أصدرت حكومة بومباى أوامرها الى الكابتن بردجز P.H.Bridges بالتوجه بسفينة البحرية الملكية الى الخليج لمساعدة المستر بروس فى استعادة حمولات سُفن سوارت ومعاقبة المسئولين عن ذلك (٤٠) .

ويُمكن القول بأن هذه الحادثة وحوادث أخرى؛ مثّلت انتكاسةً خطيرةً فى العلاقات القاسمية البريطانية وأدت سريان الإتفاقية، وكانت بمثابة الذريعة القوية لبريطانيا فى مُهاجمة رأس الخيمة، خاصة مع تطور أوضاع شركة الهند الشرقية؛ حيث أصبحت فى عام ١٨١٨م هى صاحبة السلطة العليا ببلاد الهند، وكانت تقوم بعمليات النهب والسلب والغزو فى الأراضى الهندية لتمويل مشترياتها ولشرائها بعد هذا قسرًا بالأسعار التى تُحددها، وأخذت تتحين الفرصة كذلك لإحداث ضربتها فى الخليج العربى (٤١) .

وعلى الرغم من سوء مُمارسات هذه الشركة، فقد عمرت وثائقها وحكومة بومباى (البريطانية) بوصف القواسم بالقراصنة، وقد روجوا لهذا المفهوم وخاصة تشارلز بلجريف ـ المستشار البريطانى فى البحرين ١٩٢٦- ١٩٥٦ـ بمؤلفه ساحل القراصنة The Pirate Coast (٤٢) .

وفى هذا المجال فقد ناقش ـ صاحب السمو ـ الشيخ سلطان بن محمد القاسمى فى عمله الأكاديمى الذى حصل به على درجـة الدكتوراه من جامعـة إكستر البريطانية " The Myth of Arab Piracy in the Gulf أسطورة القرصنة العربية فى الخليج "، بأنها لم تكن قرصنةً وإنما " الدفاع المشروع عن الحياة والتصدى للقوة الغربية الداخلية المُتمثلة في شركة الهند الشرقية، والوقوف فى

وجه محاولاتها لفرض وضع احتكارى للتجارة الخارجية للمنطقة بأسرها مع الهند".

ومما يدحض شبهة القرصنة أو حملة الأكاذيب التي ألصقها الإنجليز بالقواسم ما قاله المستر واردن الذي كان يشغل منصب السكرتير الأول لحكومة بومباي يوم ١٨١٩/٨/١٢ م معترضا على اتهام القواسم بالقرصنة: «إن نتيجة أبحاثي قد بينت هذه الحقيقة الهامة، وهي أن القرصنةً ليست أصيلةً في أرض وسواحل الخليج وأن المضايقة التي تتعرض لها السفن البريطانية في شئون الخليج المحلية تدخل لا مبرر له» .

ويُضيف الدكتور القاسمي؛ "إن شركة الهند الشرقية كانت عازمةً على زيادة نصيبها من التجارة الخليجية بكل الوسائل المُتاحة، حيث إن أية زيادة في نصيبها لابد وأن تكون على حساب عرب الخليج الأصليين وهم العتوب والعمانيون والقواسم. وأدركت حكومة الشركة في بومباي أن أية مقاومة حقيقية لمشروعاتها في الخليج ستنطلق من القواسم، وعليه شن مسئولو الشركة حملةً مبيتةً للإساءة وإبراز القواسم كقراصنة يشكلون تهديداً خطيراً لجميع الأنشطة البحرية في المحيط الهندي والمياه القريبة، وبهذه الطريقة التصق لفظ (الجواسم) في ليلة وضحاها بالقرصنة وتحول وطن القواسم إلى ساحل القراصنة بدلا من الساحل العربي. وفي إطار هذا المخطط الدعائي لتشويه سمعة القواسم، فأن أية مصيبة كانت تحل بأية سفينة في المنطقة كانت تنسب زوراً إلى (القواسم)، وقد قادت هذه الحملة الظالمة في نهاية المطاف إلى شن الهجوم على رأس الخيمة وتدمير قوة القواسم" (٤٣) .

وقد كانت الظروف الإقليمية مُواتيةً لبريطانيا، وفى غير صالح القواسم بالمرة؛ ولم تُدرك رأس الخيمة ذلك، ومن بين تلك الظروف افتقادهم لقوة حلفائهم السعوديين بعدما قام ابراهيم باشا بن محمد على باشا مصر وقواته بتدمير الدرعية ١٨١٨م، بالإضافة إلى التعاون البريطانى المسقطى القائم وفق

المصالح المُشتركة، وكذلك الإتفاقية البريطانية مع بلاد فارس منذ ١٨١٤م درءًا للنفوذ الروسى (٤٤) .

وكانت الظروف الدولية أيضًا مُواتيةً لإنفراد بريطانيا بمُقدرات العالم فى أعقاب انتصارها على فرنسا فى الحروب النابليونية ١٨١٤ وانعقاد مؤتمر فيينا ١٨١٥ الذى دشّنها كقوة عُظمى؛ وبالتالى تفويضه لها فى تحقيق الأمن والسلام العالمى، وهو ما شرعت تُنفذه فى إطار السلام بالمفهوم البريطانى Pax Britannica وكان من شأن ذلك منح الأسطول البريطانى صلاحيات مُطلقةً فى اتخاذ مايراه من اجراءات لتحقيق ذلك (٤٥) .

وفى رأى الباحث؛ أن ذلك كان يعنى ترتيب المصالح العالمية تبعاً لوجهة النظر والمصالح البريطانية أولاً؛ بمعنى القضاء على البؤر التى ترى فيها ما يعوق نشاطها، وهو ما يُفسر تدمير رأس الخيمة ١٨١٩م، بحجة القضاء على القرصنة وتحقيق الأمن فى منطقة الخليج العربى، وإن كان ذلك بمثابة رسالة ترهيب للآخرين، ولذا تم توقيع الإتفاقية العامة ١٨٢٠م، بين بريطانيا ويُمثلها الجنرال وليم جرانت كير مع كل من شيوخ إمـــارات الخليج العربى ومشيخاته على حدة (٤٦)، وقد نصت بنودها على العمل بكل الوسائل على استتباب الأمن وعدم الدخول فى أعمال حربية بين القبائل وبعضها البعض، والامتناع عن المشاركة فى أعمال القرصنة والتهريب بطريقة مُباشرة أو غير مُباشرة ومن يقترف ذلك يُعتبر عدوًا للجنس البشرى، وإن تجول السفن وابحارها يكون بموجب تصاريح تُمنح من الشيوخ وتحتفظ بسجلات تعتمدها السلطات المختصة وأن ترفع أعلامًا خاصة بها، وإن توقيع الإتفاقية على هذا النحو يعنى أنها كيانات مُستقلة تمامًا ولا يعنى أنها تحت الحماية، ولذا تُعتبر هذه الإتفاقية نسبيًا أفضل مما تلاها من اتفاقيات، فقد تضمنت مُعاملات بالمثل بالنسبة للسُفن والتجار.

ولكنها على الصعيد البريطانى فقد أضفت حالةً من الشرعية القانونية على تواجد السُفن البريطانية والتجار ..الخ، مثلما منحت المقيم البريطانى فى بوشهر سُلطةً رقابيةً على تنفيذها ومرجعيةً فى حالة حدوث تجاوزات أو إخلال ببنودها، غير أن أسوأ ما تركته من آثار على حلف القواسم، أنه بعدما كانت عدة قبائل مُتحدة فى حلف واحد؛ وفى الإتحاد قوة، أصبح هذا الحلف مُمزقاً وتفرق إلى عدة كيانات سياسية كلٍ على حدة؛ وترسيخًا لسياسة بريطانيا فرق تسـد، وأصبح ذلك الواقع بموجب التوقيعات، وامتدت الآثار نفسها إلى سائر الكيانات؛ وقد ظلّت هذه الفُـرْقة مُستمرة ولم تنته إلا بعد نيل الإستقلال (١٩٧١) حيث تم الإتحاد معًا فى دولة الإمارات العربية باعتبارها دولةً فيدراليةً؛ فى مُزاوجة واقعيـة حافظت على سيادة الدولة القومية وشخصيتها السياسية والقانونية فى المجتمع الدولى؛ وشخصية هذه الكيانات الذاتية، ولكن هذا الموضوع وموضوعات أخرى لا تدخل فى نطاق بحثنا هذا .

وفى النهاية لا يُمكن فهم دَوْر القواسم بمعزل عن فهم ظروف الفترة التاريخية، والبيئة الجغرافية والعلاقة بين المُكونات التضاريسية والنشاط البشرى وطبيعة المجتمع آنئذ؛ وكذلك فهم الشخصية العربية وأخلاقياتها ونزوعها إلى الفروسية وتكوينها الدينى، ولعل فهم هذه الأبعاد فى الشخصية القاسمية على هذا النحو يُساعد على فهم الصراع بين القواسم وبعض القوى الإقليمية، ثم كان هذا بصورة أقوى فى مواجهة البريطانيين، وإن المسألة لا يُمكن حصرها فى عمليات قرصنة أو قراصنة، وإنما بفهم ظروف منطقة مُتكاملة كانت تمـر بمرحلة التكوين فى تاريخها الحديث .

خـاتمـة

يتضح من ثنايا هذا المبحث؛ أولاً :أن دراسة القواسم تُقدم نموذجًا لما بدت عليه القوى المحلية فى الخليج العربى من تركيبات قبلية ذات قدرة ومكانة؛ فى

فترة كانت تعيش فيها المنطقة إرهاصات ظهور وبلورة ركائز ومعطيات الدولة؛ بمفهومها القومى الحديث فى غالبية إمارات ومشيخات الخليج؛ على غرار ما حدث فى أوروبا من تحولات وداعها العصور الوسطى، ودخولها عصر النهضة فى عديد من المجالات السياسية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية..الخ .

وقد كانت المنطقة قبلئذ تُعانى من الوجودين البرتغالى والهولندى ونفوذهما إلى أن تم طردهما، وحدثت حالة من الفراغ السياسى، بدت فيها مسيرة أخرى من صراعات المصالح بين القوى المحلية والإقليمية ولم تبعد عنها كثيرًا القوى الدولية، واستفادت القوى المحلية من هذه الحالة فى بلورة كيانات خاصة بها.

ثانياً : إذا كان القواسم قد مثلوا رافدًا أساسيًا فى تكوين تاريخ دولة الإمارات العربية الحديث، فإنهم فى الواقع قد بدوا منذ ظهورهم كقوة فاعلة فى مُحيطها ولم تكن خاملةً؛ وفرضوا من خلال نشاطهم وقُدراتهم؛ مكانتهم فى المنطقة؛ ولكنهم فى سبيل بلورة مصالحهم، دخلوا فى صدامات محلية واقليمية وكان أكثرها دمويةً مع ــ بريطانيا ــ القوة العظمى، فيما أدى إلى تدمير قوة رأس الخيمة ورسم خريطة للمصالح البريطانية فى المنطقة . فى الربع الأول من القرن التاسع عشر،وفيما بعد بسطت حمايتها، ومن ثم فإن دراسة تاريخهم تُقــدم بدورها نموذجًا لدراسة الحالة فى المواجهات بين قوة محلية تطلعت إلى أن تلعب دورًا لتحقيق مصالحها وأثر صدام المصالح مع قوة عظمى، ومن ثم نرى من خلالهما صورةً لصراع المصالح بين القوى غير المُتكافئة .

ثالثاً : إذا كان القواسم قد مثلوا مُرتكزًا تاريخيًا لدولة الإمارات، فإن دورهم لم يقتصر على التاريخ – الماضى– وإنما تعداه إلى الحاضر أيضاً، وذلك من خلال إمارتى رأس الخيمة والشارقة، اللتين كانتا أسبق ما يكون إلى الإتحاد فى تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة بعد الاستقلال ١٩٧١، ودعمتا بقوة مع الإمارات الخمس (أبوظبى – دبى – أم القيوين – الفجيرة – عجمان) مسيرة الدولة القومية المركزية فى نهضتها المعاصرة وتطورها، واتحدوا جميعًا فى

تجربة عربية مُثلى وواقعية فى النُظم السياسية لصالح الوطن كدولة فيدرالية، وأصبحتا من أهم روافد مُكونات الدولة؛ وغدت الشارقة العاصمة الثقافية ورأس الخيمة العاصمة التاريخية؛ بينما أبوظبى العاصمة السياسية . ولكنهم فى سبيل بلورة مصالحهم، دخلوا فى صدامات محلية واقليمية وكان أكثرها مع ــ بريطانيا ــ القوة العظمى، مما أفضى إلى تدمير قوة رأس الخيمة ورسم خريطة للمصالح البريطانية فى المنطقة .

رابعًا : ثبت من العرض أنه تبعًا للتطور الزمنى لا يُمكن القول بتركز قبيلة واحدة بجميع أجيالها وبطونها وأفخاذها وعشائرها على مرالزمن فى إمارة أو منطقة واحدة؛ بل الغالب انتشارها فى أكثر من إمارة أو مشيخة، وأحياناً قد تتعدى ذلك إلى أكثر من دولة، وإن كانت المسألة نسبيةً فى تركيز أكثر أفراد القبيلة فى إمارة أو مشيخة أكثر من الأخريات، وقد يكون هناك إمارة مترامية الأطراف وتوجد أجزاء من أراضيها ضمن إمارة أخرى، أو أن يكون ضمن نطاقها الجغرافى أراضٍ تابعة لإمارة أخرى وهى ظاهرة يُمكن أن تُقوى اللحمة الواحدة فى الوطن المركزى أكثر مما تُفرقه و تجعله متماسكا أكثر مما تُجزئه، ناهيك عن الإنتشار والتنوع الذى يجعل التعاون والاتحاد حتميًا فى المصالح .

خامسًا : فى النهاية يتأكد أنه كلما كانت الركائز التى تستند إليها الدولة إبان تأسيسها أو تطورها قويةً كلما كان ذلك أجدى فى ثباتها،إذ تكون هذه الركائز أشبه بالجذور العميقة للتأسيس، ومن ثم تزيد القدرة فى مسيرة التطوير، وكما هو معروف فأى دولة تضرب بجذورها فى التاريخ من خلال جهد أبنائها فى أقاليمها؛ وتكبر وتتطور من خلال مقــوماتها . فأنت لو سألت أى دولة عن تراثها أو ميراثها لعرفت أنه مجموع ما تم فى أقاليمها قبل توحيدها أو بعده .

الهــوامش

(*) مسندم معناها الصخرة التى ترتطم فيها السفن وعليها تتكسر (من السندان والمطرقة) .

(١) من الدراسات المُتخصصة فى الموضوع : – صالح محمد العابد : دور القواسم فى الخليج العربى ١٧٤٧ – ١٨٢٠، مطبعة العانى، بغداد ١٩٧٦، وكذلك : – عبد القوى فهمى : القواسم " نشاطهم البحرى وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٧ – ١٨٥٣ " تقديم جمال زكريا قاسم، طبع على نفقة الشيخ صقر بن محمد القاسمى بمطبعة رأس الخيمة الوطنية ١٩٨١م، ومن الدراسات التى صدرت مؤخرا: ميخين فيكتور ليونوفيتش: حلف القواسم وسياسة بريطانيا فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة سمير نجم الدين سطاس، مراجعة وتقديم قسم الدراسات والنشر، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دولة الإمارات العربية، ط أولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م، وقد خصص هذا المؤلف الأخير فصلاً كاملاً عن مصادر القواسم ومراجعهم، ص– ص: ٢٣ – ٧٨ .

ومن المؤلفات التى تناولت هذا الموضوع ضمناً : – جمال زكريا قاسم : الخليج العربى " دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول ١٥٠٧–١٨٤٠ م، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٥، ص– ص: ٥ – ١٧، ويُعتبر قاسم فى طليعة المؤرخين العرب الذين درسوا تاريخ الخليج العربى، وله موسوعة علمية رصينة فى خمسة مجلدات صدرت عن دار الفكر العربى . وكذلك : – دليل الخليج وعمان ووسط الجزيرة العربية J. G. Lorimar: Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabiaوهو موسوعة تاريخية وجغرافية وإحصائية، أشبه بدليل معلوماتى لموظفي الدولة ودبلوماسييها المعنيين بمنطقة الخليج العربي، وتم تكليف لوريمر من موظفي الخدمة المدنية الهندية وفريق من موظفي الحكومة عام ١٩٠٣م بإعداده بناءً على قرار من حكومة الهند البريطانية، والدليل فى قسمين كبيرين:"تاريخي" و"جغرافي"، واكتمل القسم الجغرافي سنة ١٩٠٨ م، وإكتمل القسم التاريخي ١٩١٥ م، بعد موت لوريمر بعام، وطبع فى مدينة كلكتا بشكل محدود جداً، ووُضع تحت تصنيف "سرّي وللعمل الرسمي"، وظل هذا الدليل سرّيا حتى عام ١٩٧٠ م حينما نُشر لأول مرة. وتم إعادة طبعه فيما بعد، وقد تم ترجمته إلى اللغة العربية فى أكثر من طبعة بإشراف قسم الترجمـــة بالديوان الأميرى، الدوحـــة، قطر، ط١٩٧٦، ط٢٠٠٢، وكذلك Kelly . J. B:

Britain and the Persian Gulf, 1795 – 1880, Oxford, London 1968. وقد ترجمه محمد أمين عبدالله إلى اللغة العربية بعنوان بريطانيا والخليج 1880- 1795؛ وكذلك مُدونات ومحفوظات دار القواسم :

http://daralqwasim.yoo7.com/montada-f1/topic-t4.htm

(٢) جمال زكريا قاسم : إمارات قديمة ودول حديثة (بحث ضمن) دولة الإمارات العربية المتحدة " دراسة مسحية شاملة "، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم؛ معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨،ص – ص:٢٣– ٢٦، وللمزيد: ناصرحسين العبودى: صفحات من آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة، اصدارات مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ط أولى ٢٠٠٢، ص – ص :٢٩ – ٦٥.

– وللمزيد حول هذه الموضوعات فى اطار الجغرافيا التاريخية؛ يُمكن الرجوع إلى : محمد متولى : حوض الخليج العربى، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣/القاهرة ١٩٧٨، ص، ص : ٣٥ – ٣٢٢،٥٣، ٣٢٣ ..؛: – المؤلف نفسه : حوض الخليج العربى" الجزء الثانى– الأوضاع السياسية والإقتصادية "، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط١٩٧٧/٢، ص– ص : ١٥ – ٥٤ .

(٣) ج . رينتز : القواسم، ترجمة وائل البشير، دائرة المعارف الإسلامية (طبعت برعاية سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمى) المجلد٢٧، إصدار مركز الشارقة للإبداع الفكرى بدولة الإمارات العربية المتحدة بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م، ص: ٨٣٩٧، وقد كان كاتب هذه الدراسة مدير تحريرها .

(٤) – فاطمة الصايغ : الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، مركز الخليج للكتب، دبى، الإمارات العربية المتحدة، د.ت؛ ص :٥١؛ – محمد مرسى عبدالله : إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، الجزء الأول، المكتب المصرى الحديث، القاهرة ١٩٧٨، ص– ص : ٩٠ –٩١ .

(*) يُقال لهم الحولة أى ذوو الأصول العربية الذين هاجروا واستقروا فى السواحل الفارسية، وقد نُطقت الحاء (هاء) فى الفارسية فنطقوها الهولة، وقدرهم البعض بأكثر من ثلاثين قبيلة، وقد عاد البعض منهم إلى الأراضى العربية. للمزيد : محمد غريب حاتم : تاريخ عرب الهولة " دراسة تاريخية وثائقية "، الجزء الأول، المؤسسة العرية للدراسات والنشر، بيروت ط أولى ٢٠٠٣، ص– ص : ١١ – ٢٩ .

(٥) - ميخين فيكتور ليونوفيتش : المرجع السابق، ص، ص : ١٨،١٧١ - ١٧٥، - عبدالقوى فهمى : مرجع سابق، ص- ص : ٣٥ - ٤٠ .

(٦) للمزيد : ميخين فيكتور ليونوفيتش : المرجع نفسه، ص- ص : ١٧١ - ١٨٠، - محمد مرسى عبدالله : المرجع السابق، ص- ص: ٨٩-٩٦، - فاطمة الصائغ : المرجع السابق، ص- ص : ٥١ - ٥٣، - ج . رينتز: المرجع السابق، ص - ص : ٨٣٩٦ - ٨٣٩٨ .

(٧) تُـوجد عـدة روايات منها ما يعزو انضمامهم وقبائل نجدية أُخرى إلى مالك بن فهم بعد وصوله إلى عُمان فى أعقاب انهيار سد مأرب سنة ١٢٠م وانتصاره على الفُرس؛ ويُقـدر البعض زمن وصولهم حوالى القرن السابع الميلادى، ويروى القواسم أنفسهم أن أسلافهم وصلوا إلى موطنهم الحالى قبل خمسة أو ستة قرون ونصف . للمزيد : - محمد مرسى عبدالله : المرجع نفسه، ص- ص: ٩١-٩٦، - فاطمة الصائغ : المرجع نفسه، ص- ص : ٥١ - ٥٣، - عبدالقوى فهمى : المرجع السابق، ص ص : ٤٠، ٤١ .

(٨) توجد عدة تعريفات للدولة وعلى سبيل المثال : هى مجموعة من الأفراد يُقيمون بصفة دائمة فى إقليم معين خاضعين لسلطة منظمة وهى الحكومة، أو أنها مجموعة دائمة مستقلة من أفراد يملكون إقليمًا معينًا، وتضمهم سلطة مشتركة منظمة بغرض أن يكفل لأفرادها جملة ولكل واحد منهم التمتع بحريته ومباشرة حقوقه، وهى لدى " دوجى " عبارة عن جماعة من الناس الإجتماعيين بينهم طبقة حاكمة وأخرى محكومة، ومن رأى ديفو أن الدولة مجموعة من الأفراد مستقرة فى إقليم محدود تخضع لسلطة صاحبة سيادة، مكلفة أن تحقق صالح المجموعة، ملتزمة فى ذلك مبادئ القانون؛ ويرى بعض الشُـرّاح أنه من المتعذر الوصول إلى تعريف واف لعبارة " دولة " وإن الأوفق فى مثل هذه الحالة أن يُكتفى بالإشارة إلى العناصر اللازمة لتكوين الدولة .
للمزيد يُمكن الرجوع إلى : بطرس بطرس غالى، محمود خيرى عيسى : المدخل فى علم السياسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، طبعة ١٠ /١٩٩٨، ص- ص : ١٧٣ - ١٨٤ .

(٩) تناول ابن خلدون ذلك فى المقدمه، وأورد رؤاه فى تفصيلات كثيرة احتواها الباب الثالث من الكتاب الأول - وفق تصنيفاته - والخاص بالدول العامة والمُـلك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك من الأحوال للمزيد : ابن خلدون (عبدالرحمن

بن محمد بن خلدون) : مقدمة ابن خلدون،الجزء الأول، تصحيح وفهرسة أبوعبدالله السعيد المندوه، مكتبة العلا، الشارقة،دولة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، ص – ص : ١٦٣ – ١٩٣.

(١٠) يُمكن الإستزادة حول هذه النقاط وسواها عن أركان الدولة وحدودها البحرية والإقليمية وسيادتها وعلاقاتها الدولية .. الخ، بالرجوع إلى المقدمة السياسية التنظيرية حول المفاهيم الأساسية الخاصة بالدولة والعلاقات الدولية والخليج العربى فيما يلى :

– على شفيق: مجلس التعاون الخليجى من منظور العلاقات الدولية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان١٩٨٩م، ص – ص : ٨ – ٥٣.

(١١) أوردها المؤلف اعتمادا على إحصاءات ١٩٦٨ م؛ ومن أمثلته إمارة عجمان التى لم تكن تزيد مساحتها على ٢٦٠ كيلومتر مربع وعدد سكانها على ٤٢٤٥ نسمة،وكذلك أم القيوين التى بلغت مساحتها ٧٨٠ كيلومتر وعدد سكانها ٣٧٤٠ نسمة . وختم بقوله " وربما كانت أفضل مُبادرة أقدمت عليها هذه الدول (الكيانات) هى دخولها معا فى اتحاد وتأليف دولة الإمارات العربية المتحدة " – للمزيد : محمد متولى : المرجع السابق، ص ص : ٣٥٠، ٣٥١ .

(١٢) بالإضافة إلى هذه العناصر أضافت هذه النظرية السكان Population والطابع القومى National Character والنظام السياسى للحكم Governmental Institutions وللمــــزيد:

- Pack .S .W: Sea Power in the Mediterranean from seventeenth century to the present day, London 1971, P: 22-34, 53-71.

(١٣) للمـــزيد : عبدالقوى فهمى : المرجع السابق، ص :٤٢ .

(١٤) محمد متولى : حوض الخليج، الجزء الأول، ص ص : ٣١٣، ٣١٤ .

(١٥) عبدالقوى فهمى، ص : ٤٥ .

(*) سيحدث ذلك فى أوائل القرن العشرين .

(١٦) محمد متولى : حوض الخليج، ج١، ص– ص : ٣١٤ – ٣٢١ . وللمزيد :
http://www.uaezayed.com/zayed9/3.htm .

(١٧) – محمد متولى : المرجع السابق، ج١، ص ص : ٢٠، ٢١، – عبدالقوى فهمى : المرجع السابق، ص ص : ٤٣، ٤٤، – صالح محمد العابد : المرجع السابق، ص– ص : ٧٠ – ٧٣ .

(١٨) عبدالقوى فهمى : المرجع نفسه، ص : ٦٠ .

(١٩) للمزيد: - عيسى راشد سعيد الفلاح : سلطان بن صقر بن راشد القاسمي ودوره السياسى فى الخليج العربى ١٨٠٣ - ١٨٦٦، مراجعة د. أحمد جلال التدمرى، سلسة كتاب الأبحاث، مركز الدراسات والوثائق،الديوان الأميرى؛ رأس الخيمة، دولة الإمارات العربية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص - ص : ٦٩ - ٧٧ . - صالح محمد العابد : المرجع السابق، ص : ٧٣،

(٢٠) ج، رينتز : المرجع نفسه، ص : ٨٣٩٦ .

(٢١) للمزيد : - فاطمة الصائغ : المرجع نفسه، ص- ص : ٥١ - ٥٣ ، - ج . رينتز: مرجع سابق، ص - ص : ٨٣٩٦ - ٨٣٩٨؛ - محمد مرسى عبدالله : المرجع نفسه، ص ص : ٩١، ٩٢؛ وهذا المرجع الأخير هو الذى أورد اللقب كايد؛ ونُـرجح أن لقبه ككل كان " كايد بن عدوان" بمعنى كايد أو كائد عدوه حسبما درجت على ذلك البلاغة والأدبيات العربية؛ وإن اسمه الحقيقى رحمة وهو جد الشيخ رحمة بن مطر التالى .

(٢٢) برزت فى عُمان إبان مقاومة البرتغاليين فى عهد دولة اليعاربة كُتلتان سياسيتان كبيرتان هما الهناوية نسبة لقبيلة بنى هناءة وهى من القبائل اليمنية ويُقال لهم عرب الجنوب، والغافرية نسبة لقبيلة بنى غافر العدنانية قد جاءوا من نجد ويُطلق عليهم عرب الشمال، وبعد وفاة الإمام سلطان بن سيف اليعربى ١٧١٨م؛ إجتاحت البلاد فتنة حول تولى الحُكم إذ كان ابنه سيف بن سلطان الثانى صغيرًا، ومن ثم نشب الصراع الداخلى وانقسمت قبائل عُمان أحزابًا حول زعيمى القبيلتين فى الأولى خلف بن مبارك الهناوى وعلى رأس الثانية محمد بن ناصر الغافرى وهو الذى ناصره القواسم، وقد قُتل كلاهما مثلما انتهت دولة اليعاربة وتأسس حكم دولة آل بوسعيد على يد - محرر البلاد من الفرس- أحمد بن سعيد حاكم صحار، ولازالوا مستمرين فى حكم عُمـان؛ وللمزيد حول التفصيلات وقبائل كل حلف سواء عدنانية أو قحطانية :-

- للمزيد : - محمد مرسى عبدالله : مرجع سابق، ص - ص : ٦٣ -٧١ .

(٢٣) عبدالقوى فهمى : مرجع سابق، ص - ص : ٧٣ - ٧٦، - محمود شاكر : موسوعة تاريخ الخليج العربى، الجزء الأول، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ٢٠٠٣م، ص - ص :٣٤٢، ٣٤٣ .

(٢٤) للمزيد حول هذه التفصيلات : - مصطفى عقيل اسحق الخطيب : التنافس الدولى فى الخليج ١٦٢٢-١٧٦٣، رسالة ماجستير غير منشورة بإشراف صلاح العقاد، قسم التاريخ، كلية البنات،جامعة عين شمس ١٤٠٠هـ/١٩٨٠، ص - ص : ٣٦٢ - ٣٦٤،

- فتحية النبراوى، محمد نصر مهنا : الخليج العربى " دراسة فى تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية "، منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ت، ص- ص : ٢٢٠ – ٢٢٣، – محمد مرسى عبدالله : المرجع السابق، ص – ص : ٨٩– ٩٢ .

(٢٥) – عبد القوى فهمى : مرجع سابق، ص ص : ٩٠، ٩١، – محمود شاكر : المرجع السابق، ص ص :٣٤٣، ٣٤٤ .

(٢٦) للمزيد من التفصيلات : رينتز : المرجع السابق، ص : ٨٢٩٨؛ – سمير محمد علي أبوياسين : العلاقات العُمانية البريطانية، مركز دراسات الخليج العربى، جامعة البصرة، العراق ١٩٨١، ص – ص :١٤٨– ١٥٣؛ – صالح محمد العابد : مرجع سابق، ص – ص: ١٥٧– ١٩٣ . – عيسى بن راشد الفلاح : المرجع السابق، ص: ٢٩ .

(*) وردت بهذا المُسمى فى كتابات القرن التاسع عشر وكذلك فى الوثائق البريطانية والتركية والمصرية وغيرها، ولازالت بعض الكتابات تنقلها دون تمحيص وأطلقوها على أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب نسبةً إلى نهجه الفكرى؛ وهو نفسه لم يقل بذلك ولم يؤسس مذهبا جديدا وإنما الدعوة على نهج السلف الصالح ولذا عُرفت بالدعوة السلفية . الباحث .

(٢٧) ج، رينتز : المرجع السابق، ص : ٨٣٩٨، – عبدالقوى فهمى : المرجع السابق، ص – ص : ١٠٥ – ١٠٧ .

(*) كان هذا هو الأسلوب المُتبع إزاء من يريدون عزله وتولية آخر بدلا منه، وقد قيلت أسباب كثيرة تفسيرًا لذلك ومنها أن الشيخ القاسمى كان يُفترض ارساله خُمس الغنائم التى يحصل عليها من الحرب إلى الدرعية، وقيل استياء القاسمى من زيادة التدخل الوهابى فى مناطق نفوذه، أو الرغبة السعودية فى الإشراف المُباشر على القواسم .. الخ، وقد تمكن من العودة فى موكب الحجيج مُتنكرا فى هيئة رجل دين سعودى، وللمزيد يمكن الرجوع إلى مراجع الهامش التالى.

(٢٨) ميخيين فيكتور ليونوفيتش : المرجع السابق، ص – ص :٢٣١ – ٢٤١؛ – صالح محمد العابد : المرجع السابق، ص : ١٤١، – عبدالقوى فهمى : ص:٩٠ .

(٢٩) للمزيد : – ميخين فيكتور ليونوفيتش : المرجع السابق، ص،ص: ٢٣١ – ٢٤٩،٣٣٩ – ٣٥٩، عيسى بن راشد الفلاح : المرجع السابق، ص – ص : ٥٩ – ٦١، صالح محمد العابد : المرجع السابق، ص – ص :١٤١ – ١٥٣ .

(٣٠) للمزيد حول مفهوم العلاقات الدولية والعمل الدبلوماسى والتطورات التاريخية؛ يُمكن الرجوع إلى : بطرس بطرس غالى، محود خيرى عيسى : المدخل فى علم السياسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط١٠ /١٩٩٨ م، ص – ص : ٣٣٧ – ٣٦٥ .

(٣١) محمد أحمد عبدالله، بشير زين العابدين : تاريخ البحرين الحديث " ١٥٠٠ – ٢٠٠٢"، مركز الدراسات التاريخية، جامعة البحرين ط١/٢٠٠٩، ص – ص : ١٣١ – ١٣٥ .

(٣٢) العابد : المرجع نفسه، ص ص : ١١٢، ١١٣ .

(٣٣) ج، رينتز : المرجع السابق، ص : ٨٣٩٧ – ٨٣٩٨ .

(٣٤)– عبدالقوى فهمى : مرجع سابق، ص: ٦١ – ٦٣؛ وللمزيد حول أنشطة القواسم والتجارية ووضعهم الاقتصادى؛ ميخين فيكتور ليونوفيتش : المرجع السابق، ص– ص: ١٠٧ – ١٨٣،١٢٢– ١٨٥.

(٣٥) للمزيد : – صالح محمد العابد : المرجع نفسه، ص – ص : ١٠٤– ١١٢؛ – عبدالقوى فهمى : المرجع السابق : ٤٥ .

(٣٦) عبدالقوى فهمى : نفس المرجع والصفحة، – صالح محمد العابد : المرجع نفسه، ص، ص : ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩ – ١١١

(٣٧) ج، رينتز : المرجع السابق، ص : ٨٣٩٦ .

(٣٨) للمزيد من التفصيلات يُمكن الرجوع إلى : – صالح محمد العابد : المرجع السابق؛ ص – ص : ١٢١– ١٢٣، ٢١٢ – ٢٦٤،٢٤٧– ٢٦٧؛– ياتسيكك ماخوفسكى : المرجع السابق، ص – ص : ٢١٠– ٢١٨، – ميخيين فيكتور ليونوفيتش : المرجع السابق، ص – ص :٣٢١ – ٣٥٩ .

(٣٩) صالح محمد العابد : المرجع السابق، ص – ص : ٢٦٨ – ٢٧٢ .

(٤٠) المرجع نفسه، ص– ص : ٢٧٢ – ٢٧٤ .

(٤١) "بموجب مراسيم ١٦٦٨،١٦٦٧،١٦٦١ كان للشركة الحق فى إقامة جيش خاص بها فى الهند، واقامة الحصون وارساء القلاع واعلان الحرب، وبناء المراكب الحربية والعمل بها وادارة القضاء المدنى والجنائى واقامة المحاكم العدالة وتعيين القضاة؛ واعتبار الشركة وكيلا عن التاج فى حكم الأراضى التى آلت إلى لشركة فى الهند؛ لمزيد عن سياسات شركة الهند وحكومة الهند؛ يُمكن الرجوع إلى: – على عبدالله فارس: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها فى تاريخ الخليج العربى ١٦٠٠ – ١٨٥٨م، المسار للدراسات والإستشارات والنشر، الشارقة، الامارات العربية المتحدة،

ط أولى ١٩٩٧، ص – ص : ١٦١ – ٢١٢، – عبدالعزيز عبدالغنى إبراهيم : حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى " دراسة وثائقية "، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص، ص: ٢٥، ٦٣ .

(42) - Belgrave, Sir Charles: The Pirate Coast, London 1966.

وقد صدرت له ترجمة عربية بنفس العنوان " ساحل القراصنة " قام بها المُترجمان مهدى عبدالله وفاروق أمين، البحرين ٢٠٠٦ .

(43) - http://daralqwasim.yoo7.com/montada-f1/topic-t4.htm

(٤٤) كمال مظهر أحمد: دراسات فى تاريخ ايران الحديث والمعاصر، بغداد ١٩٨٥،ص-ص: ٢٩- ٤٠.

(45) - Anthony J.Watts: Pictorial History of the Royal Navy, Vol.one, 1816 – 1880, London & Edinburgh, First pub 1970, P: 16 -19.

(٤٦) وقع عليها من الجانب البريطانى وليم جرانت كير ومن الجانب العربى فى رأس الخيمة كل من : حسن بن رحمة شيخ رأس الخيمة وخت والفلية فى ٨ يناير، قضيب بن أحمد شيخ الحمراء ٨يناير، شخبوط بن ذياب شيخ أبوظبى ١١ يناير، حسين بن على شيخ الرمس ١٥ يناير، ثم وقع فى الشارقة كل من زايد بن سيف نيابة عن أخيه القاصر محمد بن هزاع شيخ دبى ٢٨ يناير، سلطان بن صقر شيخ الشارقة ٤ فبراير، عبدالجليل بن سعيد ياسين الطباطبائى نيابة عن شيخى البحرين سلمان آل خليفة وعبدالله آل خليفة ٥ فبراير، ثم وقع فى الفلية كل من راشد بن حميد شيخ عجمان ١٥ مارس، عبدالله بن راشد شيخ أم القيوين، وقد نُشرت نصوصها فى غالبية المراجع العربية التى تناولت تاريخ الخليج العربى، ـــ ميخيين فيكتور ليونوفيتش: المرجع السابق، ص :٤٤٧. وتم نشر نصها باللغة الإنجليزية فى أكثر من مصدر وثائقى ومنها السجل التالى :

- Hurewitz ,J.C: Diplomacy in the Near and Middle East, A documentary record 1535-1914,Vol I, D Van No strand Company,Inc. Princeton, New Jersey, New York 1956,P:88 - 90 .

بريطانيا وسياسة التهدئة تجاه أحداث ميناء الزبارة
(أبريل - يوليو ١٩٣٧)
قراءة في الوثائق البريطانية

جمال محمود حجر (*)

لا تهدف هذه الدراسة إلى أن تنكأ جرحًا قد اندمل، ولا أن تثير قضية الحقوق الجغرافية أو التاريخية، حول واحد من موانئ الخليج العربي، الذي ربما كان مقدرًا له أن يصبح أحد أهم الموانئ على الجانب العربي من الخليج؛ وإنما تهدف بشكل مباشر إلى الوقوف على حقيقة موقف بريطانيا، الدولة الكبرى، التي كانت معنية بشكل مباشر بكل ما يجري في الخليج العربي من أحداث منذ مطلع القرن التاسع عشر، ومنها أحداث النزاع حول ميناء الزبارة وظهيره الصحراوي خلال فترة قصيرة من صيف ١٩٣٧ وما ترتب على ذلك من نتائج امتدت حتى مطلع القرن الواحد والعشرين. وهو الموضوع الذي ستتناوله هذه الدراسة بمناهج التعامل مع الأحداث التاريخية ذات الأثر الممتد، وهي مناهج: الاسترداد، والتفكيك أو التحليل، والنقد، والبناء أو التركيب، والمقارنة.

أما الأطراف المعنية بهذا الموضوع في الفترة موضوع الدراسة فهم: آل خليفة حكام البحرين؛ وفرع قبيلة النعيم في الزبارة؛ وآل ثاني حكام قطر؛ وشركة نفط قطر البريطانية؛ وآل سعود؛ والحكومة البريطانية، ممثلة في وزارة الهند من خلال المقيم السياسي في بوشهر، والوكيل السياسي في البحرين، وممثلة في وزارة الخارجية من خلال الوزير المفوض في جدة.

كان ميناء الزبارة في أبريل ١٩٣٧ هدفًا لشركة الامتيازات البترولية العاملة في شبه جزيرة قطر B.C.C لتأمين استخدامه في خدمة أغراض

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

الشركة. أما الميناء وظهيره حيث تقيم قبيلة النعيم فكان هدفًا لآل ثاني حكام قطر. وكان الميناء والقبيلة هدفًا لآل خليفة. بينما كان آل سعود يرقبون ما يجري في الزبارة وما حولها، ومستعدين لاستقبال أي من عناصر قبيلة النعيم للإقامة تحت سلطانهم في الإحساء. وكانت بريطانيا ترصد من خلال مسئوليها الأوضاع في الزبارة وما حولها حماية لأمنها البحري في المنطقة .

القضية إذن متشعبة: فالميناء هدف يسيل له لعاب كل الأطراف؛ والقبيلة التي تسكنه محل استقطاب العناصر الإقليمية والمحلية لضم الأرض التي تقيم عليها؛ والاستقرار السياسي هدف رئيس تسعى بريطانيا لتحقيقه في المناطق الساحلية من الخليج؛ والاستثمار الاقتصادي لموارد المنطقة هدف لاحق؛ وأمن الملاحة البريطانية في الخليج هدف دائم.

وعلى ذلك فإن فحص مواقف الأطراف المعنية جميعها من خلال الوثائق البريطانية وعلاقاتها ببعضها أصبح ضرورة منهجية، ولكنه ليس هدفًا في حد ذاته، وإنما هو وسيلة إلى غاية محددة؛ هي الوقوف على أهمية ميناء الزبارة وفهم الأساليب البريطانية في التعامل مع القضايا المحلية في الخليج، وهي أساليب أحسب أنها لا تزال تمارس إلى اليوم، بالرغم من كل المتغيرات التي طرأت على المنطقة نتيجة ظهور النفط فيها واستثماره وتغير موازين القوى الإقليمية والعالمية، ولذلك فإن النتائج المترتبة على هذه الأحداث تصبح أكثر أهمية من الأحداث نفسها.

* * * * *

لابد أن نؤكد هنا على أن قضية الزبارة ليست وليدة الثلاثينيات من القرن العشرين، وإنما هي قديمة قدم مرور آل خليفة بهذه المنطقة عندما انطلقوا من قلب شبه الجزيرة العربية في سنوات الجفاف والقحط إلى منطقة الزبارة في شمالي شبه جزيرة قطر، ومنها انطلقوا في عام ١٧٦٦ إلى الكويت، ثم عادوا

إليها لينطلقوا منها مرة أخرى في عام ١٧٨٢ حيث أخذوا البحرين من أيدي حكامها الفرس. ومنذ ذلك الوقت وتجربة آل خليفة في الزبارة مستقرة في وجدانهم، حيث صارت ملجأ لعناصر منهم؛ ففي عام ١٨٤٢ توجه الشيخ محمد آل خليفة إليها بعد خلاف مع عمه الشيخ عبد الله آل خليفة، وأعاد بناءها وتعميرها. ومنها تمكن من القبض على مشيخة البحرين حتى عام ١٨٦٨، ولكن الحكومة البريطانية أبعدته ووضعت مكانه أخاه عليًا.

تلك التطورات التي رواها لوريمر في *دليل الخليج* هي التي بنى عليها آل خليفة حقهم في ملكية الزبارة؛ لأن آل ثاني كانوا يعترفون وقتئذ بسيادة البحرين على الزبارة، وكانوا يدفعون الضرائب لآل خليفة خلال فترة قصيرة من عهد الشيخ علي من عام ١٨٦٩ إلى عام ١٨٧١، وكانت حكومة الهند البريطانية على علم بذلك وتوافق عليه، ولكنها كانت تتحفظ على ما تدعيه البحرين من حقوق في الزبارة وما حولها من شبه جزيرة قطر، ولم تشعر بأنها كانت ذات أهمية لهم، وأنها أبلغت الشيخ عيسى آل خليفة حاكم البحرين بهذا الموقف في عام ١٨٩٥.

وفي العام نفسه (١٨٩٥) وفي ظل تطور الصراع بين القوتين الكبريين (بريطانيا والدولة العثمانية) دخلت الزبارة من جديد في دائرة الصراع؛ إذ جهز العثمانيون بالتعاون مع الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني، حاكم قطر، قوة عسكرية في الزبارة لغزو البحرين، ولكن بريطانيا التي تدخلت في الوقت المناسب منعت التهديد بالغزو حين رصدت السفن التي تجمعت في ميناء الزبارة ودمرتها، ولا يعني ذلك أن بريطانيا غيرت موقفها من مسألة الزبارة، ولكن موقفها كان مبنيا على سياسة الإبقاء على الوضع الراهن وعلى التصدي لأية قوة أخرى تحاول منافستها في الخليج، وهي في حالتنا هذه الدولة العثمانية.

وإذا كانت الترتيبات العثمانية- القطرية السابقة تعني أن الزبارة كانت في حوزة آل ثاني، فقد أكد المقيم البريطاني على ذلك، حين كتب يقول: "إن ما تقوله البحرين من تبعية قبيلة النعيم لها، يبدو لي بغير ذي معنى". وإذا كانت هذه الرؤية لمسؤول بريطاني تهمل حقيقة مهمة وهي: أن القبائل التي تهاجر من منطقة إلى أخرى لا تسقط تبعيتها للشيخ الذي كانت تتبعه أصلاً، فإنه يبقى لمطلب شيخ البحرين عند البريطانيين بعض الوزن. والحال نفسه ينطبق على قبيلة الدواسر المهاجرة إلى السعودية، ولكن الشيخ لا يملك الحق في المطالبة بالمنطقة التي تقيم عليها في الأحساء، وبذلك تعامل الزبارة معاملة الأحساء.

وإذا كانت نقطة ضعف شيخ قطر أنه قد فرط في بعض حقوقه؛ كتحصيل الضرائب من سكان الزبارة، أو المطالبة بتصاريح مرور من القادمين من البحرين، فإن ذلك التيسير كان بدافع إدراك شيخ قطر لكثافة الحركة في هذه المنطقة، وهي حركة طبيعية في ميناء ناشط، وفي مجتمع لم يعرف المفهوم الحديث للحدود السياسية، وربما تكون ممارسة مثل هذه الإجراءات فيه من معوقات التواصل بين أبناء القبيلة الواحدة، التي لا تشكل الحدود السياسية أو الجغرافية أي أهمية لها، ولم يكن حكام البلدين راغبين في الوقوع في صدام تفرزه حركة القبائل كل يوم.

هذا الموقف المرن من جانب قطر تحديدًا لا يعتبره المقيم إضعافًا لمركز آل ثاني في ملكية الزبارة، ولا يعطي آل خليفة الحق في ادعاء السيطرة على المكان الذي يعترفون بأنهم لم يجمعوا الضرائب من سكانه. ويضع المقيم البريطاني رأيه أمام حكومته على هذا النحو: "من الناحية القانونية، فإنني أوافق على الرأى القائل بأن ادعاء البحرين على الزبارة يجب أن يسقط". ومن زاوية أخرى تدعم هذا الاتجاه، فإن الحكومة البريطانية بمساندتها لامتياز البترول القطري تبدو وكأنها ملتزمة نحو شيخ قطر وشركة البترول العاملة هناك بالاعتراف بأن الزبارة تتبع قطر.

لم يكن موقف بريطانيا قد تبلور بعد، فعلى غير ما أبدى المقيم السياسي من حرص على تأمين مصالح بلاده التي وضعها فوق كل اعتبار، كان موقف الوكيل السياسي في البحرين مخالفًا، فالكولونيل لوخ كان يرى أن آل خليفة سيستشعرون ظلمًا أبديًا من الحكومة البريطانية إذا اتخذت قرارًا يجعل الزبارة من حق قطر. وسيستشعر آل ثاني الظلم نفسه إذا حدث العكس. وأمام هذه الحيرة في اتخاذ القرار، كان يسيطر على لوخ أن "آل خليفة هم أعز أصدقائنا على الساحل العربي"، وأن "البحرين تعتبر من وجهة النظر السياسية أكثر أهمية لنا من قطر".

* * * * *

على ضوء ما سبق من تضارب في الرؤى، أوصى المقيم السياسي مع مطلع صيف عام ١٩٣٧ بالإبقاء على الوضع الراهن، وجعل الأمور هادئة في الزبارة، مع إظهار شئ من الميل لأن تكون الزبارة لقطر.(١)

ما كان للمقيم السياسي في الخليج، ولا للوكيل السياسي في البحرين، أن يثير قضية كهذه في أبريل ١٩٣٧ لولا أن البحرين أثارت الموضوع في ١٤ أبريل ١٩٣٧، حين علم شيخها أن شركة البترول العاملة في قطر تفكر في إنشاء ميناء لها في الزبارة، كاشفا عن رغبته فيما إذا كانت الشركة راغبة في أن تناقش هذا الأمر معه بشأن "موقعنا البحري في الزبارة" وأنه سيكون سعيدا حين يقدم كافة التسهيلات للشركة. وفي الوقت نفسه طلب شيخ قطر من الشيخ راشد زعيم قبيلة النعيم، التي كانت تقيم في الزبارة، أن يعلن الولاء لآل ثاني، وإلا اعتبر نفسه منتميًا لآل خليفة، وهي خطوة تهدف إلى التأكيد على تبعية الزبارة لقطر. ولكن موقف الشيخ راشد النعيمي كان واضحًا تجاه ما يفهم على أنه تهديد قطري، فأعلن أنه إذا لم يتلق دعمًا من البحرين لمواجهة الضغوط القطرية، فإنه سيلجأ إلى حيث يحكم الملك عبد العزيز آل سعود، حيث سيضمن

الأمن والسلامة له ولقبيلته في الأحساء. يؤكد هذا الموقف على أن الشيخ راشد كان راغبا في الإبقاء على انتمائه للبحرين إلا إذا تخلت عنه، وإذا تخلت عنه سيحول ولاءه للسعودية، وسيترك الزبارة بغير سكان لقطر. (٢)

هكذا كان توازن القوى واردًا في حسابات شيوخ القبائل، كما هو وارد في حسابات الحكومات اليوم. فماذا كان موقف المسئولين البريطانيين؟ عرض الوكيل السياسي في البحرين الأمر على المقيم السياسي في بوشهر، الذي نقله بدوره إلى وزارة الهند في ٢٨ أبريل ١٩٣٧. ودارت عجلة صناعة القرار على مختلف المستويات المشار إليها، فقضية الزبارة أصبحت قضية ساخنة، ويجب أن تحل بأسلوب التهدئة والتسكين، الذي يريده البريطانيون.

مارس الوكيل السياسي دوره في رصد ما يجري على الأرض، فالقطريون تواصلوا مع السعوديين لمنع قبيلة النعيم من مغادرة الزبارة؛ فقد تبين أن نحو ألف رجل من قبيلة النعيم من راكبي الجمال المسلحين (الهجانة) مستنفرون في الزبارة؛ إما تأهبًا للهجرة إلى الأحساء أو للصدام مع شيخ قطر، وفي كل الأحوال كان من المتوقع أن يجري الاقتتال في الزبارة وما حولها. ومما زاد الأمر تعقيدًا على الأرض أن الوكيل السياسي علم أن سعود بن جلوي حاكم الأحساء كان هو الآخر يعد قوة من راكبي الجمال المسلحين ليبعث بها إلى قطر دون أن تتضح له أهداف هذه القوة، هل هي لمناصرة النعيم في الزبارة؟ أم لمناصرة قبائل أخرى متمردة في قطر. رأى الوكيل السياسي أن توازن القوى لم يكن في صالح قطر، فبعث إلى شيخها يطلب منه التزام الهدوء، كما بعث إلى شيخ البحرين يطلب منه أن يسحب رجاله من حول الزبارة، وأن يوقف الأنشطة التي كان قد بدأها من أجل إعادة بناء قلعتها. (٣)

وفي اليوم التالي التقى الوكيل السياسي بشيخ البحرين، ونصحه ألا يتبنى أية خطوة دون الرجوع إلى الحكومة البريطانية، وأن يطلب الشيخ من المقيم

السياسي حضورًا بريطانيًا بحريا عسكريا في ميناء الزبارة، يضمن به الإبقاء على الوضع الراهن، ولم يكن هذا المطلب يعني عمليًا أكثر من وجود رمزي يتمثل في رسو سفينة بريطانية في ميناء الزبارة. (٤)

عند هذه المرحلة اتسعت دائرة الحوار داخل مراكز صنع القرار البريطانية، واستطلعت وزارة الهند رأى وزارة الخارجية بشأن إمكانية طرح الموضوع برمته على الحكومة البريطانية، فوافقت الخارجية وكلفت وزيرها المفوض في جدة بدراسة أهمية هذا الموضوع للحكومة السعودية. (٥) وأفرزت هذه الاتصالات الرؤى التالية:

رأى المقيم السياسي (فاولي) ألا تتدخل بلاده إذا غادرت قبيلة النعيم الزبارة إلى الأحساء، أو إذا حدث صدام بينها وبين شيخ قطر، وأن عليه فقط أن يدعم الوكيل السياسي في مواصلة جهوده لإقناع كل الأطراف بالمحافظة على السلام، وبخاصة شيخ البحرين، الذي يرتبط مع بريطانيا باتفاقية سلام منذ عام ١٨٦١؛ لأن نشوب القتال في شبه جزيرة قطر سيهدد العاملين في شركة البترول، وإذا حدث ذلك فإن من الواجب ترحيل هؤلاء بحرًا على متن السفن التي يجب أن توضع تحت تصرف الوكيل السياسي، الذي يجب عليه أن يتوجه مباشرة إلى الزبارة أو إلى الدوحة ليقف عن قرب على ما يجري في شبه جزيرة قطر. وأن يحاط كل من قائد البحرية Senior Naval Officer وقائد الطيران Air Officer Commanding والمقيم السياسي Political Resident بما يجرى من تطورات أولاً بأول. (٦)

كان المقيم السياسي يتوقع الأسوأ، لذلك نراه يوصي بأن يضع قائد الطيران بعض الطائرات في البحرين في حالة تأهب قصوى، لثلاثة أسباب: أولها احتمال مواجهة نشوب قتال على الحدود القطرية ـ السعودية؛ وثانيها سرعة نقل العاملين في شركة البترول العاملة في قطر وإخلائهم؛ وثالثها سرعة نقل الضباط السياسيين إلى أى منطقة في الخليج عند الضرورة. (٧)

أما الوزير المفوض في جدة (سير ريدر بولارد Sir R .Bullard) فكتب إلى وزارة الخارجية يقول: إنه يتفق مع المقيم السياسي في الرأى بشأن ترك قبيلة النعيم تغادر الزبارة إلى الأحساء طالما أن تلك هي رغبتهم، ولكنه يستبعد أن تكون هناك قوة سعودية مسلحة على الحدود القطرية ــ السعودية؛ لأن الملك عبد العزيز لن يسمح بذلك، رغم أنه سيكون سعيدًا إذا هاجرت قبيلة النعيم إلى بلاده. وقد أثارت هذه الحقيقة شيئًا من القلق تجاه موقف الملك عبد العزيز، ولذا نصح بولارد بأن تترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي دون تدخل بريطاني، إذا فشلت الإجراءات الأمنية. (٨)

أما الوكيل السياسي (بلجريف) فقد آتت زيارته لكل من الزبارة والدوحة أكلها؛ فقد خففت من حالة التوتر القائمة بين شيخ قطر وقبيلة النعيم. وتأكد ذلك حين رصدت إحدى طائرات سلاح الجو البريطاني، في اليوم التالي لوصول الوكيل السياسي، الحركة الطبيعية لتجمعات قبيلة النعيم. (٩) كما تأكدت حالة الاستقرار هذه بوصول برقية الوزير المفوض بجدة تفيد بأن الملك عبد العزيز لن يسمح لرجاله بالتدخل في قطر.

ومن ناحيتها أوقفت شركة البترول العاملة في قطر بشكل طبيعي عملياتها الميدانية في نهاية أبريل مع بداية فترة الصيف، وسافر جميع رجالها إلى إنجلترا. وهكذا أدت المؤشرات كافة إلى تأكيد حالة الاستقرار وعدم وجود داع لحالة الاستنفار. ورأى المقيم السياسي تبعًا لذلك أنه لا داعي لوجود أي من السفن البريطانية في ميناء الزبارة أو ما حوله، ولكنه فضل وجود قارب صغير بالقرب من بيره Baerah لتيسير مهمة تنقل الوكيل السياسي بين البحرين والدوحة إذا رغب في ذلك. (١٠)

* * * * *

كانت وزارتا الهند والخارجية معنيتين بما يجري في الزبارة وما حولها، وساعد هدوء الحال مع مطلع الصيف على متابعة الموقف وتدارسه من زواياه المختلفة على المستوى السياسي في لندن. وبناءً على ذلك بعث المقيم السياسي إلى وزارة الهند بمذكرة تفصيلية عن التطور التاريخي للنزاع حول الزبارة مشيرا إلى استعداد البحرين في ١٤ أبريل ١٩٣٧ منح شركة النفط العاملة في قطر تسهيلات في الزبارة. وتعتبر هذه الإشارة هي الأولى بين ميناء تريد أن تستخدمه شركة النفط وبين الزبارة.

كما أشار المقيم السياسي في مذكرته هذه إلى ما سبق أن أحاطه به الوكيل السياسي في البحرين، من أن شيخها يرى أن قبيلة النعيم المقيمة في الزبارة من أصل بحريني، وأن جزءًا منها لا يزال يعيش في البحرين، وأنهم وحدهم سكان الزبارة. كما أن النعيم في الزبارة لا يدفعون الضرائب أو الجمارك لشيخ قطر، ولا يحرص شيخ قطر نفسه على الحصول على تصريحات مرور عبرها من مواطنين بحرينيين، وبناءا على ذلك فإن شيخ قطر غير معني بما يجري في الزبارة. وأن النعيم هناك يطيعون أوامر شيخ البحرين، وأنهم استجابوا له حين أمرهم بإعادة بناء قلعتها. وأنه مستعد لتقديم ما يؤكد أن ادعاءاته حول الزبارة لا تعني التدخل في حقوق شركة البترول العاملة في قطر، وأن هذا ربما يرضي الحكومة البريطانية. (١١)

أجرى المقيم السياسي اتصالاً مع مستر بيكر Backer مندوب شركة بترول قطر الميداني، ليتأكد من عزم الشركة على إقامة ميناء في الزبارة، وكان رد بيكر "إن الشركة ليس لديها النية في الوقت الراهن لإقامة هذا الميناء".(١٢)

استراح المقيم السياسي لما توصل إليه من معلومات تؤدي إلى هدوء الأوضاع، ولكن المسألة بدت شائكة، لأن ملكية الزبارة، الميناء والظهير، أصبحت من جديد قضية نزاع بين شيخي قطر والبحرين، وأن المصالح

البريطانية النفطية مهددة في قطر نتيجة لذلك، ونصح المقيم حكومة بلاده ألا تتخذ موقفاً يناصر أيا من الطرفين على الآخر، كما نصح المسئولين البريطانيين بقراءة المجموعتين الجغرافية والتاريخية للوريمر [١٣] والموسومة دليل الخليج، إضافةً إلى المراسلات المتبادلة حول الموضوع، وإلى ما قدمه هو نفسه من ملخص واف حول الخلفية التاريخية للزبارة. [١٤]

ومن جانبه زار المقيم السياسي الدوحة وبصحبته الوكيل السياسي، في محاولة لإغراء حاكم قطر أن يرسل مندوبين عنه إلى البحرين لتسوية مسألة الزبارة بالطرق الودية، بعيدًا عن الإجراءات القانونية، ولكن الخطوات التي اتخذت في هذا الاتجاه لم تسفر عن نتائج إيجابية. [١٥]

ثم تلقي المقيم السياسي من الوكيل السياسي في البحرين رؤية شيخها لتسوية موضوع الزبارة، وهي تتلخص في الإبقاء علي الوضع الراهن كما كان عليه خلال الستة أشهر السابقة علي الأزمة التي تفجرت في أبريل ١٩٣٧، وهو أمر يراه المقيم السياسي معقولا، ولا يتعارض مع وجهة نظر الحكومة البريطانية . كما أن المفاوضات التي تجري بين شيخي البلدين غير رسمية، وبالتالي غير ملزمة للحكومة البريطانية، لأنها ذات طبيعة استكشافية. وفي حال التوصل الي حل من خلال هذه المفاوضات، فإنه لن يكتسب صفة رسمية إلا بموافقة الحكومة البريطانية، وفي كل الأحوال علي بريطانيا أن تترك الأمور تأخذ مجراها دون تدخل بين البلدين. [١٦]

ولكن ما هي الرؤية التي طرحها شيخ البحرين لتكون أساسا لتسوية مسألة الزبارة ؟

إنها في الواقع شروط طرحها الوكيل السياسي على شيخ البحرين وتلزمه بما يلي:

- يتوقف الشيخ عن إثارة ادعاءاته حول كل من الزبارة وقبيلة النعيم فيها .

- لا يجري الشيخ أي عمليات تطوير في الزبارة بأي شكل .
- يتخذ الشيخ الإجراءات المناسبة لمنع عمليات التهريب إلـــي قطـــر عبـــر الزبارة .
- لا يسمح الشيخ لأفراد من البحرين بإقامة مستوطنات لهم في الزبارة .
- أن يبقي الشيخ علي الوضع القائم في الزبارة قبل نشوء الأزمة الراهنة .

وفي المقابل علي حاكم قطر أن يوافق علي هذين الشرطين :

- آلا يفرض ضرائب علي سكان الزبارة الدائمين من قبيلة النعيم، ولا علـــي من لهم أية علاقة بهم أثناء وجودهم في الزبارة. أما إذا غادروها الـــي أي مكان آخر داخل قطر، فله أن يفرض عليهم الضرائب كما يشاء .
- آلا يجري شيخ قطر أية عمليات تطوير في الزبارة في أي صـــورة مـــن الصور، بل عليه أن يبقي كل شئ علي ما كان عليه قبل نـــشوء الأزمـــة الراهنة. وفي حال رغبة شركة بترول قطر في ممارسة نـــشاطها، فإنـــه سيسمح لها بذلك .

هذه الشروط بشقيها البحريني والقطري حول الزبارة تمت الموافقة عليها من قبل شيخ البحرين، الذي طلب من الوكيل السياسي أن ينقلها بشقيها الي شيخ قطر كتابة، تفاديًا لسوء الفهم، وقد تم ذلك في حينه(١٧)

وتعني هذه الشروط ببساطة تجميد الوضع علي ما هو عليه في الزبـــارة بناءً علي رغبة بريطانيا في حماية مصالحها من ناحية، ونتيجةً لعدم قـــدرة أي من الطرفين على حسم الأمر لصالحه من ناحية أخري. وبعد نحو شهر أفرزت المفاوضات غير الرسمية الجارية بين الطرفين القطري والبحريني تحت إشراف الوكيل السياسي في البحرين النتائج التالية:

- وافقت قطر علي ترك الوضع الراهن علي ما هـو عليـه قبـل نـشوب الصراع في أبريل ١٩٣٧، شريطة أن تسحب البحـرين – دون شـرط – ادعاءاتها علي الزبارة وعلي قبيلة النعيم .
- وافقت البحرين علي سحب ادعاءاتها علي الزبارة وعلي قبيلة النعيم مـا دامت قطر ملتزمة بالحفاظ علي الوضع الراهن قبل نشوب الـصراع فـي أبريل ١٩٣٧ .

رصد الوكيل السياسي أن موقف قطر كان متشدداً وهجومياً بينمـا كـان موقف البحرين أكثر مرونة، ويعتقد الوكيل السياسي أن البحرين سارت كثيـراً لمواجهة مطالب شيخ قطر، الذي كان حريصاً علي دوام التواصل بين الأسرتين الحاكمتين في جو أكثر وداً وصداقة، ولكنه كان في الوقت نفسه مستعداً بقواتـه لمواجهة أي موقف مغاير لتلك الترتيبات، وهو ما لم يكن يتمناه أي من المقـيم السياسي أو الوكيل السياسي(١٨). ولكن أماني الطرفين لم تتحقق؛ فقـد انتهـت المفاوضات بالفشل، ونشب الصراع من جديد بين شيخ قطـر وقبيلـة النعـيم بالزبارة.

يقول المقيم السياسي:" كنت ومعي الوكيل السياسي نتحمل مشاقا كثيرة كي نقنع كلا من ممثلي قطر والبحرين ليجلسا إلى مائدة التفاوض لمـدة شـهرين، يتحقق خلالهما هدنة بين شيخ قطر وقبيلة النعيم، ولكن شيخ قطر وضـع حـدا لتلك الهدنة، بحجة أن النعيم لم تحفظ السلام. ولم يجد المقيم السياسي ما يفعلـه سوى أن يترك الصراع يأخذ مجراه تحت المراقبة حتى قدوم الخريـف، وهـو الموعد الذي سيعود فيه رجال شركة نفط قطر إلى العمل، وبالتالي لا تتـضرر المصالح البريطانية".

*****

فرض هذا الوضع المضطرب التزامات جديدة على المقيم السياسي؛ وهي ضمان سلامه المواطنين الهنود (البريطانيين) في الدوحة، إذ لم يكن في الزبارة أحد منهم، ولتحقيق ذلك كلف الوكيل السياسي في البحرين أن يخاطب شيخ قطر، مذكراً إياه بمسئولياته تجاه سلامة الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم في بلاده، وفي الوقت نفسه يكتب إلى قبيلة النعيم يحذرها من إلحاق الأذى بأي من الرعايا البريطانيين، أو إلحاق الضرر بممتلكاتهم.

هكذا وضعت المصالح البريطانية في مقدمة الاهتمامات التي تلتزم بها الأطراف كافةً، ولكي يصبح ذلك مؤكداً ومضموناً، أوصى المقيم السياسي بأن يرسل قائد البحرية إحدي السفن البريطانية لترسو قبالة الدوحة، لتضمن تحقيق الأمان للرعايا البريطانيين، ولتكون وسيلة اتصال مع كل من المقيم السياسي في بوشهر والوكيل السياسي في البحرين، ولتطلعهما في الوقت المناسب على ما يجري من خلال أجهزة اللاسلكي التي تحملها، وعليها ألا تتدخل إلا إذا تعرض الرعايا البريطانيون للخطر(١٩)

كان المقيم السياسي يتخوف من حدوث اضطرابات في البحرين لمناصرة قبيلة النعيم، في حال تدهورت أحوالها علي يدي شيخ قطر. ولذلك استبق الأحداث وطلب من الوكيل السياسي في البحرين أن يكتب إلى شيخها يحمله مسئولية الفوضى التي قد تنتج عن حدوث مثل هذه المظاهرات، وانعكاساتها السلبية علي أرواح الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم في بلاده، ولذلك فإن عليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة لتفادي هذه السلبيات. (٢٠)

يبدو أن تطورات الموقف علي هذا النحو حتى ذلك الوقت لم تكن تعرض علي وزارة الخارجية، وحين عرضت على جورج رندل، المسئول عن قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية، في ٣ يوليو ١٩٣٧، أبدى دهشةً للأمر وللتطورات التي لحقت بمسألة الزبارة، ثم سجل انطباعاته في يوميات وزارة الخارجية، فكتب يقول:" لم أر هذا الملف من قبل، ولم أدرك تطور المشكلة،

ويبدو أن شيخ قطر يمارس نفوذًا محدوداً للغاية على الزبارة، وأن قبيلة النعيم لا تظهر له ولاءً، وقد يحمل هذا أهمية فيما يتصل بالسعودية. وعلينا أن نتبنى موقفاً يجعل من شبه جزيرة قطر وحدةً طبيعيةً واحدة من الأرض، ويجب أن نحافظ عليها. وإذا تمردت إحدي القبائل القطرية علي الشيخ في الدوحة، وأعطى ذلك فرصة لشيخ البحرين أن يتدخل في الزيارة بنجاح، فإننا نعتبر الزبارة أرضاً قطريةً خالصة. إنني أتمني أن نكون علي حق في تبني هذا الخط الواضح عندما ننظر إلى شبه جزيرة قطر ككيان واحد لا يجب تمزيقه. ربما يكون من الضروري أن نترك مثل هذا التمرد يأخذ وقته، وننتظر نتيجته قبل أن نقترح خطاً سياسياً معيناً، وإذا فشل شيخ قطر في إخماد مثل هذا التمرد قبل أي تدخل بريطاني، فإنني أرى أن علينا أن نرفع الأمر كله للمناقشة في اللجنة الفرعية للشرق الأوسط (M.E.S.C.) لنري ما إذا كان في إمكاننا الإبقاء علي وجود سياستنا الحالية في مواجهة ابن سعود".(٢١)

هكذا، دخل عند هذه المرحلة عنصر جديد بشكل واضح في رسم سياسية بريطانيا تجاه قطر ككل، وليس تجاه الزبارة تحديداً، ذلك هو موقف وزارة الخارجية البريطانية من سياسات الملك عبد العزيز آل سعود تجاه إمارات الخليج، ورؤية وزارة الخارجية هذه تتميز عن رؤى الوزارات الأخرى المعنية بالمنطقة بالشمول، باعتبار أن وزارة الخارجية تري صورة الحدث وإيقاعاته علي مختلف المستويات المحلية والإقليمية والدولية، وهو ما لا تضعه الوزارات الأخرى في الحسبان. ومن هنا جاءت خطورة ملف الزبارة أمام جورج رندل، أحد المسئولين في وزارة الخارجية المعنيين بالشرق الأوسط.

ويبدو أن مخاوف كل من وزارة الخارجية وحاكم البحرين كانت في محلها، إذ طلب الأخير من الحكومة البريطانية أن تستخدم نفوذها في منع الشيخ عبد الله آل ثاني (حاكم قطر) من شن حرب ضد الرعايا البحرينيين

الذين يعيشون في الزبارة، ووضع شيخ البحرين ذلك في عبارة صريحة حين وصفهم بقوله "رعايانا الذين يعيشون داخل حدودنا في الزبارة ". صحيح أن شيخ قطر تبني موقفاً متشدداً في مسألة الزبارة، وكان الوكيل السياسي في البحرين يري أن لتبني هذا الموقف ما يبرره، " وأن ادعاءه حول الزبارة قوي"، وقد جعله هذا حريصاً، في الرسائل التي يرسلها إلى الشيخ عبد الله آل ثاني كافة، على أن يقدم إيحاءات بأن الموقف سيكون لصالحه(٢٢)، وربما يكون ذلك الموقف البريطاني المتردد بين هذا وذاك يهدف إلى ضمان تأمين امتياز شركة النفط العاملة في قطر.

ويذهب الوكيل السياسي إلى حد الاعتقاد بأن "كلا من الحكومة البريطانية وحكومة الهند توافقان علي وجهة نظري بشأن ملكية الزبارة، لأنني لم أشر إلى غيرها، وقد طلب اليّ أن أبلغ شيخ البحرين بهذا المضمون". وبناءً عليه تري الحكومة البريطانية " أن الزبارة حق لشيخ قطر"، وأن هناك خلفيات تاريخية تؤكد ذلك؛ فحكومة الهند بينت لشيخ البحرين في عام ١٨٧٥ أن عليه ألا يتدخل في شئون الزبارة؛ وأن البحرية البريطانية دمرت في عام ١٨٩٥ القوارب التي كانت تعدها قطر في الزبارة لغزو البحرين حماية لها من هذا الغزو المحتمل، ومع ذلك لم تؤيد ادعاء شيخ البحرين في الزبارة، وبالتالي بنت الحكومة البريطانية موقفها الخاص بعدم التدخل لصالح قبيلة النعيم فيها. ورغم أن هذا القرار يجعل حكومة البحرين تستشعر الظلم، إلا أنه ليس هناك بديل. (٢٣)

وبناءً عليه، بعث وزير الدولة لشئون الهند برقيةً إلى المقيم السياسي في ٤ يوليو يعزز مواقفه، ويبلغه فيها أن الحكومة البريطانية توافق علي الإجراءات التي سبق أن اقترحها في مايو الماضي، شريطة أن يظل القتال الناشب بين حاكم قطر وقبيلة النعيم في إطاره المحلي، والحكومة البريطانية توافق في هذه الحال علي أن تأخذ هذه المسألة مجراها الطبيعي، كما توافق علي رؤية المقيم

السياسي؛ التي تجعل الزبارة جزءاً لا يتجزأ من أراضي شبه جزيرة قطر الموحدة تحت حكم آل ثاني. (٢٤)

وجاء قرار حكومة الهند في ٦ يوليو ليؤكد علي المواقف السابقة فيما يتعلق بملكية شيخ قطر للزبارة، وأن يبلغ هذا الأمر لشيخ البحرين بلهجة مخففة، كأن يطلب منه عدم التدخل في شئون الأرض الأم، وأن يلفت نظره إلى أن وجوده هناك غير مقبول، دون إشارة صريحة إلى مسألة ملكية الزبارة. (٢٥)

بالطبع لم يكن شيخ البحرين مستريحاً لموقف الحكومة البريطانيــة، وراح يسأل الوكيل السياسي عن المسئول عن تحديد أساسيات التعامــل فــي مــسألة الزبارة، وعن موعد النظر فيها، واقترح هــو نفــسه أن يستــشار محــامون بريطانيون في لندن في هذا الأمر، وإذا تطلب الأمر فإنه سوف يرسل منــدوباً عنه إلى أوربا للاستنارة حول هذه المسألة. بالطبع لم يكن طرح شيخ البحــرين طرحا استفهامياً، إذ إنه لم يكن يجهل الجهة المعنية بالمسألة، ولكنه كان يحاول تحريك الأمور التي كانت بريطانيا تحركها لصالحها وحدها، وبدا الشيخ وكأنه حريص علي أن يجعل له رأياً مسموعا. (٢٦)

رأت وزارة الهند أن تعيد النظر في موقف المقيم السياسي، الذي كان يقف إلى جانب قطر حماية للمصالح البريطانية، والذي يضع الحكومة البريطانية في موقف حرج. ونظراً لحساسية الموضوع من ناحيــة، ولتــضارب المــصالح الاقتصادية البريطانية مع مصالحها السياسية من ناحية أخرى، رأت وزارة الهند أن تعيد تمييع القضية من جديد، لعلها تسترد ما كان لها من نفــوذ، فــاعتبرت نفسها هي الجهة الوحيدة المسئولة عن حسم الخلافات الخاصة بالملكيــة بــين الشيوخ في منطقة الخليج، وبالتالي فإنها ستكون علي استعداد تــام لأن تــسمع لممثل حكومة البحرين في القضايا التي يطرحها حمايةً لمصالح بــلاده. وفــي الوقت نفسه، تجد أنها ملزمة بتوضيح المقصود بالقرار الذي سبق أن اتخذ فــي

عام ١٨٧٥، عندما اعترفت بريطانيا بأحقية شيخ قطر في ملكية الزبارة، وقد حال هذا القرار القديم بينها وبين التدخل لتسوية النزاع بين شيخ قطر وفرع قبيلة النعيم المقيم في الزبارة[٢٧].

عرض الأمر علي المسئولين في وزارة الخارجية في يوليه ١٩٣٧، فسجلوا ملاحظات قد تعين الحكومة علي اتخاذ قرارها. وفي ١٤ يوليه كتب جورج رندل: "إن هذه المنطقة في المفهوم الدولي جزء من الإمبراطورية البريطانية، وبالتالي فلن نسمح لأي طرف آخر أن يتدخل في شئونها، وللحكومة البريطانية وحدها أن تسوي أي نزاع بين أطرافها". وهناك الاتفاق الأنجلو – تركي لسنة ١٩١٣، الذي بمقتضاه تلتزم الحكومة البريطانية بأن "تمنع شيخ البحرين من التدخل بأي شكل في أراضي شبه جزيرة قطر، وإذا سمحنا لشيخ البحرين أن يبني لنفسه أساساً للادعاء علي أراضي قطر، فإننا سوف نضعف أمن شبه الجزيرة القطرية وسلامتها في مواجهة طموحات عبد العزيز آل سعود، ولذلك علينا أن نكون حذرين ألا نفعل أو نقول أي شئ يفهم منه أننا سوف نعترف بادعاءات شيخ البحرين".[٢٨]

وسجل باجلي Baggelley في اليوم نفسه أن المسألة لا تعني وزارة الخارجية، وإنما هي من اختصاص وزارة الهند، لأنها مسألة خليجية صرفة. صحيح أن البحرين ليست عضواً في عصبة الأمم، كما أنها ليست مستقلة تماماً، وأن الحكومة البريطانية هي التي تسير سياستها الخارجية، وأنها كباقي إمارات الخليج ممنوعة من أن تشن الحرب بعضها علي بعض طبقاً لنصوص اتفاقيات الهدنة البحرية، وبالتالي فإن البحرين لا تستطيع أن تهاجم أحداً ولا أن تهاجم من أحد، وأن محاولاتها تدعيم وجودها في الزبارة يعتبر كسراً للهدنة البحرية.[٢٩]

كذلك سجل باكيت Backett أن هذا النزاع بين محميتين حليفتين لبريطانيا، وهو نزاع داخل الامبراطورية البريطانية، والمهم أن نتخذ من

الإجراءات ما يمنع عبد العزيز آل سعود من التدخل. ورأي باكيت أن الأمـــر ربما يؤخذ الي محكمة العدل الدولية في هولندا بمقتضي المادة ٣ من المعاهـــدة البريطانية مع البحرين في سنة ١٨٦١، وإن كانت هذه المعاهدة غير فعالة(٣٠).

وجدت الحكومة البريطانية لنفسها مخرجاً من الالتزام بأي موقف إيجـــابي تجاه شيخ البحرين، واستفادت من ملاحظات المسئولين في وزارة الخارجيـــة، ومن التطور التاريخي لموقف وزارة الهند وحكومة الهند، وعلى ذلـــك وافقـــت حكومة الهند المعنية بالأمر في المقام الأول في ١٦ يوليو ١٩٣٧. (٣١) هذا وقد رأي المقيم السياسي أن يبعث إلى حاكم البحرين في سنة ١٩٣٧ بما ســـبق أن كتبه سلفه إلى حاكم البحرين في سنة ١٨٧٥، ليؤكد له أن الموضوع كان قـــد حسم منذ ذلك التاريخ بعد التدخل البريطاني بضرب السفن القطرية – العثمانية في الزبارة. (٣٢)

وبناءً علي كل ما سبق، فإن الحكومة البريطانية تعترف أنها المسئول الأول والوحيد عما يجري في المنطقة، إلا أنها ليست علي استعداد أن تنمي الأمل لـــدي شيخ البحرين بالاعتراف له مستقبلاً بأنه صاحب الحق في الادعاء بملكية الزبارة، ولكنها ستكون دائماً مستعدة للاستماع إلي شكاواه ومطالبه، باعتبارهـــا المـــسئول الأول عن إقرار ما يتعلق بالملكية بين الشيوخ، إلا أنها تجد من الضروري أن تبلغ الشيخ أن عليه أن يبعد نفسه تماماً عن التدخل في شئون قطر بما في ذلك الزبارة، كما أنها لن تتدخل فيما يجري بين شيخ قطر وقبيلة النعيم. (٣٣)

وبينما جرت تهدئة شيخ البحرين علي هذه النحو فـــي منتـــصف يوليـــو ١٩٣٧، دخل الشيخ راشد زعيم قبيلة النعيم في اتفاق مع حاكم قطر، واعداً إياه بالطاعة طالما كان مقيماً في قطر. وقد اعتبر المقيم السياسي أن هذا الموقـــف من قبل شيخ النعيم يعد إنهاءً للنزاع بينه وبين شيخ قطر. (٣٤)

*****

التزمت الوثائق البريطانية الصمت عند هذه المرحلة، ويبدو أن ذلك كان انعكاساً لصمت الأحداث علي أرض الواقع. وكان علي المراقبين أن ينتظروا ثلاثة شهور كاملة كي تصلهم الأخبار عبر وسائل الإعلام؛ ففي ١٣ أكتوبر ١٩٣٧ أذاع راديو روما بالعربية في نشرته الإخبارية "أن الشيخ أحمد الجابر الصباح، أمير الكويت، تلقي التهاني من الصحافة المصرية، ومن صحافة دول أخرى، علي محاولته تسوية النزاع بين قطر والبحرين حول الزبارة". وكان شيخ الكويت قد قام بالتوسط مرتين لتسوية هذا النزاع في يونية المنصرم، ثم طلب بعد ذلك أن يزور البحرين للقيام بدور فاعل في هذه الوساطة، ولكن شيخ البحرين لم يرحب بالاقتراح الأخير. ويعتقد المقيم البريطاني أن المصريين أو السوريين كانوا وراء هذا الإعلان الإذاعي، لأنه يعتبر بادرةً طيبةً من شيخ الكويت في الاتجاه القومي الذي يتبناه المصريون والسوريون في المناداة بالوحدة العربية . وقد " باركت روما والصحف المصرية والسورية والعراقية خطوة أمير الكويت، التي أنهت محاولته النزاع بين البلدين الشقيقين (البحرين والقطر) "[٣٥].

لفتت العبارة الأخيرة نظر جورج رندل بوزارة الخارجية، فكتب يقول "إن علينا أن نتعامل من هذا المسالة فوراً ". ويعكس هذا الموقف تخوف بريطانيا من تدخل أطراف أخرى ذات اتجاهات قومية في الأمور الخليجية، وراح رندل يبحث في أرشيف المراسلات مع وزارة الهند، فلم يجد ما يشير إلي أن هذا الموضوع قد طرح للمناقشة، وزاد ذلك من مخاوفه؛ لأن الإيطاليين نجحوا في متابعة أدق تفاصيل ما يجري في الخليج، بينما فشل البريطانيون المعنيون بالأمر في ذلك. وإذا كان الخلاف القطري – البحريني قد لقي اهتماماً خارجياً علي هذا النحو، فإن تحرك شيخ الكويت لمعالجة الموضوع أثار قلق بريطانيا التي اعتبرته " قد أقام اتصالاً قويا مع خصومنا أكثر مما توقعنا، وإذا سارت الأمور إلي الأسوأ في الشرق الأوسط، ويبدو أنها ستكون كذلك إذا استمرت

سياستنا الحالية علي ما هي عليه، فإن الكويت ستكون بؤرة خطرة للغاية..."[٣٦]

وأضاف رندل " إن علينا أن نقيم لنا وزناً ثابتاً في الكويت .. وإنني أعيد فحص سياستنا في الكويت الآن، وخاصةً بعدما رفض المقيم السياسي اتخاذ أية سياسة متطورة تجاه الكويت في هذه المرحلة ... إننا نريد أن نعرف من أي جهة تهب الريح "؛ لأن النزاع بين قطر والبحرين " أضعف من مركزنا في أن نؤكد لابن سعود أن شبه جزيرة قطر تعتبر وحدةً واحدةً لا تتجزأ ". وراح رندل يلوم سياسة بلاده تجاه مسألة الزبارة؛ لأنها " لم تتناولها كما ينبغي في مراحلها الأولي ". [٣٧]

ولم يمض أسبوعان علي تعليقات رندل هذه حتى تناقلت الأنباء زيارة الأمير سعود بن عبد العزيز للبحرين في إطار الجهود المبذولة لتسوية النزاع بين قطر والبحرين حول الزبارة . [٣٨]

وهكذا ظل جورج رندل قلقاً تجاه مستقبل سياسة بلاده في الخليج، فبعد ثلاثة أشهر أخري كتب يشكو موقف سياسة الكولونيل فاولي Fowle المقيم السياسي الذي نجح في أن يكسب تأييد حكومة الهند والأدميرالية لتوجهاته، وعبر رندل عن شكه في قدرة بريطانيا علي التغيير طالما بقي مثل هذا المقيم وسياسته في الخليج. ولكنه وعد بإعادة إحياء الموضوع قبل مغادرته قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية البريطانية. وتكشف مثل هذه التصريحات عن جو من النزاع والتوتر داخل الحكومة البريطانية بين وزارتي الهند والخارجية، وهو نزاع انتهى بانحسار دور وزارة الهند عن منطقة الخليج بعد عشر سنوات في عام ١٩٤٧، وتلك قصة أخري. [٣٩]

*****

لقد أدركت بريطانيا حجم خطأ سياستها في التعامل مع قضايا منطقة الخليج الحساسة، وتركت الأمور للتفاعلات الداخلية، مع الاكتفاء بالمراقبة عن

بعد أو عن قرب دون حسم. كما أنها تركت الأمر سجالاً بين الوزارات المعنية بالمنطقة، واضعةً في الاعتبار مصالحها الخاصة، عازفةً عن التدخل إلا بقدر ما تكون هذه المصالح متأثرة. وقد أفرز هذا في النهاية تعليـق القـضية وتمديـد الصراع حول الزبارة، إلى أن حسمته محكمة العدل الدولية فـي إطـار مـن التسوية الشاملة لكل المناطق المتنازع عليها بين قطر والبحرين مؤخرًا.

ويكشف موقف بريطانيا في التعامل مع القضايا الخلافيـة العربيـة عـن تقصير واضح في الوفاء بالتزاماتها التي تعهدت بها في الخليج، الـذي عدتـه بحيرةً بريطانيةً. وكانت النتيجة خراباً لمنطقة الزبارة وميناءها وإهمالاً لهما، في حين كان مقدرا لهما أن يلعب دورًا مهمًا في تنمية المنطقة. ويبقى الأمل معقودا على ميناء الزبارة، في حال تعميره وإعادة تشغيله، جسرا للتواصل بين قطـر والبحرين.

الهوامش :

(1) T.C. Fowle (Political Resident) to Sec. of State for India, 5 may 1937, E2639/2382/91, F.O.371/20783.
(2) Political Resident to India Office, 28April 1937. E2882/2382/91, F.O.371/20783.
(3) Ibid.
(4) Political Resident to 1.O., 29 April 1937. E2382/2382/91, F.O.371/20783.
(5) India Office to Foreign Office, 29 April 1937. E2382/2382/91, F.O.371/20783.
(6) Political Resident to 1. O., 28 April 1937 E2382/2382/91, F.O.371/20783.
(7) Ibid.
(8) Sir R .Bullard to F.O., 30 April 1937. E2411/2382/91, F.O.371/20783.
(9) Political Resident to 1.O., 3 May 1937. E2480/2382/91, F.O.371/20783.
(10) Ibid.
(11) Political Resident to 1.O., 5 May 1937. E2639/2382/91, F.O.371/20783.
(12) Ibid.
(13) Lorimer, Gazateer of the Persian Gulf.
(14) Political Resident to 1.O., 5 May 1937. E2639/2382/91, F.O.371/20783.
(15) Political Resident to 1.O., 19 May 1937. E2768/2382/91, F.O.371/20783.
(16) T.C. Fowle (Political Resident) to Sec. of State for India, 21 May 1937, E3015/2382/91, F.O.371/20783.

(17) Political Agent (Bahrain) to Political Resident (Bushier), 20 May 1937, E3015/2382/91, F.O.371/20783.
(18) Political Resident to Sec. of State for India, 23June1937, E3483/2382/91, F.O.371/20783.
(19) Political Resident to Sec. of State for India, 2 July 1937, E3639/2382/91, F.O.371/20783.
(20) Political Resident to Political Agent (Bahrain), 2 July 1937, E3639/2382/91, F.O.371/20783.
(21) Minute by G.W. Rendel (F.O.) 3 July 1937, E3639/2382/91, F.O.371/20783.
(22) Political Resident to Sec. of State for India, 4 July 1937, E3711/2382/91, F.O.371/20783.
(23) Ibid.
(24) Sec. of State for India to Political Resident, 4 July 1939, E3780/2382/91, F.O.371/20783.
(25) Government of India to Sec. of State for India , 6 July 1937, E3639/2382/91, F.O.371/20783.
(26) Political Resident to Sec. of State for India, 9 July 1937, E3903/2382/91, F.O.371/20783.
(27) Sec. of State for India to Political Resident, 10 July 1937, E4062/2382/91, F.O.371/20783.
(28) F.O. Minutes, 14 July 1937, E4062 / 2382 / 41, F.O. 371/20783.
(29) F.O. Minutes, 14 July 1937, E4062 / 2382 / 41, F.O.371/20783.
(30) F.O. Minutes, 14 July 1937, E4062 / 2382 / 41, F.O.371/20783.

(31) Government of India to Political Resident, 16 July 1937, E4104/2382/91, F.O.371/20783.

(٣٢) جاء في رسالة المقيم البريطاني إلى حاكم البحرين في ٣١ مايو ١٨٧٥ " ألفت نظركم مرةً أخري إلى الرسائل المتعلقة بتدخلكم في شئون الأرض الأم في شبه جزيــرة قطــر، وعلي الخصوص في مدينة الزبارة ... إنني أفهم من خطابك انك لم تدرك المعني الكامل للمراسلات التي بعثت بها إليك، وهو عدم التدخل في شئون الأرض الأم ... إني لا أشك الآن أن لديك تصوراً واضحاً لوجهة نظرنا وللنصائح التي وجهناها إليك، ومع ذلك فانك لازلت تتدخل في الزبارة، وهذا يعتبر تدخلاً في شئون الأرض الأم ... وقد صــار مــن الضروري أشرح لك بوضوح كامل أنك إذا سرت في طريق يعارض نــصائح حكومــة الهند بالتدخل في شئون الأرض الأم فإنك ستتحمل النتــائج، وأن الحكومــة البريطانيــة ستعتبر نفسها غير ملزمة باتخاذ أية إجراءات تتعلق بك عند الضرورة.
أجاب الشيخ ليست علي هـــذه الرسالة بعد أسبوعين، إذ كتب إلى المقيم السياسي فــي ١٤ يونية ١٨٧٥ يقول : " فهمنا خطابك ... وأطعنا الأوامر ونفذناها، وســوف نتوقــف

تماماً عن التدخل في شئون الزبارة، أو في شئون أي أمر لا توافق عليه الحكومة البريطانية. ولكننا لسنا تحت حماية الحكومة البريطانية ... وإذا كنا نطيع الحكومة البريطانية فلا يعني هذا التخلي عن حقوقنا. نحن نثق في الحكومة البريطانية، التي ستحمي الزبارة لأنها ملكنا منذ أقدم العصور.

(33) Sec. of State for India to Political Resident, 15 July 1937; Govt. of India to Political Resident, 16 July 1937, E3639/2382/91, F.O.371/20783.

(34) Political Resident (Fowle) to Sec. of State for India, 24 July 1937, E4336/2382/91, F.O.371/20783.

(35) Political Resident to Sec .of State for India, 23Oct. 1937, E7474/2382/91, F.O.371/20783.

(36) Minute by Rendel, 24 Nov.1937, E7242/2382/91, F.O.371/20783.

(37) Minute by Rendel, 24 Nov.1937, E7242/2382/91, F.O.371/20783.

(38) I.O. to F.O., Dec. 1937, E7242/2382/91, F.O.371/20783.

(39) Minute by Rendel, 7 Feb.1938, E7242/2382/91, F.O.371/20783.

الإدعاءات الإيرانية في جزر أبو موسى والطنبين

تحليل تاريخى لأطروحة پيروز مجتهد زاده

أحمد زكريا الشلّق(*)

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة الحجج التي ساقتها أطروحة الأستاذ پيروز مجتهد زاده لتبرير ادعاءات ملكية إيران لجزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى وتفنيدها ... ورغم أن هذه الدراسة تبدو, في ظاهرها, وكأنها محض دراسة سياسية , إلا أنها في الواقع تعالج القضية من بعدها التاريخى , والذى تمتد جذوره إلى بدايات القرن الثامن عشر , بغض النظر عن التطورات السياسية التى لحقتها, خاصةً منذ أن فرضت حكومة الشاه محمد رضا پهلوى وضعاً جديداً , استند إلى القوة العسكرية منذ أواخر عام ١٩٧١ م , ثم ما أحدثته الجمهورية الإسلامية في إيران بالنسبة لجزيرة أبو موسى عام١٩٩٢ م .

ويود الكاتب أن يشير ابتداءً إلى أن ثمة دراسات إيرانية عديدة عالجت المسألة من وجهة نظر إيرانية صرفة . وهذا أمر طبيعى على كل حال , وفي هذا المجال هناك مثلاً الأستاذ داوود باوند , أستاذ القانون الدولى بجامعة الإمام الصادق (١) وكذلك كتابات الأستاذ جمشيد ممتاز, من كلية الحقوق بجامعة طهران وتعليقاته. . . وإن اتسمت كتاباتهما بطابع قانونى بحكم تخصصهما .

غير أن كتابات الدكتور پيروز مجتهد زاده , الأستاذ بجامعة لندن , هى أكثرها أهميةً في مجالنا , بحكم تخصصه في دراسة الوضع الجيوسياسى للخليج, وقد جمع الأستاذ مجتهد زاده حصيلة كتاباته في كتاب أصدره بالإنجليزية , عن مركز دراسات الشرقين الأدنى والأوسط , التابع لمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن , وصدر في يوليو عام ١٩٩٥م تحت عنوان " جزر طنب وأبو موسى, وجهة نظر إيرانية؛ بحثاً عن السلام

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة عين شمس

والتعاون في الخليج الفارسى ".[٢] وقد كرر الأستاذ أفكار دراساته في ورقة قدمها إلى " ندوة العلاقات العربية – الإيرانية؛ الاتجاهات الراهنة وآفاق المستقبل " التى عقدها مركز دراسات الوحدة العربية ، بالتعاون مع جامعة قطر، بالدوحة صيف عام ١٩٩٥ م.[٣]

وقد اعترف الأستاذ مجتهد زاده بأن الكتاب المشار إليه هو حصيلة تكامل أبحاثه حول تاريخ سيادة إيران على الجزر حتى وقت تأليفه ، ذلك في حديثه إلى صحيفة "كَيهان العربى " في ١٩ نوفمبر ١٩٩٥ م ، وذلك الحديث المثير الذى جعل عنوانه " الجزر الإيرانية الثلاث ... بين وثائق التاريخ والإدعاءات الواهية للإمارات " قد أوضح خلال الحديث، عندما سئل، منذ متى طرحت دولة الإمارات ادعاء عروبة الجزر، فأجاب إنها لم يكن لها ادعاء في السابق، وإنها طرحته منذ سبتمبر ١٩٩٢ م !! وإنه بدأ منذ ذلك التاريخ يهتم بالموضوع وينشر أولى مقالاته حول سيادة إيران على الجزر، ثم استكمل أبحاثه في مقالات عديدة، نشرت بالفارسية والإنجليزية، خلال السنوات ١٩٩٢-١٩٩٥ م، حتى خرجت في شكل كتاب مستقل .[٤]

ومن المهم أن نبدأ بتعريف الباحث الإيرانى، صاحب الأطروحة، والتعريف بأبحاثه ودراساته، وهو بشكل عام يعمل رئيساً لمؤسسة دراسات وأبحاث UROSEVIC في لندن، كما إنه باحث رئيسى مساعد " بمركز أبحاث الجغرافية السياسية والحدود الدولية" التابع لمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، بجامعة لندن، وله ما يزيد عن عشر دراسات مختلفة تتناول موضوعات متنوعة في الجغرافية السياسية والإقليمية للخليج، نشرت في العديد من الدوريات الإيرانية والإنجليزية منذ عام ١٩٧٠ م، لعل أبرزها دراسته التى حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٩٣ م وهى عن " تطور الحدود الشرقية لإيران " [٥]

فضلاً عن دراستين له تناولتا تطور الدورالإيرانى في مضيق هرمز، والجغرافية السياسية للمضيق، نشرتا في لندن عامى ١٩٩٠, و ١٩٩٣ م، كذلك فإن بقية دراساته تناولت الدول والحدود في الجغرافية الإقليمية . . والدور الدولى المتغير والجغرافية الإقليمية للخليج " الفارسى " كما إن له دراسةً حول جزيرة أبو موسى نشرت بكتاب "حدود إيران الحديثة " وعنوانها " حدود إيران البحرية في الخليج الفارسى : حالة جزيرة أبو موسى ".(٦) ويمكن ملاحظة أن الأستاذ مجتهد زاده متخصص في الجغرافية السياسية والإقليمية للخليج، وفي الدور الإيرانى بالذات، وليس مشتغلاً بالتاريخ والبحث التاريخى بالمعنى المفهوم من التكوين والوظيفة، وإن كان ذلك بطبيعة الحال لا ينفي أهمية أبحاثه وكتاباته، وإن اقتضى الأمرأن ينظر إليها بحسبانها ليست أبحاثاً تاريخية بالمعنى الأكاديمى .

* * *

أما عن ورقته التى قدمها إلى ندوة " العلاقات العربية – الإيرانية " صيف ١٩٩٥ م، فرغم أنه بدأها بالحديث عن ضرورة التعاون الإقليمى في الخليج وضرورة وضع ترتيب لتجمع اقتصادى في الخليج ومبرراته ... الخ، ثم انتقاله لتفسير أحداث عام ١٩٩٢ م في جزيرة أبو موسى، من وجهة نظر إيرانية، إلا أن الذى يعنينا هنا ويدخل في مجال تخصصنا هو القسم الثانى من الدراسة والذى جعل عنوانه " نظرة في بعض الحجج التى تقدمها الإمارات العربية المتحدة " لأنه يتعلق بالجزء التاريخى من الدراسة، وما ساقه من حجج وأسانيد تؤيد وجهة نظره بشأن " ملكية " إيران للجزر الثلاث ... هو ما سوف نناقشه معه .

وقد بلور الأستاذ مجتهد زاده رأيه في عدد من القضايا، ساق خلالها ما اعتبره أدلةً وحججاً لسيادة إيران على الجزر وامتلاكها لها، وهذه القضايا هى : أسبقية احتلال الجزر، قضية الخرائط البريطانية، قضية إثبات الوثائق البريطانية لملكية القواسم للجزر وسيطرتهم على جنوبى الخليج، وأخيراً ما أسماه بالوضع

القانونى المزدوج لقواسم لنجة، وسوف نحلل ونناقش ما طرحه الأستاذ من آراء وأسانيد من وجهة نظره ووجهة النظر الإيرانية على وجه العموم، طبقاً للسياق الذى أورده نفسه.

أولاً: مسألة أسبقية احتلال الجزر :(٧)

ذكر مجتهد زاده أن حجة أسبقية الاحتلال التى طرحها البريطانيون في الماضى، والتى تطرحها الإمارات العربية الآن، تستند إلى ما كتبه الوزير البريطاني المفوض في طهران إلى وزارة الخارجية الإيرانية عام ١٩٠٤ م من أن " ما فعله شيخ الشارقة ليس سوى رفع علمه على الجزر التى لاتزال غير محتلة من أى حكومة ... " ووصف مجتهد زاده ذلك بأنه زعم غامض، يتجاهل حقائق منها أن إيران كانت هى الحكومة الوحيدة المجاورة لتلك الجزر في ذلك الوقت، وأن القول بأنها غير محتلة من أية حكومة لامعنى له ... وأن شيخ الشارقة، لم يكن في ذلك الوقت رئيس " دولة " أو حكومة " في الخليج، وأنه رئيس عشيرة تحت الحماية البريطانية، يتمتع بسيطرة عشائرية دون أن تكون ذات بعد إقليمى ... الخ .

ولعلنا نسأل الأستاذ مجتهد زاده : وهل اعتبار أن الحكومة الإيرانية هى الحكومة الوحيدة " المجاورة " للجزر، يمثل دليلاً على امتلاكها لها، أو يرتب لها حقاً من حقوق السيادة عليها، أو يجعل الجزر محتلةً من هذه الحكومة الوحيدة المجاورة لها ؟ وهل كان ثمة " دول" و" حكومات " في الخليج في ذلك الوقت، بالمعنى المعروف اليوم، أم إنها كانت جميعاً إمارات يتمتع حكامها بسلطة، وإن عشائرية، على رعاياها ...وهل ينفي ذلك امتداد سلطة رؤساء العشائر وحقوقهم إلى أراضٍ وجزر معينة ومحددة ؟ ثم ألم تمتد سلطة هؤلاء الرؤساء على رقعة جغرافية، أم أنها سلطة على قبائل وأناس لاأرض لهم ؟

وفي إطار مسألة أسبقية " الاحتلال" يضيف مجتهد زاده إن فتح على شاه عام ١٨١١م، وناصر الدين شاه عام ١٨٥٦ م قد أعطيا لسلطان عمان حقوق إيجاره بندر عباس وميناب ومناطق الساحل وجنوبى الخليج، من الشرق إلى الغرب حتى البحرين "فإذا كانت هذه المساحات تعود إلى إيران فلايمكن أن تكون جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى، والواقعة جغرافياً في الوسط منها، جزراً غير محتلة ... وأن سيادة إيران على الجزر ثبتت تقليدياً دون رفع أعلام الهوية ... " .

وقد ذكر مجتهد زاده أن " إيران كانت قد رفعت علمها في عام ١٨٨٧ م على جزيرة صري وجزيرة أبو موسى، للتدليل على ملكيتها لهاتين الجزيرتين، في أعقاب عزل الحاكم القاسمى من نيابة الحاكمية لبندر لنجة ... "

والثابت أن علم إيران لم يرتفع على جزيرة أبو موسى، عندما احتلت القوات الإيرانية جزيرة صرى في سبتمبر عام ١٨٨٧ م، فعندما احتل حاجى أحمد خان ميناء لنجة وطرد القواسم منه، تقدم إلى صرى واحتلها ورفع العلم الإيرانى عليها، وكانت الأوامر الصادرة إليه تقتضى أن يتقدم لاحتلال جزيرة طنب، لكنه ووجه باحتجاجات من جانب بريطانيا، التى رأت في ذلك تعدياً على حقوق شيوخ القواسم في الساحل المتصالح، الذين لهم حقوق لا نزاع فيها بشأن ملكيتهم للجزر مع قواسم لنجة، والذين أعربوا عن رفضهم بشدة لهذا الإحتلال الإيرانى، ونتيجةً لذلك لم تتقدم القوات الإيرانية صوب طنب أوأبو موسى، كما هو ثابت في الوثائق، كذلك فإن الشائعات التى انتشرت مواكبةً للتحركات الإيرانية كانت تتعلق بجزيرة طنب التى كانت في الأيام الأخيرة لحكم الشيخ خليفة بن سعيد في لنجة موضوع خلاف مع شيخ رأس الخيمة، أما جزيرة أبو موسى فلم يرد عنها شئ، لأنها كانت في رأى جميع الأطراف من ممتلكات قواسم عمان بغير منازع .(٨)

ثانياً : قضية الخرائط البريطانية :

لقد ذكر الدكتور مجتهد زاده أن هناك عدداً من الخرائط البريطانية الرسمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تثبت ملكية إيران لجزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى ... والملاحظ أنه وضع ملحقاً في دراسته الإنجليزية، صنف فيه هذه الخرائط إلى ثلاث مجموعات، رسمية وشبه رسمية وغير رسمية، وقد اتضح من قائمته أن أقدم الخرائط "الرسمية " زمنياً هي خريطة فرنسية وجدت ضمن وثائق الخارجية الفرنسية وأنها رسمت عام ١٧٦٤ م وأن الجزر ظهرت فيها بلون الأراضي الإيرانية، أما أقدم الخرائط " الرسمية " البريطانية فترجع إلى عام ١٨٢٩م وأن الكابتن بروكس هو الذي وضعها في ضوء تعليمات شركة الهند الشرقية البريطانية، ويشير إلى أن هناك خريطةً أخرى أقدم كان قد أعدها جون ماكدونالد بالأبيض والأسود عام ١٨١٣ م، ثم أعيد طبعها ملونةً عام١٨٣٢ م وأن الجزر ظهرت فيها أيضاً بلون الأراضي الإيرانية ... .(٩)

والحقيقة أن الدارس لهذه الخرئط لا يكاد يثبت له أنها خرائط "رسمية" من تلك التي تصدرها الدول ودوائرها الرسمية، كخرائط ملحقة بمعاهدات، لتحديد الحدود بين إيران وحكام ساحل عمان وتخطيطها، أو حتى بين إيران والسلطات البريطانية الحامية، فهي لاتعدو أن تكون مجرد خطوط بحرية أو تحديد بحري، قامت به دوائر رسمية بريطانية، تتصل بتحقيق هدف بريطاني يتمثل في تأمين سلامة الملاحة للسفن التجارية البريطانية، ومن ثم فإنها تفقد أي قيمة قانونية أو قوة إلزامية في مسائل الحدود .

ومن المتفق عليه أن هذه الخرائط لاتلزم الدولة التي حددتها وهي بريطانيا، ومن باب أولى فإنها لاتلزم الدولة التي تعنيها المعلومات الواردة بها وهي دولة الإمارات العربية ... وإذا جاز لنا بأن نكيف الخرائط البريطانية على أنها تمثل اعترافاً ضمنياً من جانب الحكومة البريطانية بتبعية الجزر الثلاث

لإيران، فإن السلوك اللاحق subsequent conducts لبريطانيا يدحض ذلك الاعتراف ويجرده من كل قيمة قانونية ..ففي مناسبات كثيرة اعترفت بريطانيا صراحةً وعلى لسان مسئوليها، بتبعية الجزر الثلاث لإماراتى الشارقة ورأس الخيمة، إضافةً إلى ممارسة الإمارتين لأشكال السيادة على الجزر الثلاث كافة، وبالتالى فإن الاعتراف الصريح اللاحق لايمكن دفعه باعتراف ضمنى سابق ومطعون في استيفائه للشروط اللازمة للأخذ به ابتداءً.(١٠)

ثالثاً : ما أثبته البريطانيون بشأن سيطرة القواسم على جنوبى الخليج والجزر :(١١)

وهنا يناقش مجتهد زاده ما أثبتته الوثائق البريطانية من أن " سيطرة القواسم على جنوبى الخليج والجزر كانت قد ثبتت قبل أن يتم الفصل بشأن الساحل الفارسى بأمد طويل " ويعلق بأن هذا ينافي حقائق التاريخ للافتقار إلى الوضوح بشأن ذلك الفرع من القواسم الذى تستند إليه السيطرة على الجزر، ويذكر أنه إذا كان المقصود بهم قواسم لنجة، فليس هناك شك – في رأيه – في أن هؤلاء حكموا لنجة وتوابعها من الموانيء والجزر، بصفتهم رعايا وموظفين إيرانيين، وقبل أن يتم عزلهم عام ١٨٨٧ م، أما إذا كان المقصود أن الفرع الرئيسى من القواسم –يقصد قواسم ساحل عمان – هم الذين ثبتوا سيطرتهم على الجزر قبل عام ١٨٨٧ م، فإن الحاجة تدعو " لبرهان قاطع " يوضح كيف جرى تثبيت هذه السيطرة ؟

والواقع في تقديرينا، أن هذا الفصل بين ما أسماه " قواسم لنجة " و" قواسم الفرع الرئيسى " رغم أنه ينطوى على فكرة متعمدة يقصد منها أن ينتسب فرع منها إلى إيران، فإنه يتجاهل أن الفرع الذى حكم لنجة وتوابعها كان عربياً وتابعاً لقواسم ساحل عمان، ولو كان شيوخه يحملون الرعوية الإيرانية، أو موظفين إيرانيين لما كان ثمة حاجة للحكومة الإيرانية إلى عزلهم والتضييق عليهم لإبعادهم تماماً عام ١٨٨٧ م .

أما ما " يبرهن " على ثبوت هذه السيطرة وتأكيدها، فهناك وثائق عديدة منها : رسالة الشيخ صقر بن خالد بن سلطان حاكم الشارقة إلى الكولونيل بيلى في ديسمبر ١٨٦٤ م التى يشكو فيها من تعدى أهل دبى على جزيرتى أبو موسى وطنب وهما "من دور الأباء والأجداد " وهناك كذلك رسالة الشيخ على بن خليفة بن سعيد حاكم لنجة إلى الشيخ حمد بن عبد الله بن سلطان في نوفمبر ١٨٧١ م والتى يعترف فيها بتبعية جزيرة طنب لشيخ رأس الخيمة، وهناك كذلك رسالة الشيخ خليفة حاكم لنجة إلى الشيخ حميد أيضاً في يناير ١٨٧٧م التى تتضمن المعنى نفسه، ويمكن أن يضاف إلى ذلك رسالة يوسف بن محمد حاكم لنجة التالى التى أرسلها للشيخ حميد بن عبدالله في٣٠مارس ١٨٨٤ م والتى يعترف فيها بتبعية جزيرة طنب لقواسم عمان..(١٢)

أما اقتباس مجتهد زاده عن وثيقة رسمية بريطانية ما يوضح أن هذه الجزر كانت قد احتلت من أحد فروع القواسم في النصف الثانى من القرن الثامن عشر، خلال فترة الاضطراب التى أعقبت وفاة " نادر شاه " وأنهم استوطنوا الساحل الفارسى ... الخ، فيرى باحثنا أنه لو صحت هذه الوثيقة – وهو بذلك غير متأكد من صحتها – فهى اعتراف بأن الجزر كانت ملكاً إيرانياً احتله القواسم وأن هذا الاحتلال "المزعوم " لم يعترف به الإنجليز إلا عام ١٩٠٣م .

والواقع أن احتلال القواسم للجزر يؤكد أسبقية الاحتلال، ولا يعنى انتزاعها من إيران، فالجزر لم تكن مأهولة، وإنما كانت مجرد مأوى للصيادين، ولم تكن تتبع أى سلطة إيرانية، حتى خلال عصر نادر شاه، وليس هناك في الكتب والمصادر الإيرانية التى تناولت شؤون الخليج خلال هذه الفترة، مايثبت تبعيتها لإيران، وعندما طلب المسئولون البريطانيون من السلطات الإيرانية،

إثبات ذلك مراراً لم يقدموا ما يثبت ذلك مطلقاً (١٣).وقد تجاوز الباحث الحقيقة كذلك حين ذكر أن احتلال القواسم للجزر لم يعترف به البريطانيون إلا عام ١٩٠٣ م، لأن البريطانيين دافعوا عن حق القواسم ومنعوا إيران من احتلال بقية الجزر، بعد احتلالهم لجزيرة صرى عام ١٨٨٧م على نحو ما هو معروف، وليس منطقياً أن يتولى البريطانيون حماية بقية الجزر من الإحتلال الإيرانى دون أن يكون لديهم قناعة واعتراف بعائدية الجزرللقواسم في ساحل عمان .

وحين حاول الدكتور مجتهد زاده تفنيد ما ورد في الرسائل المتبادلة ببين شيوخ رأس الخيمة والشارقة من جهة، وبين الوكلاء السياسيين البريطانيين وحكام لنجة من القواسم من جهة أخرى، رأى أن أهمها رسالة من يوسف بن محمد (القاسمى) شيخ لنجة إلى الشيخ حميد بن عبد الله حاكم رأس الخيمة بشأن تملك قواسم عمان لجزيرة طنب (الرسالة مؤرخة في٣٠مارس ١٨٨٤جمادى الآخرة ١٣٠٢هـ (١٤)) والتى ذكر فيها "إن هذه الجزيرة لكم ياقواسم عمان " فرأى باحثنا أن هذه الجملة لاتكشف عن حقيقة بقدر ماتكشف عن " مجاملة شرقية " معتادة ... ويفسر كذلك ذكر يوسف بن محمد في نفس الرسالة بأن " بلدة لنجة هى بلدتكم .." تدخل كذلك في إطار المجاملة " لأنه ما من أحد ظن يوماَ أن لنجة تعود لغير إيران" !!

والحقيقة أن هذا القول يخالف حقائق التاريخ آنئذ، لأن لنجة كانت بالفعل واقعة تحت حكم القواسم العرب، الذين هم فرع من قواسم ساحل عمان، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٨٨٧م، وليس معقولاً أن تقوم حجة الباحث هنا على ما حدث بعد ذلك العام عندما أُبعد العرب عن لنجة، والرسالة ترجع إلى عام ١٨٨٤م، عندما كان القواسم لا يزالون يحكمون لنجة، ومن ثم فهى إقرار بواقع، وليست نوعاً من المجاملة .

رابعاً : مسألة الوضع القانونى المزدوج [١٥]:

ويذكر مجتهد زاده بشأن ذلك أن البريطانيين ادعوا في وثائقهم أن هذه الجزر قد حكمت من قبل حكام لنجة القواسم العرب وليس بصفتهم موظفين إيرانيين، ويرى أن هذا وضع قانونى مزدوج يستعصى على الفهم، ويتساءل : كيف يمكن لحاكم لنجة أن يحكم جزراً تابعة للحاكمية، لا بصفته حاكماً لها، بل بصفته يحمل عنواناً آخر رسمياً وقانونياً؟ على اعتبار أن هناك- حسب قوله- كمية كبيرة من الوثائق البريطانية والإيرانية تصف قواسم لنجة بأنهم "موظفون إيرانيون" ثم يتساءل : ولماذا لم يحتج البريطانيون ضد استمرار وضع لنجة وتوابعها تحت الاختصاص الإيرانى المباشر من عام ١٨٨٧م وحتى عامى ١٩٠٣ و١٩٠٨ م ؟

والثابت تاريخياً أنه لم يجر ترتيب وضع قانونى مزدوج، فحاكم لنجة حتى عام ١٨٨٧م كان عربياً من القواسم، وليس ثمة دليل مؤكد لممارسة الحكومة الإيرانيى سيادة عليه [١٦]، فهل ثمة وثائق تثبت أن قواسم لنجة كانوا يحكمونها بإعتبارهم "من الرعايا الإيرانيين المخلصين " وذلك قبل إبعاد القواسم منها عام ١٨٨٧، ثم لماذا طردهم الإيرانيون منها طالما أنهم إيرانيون مخلصون، وهل الذى حدث هو إبعاد الحكام من القواسم عن السلطة أم إبعاد العرب جميعاً من لنجة ؟

أما السؤال: لماذا لم تحتج بريطانيا عندما أنهت السلطات الإيرانية حكم القواسم للنجة والجزر؟ فالثابت أن بريطانيا احتجت بالفعل على احتلال جزيرة صرى، وحالت دون امتداد الأطماع الإيرانية إلى بقية الجزر، ولم تشأ أن توسع دائرة الخلاف مع الحكومة الإيرانية حينئذ، ثم اتخذت من "سكوتها" على احتلال صرى سلاحاً تهدد به الحكومة الإيرانية إذا ما فكرت في احتلال بقية الجزر فيما بعد، وهو موقف لم يكن حازماً من جانب السلطات البريطانية على أية حال.وربما كانت بريطانيا حينئذ تهتم بمسألة مياه الخليج وجزره أكثر من

اهتمامها بتحول الساحل الشرقي للخليج كله إلى ساحل إيرانى، بعد إبعاد الحكم العربى منه، لذلك شرعت تتدخل عملياً، عندما بدا لها احتلال إيران لبقية الجزر العربية سيهدد مصالحها الاستراتيجية في مياه الخليج.

لقد شهدت القضية بعد ذلك تطورات أخرى لعل أبرزها محاولات الحكومة الإيرانية منذ عام ١٩٣٠م وما بعده، تأجير الجزر أو شراءها، وهو أمر لايعرضه صاحب حق أصيل .. ومنها أيضاً احتلال إيران للجزر احتلالاً عسكرياً في نوفمبر ١٩٧١م، كما هو معروف، حتى وإن رددت كتابات مجتهد زاده وغيره أن الإنجليز "أعادوا" الجزر لإيران وهم بسبيلهم للإنسحاب من الخليج.. ومنها أيضاً الظروف والملابسات التى اضطرت الشارقة إلى توقيع " مذكرة التفاهم" مع الحكومة الإيرانية بشأن جزيرة أبو موسى.. ثم أخيراً أحداث عام ١٩٩٢م التى انتزعت فيها الحكومة الإيرانية جزيرة أبو موسى تماماً، وشرعت في تحويلها إلى جزيرة إيرانية صرفة.

فكل التطورات السابقة تنقلنا من نطاق التاريخ الذى عالج به الأستاذ مجتهد زاده أطروحته، إلى مرحلة أخرى، ولكن يهمنا في النهاية أن نشير إلى أنه في كتابات أخرى طرح سبباً آخر للادعاء بتملك بلاده للجزر، بخلاف الادعاءات السابقة، حين ذكر أن ثمة أهمية أمنية واستراتيجية تقتضى امتلاك هذه الجزر، ذلك أن المسافة بين جزيرتى طنب الكبرى والصغرى، وبين الساحل الإيرانى، أقصر من المسافة بينهما وبين الساحل العربى، وبالتالى فإن أمن إيران يقتضى الإحتفاظ بالجزر.. ورغم أن هذه الحجة تتجاهل أصحاب الحقوق التاريخية في الجزر، إلا أنه من الضرورى أن نشير إلى أن هذه الحجة صارت في ظل التطورات التقنية الحالية في فنون التسليح، لامعنى لها، وذلك لتغير مفهوم الأمن والاستراتيجية على نحو مذهل، مما يغير بلا شك القيمة الاستراتيجية والأمنية لهذه الجزر بالنسبة لإيران.. لذلك فإن إنهاء الاحتلال العسكرى الإيرانى للجزر الثلاث، وتسوية المشكلة نهائياً سواءً من خلال مفاوضات مباشرة، أو حتى من خلال اللجوء للتحكيم الدولى، سيكون مدخلاً طبيعياً لإرساء أسس السلام والتعاون في المجالات بين جمهورية إيران الإسلامية وجيرانها العرب كافة.

الهوامش:-

(1)Bavand, D., The historical, political and legal Bases of Iran's Sovereignty)over the Islands of Tumb and Abumusa, Internet Concept. New York 1994.

(2)Mojtahed- Zadeh, P., The Islands of Tunb and Abu Musa, An Iranian Argument in Search of peace and Co-operation in the Persian Gulf, University of London, 1995 .

والكتاب صدر عن مركز دراسات الشرقين الأدنى والأوسط، مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن .

(٣) وقد نشرت الندوة في مجلد ضخم تحت العنوان نفسه, عن مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٦م, وورقة الدكتور مجتهد زاده تقع بين صفحتي ٤٨٤-٥٠٦, وانظر: تعليقات في الصفحات التالية .

(٤) صحيفة كَيهان العربى،عدد ٣٤٩٩في ٢٣جمادى الأولى ١٤١٦ه -١٩ تشرين الأول ١٩٩٥م

(5)Mojtahed- Zadeh, P., Evolution of Eastern Iranian Boundaries, the Role of khozeimeh Amirdon, Unpublished Ph . D Thesis, univ. of London.

وكان قد شرع في إعداد رسالة عنوانها "الجغرافية السياسية للخليج، الدور الإيرانى " في أكسفورد (٧٦-١٩٧٩م) لكنها لم تتم .

(٦) وهى منشورة بالكتاب التالى:

Keith Mclachlan, (ed .),The Boundaries of Modern Iran . London . UCL. Press, pp.101-127.

(٧) بيروز مجتهد زاده: ورقته إلى ندوة "العلاقات العربية الإيرانية " المرجع السابق, ص ٤٩٣-٤٩٥.

(8)IOR., RIP. 3276, Ross to Nicolson, Tehran 30 oct . 1886.

وكذلك:

Memorandum: Status of Islands of Tumb,Abu Musa and Sirri, 24 August, 1928, in Arabian Boundaries 1853- 1957,No. 13., Archive Edition 1988, pp. 77-86.

(9)Mojtahed – Zadeh, P., The Islands of Tumb…, pp. 86-87.

(١٠) راجع عبد الوهاب عبدول : الجزر العربية الثلاث في الخليج ومدى مشروعية التغييرات الإقليمية الناتجة عن استخدام القوة، سلسلة كتاب الأبحاث، مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميرى، رأس الخيمة، دون تاريخ، ص١٢٩-١٣٣.

وكذلك : محمد عزيز شكرى : مسألة الجزر في الخليج العربى والعربى والقانون الدولى، دمشق ١٩٧٢م, ص ٣٥-٣٦.

(١١) مجتهد زاده : المرجع السابق، ص٤٩٥-٤٩٦.

(١٢) راجع هذه الرسائل بنصوصها العربية وترجمتها للإنجليزية في: IOR., R|15|246.

(١٣) مصطفي عقيل الخطيب : سياسة إيران في الخليج على عهد ناصر الدين شاه، الدوحة، ١٩٨٧م, ص٣٣٤-٣٤٣.

(١٤) مجتهد زاده : المرجع السابق، ص٤٩٦-٤٩٨.

(١٥) المرجع السابق، ص ٤٩٩-٥٠٠ .

(١٦) انظر :

Saldanh,J .A.,Paragraph 204.
FO. 371/13009. Tanb , FO, Minute, 21 Sept. 1928.

المحور الثالث

الوطن العربي

مخطوطات عصر ابن خلدون

أيمن فؤاد سيد(*)

كان القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، الذي عَاشَ فيه عبدالرحمن بن خلدون الشَّطْرَ الأعْظَم من حياته (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٥م)، عَصْرًا غنيًّا بالإنتاج الفكري للعلماء المسلمين فمع تصدِّي المماليك للزحف المغولي وإيقافه في عَيْن جالوت بعد قضائه على الخلافة الإسلامية وإسقاطها في بغداد، وقيام دولة سلاطين المماليك باستضافة الخلافة العبَّاسية في مصر، تَحَوَّل الثِّقل السياسي والحضاري للعالم الإسلامي إلى مصر فانتقل إليها عَدَدٌ غير قليل من علماء الشرق الإسلامي ساعد على ازدهار مناخ علمي أنتج العديد من المؤلفات في فنون كثيرة.

وواقع الأمْر أن العَدَدَ الأكبر من المصنَّفات التي كتبت في هذا العَصْر كانت مؤلَّفات نقلية، والقليل منها يُمَثِّل أصَالةً في موضوعه يأتي على رأسها ((مُقَدِّمَة ابن خَلدون)).

واشتهر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بما أُلِّف فيه من ((مَوْسُوعَات)) بدايةً بمَوْسوعة ابن الوَطَواط الكُتُبي، المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، وانتهاءً بموسوعة القلقشندي، المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وتُعِدُّ هذه المُصَنَّفات خَيْر ما أنتجه هذا العَصْر.

فقد أسْفَر النشاط الهائل للعلماء المسلمين على مدى عدة قرون عن تأليف عَدَدٍ ضخم من الكُتُب في كلِّ حقول المعرفة، بحيث أن عُمْرَ العالم المختصر لم يكن يكفي لقراءة كل ما كتب في ميدانه، ناهيك عن دراسته. ومن هنا كانت الحاجة إلى طلب الكتب الموسوعية المختصرة، وقد عارض ابن خلدون في

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي . عالم في تحقيق التراث ونشره.

((مقدمته)) هذه الظاهرة واعتبرها دليلًا على التدهور الذي وصلت إليه الحياة العلمية في عصره.

وظهرت كل هذه الموسوعات في مصر، كتبها عُمَّالُ عصر سلاطين المماليك البحرية وعلماؤه بغَرض خدمة كُتَّاب الدَّواوين للاستفادة بها في مجال عملهم، ولكن واقع الأمر أنَّها أفادت جمهورًا أعظم من المُثَقَّفين لأنَّها عالجت مسائل أعمَّ وأكثر شمولًا في جميع فروع العلم التي يريد المؤلِّف أن يُعَرِّف بها.

والظاهرة الملفتة للنظر أنَّ مؤلِّفي هذه الموسوعات لم يروا في أنفسهم علماء بل كانوا في حقيقة الأمر كُتَّابًا نابهي الشأن في ديوان الإنشاء المملوكي واكتسبوا خبرةً كبيرةً في هذا المجال. وأدَّت وحدة الوسط الذي نشأت فيه هذه الموسوعات إلى تشابهها في الترتيب، وهو ترتيبٌ يعكس أحيانًا بوضوح تام أثر التدريب الصارم في الشئون الديوانية، ويبدو هذا واضحًا أكثر ما يكون في مؤلِّف القلقشندي ((صبح الأعشى)).

ويدخل في باب التأليف الموسوعي كذلك كتابُ تاريخ عامّ للعالم الإسلامي يعتمد على ما ورد في المصادر المبكرة والوسيطة مثلما فَعَلَ الذَّهَبِيّ في كتاب ((تاريخ الإسلام)) ومثلما فَعَلَ ابن خلدون نفسه في كتابه ((العِبَر وديوان المبتدأ والخَبَر)) الذي لم يكتف فقط بتناول التاريخ الإسلامي وإنما وَسَّع مجاله ليشمل تاريخ اليونان والرومان واليهود والفرس.

وجَاءَ كتاب ((الوافي بالوفيات)) لخليل بن أيبك الصفدي، المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م كأكبر كتاب تراجم عامّة في الحضارة الإسلامية استوعب فيه مؤلِّفه بتمكُّن تراجم مشاهير الرجال في السياسة والأدب والفقه والطب وسائر الفنون الذين عاشوا في الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويقع هذا الكتاب في ثلاثين جزءًا.

* * *

وأوّل موسوعات هذا العَصْر ((مباهج الفِكَر ومَنَاهِج العِبَر)) ألّفها جمال الدِّين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكُتُبي الوَرَّاق المعروف بالوَطْوَاط، المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م. ولم يكن الوَطْوَاط من عُمَّال الحكومة الذين مارسوا العَمَل في دواوينها، بل كان – كما يدلّ على ذلك لقبه – من المشتغلين بتجارة الكتب ونسخها يقول عنه الصفديّ : ((له معرفة بالكتب وقِيَمها))، و((ملكت بخَطه تاريخ ابن الأثير المسمَّى بـ((الكامل)) وقد ناقَشَ المصنِّف في حواشيه وغَلَّطه وواخذه)).

و((مَبَاهج الفِكَر)) موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافيا معروضة بأسلوبٍ أدَبيّ وموضَّحة بالشواهد من شعر ونَثْر وتنقسم إلى أربعة فنون : الفَلَك والأجرام السماوية، والجغرافيا والأجناس، والحيوان، والنبات.

وأهم فصول هذه الموسعة، الفن الثاني الذي خَصَّصه الوطواط للجغرافيا حيث أمَدَّنا فيه بمعلومات بالغة القيمة عن نظام الزراعة وجغرافية القطر المصري بصفة عامَّة.

ولعب كتاب ((مباهج الفِكَر)) دورًا كبيرًا في تطوير نَمَط التأليف الموسوعي، فقد نَقَل منه مرارًا معاصره النُوَيْري واستعار منه طريقة التبويب إلى ((فنون)) محتفظًا أحيانًا بمحتويات الكتاب نفسها وخاصَّة في القسم الخاص بالنبات.

ولم يطبع هذا الكتاب إلى الآن، بل إن مخطوطاته المختلفة لا تحتوي إلَّا على أجزاء متفرِّقة، وتوجد النسخة التامة الوحيدة من هذا الكتاب في المكتبة المارونية بحلب ومنها نسخة مصورة في دار الكتب المصرية برقم ٣٥٩ طبيعة وأخرى منسوخة عنها برقم ٣٢٣ف، كما تحتفظ الدار بأجزاء متفرقة من الكتاب تحت رقمى ٣٢٤و ٤٢٠ طبيعة.

ويُوجد الفن الأول والفن الثاني من الكتاب في نسخة قديمة كتبت سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٧م، في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية، إضافة إلى قطع أخرى متفرقة في إستانبول في مكتبات بايزيد وقسطموني وحكيم أوغلي وآق سكي.

وللكتاب مختصرٌ عنوانه ((نزهة العيون في أربعة فنون)) منه نسخة في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول برقم ٢٦١٠ كتبها منصور بن محمد العبادي سنة ٩٨٧هـ، ولا ندري إن كان هو نفسه المختصر، فالعنوان خلا من اسم مؤلِّفه.

والمَوْسوعة الثانية هي ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري النُّوَيْري، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، ويُعَدُّ النُّوَيْري خير ممثل للوَسَط الذي عملت فيه ومن أجله موسوعات عصر المماليك.

واستعار النويري من سلفه الوطواط تقسيم كتابه إلى أربعة فنون، وأضاف إليها فَنًّا خامسًا هو ((التَّأريخ)) وعَدَّل كثيرًا في مادَّة الفَنّ الثَّاني الخاص بالجغرافيا كما جاءت عند الوطواط.

واستغرق تأليف هذه الموسوعة نحو عشرين عامًا وجاءت في واحد وثلاثين جزءًا كبيرًا. ويعد القسم التاريخي فيها أكثر أقسامها قيمةً سواء بالنسبة للفترة التي عاصرها النويري أو للفترات السابقة فقد نَقَلَ النويري نصوصًا كاملة عن مؤلِّفين لم تصل إلينا مؤلفاتهم فحفظ لنا بذلك معلومات ما كان يمكننا الاطلاع عليها لو لم يدوِّنها النويري. وحقيقة الأمر أنَّ هذه قيمة كبيرةٌ لمؤلفات عصر سلاطين المماليك، والتاريخية منها على وجه الخصوص، حيث حفظ لنا مؤرِّخون من أمثال ابن أيبك الدواداري وابن الفُرَات والمقريزي وأبو المحاسن بن تغري بردي نصوصًا كاملة من مؤلَّفات ضاعت عَنَّا أصولها اليوم.

وبفضل جهود أحمد زكي باشا (١٨٦٧ – ١٩٣٤م) اقتنــت دار الكتــب المصرية نسخة كاملة، ولكنها مُلَفَّقة، من نهاية الأرب أصلها محفوظ في تركيا، وشَرَعت في نَشْر أجزائها وصَدَرَت تباعًا في ثلاثة وثلاثين جزءًا بــين ســنتي ١٩٢٣ – ١٩٩٨م!

أما أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك فموسوعة ((ممالك الأبصار في ممالك الأمصار)) لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَريّ، المتــوفى سنة ٧٤٩هــ/١٣٤٩م، ووصفها الصفدي – معاصر العُمَريّ – بأنها ((كتــابٌ حافل ما يعلم أن لأحدٍ مثله)).

وقسم العمري كِتابه إلى قسمين كبيرين جعل أحدهما : ((في ذكر الأرض وما اشتملت عليه بَرًّا وبحرًا))، والثاني : ((في ســكان الأرض مــن طوائــف الأمم)). وكل من القسمين ينقسم بدوره إلى أقسام أطلق عليها العُمَرِيّ اصطلاحًا ((النَّوْع)).

ورغم أنَّ مادة موسوعة العُمَريّ تقتصر على الجغرافيا والتــاريخ فقــط، بعكس موسوعتي الوطواط والنويريّ اللتين عالجتا فنونا أخرى غير الجغرافيــا والتَّاريخ، فإن ثقافة العمري تبدو أكثر وضوحًا في موسوعته وفي كتابه الآخــر ((التَّعْريف بالمُصْطَلَح الشَّريف)) عن الوطواط والنويريّ اللذين يمثل مؤلَّفاهمــا مؤلَّفين نقليين بمعنى الكلمة. فمُصنَّفا العمري ((المسالك)) و((التعريف)) يعــدّان من أهم آثار عهده واعتمد عليها كثيرًا مؤرخو عصر المماليك المتأخرين، فيما يخصّ نظم دولة سلاطين المماليك ورسومها، كما يبدو واضحًا فــي مؤلَّفــات القلقشندي والمقريزي وابن شاهين الظاهري والسيوطي.

وكتاب ((مسالك الأبصار)) للعُمَري مصدرٌ من الدرجة الأولــى لدراســة عصر سلاطين المماليك البحرية وعلى الأخص المعلومات التي يوردهــا عــن البلاد التي ربطتها صلاتٌ دبلوماسية منتظمة أو متقطِّعة بدولة المماليك. فقد هيَّأ

له عملُه الحكومي، ككاتب في ديوان الإنشاء، الاطلاع على الوثائق ولقاء كثيـر من المسئولين والسُّفراء، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغايـة ممـا مكَّنه من إخراج لوحة مُفَصَّلَة في وصف العالم المعاصر له.

ونُسَخُ هذا الكتاب التي وَصَلَت إلينا ليست كثيرة ويوجد قسمها الأكبر في مكتبات تركيا في مكتبة آياصوفيا ومكتبة أحمد الثالث بإستانبول إضـافةً إلـى مكتبتي لاله لي وروان كُشُك، كما توجد نسخ لأقسام من الكتاب فـي بـاريس ولندن وأكسفورد والإسكوريال ومكتبة القرويين بفـاس، وتمتلـك دار الكتـب المصرية نُسْخَه مصورة بالفوتوستات عن نسختي آياصـوفيا وأحمـد الثالـث بإستانبول أهداها إليها العلامة الراحل أحمد زكي باشا الذي بدأ مشروعًا لإخراج الكتاب في دار الكتب أصدر منه فقط الجزء الأول سنة ١٩٢٤م.

وألَّف شهابُ الدين أبو العباس أحمد بن علي الفزاري القلقشندي، المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، آخر موسوعة كبرى لعصر سلاطين المماليـك. وكمـا يتضح من عنوانها ((صُبْح الأعْشَى في صناعة الإنْشَا)) فإن موضوعها الرئيسي هو الكتابة الديوانية. وبدأ القلقشندي تصنيف هذا الكتاب الضخم فـور التحاقـه بالعمل بديوان الإناي في مصر سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وانتهى من تأليفـه فـي شوال سنة ٨١٤هـ/١٤١٢م.

وتنقسم هذه الموسوعة إلى مقدمة وعشر مقالات عالج فيها المؤلف كل ما يتعلَّق بالكتابة والخط وآلاته والمكاتبات وصيغها والنظام الإداري لمـصر فـي العصر الإسلامي وأورد صورًا للوثائق الصادرة مـن ديـوان الإنـشاء عـن السلاطين والأمراء إلى غير ذلك من موضوعات مهمة تجعـل مـن الكتـاب مصدرًا أساسيًا فيما يتعلق بالتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي والأقطار المتصلة به طوال أربعة قرون من القرن الخامس حتى مطلع القـرن التاسع للهجرة.

وكان نصيب موسوعة القلقشندي من الاهتمام أوفر حالاً وأحسن من موسوعات عصر سلاطين المماليك الأخرى. فبفضل جهود أحمد زكي باشا أيضًا الذي وَفَّرَ نُسْخَةً كاملة منها لدار الكتب المصرية أخرجت لنا في باكورة منشوراتها نَشْرَةً مضبوطَةً صحيحةً لكتاب ((صُبْح الأعْشَى)) صدرت في مطلع القرن العشرين، مما أتاح للعلماء فرصة التوفّر على دراستها والاستفادة منها.

* * *

وكان وصول ابن خلدون إلى مصر مع تحوّل القوى السياسية بها من المماليك التركية أو البحرية إلى المماليك الشراكسة أو البرجية. حيث أمضى الربع قرن الأخير من حياته (٧٨٤ – ٨٠٨هـ) في كنف السلطان الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج، وأهدى إلى الظاهر برقوق الإخراج الثاني من ((المقدمة والتاريخ))، وهي النسخة المعروفة بالظاهرية.

وفي الوقت نفسه التفَّ حول ابن خلدون العديدُ من المصريين النابهين الذين تأثروا بمدرسته في الكتابة التاريخية وتفسيره لأحداث التاريخ، يأتي على رأسهم شيخ مؤرخي مصر الإسلامية تقيّ الدين أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦–٨٤٥هـ/ ١٣٦٥–١٤٤٢م) الذي ألَّف العديد من المؤلفات التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامي وحتى منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي مثل ((عقد جواهر الأسفاط)) و((اتعاظ الحنفا)) و((السُّلوك)) و((المقفى الكبير))، ولكن الكتاب الذي كفل له شهرةً كبيرة هو دون شك كتابه الموسوعي ((المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)) المعروف باسم ((الخِطَط)) الذي يُعَدّ أهم كتاب في تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها في العصر الإسلامي، فهو الكتاب الوحيد الذي وَصَلَ إلينا ويقدّم لنا – اعتمادًا على المصادر الأصلية – عرضًا شاملاً لتاريخ مصر الإسلامية ولتأسيس عواصم مصر ونُمُوّها منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن

التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ويُعَدّ بذلك مصدرًا لا غنى عنه للمشتغلين بدراسة آثار مصر الإسلامية من قصور وجوامع ومدارس وخوانق إضافة إلى حَارَات وأخْطاط ودروب عاصميتها القاهرة والفسطاط.

ووصلت إلينا العديد من نسخ هذا الكتاب المهم وبعضها مسودات بخط المقريزي نفسه محفوظة في متحف طوب قبوسراي بإستانبول، وأخرى منقولة مباشرة عن خط المؤلف محفوظة كذلك في مكتبات الفاتح وآياصوفيا بإستانبول، تَوَفَّر على جَمْعها ومقارنتها كاتب هذه السطور وأصْدَرَ نَشْرَةً نقديةَ لهذا الكتاب المهم بين سنتي ٢٠٠١ و٢٠٠٥ صدرت في لندن.

* * *

وهكذا فقد وَجَد ابنُ خلدون نفسه في بيئة تموج بالإنتاج الفكري، وكان انتقاله من شمال إفريقيا بعد أنْ عاش في بلاط ملوكها وكتب النسخة الأولى من ((مقدمته)) و((كتابه في التاريخ))، إلى مصر في زمن المماليك التي أنتجت هذه المؤلَّفات الموسوعية دافعًا له لإعادَة كتابة مقدمته وتاريخه ((العِبَر)) بعد أن اطَّلَع في خزائن كتبها على العديد من المصادر التي لم تتح له في تونس والمغرب وعاشر علمائها وكتابه وتقرب من ملوكها وسلاطينها، وأثَّر في كثير من مؤلفيها وعلمائها بفكره ونظرته المبتكرة التي عَبَّر عنها في مقدمته الشهيرة.

من آثارنا في بيت المقدس

سبيل قايتباى

علي السيد علي محمود(*)

لا يمكن أن تكون محبة القدس كاملة إلا إذا عرفناها ودرسناها من مختلف النواحى . فالقدس، ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض، ولكنها رمز دار حوله الصراع على مدى أجيال عدة في تاريخ المنطقة العربية .

والقدس اليوم رمز في صراع جديد قديم بين القوى العربية في المنطقة وقوى البغى والعدوان الآتية من خارج المنطقة تفرض منطق الاستيطان العنصرى المتسربل برداء الدين . والقدس في ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التي وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كياناً دخيلاً، فما أشبه اليوم بالبارحة، والمثير للانتباه أن القدس كانت محور الدعاية الصليبية بالأمس، كما هي محور الدعاوى الصهيونية اليوم . فقد جاء الصليبيون في أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر للميلاد تحت دعاوى تحرير القدس من العرب المسلمين، وادعوا أن فلسطين أرض الميعاد وأنهم شعب الله المختار الذي اصطفاه للمهمة المقدسة لتحرير ضريح المسيح من المسلمين . ولا غرو فقد ورث المسيحيون العهد القديم (التوراة) بكل ما فيها . وها نحن اليوم نواجه العدوان الصهيونى /الأمريكى تحت الراية نفسها، وفي ظل المزاعم ذاتها، فالصهاينة يزعمون أنهم شعب الله المختار وأن القدس وفلسطين هي الأرض التى وعدهم الرب بها .

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى . كلية الآداب – جامعة الفيوم.

ولم تكن القدس بالنسبة للعرب مجرد مدينة على الخريطة، وإنما كانت بالنسبة لهم أولى القبلتين وثالث الحرمين . ولم تكن في الحضارة العربية الإسلامية واجهة تخفى النيات العدوانية، والمقاصد الهمجية، والأغراض الاستيطانية، ولكنها كانت قبلة للعلماء، ومقصدا للدارسين، ومناراً مرشداً لصناع الحضارة في كل مكان . وأثبتت على مدى التاريخ العربى أنها مدينة السلام .

والقدس إذن الآن مركز تحد حضارى حيث يدور حولها صراع سياسى كبير . كما أن الخصوم يجهدون أنفسهم في إبراز تخلف العرب الحضارى، متمثلاً ضمن ما يتمثل في إهمالهم لتراثهم في القدس، التي حولها الخصوم بالقوة إلى عاصمة لهم، ويهللون لقطعة حجر وجدوا عليها نقشا عبريا، في الوقت الذي مازالت فيه آثارنا العربية الإسلامية في وضع سيء للغاية، تتآكل كل يوم، وتتساقط مع كل صيف وشتاء لعوامل كثيرة أهمها انعدام الصيانة وقلة العناية .

ومن أكبر الأخطاء القول بأن إنقاذ التراث لا يمكن أن يتم إلا بعد الانقاذ السياسى وبعد الحل . لأن معنى هذا زوال المعالم الحضارية العربية الإسلامية من المدينة، وهذه كارثة بكل معنى الكلمة، ولابد أن تتضافر الجهود لعمل شيء، ولإن نضئ شمعة واحدة خير من أن نلعن الظلام، في وقت لن تنفع فيه اللعنات.

ففي المنطقة ما بين باب السلسلة وباب القطانين من أبواب المسجد الأقصى بالقدس الشريف، يقع سبيل قايتباى أشهر سبيل في القدس وأجملها وعلى بعد خمسين مترا من جدار الحرم الغربى بين درج صحن الصخرة الغربى الأوسط والمدرسة العثمانية (دار الفتيانى)، عند مدخل المكتبة الخالدية، على يمين الداخل من بابها المطل على الجانب الجنوبى من طريق باب السلسلة[١] .

هذا السبيل أول من شيده هو السلطان المملوكى الملك الأشرف أبو النصر العلائى اينال الأجرودى الناصرى الذي حكم في الفترة من ٨٥٧-

٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م [٢] وعندما قام السلطان الأشرف قايتباى في الحكم عام ٨٧٢هـ/١٤٦٨م، وزار القدس عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، وأنشأ مدرسته الأشرفية القايتبائية، وأعاد بناء هذا السبيل وجامعه بغزة، على أيدي جماعة من المعمارية والمهندسين والحجارين، ولذلك نسب إليه هذا السبيل وعرف باسم سبيل قايتباى، عند باب المتوضأ، وعلى بعد بضعة أمتار منه إلى الشرق . وهو من أشهر السبل القائمة في الحرم وأكبرها . ومن أعظم محاسن هذا السبيل كونه في هذه البقعة الشريفة، ولو كان في غير هذا الموضع لم يكن عليه الرونق الموجود عليه ببنائه، حيث يطل على الحرم القدسى الشريف وصحن الصخرة العالى، ثم جدده السلطان العثمانى عبد الحميد عام ١٨٨٢م[٣] .

ولقد امتازت مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) وكما امتازت غيرها من المدن التي خضعت لحكم دولتهم بكثرة المنشآت الاجتماعية ومنها الأسبلة، التى كان الغرض منها هو تيسير الحصول على الماء العذب لشرب الإنسان والحيوان . ولذلك اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم طوال فترة حكمهم بإنشاء العديد من الأسبلة في القدس في كثير من المواضع المختلفة بها، وفي ساحة الحرم القدسى الشريف خاصة، ليتوافر للمصلين والزوار الحصول على ماء الشرب قبل دخولهم المسجد لأداء فريضة الصلاة . ولما عرف عن مدينة بيت المقدس من قلة المياه وعدم وجود أنهار بها، فضلا عما كان يعانيه الناس فيها بسبب قلة الأمطار بها[٤] .

وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام سلاطين المماليك وأمرائهم ببناء تلك الأسبلة وغيرها من المنشآت الاجتماعية والثقافية والدينية كان نابعا بالدرجة الأولى من سياستهم الدينية . ومهما يكن من أمر فإن قيام دولتهم على مسرح الأحداث السياسية، وما ترتب عليه من قيام دولة سلاطين المماليك بقسميها، دولة

المماليك البحرية أو الأولى، ودولة المماليك الجراكسة أو الثانية بالدفاع عن الكيان الإسلامى ضد الخطر المغولى والخطر الصليبى، فضلا عما أحاط بظروف نشأة هؤلاء المماليك وما لمسوه من نظرة المعاصرين لهم بسبب أصلهم غير الحر،إلى جانب أنهم اغتصبوا الحكم من سادتهم بنى أيوب، مما كان له أكبر الأثر في رسم سياسة المماليك، تلك السياسة التي انعكست آثارها على أوضاع الأماكن المقدسة الإسلامية ممثلةً في شقيها الحربى والدينى، وهى ظهور المماليك كقوة تدافع عن الإسلام ورسوخ قيمة سلطنة المماليك كقوة ضاربة تدافع عن الإسلام والمسلمين وترعى مقدساتهم . وباعتبار أن القدس بما لها من مكانة مقدسةٍ لدى المسلمين جميعا تمثل ركيزةً هامةً كان عليهم أن يولوها من الرعاية والعناية ما يبرزون به الجانب الدينى من سياستهم، وبما يعطى انطباعاً بأن قيام دولتهم في الحكم ليس ضرورةً لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب، بل أيضًا لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته، ورصد جزء كبير من ثروات دولتهم في رعاية تلك المقدسات، ليظهروا دائما في صورة رعاة الدين الساهرين على علومه وأركانه، المنفذين لأحكامه وشريعته(٥) .

ولم تكن تلك الرعاية قصراً على المؤسسات الدينية، بل كانت عنايتهم بالمؤسسات العلمية والخيرية والاجتماعية لتوفير أسباب الحياة الطيبة في المدن المقدسة الإسلامية ومنها بيت المقدس، بعد أن تحررت من الخوف الذي الذي خيم عليها نحواً من قرنين من الزمان زمن الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م).

أما عن عناية سلاطين وأمراء المماليك بالأسبلة في بيت المقدس فقد انصبت تلك العناية على تجديد بعض الأسبلة التي كانت موجودة فعلاً قبل قيام دولتهم، أو إقامة بعض الأسبلة الجديدة، من ذلك أن السلطان برسباى قد تم في

عهده تجديد سبيل شعلان وهو السبيل الذي بناه الملك المعظم عيسى الأيوبى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م [٦] . فقد جاء في اللوحة اليمنى بتجديد السبيل زمن الأشرف برسباى سنة ٨٣٢هـ بخط النسخ المملوكى على واجهة السبيل وفيها :

١-جدد هاذ (كذا) السبيل والمصلا والمحراب العبد .

٢-الفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر الحرمين .

٣-الشريفين في أيام مولانا السلطان الملك .

٤-الأشرف برسباى خلد الله ملكه بتاريخ .

٥-شهر رمضان المعظم سنة اثنين وثمان مائة[٧] .

وفي القدس ثمانية وعشرين سبيلاً آثارها جميعا موجودة حتى اليوم، منها أحد عشر سبيلاً في ساحة الحرم القدسى الشريف، وخمسة عشر سبيلاً داخل القدس الشرقية، وسبيلان خارجها[٨] .

والسبيل يعنى المكان الموقوف والمجعول لتيسير الماء العذب لمن أراد الحصول عليه وتارةً يكون لشرب الناس من أبناء مدينة بيت المقدس والقادمين إليها وتارةً للنفع العام . وكلمة السبيل تعبير استعمل أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجرى، الثالث عشر والرابع عشر للميلاد[٩] . وينبغى أن نذكر أن سبيل قايتباى في بيت المقدس كان من أروع الأسبلة في المدينة المقدسة بما يحتويه من وحدة تسبيل المياه الباردة، هذه الوحدة التى عرفت باسم السلسبيل المستمدة من الآية القرآنية ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان : ١٨] . فمن ينظر إلى الشكل المعمارى للسبيل المذكور يدرك أن السلسبيل كان يتكون من الرخام الموضوع في قوصرة معقودة بالمقرنصات الملونة وزين سطح الرخام بدالات بحيث يحيط بها إطار غائر، بحيث يؤدى انسياب المياه على اللوح وملامسة المياه المتدفقة للهواء المتجدد إلى جعلها باردة ومستساغة الشرب ثم

إلى أحواض الشرب أمام النوافذ لسقاية أبناء السبيل . فالجوانب الجنوبية والغربية والشمالية من السبيل فيها نوافذ (٣,٤٢×١,٩٤مترا) وعليها درابزين، أما باب السبيل فهو الجانب الشرقى، والحقيقة أن السبيل الذي نتحدث عنه بناء ساحر لاقى اهتمام كثيرين من علماء الآثار ونقاد الفن والمؤرخين . فهو يتألف من ثلاث طبقات أو أجزاء، هي قاعدة مستطيلة ارتفاعها ٧,٦٥مترا، ورقبة قبة فيه ارتفاعها ٢,١٨مترا، وقبة ارتفاعها ٣,٤٥مترا، والارتفاع الكلى للسبيل هو ١٣,٢٨مترا[١٠] .كما أن أسفل القبة مزود بأربعة شبابيك تعمل كمساقط هوائية إلى داخل السبيل لزيادة تجديد الهواء إلى داخل السبيل ودفعه، فضلاً عن نفاذ الضوء . هذا إلى جانب أن بناء السبيل من النوع المسمى بالأبلق فيه صفوف من الحجارة الحمراء والصفراء بالتناوب، وهناك أربع درجات تقود إلى القاعدة في جهتى الشمال والغرب . أما في الجنوب فلا درج هناك بل هناك المسطبة . وباب السبيل تبلغ أبعاده ١,٩٥× ٨٩, مترا، يدخل إليه من جهة الشرق بدرج مستدير يستند إلى رصيف المسطبة . وأما القبة فهى مغطاة بالأرابيسك وعليها هلال برونزى يتجه من الشرق إلى الغرب، وليس من الشمال إلى الجنوب كغيره من الأهلة في الحرم القدسى الشريف ومسجد الصخرة المشرفة، وهما من أهم معالم المدينة المقدسة الإسلامية[١١] .

أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض بحوالى متر وتوجد به المزملة لتوزيع الماء على الراغبين فيه، وحيث يقوم المزملاتى برفع الماء من الصهريج أو البئر عن طريق الفتحة المعدة لرفع الماء أو عدة فتحات قطر كل فتحة منها حوالى عشرين سنتيمترا، وكان الماء يرفع من هذه الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل ومربوطة بقصبان تلك الفتحات والتى تعرف كذلك بالنوافذ .

أما عن طريقة تشغيل السبيل، فكانت تتم بواسطة بكرة فوق الصهريج

مربوط بها حبل، وكان بطرف الحبل سطل يرفع به المزملاتـــى المـــاء إلـــى القنوات الموجودة تحت بلاطة المزملة فيجرى الماء إلى النوافذ"الفتحات" القائمة عند فتحات القنوات، وكان طالب المياه يصعد على السلالم الموجودة أسفل كـــل نافذة إلى حيث يجد الماء فيحصل على حاجته بالكوز(١٢) .

والماء الذي جعل الله سبحانه وتعالى منه كل شيء حى كـــان موضـــع رعاية سلاطين المماليك وأمرائهم وعنايتهم، فقد كانت المياه بالنـــسبة لأهـــالى مدينة بيت المقدس في ذلك الزمان بل وكل زمان والذين خبروا الجدب والجفاف نعمة يحمد لمن يوفرها لهم كل الفضل، وتعد من مآثره التى يرددونهـــا عبـــر الأزمان، وهم الذين عانوا كثيرا من قلة الماء بسبب قلة الأمطار وعدم وجـــود أنهار ببلدهم . لذا فقد أولى سلاطين وأمراء المماليك وأهل اليسار مسألة تـــوفير الماء العذب جل اهتمامهم فأكثروا من بناء الأسبلة، وهي عبارة عن مبان مستقلة بذاتها أحيانا، أو كانت تلحق بالمساجد والمدارس أو حتى المنازل . وغالبًا مـــا ارتبط بناء السبيل بإنشاء مكتب لتعليم أيتام المسلمين أى كُتاب فوقـــه مباشـــرة، ليتلقوا فيه دروسهم الأولية في الكتابة والقراءة وحفظ الآيات القرآنيـــة وبعـــض الأحاديث النبوية الشريفة، إلا أن الحال لم تكن كذلك مع سبيل قايتباى وكما يبدو من طرازه المعمارى الذي يؤكد أنه كان سبيلاً منفردًا وهذا واضح تمامـــا مـــن النص الذي أورده مؤرخ بيت المقدس مجير الدين الحنبلى من قول :"ومن جملة ما عمره السلطان حين عمارة المدرسة السبيل المقابل لها بداخل المسجد فـــوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربى، وكان قديمًا على البئر المذكور قبة مبنيـــة بالأحجار كغيره من الآبار الموجودة بالمسجد فأزيلت تلك القبة وبنـــى الـــسبيل المستجد وفرش أرضه بالرخام وصار في هيئة لطيفة"(١٣) . فلو لم يكـــن هـــذا السبيل منفردا، أى ليس به مكتب لتعليم الأطفال لذكر ذلك .

كما أن النقش المكتوب على إفريز كبير يغطى واجهات السبيل الأربع الجنوبية والغربية والشمالية والشرقية، والذي يرجع إلى العصر الحديث، وعلى وجه التحديد عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م في عهد السلطان العثمانى عبد الحميد، هذا النقش يبتدئ بالبسملة من الجهة الجنوبية وينتهى بذكر سنة ثلاثمائة وألف في الجهة الشرقية على الوجه التالى : من الجنوب :"بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا" – كناية عن وظيفة المبنى بأنه سبيل لتوفير الماء العذب للشرب –"عينا يشرب بها عباد الله" – كناية عن المستفيدين من تلك المياه –"يفجرونها تفجيرا" – كناية عن أن مياهه لا نفاد لها لإغاثة الخلق في قيظ الصيف –"ويخافون يوما كان شره مستطيرا" – كناية عن أن تسبيل ماء هذا السبيل كأحد أعمال القربى لله تعالى وطلبا لرضوانه ومثوبته –"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" – كناية عن وظيفة أخرى لهذا السبيل ومدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في مجال الرعاية الاجتماعية في كل موضع ومكان ومنها بيت المقدس من نجدة الملهوف، ومساعدة المحتاج، وضرورة رسوخ القيم الإنسانية وتحولها إلى عمل منتظم يخضع لمؤسسات شرعية، و"إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا" – كناية عن أن كل خير هو من عند الله الذى سخره لعباده أجمعين – "أنشأ هذا السبيل المبارك مولانا الملك الأشرف إينال ثم جدده سلطان الإسلام والمسلمين قامع" من الشمال –"الكفرة والمشركين ناشر العدل في العالمين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره" . والنص هنا صريح وواضح بأن هذا السبيل من إنشاء السلطان إينال وهو الملك الأشرف أبو النصر العلائى إينال الأجرودى الناصرى (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م) . ثم جدد بناءه السلطان قايتباى، والنص بما فيه من ألقاب لهذا السلطان المملوكى مثل"سلطان الإسلام والمسلمين" فيه كثير من الدلالات، منها وحسبما يقول ابن شاهين :"ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله، فإنه الآن أعلى

الملوك وأشرفهم مرتبة، سيد الأولين والآخرين، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة"(١٤) . وهو ما يتفق تماما مع سياسة سلاطين المماليك الدينية لكى يحظوا بتأييد المعاصرين لهم وتغيير نظرتهم إليهم . وعلى هذا الأساس ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية العديدة والتى وضعت في مكاتباتهم الرسمية وعلى العملة، مثل"تصير أمير المؤمنين"، و"سلطان الإسلام والمسلمين"، و"محيى العدل في العالمين"، و"ظل الله في أرضه"، و"القائم بسنته وفرضه"، و"حامى الحرمين الشريفين والقبلتين"، و"قامع الكفرة والمشركين"، وأعلاها"قسيم أمير المؤمنين"(١٥) .ومن الواضح أن هدفهم من وراء هذه التسميات هو التأكيد على الشرعية التى أصبحوا يتمتعون بها . أما التسميات الأخرى ومنها"أبو النصر"، و"أعز الله أنصاره"، و"سيف الدين"، و"الناصر"وغيرها من التسميات فهى للتذكير بالانتصارات التى حققوها ضد الأخطار الخارجية ممثلة في أهم خطرين وهما الغزوة الصليبية وما استتبعها من محاولات لفرض الحصار الاقتصادى على مصر، والغزوة المغولية المدمرة التى أدت إلى زوال عروش وقتل الآلاف المؤلفة من المسلمين، ودمار كثير من بلدان الشرق، وكذلك حرص سلاطين دولة المماليك الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) على ألا يكونوا في نظر معاصريهم أقل مرتبة ممن سبقوهم في دولة المماليك الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) في العناية بالمسلمين ومقدساتهم(١٦) .

ثم يستمر النص بقوله .."في شهر شوال المبارك سنة سبع وثمانين وثمانمائة" – كناية عن تاريخ بناء سبيل قايتباى . ثم يأتى من جهة الشرق استكمال النص، وبشكل واضح باسم من جدده في العصر التالى وهو العصر العثمانى بالقول :"ثم جدده الخليفة الأعظم والسلطان المفخم الغازى عبد الحميد خان بن السلطان الغازى عبد المجيد خان من آل عثمان أعز الله ملكه فى شهر رجب الفرد سنة ثلاثمائة وألف"(١٧) .هذا النص أيضا يؤكد أن السبيل كان

منفردًا، ولم يلحق به مكتب لتعليم الأطفال أو أى مبنى آخر . كما أنه يؤكـد أن بناء السبيل الحالى هو بناء السلطان قايتباى وأن بناء السلطان إينال لم يبق منه شيء مطلقا، كما أن تجديده أو تعميره كان على يد السلطان عبد الحميـد سـنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م، هذا التجديد كان عبارة عن ترميم الجوانب وداخل السبيل، وكتابة الإفريز من جديد بحيث تمت التضحية ببروتوكول إينال، وكذلك بجـزء من بروتوكول قايتباى، أى ألقابهما عند إعادة كتابة النص، كما تم تشويه بعض الزخارف بسبب إعادة كتابة الإفريز[١٨].

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن توفير الماء العذب طوال العصر المملوكى بشقيه لم يكن قصرًا على الإنسان فحسب، بل إن شجرة الشفقة الإنسانية بظلالها الوارفة قد امتدت إلى الحيوان وجميع الدواب كذلك، فعينت لها أحواض لسقياها، طلبا للمثوبة والأجر كذلك، تلك الأحواض عادة ما كانت تنتشر في كـل مكـان بالإضافة إلى أنها وجدت كذلك بجوار كثير من الأسبلة ومنها سبيل قايتباى[١٩] .

وثمة مجال لعبت الأسبلة ومنها سبيل قايتباى دورًا مهمًا فـي تجهيـز الموتى لدفنهم، لاسيما خلال أوقات المجاعات والأوبئة الفتاكة، ففى مثـل هـذه الأوقات كانت شوارع مدينة بيت المقدس تمتلئ أحيانا بالجثث التى تتـرك بـلا دفن لأى سبب من الأسباب. وقد كان السبيل يقوم بتقديم الأكفان لأولئك الذين يتم تغسيلهم ثم تكفينهم ووضعهم في النعوش استعدادا لدفنهم من وقـف الطرحـاء المرصد لهذا السبيل، وبذلك أسهم هذا السبيل في حمل بعض العبء في تجهيز ودفن الموتى الذين لا يستطيع أقاربهم ذلك، أو مات أقاربهم . من ثم تم ترتيـب رجل فى دكان السبيل وأعطيت له الأكفان والقطن والكافور، وكـذلك الأدوات الضرورية والحمالون للقيام بتجهيز الموتى[٢٠] .

كما تنبغى الإشارة إلى أن الانتهاء من بناء هـذا الـسبيل كـان مـن المناسبات السارة التى تم الاحتفال بها، وفى ذلك يقول ابن إياس وهو معاصر :

رسم السلطان"قايتباى" للأمير آقبردى الدوادار، وأبى البقاء بن الجيعان، وجان بلاط، وماماى، ورمضان المهتار، وجماعة من القراء والوعاظ، بأن يتوجهوا إلى القدس، بسبب عمل وليمة لمنشآت السلطان التى أنشأها بالقدس، وقد انتهى العمل منها(٢١) .

كذلك ينبغى أن نشير إلى أن هذا السبيل كغيره من المؤسسات المختلفة خضع لإشراف دقيق من محتسب بيت المقدس لمراعاة النظافة ومحاربة التلوث عن طريق الماء بما كان يصدره من تعليمات كان على العاملين به التقيد بها، كما أصدر تعليماته المشددة لتقنين استخدام مياهه مثله مثل الأسبلة الأخرى وبخاصة الموجودة في ساحة الحرم الشريف، وذلك بالتشديد على طائفة السقائين الذين انتشروا في أسواق القدس ومحلاتها بعدم نقلهم الماء من آبار الأسبلة وصهاريجها إلا في أضيق الحالات(٢٢) .

مواعيد عمل السبيل :

أما عن مواعيد تسبيل المياه في سبيل قايتباى هذا، فهى المواعيد نفسها المعمول بها في كل مدينة خضعت لسلطنة المماليك، وذلك في الأيام العادية طول النهار، وقت الحر الشديد في كل يوم من الظهر إلى العصر . وهو وقت القائظة والحر الشديد . ويختلف الحال بالطبع خلال شهر رمضان المعظم، إذ يبدأ التسبيل فيه من أول وقت الغروب إلى أن يأوى الناس إلى منازلهم بعد صلاة التروايح، ثم من وقت التسبيح إلى صلاة الفجر(٢٣).

أدوات السبيل :

وعن الأدوات التى كانت مستخدمة في السبيل فهى عادة لم تختلف عن أى سبيل آخر، فقد كانت سُلب الليف، أو الكتان، والأدلية الجلد، وآنية الشرب، وإن كان قد تحتم وجود آنية جديدة لا تقدم إلا لكبار المسئولين وعلية القوم،

والمكانس الخوص، والطسوت، والأسطال النحاس، والأباريق، والقلل الفخار، السفنج، والفوط للمسح . وجرت العادة بالاحتفاظ بهذه الأدوات في خزانة خشبية ضيقة بها رفوف خشبية توضع في الدكان الملحق بالسبيل أو في أحد أروقة السبيل(٢٤) .

الأوقاف على السبيل :

الحقيقة أننا لم نعثر فيما بين يدينا من مصادر تقليدية – ونقصد بها مؤلفات المعاصرين – ولا حتى في دفاتر الطابو العثمانية الخاصة بأوقاف وأملاك المسلمين التى تم الإطلاع عليها أو فى سجلات المحكمة الشرعية في القدس على ما يفيد تخصيص السلطان قايتباى لأوقاف بعينها لهذا السبيل، وكل ما لدينا من معلومات هى مستقاة عن المصادر عن أوقاف هذا السلطان على مدرسته فى القدس والجامع فى غزة، سواء في وثيقه المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧ والمؤرخة بالحادى والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة، أو ما جاء في دفاتر تحرير الطابو عن تحديد مواقع تلك الأوقاف وريع بعضها بما يؤكد عدم وجود أوقاف خصصها الواقف للسبيل، وعلى هذا فلابد أن يكون السبيل قد تم الإنفاق عليه من ريع تلك الأوقاف وإلا لما عاش السبيل حتى عصرنا الحالى وطوال فترة تزيد على ألف ومائة وتسع وعشرين سنة .

ومن اللافت للنظر أن الأوقاف التى أوقفها السلطان قايتباى على منشآته تعددت وتنوعت تنوعا واضحا . فقد تم ذكر بعضها في الدفتر رقم ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية"دفتر الطابو" على أنها ٥٥مصدرا، وهي عبارة عن حصص فى ٢٨ قرية تابعة للقدس، أو لغزة، وعسقلان، ويبنى، وبيت جبريل، هذه الحصص منها ما هو قرية بأكملها، ومنها ما هو ١٢ قيراطا أي نصف أرض قرية، ومنها ١٨قيراطا من أرض القرية التى يتم تقسيمها إلى ٢٤

قيراطا، أى ثلاثة أرباعها، ومنها ما هو ١٥ قيراطا من أرض القرية، ومنها ما هو ١٠ قراريط من أرض القرية، ومنها ما هو ٦ قراريط من أرض قرية، أو ٥ قراريط، أو ثلاثة قراريط أو قيراطين ونصف، وقراطين وثلث، وقراطين، وأقلها قيراط ونصف . بالإضافة إلى عدة أفران، ومعاصر، وطواحين لطحن الغلال، وحمامات، ودكاكين منها ١٧ دكانا فى غزة وحدها، وعدد من المزارع، وقطع أرض لإقامة مساكن عليها، إلى جانب غراس كثير من الأراضى الزراعية وبخاصة من الكرم والتين . وقد كتب أمام بعضها ريعها السنوى، أو الضرائب التى كانت تفرض عليها في العصر العثمانى، وكنت أتمنى أن يكون هناك بيانات كاملة عن ريعها بالكامل والمبالغ التى فرضت عليها كضرائب . ومع هذا فواضح أنها كانت تدر ريعا ضخما[٢٥] .

الوظائف الإدارية والفنية :

ومما لا شك فيه أن أوقاف السلطان قايتباى كانت كبيرة مما ساعد على إيجاد مجموعة كبيرة من الوظائف الإدارية فى السبيل وفى غيره من أوقاف السلطان فى القدس وغزة . لإدارة هذه الاوقاف واستخراج ريعها وصرفه فى جهاته طبقا لشرط الواقف . كما أن تعدد الأعيان الموقوفة واتساعها وصيانتها والعمل على دوام عمارتها تطلب مجموعة من الوظائف الفنية . وتشمل مجموعة الوظائف الإدارية عدة وظائف من أهمها :

الناظر : فهو على رأس الوظائف الإدارية، وهو المسئول الأول عن الوقف، وعليه أن يقوم برعايته، والعمل على إنمائه، وحسن استغلاله طبقا لشروط الواقف . وقد بلغ راتبه السنوى ٣٠٠٠درهما، وكان يختص بها أحد كبار العلماء في بيت المقدس وبخاصة قاضى القضاة الشافعى[٢٦].

المباشر : وهو موظف إدارى بالوقف، يتولى وظيفة المباشرة، ويشترط فيه أن يكون من أهل الخير والدين، له معرفة بعمل الحساب ونظمه، وتنظيم الحسابات، ويتولى ضبط ما يتحصل من ربع الأوقاف أصلا وخصما وكتابة

قوائمها . أى ما يتحصل من ريعه، وما يخصم منه، وتم تخصيص راتب شهرى له ما بين ٢٤٠ درهما وخمسمائة درهم شهريا[٢٧].

الكاتب : وكان يشترط فيه أن يكون موصوفا بالخير والديانة والعفة والصيانة، وتجنب الطمع والخيانة، وأن يكون خبيرا بصناعة الحساب غير مهرج ولا كذابا موثوقا في صناعته، يقوم بضبط متحصل الوقف ومصروفه وعمل حسابه، كما عرف أيضا باسم العامل . وتم تخصيص راتب شهرى له ما بين ٢٠٠ و ١٥٠ درهما شهريا[٢٨] .

الشاد : كذلك عرف تحت اسم المشد، وكان يشترط فيه أن يكون ثقة أمينا ومن أهل الخير والدين له همة وقوة عزم ويقظة . وهو بمثابة الملاحظ أو المشرف أو المفتش على القومة وأرباب الوظائف، وعادة ما يكون من عتقاء الواقف، وقد بلغ راتبه ما بين مائتى درهم وسبعين درهما[٢٩] .

المشارف أو المشرف : وهي وظيفة تشبه الشاد أو المشد، وعادة ما يقوم بمراقبة الأمور المالية وحث أرباب الوظائف على العمل ويدفعهم إلى ذلك وعادة ما يكون من عتقاء الواقف، بلغ راتبه الشهرى مائة وخمسين درهما بالإضافة إلى ثلاثة أرطال من الخبز يوميا[٣٠] .

المتولى : الذي يقوم أحيانا مقام الناظر في الإشراف على شئون الوقف، ومن أهم واجباته إعمار الوقف واستثمار فائض أمواله، ومتابعة قضايا الوقف وإعداد الحسابات السنوية[٣١] .

الشاهد : وجاءت هذه الوظيفة بمسميات مختلفة منها المشاهد أو شاهد التفرقة وهى وظيفة رقابية على أحوال الوقف وموظفيه، كما أن منها شاهد المرمات، ومهمته مراقبة الترميم الذي يجريه العمال والمعمار فى بناء السبيل، وكان له راتب نقدى يتقاضاه شهريا إلى جانب عدة أرطال من الخبز فى كل شهر . وفى وقف السلطان قايتباى وجدت وظيفة شاهد

العمارة، ووصل راتبه فى بدايات العصر العثمانى ٢٥٠درهما(٣٢) .

الجابى : وقد يكون في الوقف الواحد إذا كان واسع الانتشار وكما هى الحال فى أوقاف السلطان الأشرف قايتباى أكثر من جاب، وتعتبر وظيفة الجابى من أهم وظائف المهام المالية للوقف، وهو يختص بتحصيل ريع الوقف ومحاصيله وغلاله . وكان يشترط فيه أن يكون من أهل الخير والدين له همة وأمانة، ناهضا حسن السيرة، صدوقا عارفا، له قدرة على استخراج الريع، وألا يترك قسطا إلى أن يستحق قسط آخر، ويُسكن الأعيان الموقوفة أو يخليها، ويتولى قبض الريع وضبطه، ويورد ما يجبيه إلى الصيرفى أولا فأولا إلا إذا كان هو نفسه الصيرفى، وكان يتقاضى راتبا وصل إلى ألف درهم سنويا(٣٣).

السقاء : كان الماء ولا زال عنصرا مهما فى مدينة بيت المقدس، ومن هنا ترد وظيفة السقاية، ومهمة هذا السقاء جلب الماء من إحدى قنوات القدس، إلى صهريج السبيل في أوقات القحط وعدم سقوط الأمطار، وكذلك رفع الماء من الصهريج إلى السبيل، بلغ راتبه الشهرى ١٦٠ درهما أواخر ذلك العصر(٣٤) .

المستوفى : من الوظائف التى وجدت فى كل وقف من الأوقاف طوال العصر المملوكى، وكانت مهمته تدقيق جميع العمليات الحسابية الخاصة بوقف السبيل، وله راتب سنوى بلغ أواخر عصر سلاطين المماليك ألف درهم سنويا(٣٥) .

الصيرفى : وهى وظيفة من الوظائف الهامة فى كل وقف من الأوقاف، تولى صاحبها قبض جميع أموال الوقف من هلال وخراجى ويحفظها تحت يده، ويصرف منها ما يأذن له الناظر فى صرفه، وفى جوامك المستحقين، والعمارة، والجراية والزيت اليومى، وما يحتاج إليه فى كل سنة من التوسعة، وبلغ راتبه الشهرى ١٥٠ درهما(٣٦) .

البرد دار أو البريد دار : وهى وظيفة استحدثها السلطان قايتباى حسبما يذكر ذلك ابن إياس . وكان يتولى الإشراف على بريد الأوقاف الصادر والوارد، وساير ما يحتاج إليه من إخراج الأوراق المالية التى تعطى لمستأجر الأعيان الموقوفة لإثبات قيامهم بسداد ما عليهم من أموال أو غلال أو غير ذلك(٣٧) .

أما الوظائف الفنية في السبيل فيأتى فى مقدمتها:

المزملاتى : وهو الذى يتولى تسبيل الماء وتوزيعه على المترددين على السبيل، وربما تعليق المظلات ومفردها مظلة والتى عرفت فى مصطلح ذلك العصر باسم السحابة، لوقاية من يشرب من السبيل حرارة الشمس، ويتعهد الرخام والدهليز بالكنس والمسح والبخور فى كل وقت، وقد كان مسموحًا له باتخاذ بعض المساعدين من الصبيان لمساعدته . ومن المؤكد أن السلطان قايتباى قد وضع شروطا معينة والتى كانت بمثابة عرف متبع فى كل سبيل لمن يتولى وظيفة المزملاتى، منها أن يكون :"رجل ثقة أمين جميل الهيئة، نظيف الثياب، سليم البدن، والجسد من العاهات، ذى قوة وشطارة ونهضة ومروة، وأن يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسنى، والرفق بيدين أبلغ فى إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة"(٣٨) .

المعمار : وهى وظيفة كان يتولاها المهندس والذى عرف فى وثائق العصر المملوكى باسم المعلم والذى اشترط فيه أن يكون عارفا بالأبنيه، ماهرا فى صناعته، وأن يتفقد أبنية الوقف، ويُحضر ما تحتاج إليه العمارة من مون وبنائين وغير ذلك، ويتعهد الصناع فى العمل، ويحثهم عليه يمنعهم من البطالة، حتى لا تتعطل الأعمال المعمارية التى يقومون بها، وقد بلغ راتبه الشهرى ستون درهما(٣٩) .

شاهد العمارة : وهى من الوظائف المتعلقة بعمارة الأوقاف ومنها أوقاف السلطان قايتباى على مدرسته فى القدس وعلى السبيل، وكان يشترط فيمن

يتولاها أن يكون أمينا، ثقة، عدلا ٠ وكان يتقاضى راتبا شهريًا بلغ في أوائل العصر المملوكي ثلاثين درهما[٤٠] ومن المعقول زيادته تدريجيا ٠

المرخّم : وهي وظيفة كان يعهد بها عادة إلى أشهر المرخمين، واشترط فيه أن يكون عارفا بصناعة الترخيم والتنعيم، قادرًا على الصناعة . وكانت مهمته تفقد الرخام الموجود في السبيل والقبة، وإصلاح ما يحتاج منه إلى إصلاح، ويصرف له في كل شهر ستون درهما[٤١] ٠

كذلك وجدت في الأوقاف والمؤسسات الدينية والاجتماعية الكثير من الوظائف لصغرى التي تخدم أغراضًا مختلفة، مثل السباك، ونجار السواقي، وسواق الساقية، والفراشين، والخدم، والبوابين، وما إلى ذلك من الأعمال التي تحتاج لها المؤسسات المختلفة والتي أنشأها الواقفون ٠ وكما رأينا فقد ساهمت الوظائف الإدارية والفنية في الحفاظ على السبيل موضع الدراسة في أحسن حالاته لفترات طويلة، حتى وصل إلينا بكامل روعته وجماله ٠

والله أسأل أن أكون قد وفقت،،

والله وحده ولي التوفيق،،،،

الهوامش :

(١)العسلي (كامل جميل) : من آثارنا في بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢، ص ٢٤٨ .

(٢) ابن تغري بردي :"جمال الدين أبو المحاسن، ت ٨٧٤هـ" : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبع دار الكتب المصرية، ١٩٣٩-١٩٧٢م، جـ١ ص١٢ .

(٣) عارف باشا العارف : تاريخ القدس، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٥١، ص٣٠١ .

(٤) علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٤٣ .

(٥) المرجع السابق، نفسه، ص٢١-٣٣.

(٦) كتب بذلك لوحة تاريخية بخط النسخ المملوكى نصها"جدد هذا السبيل والمصلى والمحراب العبد الفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر الحرمين أيام مولانا الملك الأشرف برسباى خلد الله مكة بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة اثنين وثلاثين وثمان مائة . راجع عارف العارف : المفصل فى تاريخ القدس، ص٢٠٨ ؛ سعيد عاشور :"بعض أضواء جديدة على مدينة القدس" بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام، أبريل ١٩٨٠، ص٢٧ .

(٧) العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس، ص٢٣٧ .

(٨) المرجع السابق نفسه، ص٢٢١ .

(٩) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية، الطبعة الأولى، بولاق، ١٣٠٥هـ، جـ٦، ص٥٧ .

(١٠) عزب (خالد) : تراث العمارة الإسلامية، دار المعارف بالقاهرة (د.ت)، ص٤٥ ؛ العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس، ص٢٤٨، ٢٤٩ .

(١١) العسلى : المرجع السابق نفسه، ص٢٥٠ .

(١٢) عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة الأمير أخور الكبير قراقجا الحسنى، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد ١٨ ؛ جـ٢ ديسمبر ١٩٥٦، ص٢٠٧-٢٣٤ ؛ سعيد عاشور :"أضواء جديدة على القدس"، ص٢٨-٢٨ ؛ على السيد على : القدس، ص٢٤٢-٢٤٣ .

(١٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة، ١٢٨٣هـ، جـ٢، ص٦٦١ .

(١٤) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٥م، ص٨٩ .

(١٥) القلقشندى"أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ" : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩١٣م، جـ٦، ص١٠٨-١٢٤ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسولهم فى مصر، طبع القاهرة، ١٩٧٠م، جـ١، ص٢٩ ؛ على السيد : القدس، ص٢٦ .

(١٦) على السيد على : القدس، ص٣٢ .

(١٧) العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس، ص٢٥٢-٢٥٣ .

(١٨) المرجع السابق، نفسه، ص٢٥٣ .

(١٩) ابن إياس"محمد بن أحمد الحنفى ت ٩٣٠هـ" : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، القاهرة ١٩٦٠-١٩٧٢م، جـ٣، ص١٨١ ؛ على السيد على : القدس، ص٢١٧ .

(٢٠) آدم صبرة : الفقر والإحسان فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ص١٥٥-١٥٧ .

(٢١) بدائع الزهور، جـ٣، ص٢١٨ .

(٢٢) محمد عدنان البخيت، نوفان رجاء السوارية : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، عمان ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٥٤ .

(٢٣) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، ص١٥١-١٥٢ ؛ على السيد على :"الرعاية الاجتماعية فى مكة المكرمة، عصر سلاطين المماليك" مجلة التاريخ والمستقبل، يناير ١٩٩٦، ص٢٠٣-٢٠٥ ؛ احمد الصاوى : الأسبلة ماء الحضارة، مجلة حورس، أبريل - يونية ١٩٩٥، ص٥٩-٦١ .

(٢٤) محمد محمد أمين : نفسه، ص١٥٣ وما به من مصادر .

(٢٥) محمد عدنان البخيت : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، ص٣٩-٤١ ؛ ٣٤١ ؛ منظمة المؤتمر الإسلامى : أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين، حسب الدفتر ٥٢٢، من دفاتر التحرير العثمانية، تحقيق وتقديم محمد ابشرلى، محمد داود التميمى، استانبول ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٤، ٣٩، ٤٠، ٧٠ .

(٢٦) محمد محمد أمين : المرجع نفسه، ص١٢٢ ؛ العسلى : وثائق الحرم القدسى الشريف، عمان، ١٩٨٣م، المجلد الأول، ص١-٣٠ ؛ محمد عدنان البخيت : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، ص٣٤٦ .

(٢٧) محمد محمد أمين : الأوقاف، ص٣٠٤ ؛ محمد عدنان البخيت : المرجع السابق، ص١٢٧ .

(٢٨) محمد محمد أمين : نفسه، ص٣٠٥-٣٠٦ .

(٢٩) المرجع السابق، نفسه، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٣٠) المرجع نفسه، ص٣٠٩-٣١٠ .

(٣١) محمد عدنان البخيت : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، ص١٢٥-١٢٦ .

(٣٢) المرجع السابق، نفسه، ص٢٧ ؛ وفي دفتر ٤٢٧، ص١٢٧ .

(٣٣) محمد محمد أمين : الأوقاف، ص٣١٠-١، ٣١١ ؛ محمد عدنان البخيت : المرجع السابق، ص١١٩، ١٢٧ .

(٣٤) محمد عدنان البخيت : المرجع السابق نفسه، ص١٢٨ - ١٢٩ .

(٣٥) المرجع السابق، نفسه، ص٣٢٠ .

(٣٦) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص٣١٢ .

(٣٧) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٩ ؛ محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص٣١٦ .

(٣٨) محمد محمد أمين : المرجع نفسه، ص٣١٧ .

(٣٩) المرجع السابق نفسه، ص٣١٧ .

(٤٠) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية، تحقيق ٦٨٨ ؛ المرجع نفسه، ص٣١٨-٣١٩.

(٤١) محمد محمد أمين : الأوقاف، ٣١٩، ٣٢٠ .

مصر بعيون تركية

قراءة فى سياحتنامة مصر لـ"أوليا چلبى"

ناصر أحمد إبراهيم(*)

يعد أوليا چلبى من أشهر الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر فى القرن السابع عشر، قضى فى سياحاته أربعة وأربعين عامًا زار خلالها ثلاثًا وعشرين بلدا(١) فى كل من من أوربا وآسيا وإفريقيا. كان محبًا للرحلة والمغامرة وارتياد الآفاق. عقد العزم على السياحة فى بلاد السلطان؛ إيمانًا منه بأن العالم العثمانى الإمبراطورى الكبير جدير بالسياحة والاكتشاف: اكتشاف الذات والتعرف إلى الآخر، المندرج تحت مظلة السلطنة العثمانية التى مثلت – فى زمانه – دولة عالمية عظمى، مُهابة الجانب، تحكم مساحات جد واسعة، وشعوبا وإثنيات متعددة، ذات ثقافات ولغات وملل ونحل وعقائد ومذاهب جد متباينة، تنضوى جميعها تحت لواء الدولة / المركز، التى ما زالت، حتى ذلك الحين، تخوض حروبًا على حدودها، آخذة فى التوسع، بدرجة أو بأخرى، ويخشاها الجميع.

وفى هذا السياق كانت نظرة النخبة المثقفة فى استانبول إلى الدولة العثمانية ككيان إمبراطورى، وكقوة يُخشى شوكتها(٢)، تمثل حقيقة واقعية وجلية؛ حيث لم يكن الصعود الأوروبى قد بدأ بعد، بتحدياته الإمبريالية التى ستفعل بعد ذلك فعلها فى تفتيت هذا الكيان، ووضع مخططات محكمة للإجهاز عليه، فيما عُرِف اصطلاحًا"بالمسألة الشرقية" فى القرن التاسع عشر. وإذاً السياق الزمنى للفترة التى عاصرها أوليا چلبى، وموقع الدولة العثمانية على خريطة القوى الدولية فى زمانه، إنما يُشكلان خلفية أساسية لفهم نظرة هذا الرحالة وأمثاله من المثقفين الأتراك المعاصرين، إلى مبلغ ما كانت عليه دولتهم من قوة ضاربة

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد ـ كلية الآداب – جامعة القاهرة.

واسعة النفوذ، وإلى أى مدى كانت أفكاره ونظرته للأمور وتحليلاته وتقييماته تُجسد نظرية الدولة العثمانية نفسها، وأفكارها فى الحكم والسياسة، وكذا الحال بالنسبة لنظرته إلى المجتمعات المنضوية تحت مظلة السلطنة العثمانية، وطبيعة الأسس المعيارية التى استند إليها فى تقييماته للعلاقة التى ربطتها بالمركز فى استانبول، وبصفة خاصة بالنسبة لحالة مصر التى كانت لها خصوصية فريدة بين مجموع تلك الولايات.

والمعروف أن أوليا چلبى كان قد انتهى من تسجيل رحلاته فى مطلع ثمانينيات القرن السابع عشر، والتى توفى بعدها بسنوات قليلة؛ ويعنى هذا أن الرجل عاش على مدار حياته (١٦١١-١٦٨٤) والدولة ما تزال فى عنفوان قوتها، وخاصة خلال الخمسة والعشرين سنة الأخيرة من عمره، التى عاصر خلالها فترة أسرة كوبريللى(٥٦-١٦٨٣) التى وصلت إلى الصدارة العظمى، وأعادت القوات العثمانية إلى مستوى من الكفاءة قريب مما كانت عليه فى القرن السادس عشر(٣)

إن الربط بين عامى ١٦٨٣ و١٦٨٤ يعطينا دلالة ذات مغزى فى هذا الصدد: ففى عام ١٦٨٣ تتلقى القوات العثمانية أول هزيمة ساحقة أمام أسوار فيينا، والتى بعدها تتبنى الدولة، لأول مرة، استراتيجية الدفاع عن حدودها، وتنتهى وللأبد صفحة الحروب التوسعية العثمانية تمامًا، فيما يشهد عام ١٦٨٤ وفاة أوليا چلبى نفسه؛ ومن ثم فالدلالة الأساسية لهذين الحدثين أن كتاب"سياحتنامة" كان قد تم إنجازه قبل أن تتقلب بالدولة العثمانية الأحوال، وتتغير معها صورتها فى عيون أبنائها،لا سيما نخبة مثقفيها الأكثر دراية ومتابعة لمنحنى قوة دولتهم، الذى بات متراجعًا، وعلى مدار الأجيال التى أعقبت جيل أوليا چلبى، منذ الربع الأخير من القرن السابع عشر وحتى سقوط الإمبراطورية ونهايتها فى عشرينيات القرن الماضى.

وعلى ذلك يتعين ألا يغيب عن تصورنا السياق الزمنى الذى كُتِب فيه رحلته"سياحتنامة مصر"[٤] التى تمت بين عامى(١٦٧٢-١٦٨٠)، وعلاقته بالأفكار السائدة بين المثقفين العثمانيين أمثال أوليا چلبى، ومدى رؤيتهم للعالم المحيط بهم والتابع لهم، ونتاج التأثر بثقافة الفاتح الحاكم/ والسيد، التى عادة ما تُتخذ كمعيار لوصف الأشياء، والحكم على السلوكيات، بما فيها من معتقدات وتقاليد وعادات، وتعظيم الذات فى مقابل تجريد أو التقليل من قيمة الرصيد الحضارى والفكرى للآخر التابع، وهو ما يُنتج فى النهاية نظرة خاصة أكثر تحيزًا، تدور فى إطار ما يُعرف بإيثار ثقافة"الذات" على ثقافة الآخر[٥]. وتحاول هذه الورقة دراسة هذا الجانب الإشكالى، وكشف درجة تأثيره على عناصر كتابة"تقرير الرحلة"، وتحديدًا فى كتاب سياحتنامة مصر.

وتعد كتابات أوليا چلبى من أبرز ما كتب فى مجال أدب الرحلات العثمانى، بيد أنها، على ما حظيت به من شهرة واسعة، لم تُدرس بدرجة تتناسب مع قيمة موسوعية الرحلة وحجمها الضخم (الواقع فى عشر مجلدات) وما تثيره من إشكالات عديدة. وتكاد تكون دراسة"روبرت دانكوف" من أحدث وأهم الدراسات التى حاولت الاقتراب من العالم الفكرى والثقافى لأوليا چلبى، وتحليل أفكاره وتصوراته عن العالم العثمانى وغير العثمانى الذى جال فى جنباته، قرابة الأربعين عامًا، واعتباره نموذجًا جيدًا لمثقف عثمانى له طابع خاص، تقدم كتاباته إطلالة على نوعية الثقافة ونمط الحياة الفكرية والاجتماعية السائدة فى الدولة العثمانية فى القرن السابع عشر[٦].

والواقع أن كتاب سياحتنامة لا يزال فى حاجة إلى تضافر جهود العديد من المؤرخين والمتخصصين فى دراسة هذا المصدر الأدبى الهام، ومقارنته بغيره من المصادر الأدبية الأخرى التى تعود إلى ذات الفترة؛ سعيًا إلى وضع تقييم موضوعى وعلمى لموسوعة رحلاته كمصدر للتاريخ الثقافى والاجتماعى، والتعامل مع الإشكالات العديدة التى تثيرها معلوماته: فما زالت إشكالات انتاج

النص الرحلى فى كتابات أوليا چلبى، وحدود الواقعى والمتخيل فى أدب رحلته، وتحليل الفضاء المعرفى والفكرى الذى تبلورت فيه قناعاته ومبادئه واعتقاداته وآراؤه الصوفية، ومدى تأثير كل ذلك ليس على أفكاره وتصوراته للعالم المادى المحيط به فحسب، وإنما كذلك تأثيرها فى تشكيل نظرته للناس ولهويتهم وطبيعة انتماءاتهم وتراثهم الثقافى والاجتماعى... وغيرها من القضايا الإشكالية التى ما زالت بعيدة عن التناول الجاد الذى يستند إلى منهجية نقدية تستخدم أدوات معرفية جديدة تساعد على استنطاق الأفكار المحورية، وتحليل بنية الخطاب، وطبيعة الأهداف التى كُتِب من أجلها وما كان يرمى إليه فى النهاية.

ويحاول هذا المقال المساهمة فى اتجاه تحليل بعض الأفكار المحورية التى حكمت صياغة مجلده العاشر، الذى جاء تحت عنوان:" سياحتنامة مصر"، وبالتحديد سوف نتناول تحليل المرتكزات الأساسية التى استند إليها فى بلورة صورة مصر والمجتمع المصرى بتركيبته الاجتماعية والثقافية خلال الفترة التى تعود إلى سبعينيات القرن السابع عشر، وسؤالنا الإشكالى ذو شقين، الأول يتلخص فيما إذا كانت صورة مصر والمصريين تبدو متجانسة أم متباينة ومتميزة، بدرجة يمكن معها المفارقة بين مستويات عدة للصورة التى ارتسمها فى الرحلة؟ والشق الثانى يتصل بتحليل حدود الرؤية المقدمة عن مصر فى هذا العمل: هل ما قدمه، كمثقف عثمانى، منتم إلى جهاز السلطة العثمانية، التى كلفته بكتابة تقرير واف عن هذا البلد، كان عاكسًا للمنظور التركى العثمانى للولايات العربية ككل، ومصر بصفة خاصة، أم أن ما قدمه كان أقرب لرؤية فردية خاصة جدا، لم تتجاوز حدود التجربة الذاتية فى حكمها على الأشياء والثقافات والأجناس...إلخ. بعبارة أخرى هل نص سياحتنامة مصر يعبر عن رؤية عثمانية رسمية أم رؤية مثقف عثمانى له أفكار وتصورات خاصة للعالم المنتمى إلى دائرة الدولة العثمانية. وأخيرًا إلى أى مدى يمكننا التوقف عند أبعاد النظرة العثمانية إلى ذاتها ومفهومها لهويتها، وتحليل دلالة هذه النظرة فى فهم الآخر

(المصرى) والحكم عليه ، وذلك باعتبار أن النظرة إلى الذات هى، فى نهاية الأمر، جزء من مكونات الصورة الكبيرة التى تقدمها الرحلة عن مصر؟

ويخرج عن نطاق هذه الدراسة ما يتعلق بنظرة المصريين أو"أولاد العرب" لهويتهم ومدى إدراكهم للتباين الثقافى مع الآخر التركى العثمانى، ولحدود التفاعل معه، ورفض الإندماج فيه أو قبوله؛ فقد عُولِجَت مثل هذه القضايا فى دراسات سابقة(٧)، ولو أنها لم تول اهتمامها بالقدر نفسه بدراسة المنظور التركى لذات القضايا؛ ومن هنا فإن دراسة هذا الجانب فى الأدبيات التركية يمكن معه أن تكتمل رؤية الجانبين لبعضهما البعض، ومن شأن ذلك أن يساعدنا على وضع أيدينا على نقاط التلاقى والتقاطع فى منظور كل منهما للآخر. والورقة إذاً معنية فى الأساس بدراسة المنظور التركى العثمانى للرعية المصريين فى القرن السابع عشر، من خلال كتاب سياحتنامة مصر، وتحليل درجة الوعى بالاختلاف الثقافى، وربما الإثنى، من خلال تحديد مفهوم أوليا چلبى لما هو"فرعونى/ مصرى/ عربى"، وفهم دلالته الثقافية والاجتماعية خلال فترة ما قبل بزوغ مفهومى"القومية/ والمواطنة" فى القرن التاسع عشر.

وتجدر الإشارة إلى أننا سوف نعتمد بصورة أساسية على ايراد الكثير من الاستشهادات المقتبسة من كتاب"سياحتنامة مصر"، وتحليلها فى إطار يجعل صاحبها يعبر عن أفكاره وآراءه وتصوراته بصوته ومفردات كلماته. آملين أن يساعد ذلك على توضيح جوانب من الطريقة التى كان يُفكر بها أوليا چلبى، وفهم الأسس التى استند إليها فى أحكامه على الناس والأشياء، وما يتعلق بتقييمه لطبيعة الدور الذى تمثله ولاية مهمة بحجم ولاية مصر بالنسبة للمركز العثمانى فى القرن السابع عشر.

مصر : سحر المكان والمكانة

إذا كان أوليا چلبى قد أفصح عن أن رحلته إلى مصر كانت فى إطار مهمة رسمية تتعلق بجمع المعلومات المتعلقة بالنظام المالى وما تدره ولاية مصر من عائدات ضخمة، ومعرفة مصارفها وما يتعين إرساله للخزينة السلطانية[٨]، إلا أن القارىء للكتاب سيلحظ أن موهبته فى فن المعاينة ونزعته الاستقصائية، وقدرته التسجيلية الهائلة، وشغفه برصد التفاصيل الصغيرة والكبيرة عن كل ما كان يمر به أو يُطالعه أو يتعرف إليه، قد جعله يتمرد على حدود المهمة الرسمية، ويتطلع إلى إغناء تقريره بكل المعلومات التى رصدها في مختلف المجالات، من التاريخ الاجتماعى والاقتصادى إلى التوصيف الجغرافى والثقافة الشعبية(الفولكلور) وسوسيولوجية المعرفة والإدارة العامة والدراسات السكانية والأنثروبولوجية...إلخ، مستغلا كل ما اتيح له الاطلاع عليه فى سجلات الولاية التى دعمته بإحصائيات وبيانات[٩]، أحسن توظيفها بقدر ما أثرى بها عمله.

بيد أنه يعترف بأن تلك المعلومات الثرية ليست هى السبب فى إفراده كتابًا كبيرًا خاصًا بهذه الولاية وحدها، وإنما هى حالة مصر نفسها التى فرضت نفسها، والتى تستحق ــ فى تقديره ــ الاكتشاف وإمعان النظر وإطلاق النزعة الفضولية فى التعرف إليها واكتناه حقيقتها، فهو يقول:"إن مصر بلد عجيب غريب الأحوال والاطوار جدير بالمعرفة والاطلاع"[١٠]، وهو إلى جانب ذلك يقرر بأن ما سيقدمه عنها إنما هو من قبيل"المختصر المفيد"[١١]؛ لأن رصد كل جانب منها يحتاج إلى كتابة مجلدات عديدة؛ ولذلك راح يؤكد، فى غير موضع[١٢]، عجز قلمه عن الوفاء برسم لوحة تفصيلية للواقع الذى عاينه فى هذا البلد، فكتب يقول:"تعجز القلوب عن الوقوف على أحوال مصر، كما أن أطوارها وعاداتها وقوانينها بعيدة عن التعبير باللسان والتحرير بالقلم. وأما أنا الفقير كثير التقصير قليل البضاعة كثير السياحة فقد حركت قلمى العاجز على قدر الطاقة فوصفتها بلا حياء وصفا كأنه قطرة فى بحر أو ذرة فى الشمس"[١٣]. وإذاً فإن سحر المكان، بكل ما يحتويه من سياقات اجتماعية ومعرفية وتاريخية، هو الذى

أخذ بلبه وتملكه، وجعله مولعًا بها إلى حد وصف نفسه بأنه صار من"المجاذيب العشاق لها"(١٤).

إن التحليل المقطعى للفقرات بل وللمفردات الواردة، بطول المجلد، فيما يتعلق بوصفه لمصر ككيان، يشى بحالة من الإنبهار والدهشة اللتين أصابتاه، إلى حد اعتقد معه، بأن مصر ليست من صناعة البشر، وإنما هى صنيعة الإله الذى أراد أن يجمع بها كل آيات الإعجاز والعجائب(١٥)! ويَعد قارئه بأنه سيتلمس معه، طوال الوقت، الشواهد والأمثلة الدالة على هذه الحال من التفرد، وأنه بموضوعيته وتحريه أمانة النقل والتسجيل سوف يرسم لوحة واقعية عن هذا البلد؛ لأنه ليس له من مطمع فى حطام الدنيا ــ على حد قوله ــ حتى يُغاير حقيقة ما شاهده وعاينه بنفسه(١٦). وبعبارة موجزة، كان هدفه المعلن العمل على تقديم"حقائق الترحال الواقعية".

إنه معنىٌ فحسب – كما يبدو من إشاراته المتعددة بطول المجلد – بتقديم مصر من خلال ما يُعرف اصطلاحا"بخطاب الحقيقة"، الذى يتحرى الالتزام بتنقية النص الكتابى من أية توجهات ايديولوجية، سعيًا إلى جعل الحقيقة تنطلق من عقالها بوضوح ونقاء، بعيدًا عن أية نوازع / ميول أو انطباعات متحيزة، كما إنه يُذكر قارئه بأنه يتحرى الدقة فى الشواهد والروايات المختلفة برجوعه إلى مئات الكتب المعتبرة من"المجاميع والدواوين والرسائل والمصادر التاريخية(١٧) لتدعيم تقرير رحلته بمادة تاريخية أصيلة؛ قصد بها إضفاء درجة كبيرة من المصداقية على تقريره الرحلى الضخم.

وبداهةً كان هذا هو الأقرب إلى ما كان يتمناه، لكنه خلال تجربة الكتابة سوف يتكشف للقارىء أنه حَمَّل النص بوجهات نظره ونوازعه نحو تبجيل كل ما هو عثمانى/ تركى، وفى المقابل صاغ فى كثير من الأحيان آراءه وتفسيراته من خلال منظور الأنا (التى تشغل موقع السيد الأعلى) والآخر(رعايا السلطنة

التابعين الأقل رتبة وعرقا وسلوكا). وفضلا عن ذلك هناك تداخل فى انتاج النص عنده من واقع اعتقاداته فى علم التنجيم أوالتفسير المستند إلى حركة الكواكب(١٨)، وبعض معتقداته فى جماعات الصوفية والدراويش(١٩)، وقناعاته بالطلسمات المُفعَمة بالمعتقدات الشعبية الباحثة عن تفسير لنشأة الظواهر وعلة الأشياء(٢٠) وولعه وتماهيه فى سرد حكايات الكرامات والغرائب والقصص الخرافية والخيال الشعبى؛ واختلاط مروياته بالمأثورات والموروثات الثقافية الشائعة فى عصره...إلخ ، كل ذلك وغيره مما شاب جانبًا من سرديات رحلته بمسحة أسطورية / خيالية، تتفق مع قناعاته ومقومات ثقافته الشعبية التى صاغت كثيرًا من أفكاره وتحليلاته. على أن قدرته فى التعبير عن أفكاره وآرائه ومعتقداته تجسد، فى نهاية الأمر، حقيقة نظرته هو إلى الأشياء، بما يكشف عن طبيعة ونوعية الثقافة التى آمن بها، إلى جانب ما تفيض به الرحلة من مواقف فكرية واجتماعية قِبل الظواهر التى استوقفته أو أدهشته ورأى ضرورة تسجيلها فى ذاكرة أدب الرحلة.

وعلى أية حال، تظل للرحلة قيمتها التاريخية، بما حوته من حقائق ومعلومات وبيانات إحصائية غزيرة، رصدها – كما ذكرنا آنفًا – من واقع ما جاء بالسجلات الرسمية التى سُمِحَ له بالاطلاع عليها واستخدامها فى كتابة تقريره. يُضاف إلى ذلك أن الكثير من هذه المعلومات لم تحتفظ الذاكرة التاريخية بمصادر أخرى مماثلة، سواء من حيث نوعية المعلومات والرصد المجهرى للواقع المادى والثقافى والاجتماعى بتفاصيله الدقيقة، أو من حيث القيمة التاريخية لها؛ حيث يندر وجود كتابات مصدرية أو روايات أدبية موازية فى الفترة نفسها التى تعود إلى الربع الأخير من القرن السابع عشر.

وبعيدًا عن الخوض فى مسألة اختلاط حقائق الرحلة بالجانب الذاتى والخيالى أحيانًا، وهى ظاهرة متكررة فى أدب الرحلات عمومًا، فإن ما يعنينا

هنا يتركز حول معالجة مسألة انبهار صاحب الرحلة بمصر، محاولين التعرف إلى العوامل التى فجرت عنده هذه الحالة من الولع بالمكان، وقراءة دلالات ذلك بالنسبة للمنظور العثمانى لرعايا السلطنة ولصورة مصر المستقرة فى الذهنية العثمانية.

وفى الحقيقة إن قراءة النص، تجعلنا نتوقف عند ثلاثة عوامل وراء حالة انبهاره، يأتى فى مقدمتها: القوة المادية الممثلة فى حالة الثراء التى كان عليها الاقتصاد المصرى آنذاك، وثانيها المكانة الدينية المتميزة وإسهامات العلماء الجادة فى المجال الفقهى والدينى والمعرفى، وثالثًا وأخيرًا عظمة التراث الحضارى والتاريخى الممتد. وفيما يتعلق بالعامل الأول، نجده يتلمسه فى حالة الثراء غير العادى، الذى يعكسه بجلاء مجمل ما تدره من ايرادات ومنافع للسلطنة وللأراضى المقدسة والولايات المحيطة بها: فهى تُدّر، من واقع سجلات المالية التى أُذِن له بمطالعتها"٧١ خزينة ، وكل خزينة ١٢٠٠ كيس مصرى(*)"، ويقطع بأن هذه المبالغ لا يمكن أن تُحصل من أى ولاية تابعة للسلطنة فى زمانه، بل ويجزم بأن ليس ثمة ملك على ظهر الأرض بإمكانه أن يتحصل هذا المبلغ من المال!" ومن هنا كان تسابق وتكالب الحكام على تولى زمامها، وإصابتهم"بالحسرة"(٢١) إن خالفهم الحظ فى تحقيق ذلك. إن هذا الجانب يبرز قيمة ما تمثله مصر كولاية ثرية يفيد منها جماعة السلطة الذين يتناوبون على سدة حكمها.

بيد أن الصورة المقابلة لذلك والسائدة على مستوى العامة، تتجلى وتزداد وضوحًا عند الاقتراب من تفسيره للاصطلاح الشهير الذى اقترن باسم مصر، والمعنى به"مصر أم الدنيا" الذى استخدمه عشرات المرات فى تسجيل

(*)الكيس المصرى يعادل 25000 بارة، والمبلغ على هذا النحو يعادل بحساب البارة 2,130,000,000 مليار بارة!.

رحلته، للإشارة إلى قدرة هذا البلد على تغطية احتياجات العاصمة المركزية والولايات المحيطة بمصر من الحبوب:" فمصر هي مطبخ أرزاق العالم ومنبع معايش بني آدم مدى الدهور والأزمان" ، وهو يشير إلى أن الله قد خلقها من أجل أداء هذه الوظيفة؛ لأنها وحدها القادرة على أن تمد الدنيا بالأغذية[٢٢]، وهي وحدها القادرة على أن تصلح الخراب الذي يحل بجنبات العالم[٢٣]! على حين لا يستطيع أحد إمدادها بالحبوب إن أصابها"لا سمح الله" قحط أو غلاء[٢٤]، ومن هنا جاء تشبيهه لها"بالأم الرءوم"[٢٥]؛ أي العطوف، التي تتفانى في العطاء حتى في أصعب الفترات الحالكة التي تمر بها، إنها تعطي دائمًا ولا تنتظر من يُغيثها[٢٦]، وبهذا المفهوم اعتبر"كل الأقاليم السبعة من الدنيا عالةً على مصر، وأنها لأجل ذلك سُميت بحق أم الدنيا"[٢٧]. إن ثراءها الواسع يجعلها تفيض دائمًا بخيراتها الجزيلة، ويطيب له وصفها بأنها"مظهر لإسمي يا غني يا مغني"[٢٨].

بيد أن هذه القوة المادية ما كان لها أن تبرز لولا كثافة السواعد العاملة الفنية والماهرة في كل فن وعلم وحرفة[٢٩]، وخصوصًا في مجال الزراعة التي تمثل النشاط الغالب والمتقدم على كل الحرف والمهن، والتي يعمل في إطارها" قوم لا حصر لهم ولا عد"[٣٠]، إن عامل الكثافة السكانية المرتفعة يكتسب حضورًا خاصًا في هذه الرحلة، وهو باعث على الدهشة كذلك، خاصة إذا ما قُورِنت مصر بغيرها من الولايات العثمانية في ذلك الحين: فمصر – عنده –"هي بحر الخلائق، وخزينة الناس، ومنبع الجماعات ... ولا يوجد بلد فيه إناس كثيرون يموجون كأمواج البحر المتلاطم وأراضيه في الخصوبة والبركة والخيرات مثلها، فليس لها نظير لا في البلاد الخاضعة لآل عثمان ولا في غيرها من البلاد الخاضعة لسائر الملوك"[٣١]. وهذه القوة البشرية قوة انتاجية وليست استهلاكية، لأنها لا تنال من عائد كد يدها سوى القليل، تعمل بدأب وتتحمل المشاق ومعاناة الأهوال، وتحقق الرغد والرخاء للآخرين[٣٢]. وعلى ذلك فالمال الوفير والقوى الإنتاجية الكثيفة عنصران أساسيان في بلورة القوة المادية لولاية مصر.

والعامل الثانى الذى يُفسر حالة انبهار أوليا چلبى بمصر يتمثل فى إشادته بمكانتها الدينية، والتى يدلل عليها بورود ذكرها غير مرة فى القرآن الكريم؛ حيث كانت موئلاً للأنبياء والرسل(٣٣)، وهى صاحبة الفضل فى الإحياء الرمزى للخلافة (العباسية)، وهى التى استوعبت الذرية الباقية من العباسيين حتى انتقال الريادة لآل عثمان. ومصر هى البلد الذى يرعى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة، ويرسل سنويًا، ودون ما انقطاع، المخصصات العينية والنقدية التى تفيض بالخير الوفير على هذه الأراضى وأهلها.

وفكرة الكم تتداخل دومًا مع الإشادة بروعة المكان وهيئته ومؤسساته الدينية التى تنم عن روعة البناء والهندسة والفن المعمارى الأصيل الذى يندر – بحسب رأيه – أن تجد نظيره فى العالم الإسلامى:"ففى مصر ١٥٦ جامعًا، بناها السلف من السلاطين، ولم يخلف ملوك وسلاطين بلاد الروم والعرب والعجم، بل بلاد المسلمين قاطبة جوامع عظيمة بهذا القدر، فكل جامع منها أشبه بجنة" وهو ما حدا به إلى أن يُفرد للكتابة عنها وعن المساجد والتكايا مساحة كبيرة من رحلته(٣٤).

وبقدر المكانة الدينية بقدر قوة الإسهام المعرفى والفقهى عند علماء المصريين الذين يقطع بأن لا نظير لهم فى الكون الذى جاب جنباته:" فهم فى غاية الذكاء والألمعية"، ولهم مساهمات جادة متميزة فى مجال الفقه والإفتاء، وأيضًا يُبدى دهشته من كثرة عددهم:"ففى مصر عشرون ألف عالم يتصدرون للإفتاء، ويخترعون مسائل غريبة وعويصة وقضايا عجيبة يتفننون فى معالجتها"(٣٥)، والمصريون بطبيعة توجههم الدينى يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويجيدون تلاوته، وبقدر ما يشيد بقوة نباهة الأطفال فى حفظ القرآن وانتشارهم فى كل مكان، بقدر ما يُدهشه كذلك بلوغ عددهم ٥٧ ألف حافظًا للقرآن فى مدينة القاهرة وحدها! (٣٦).

أما العامل الثالث والأخير وراء انبهاره فيتمثل فى إجلاله لعظمة التراث الحضارى والتاريخى الممتد فى ربوع مصر: فهو يسجل للوهلة الأولى عند دخوله إليها افتتانه بحضارتها ومجدها القديم؛ إذ كتب يقول:"دخل العبد الفقير مصر وأمعنت النظر فى داخلها وخارجها فملكتنى الحيرة ووضعت إصبع الدهشة على شفتى، لأن ما فى مصر من أبنية الآثار العجيبة لا يوجد فى غيرها، فمن أنشأ مطلمساتها وأقام مبانيها العلية ؟ ... إن مصر بحق تصدق على اسمائها ومجدها فى الزمن القديم ، وتنطبق على ما شاع عنها فى الأساطير، وقد امتلأت الدنيا بأبنيتها الأثرية"(٣٧).

ولا شك أن الإعجاب بماضى مصر الفرعونية ورصيدها الحضارى، يشكل مكونًا خاصًا داخل الصورة التى سعى إلى بلورتها عن مصر. والطقوس المتعددة التى كانت تصاحب جميع الممارسات والأنشطة الإنتاجية والحرفية والفكرية والاحتفالات العامة الرسمية وغير الرسمية التى رصد تفاصيلها بدقة، يجرى التركيز عليها وإبرازها كسمة شديدة الخصوصية داخل هذا الإقليم. والجانب الحضارى يتداخل هو أيضًا مع الجانب التاريخى المتميز لبلد كان مركزًا دينيًا وسياسيًا وقاعدة لبناء الامبراطوريات:"فكما كانت مصر موئلا للأنبياء والرسل كانت مركزا للملوك والسلاطين العظام"، ومن ثم فهى فى نهاية الأمر ولاية غير عادية:"ليس لها نظير لا فى البلاد الخاضعة لآل عثمان ولا فى غيرها من البلاد الخاضعة لسائر الملوك"(٣٨).

وهكذا تؤدى القراءة التحليلية لصورة مصر، كما سجلها أوليا چلبى، إلى وضعها فى إطار خاص بها، يجعلها تتبوأ مكانة خاصة بين الولايات العربية المنضوية تحت مظلة الحكم العثمانى. بيد أن هذا المنظور الخاص يظل مرتبطًا بالمكان وما يشتمل عليه من إمكانات مادية، وليس متضمنًا تقييمه للمصريين أنفسهم، واسهاماتهم المختلفة فى جميع المجالات. وباستثناء إعجابه وإشادته

بتفوق المصريين فى مجال الثقافة الدينية (الفقه وحفظ القرآن وعلوم الشريعة)، كانت له قراءة نقدية مختلفة تماما فى تحليل طبيعة المجتمع المصرى وكشف خصائصه وتقييم دوره الوظيفى فى المنظومة العثمانية ككل.

رؤيته النقدية فى تحليل طبيعة المجتمع المصرى

لعل براعة أوليا چلبى تتلخص فى أنه استطاع، من خلال تجربته فى الاختلاط بالمصريين، ومراقبته لهم عن كثب، وبقائه بين ظهرانيهم مدة طويلة نسبيًا(بين عامى١٦٧٢- ١٦٨٠) - استطاع التمييز بين حالة إعجابه وولعه بالمكان وبين تحليله للمكون الأخلاقى والثقافى والاجتماعى لقاطنى المكان. فقد كانت له نظرة نقدية للمجتمع: فهو يرى أن المصريين قوم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم؛ جراء تسلط العسكر على مقدراتهم، وهو يدعم تحليله بمقولة قديمة لكعب الأحبار:" خلق الله الغنى بمصر فقال الذل وأنا معك" مؤكدًا بأن هذا القول المأثور ما يزال صحيحًا لأن أهل مصر على الرغم من غنى بلادهم" أكثرهم أذلاء فقراء جهلاء .. ضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة، وأحاط بهم الفقر والعوز من كل الجوانب وجميع الوجوه". ويعزى السبب إلى تجبر العسكر الطغاة، (وهو هنا لا ينتقد العثمانلية،عسكر السلطان، وإنما ينتقد جند بكوات المماليك الذين باتت سيطرتهم على البلاد واضحة منذ ذلك الحين)؛ فهم يستولون على كل الحاصلات والمنتوجات، ولا يتركون للفلاحين سوى ما يقيم أودهم. وهو يصف المصريين طوال الوقت بـــ"المساكين" الذين بعملهم الدائب قادرون دائمًا على جعل مصر فى بحبوحة من الخير ورغد العيش، إلا أنهم لا يهنئون بهذا الخير الوفير، كما أنهم لا ينالون ثمرة كدهم إلا بشق الأنفس(٣٩).

بيد أن ذلك لا يعنى تعاطفه مع المصريين أو تبنيه قضيتهم إزاء ما كان يلحق بهم على أيدي فئات العسكر، فليس هذا هدفه على الإطلاق؛ لأنه فى مواضع كثيرة يتبنى وجهة نظر السلطة، ويعتبر الفلاحين المصريين أداة لجنى

الأموال وزراعة الحبوب؛ لأن طبيعتهم التى جُبِلوا عليها أنهم:"أهل الكد والعمل الشاق مثلهم كمثل"فرهاد" فى تحمل المشاق ومعاناة الأهوال فى سبيل إسعاد الغير"(٤٠). وعبر فصول الرحلة وأبوابها المختلفة يحرص على تقديم نصحه للوزراء العثمانيين بأن عليهم أن يتنبهوا ويحذروا مكر الفلاحين" لأن مكر مصر مكر عظيم"(٤١)، واللافت للنظر أنه يصوغ فكرته في ضوء مفهوم الحتمية الجغرافية؛ إذ يقول:"بما أن مصر بلد فرعون فحكم مائها وجوّها جبار متكبر، وحتى أوقاتها السهلة لا تخلو من الكدر"(٤٢) ويعيد صياغة المعادلة نفسها، وعلى نحو أكثر مقاربة مع العثمانيين بتأكيده، فى موضع آخر، على"أن من شرب من النيل ثلاثة أعوام انقلب جبارا عديم الشفقة ولو كان تركيًا"(٤٣)؛ بل وحتى الخيول"الشاربة من ماء النيل شرسة بطرة"؛ أى متمردة غير مطواعة"ترفض السير إلى بلاد أخرى!"(٤٤).

وفى ضوء ذلك يكتسب المصريون – من منظور أوليا چلبى – صفتى التجبر والغلظة، الناجمتين عن سببين حتميين: السلالة الفرعونية والشرب من نهر النيل. وكان هذا تحديدًا ما دفعه إلى تنبيه الولاة العثمانيين، أن يدركوا بأن"المصريين جبابرة .. منحدرون من نسل الفراعنة(٤٥).. ليسوا أهل مسكنة، ولا يُحكمون إلا بالقوة والجبروت"(٤٦)؛ ولذا يجب على الوزير العثمانى"أن يكون ذا مكانة ومجد وشوكة وثراء وسطوة، صادق القول، صاحب وقار بينهم"(٤٧).

إن مسألة استخدام القوة والتسلط بحزم على المجتمع المصرى عبر ممارسة شكل من أشكال السلطة المركزية القوية، تتحول – من وجهة نظره – إلى ضرورة، تفرضها حالة الثراء غير العادى التى كان عليها هذا البلد من ناحية، وشدة مراس أهله (الفراعنة)، وصعوبة السيطرة عليهم من ناحية أخرى. وتصير عملية تطويع المصريين فى مجالى الإنتاج والخضوع والإنصياع للسلطة، فى حاجة إلى حكام أشداء يتحكمون فى توجيه المجتمع فى خدمة مصالحهم. وهو يدعم نظريته من خلال الذاكرة التاريخية: إن مصر كانت دومًا

مغنمًا للطغاة"فكل من تغلب عليها صار حَاكمها، وحُكامها متغلبون منذ يوسف عليه السلام"، وهكذا فإن تاريخ السلطة المستبدة والطغيان وعلاقته بثراء مصر كان متجذرًا فى ذاكرة المثقفين الأتراك، كنتيجة لاطلاعاتهم على كتب التراث التاريخى المصرى، والذى يجد انعكاسه واضحًا فى اقتباس المقولات المأثورة الشائعة والمتكررة التى ما فتىء يُقحمها فى نسيج مروياته؛ وفى مقدمتها مقولة:"أن مصر نيلها عجيب، وأرضها ذهب، وهى لمن غلب"(٤٨).

وفى مقابل هذه الصورة السلبية التى تتعمد تجريد المجتمع من إمكانات المقاومة، نجده يرصد جانبًا إيجابيًا فى طبيعة المصريين، تلخصه خاصيتين أساسيتين: الأولى أنهم أهل مرح وبهجة، يتغلبون على أحزانهم وكروبهم بالفكاهة والمرح والبحث الدائم عن وسائل الفرح والسرور، ويفسر طبيعة المصريين المرحة بأنها تعود إلى"أن مصر منتمية إلى كوكب الزهرة"(٤٩) الذى يرى أنه السبب فى تلطيف طبيعتهم القاسية. والخاصية الثانية: قدرتهم على استيعاب الآخر، بصرف النظر عن ثقافته وجنسه وديانته، وهذا ما يفسر فى تقديره كثرة تعدد الأجناس والديانات واللغات واللهجات" التى لا يمكن التعبير عنها باللسان ولا التحرير بالقلم"(٥٠). لكنه يؤكد من ناحية أخرى قدرة شعب مصر على صهر الثقافات والأجناس فى بوتقته، وهو يضرب المثل بالمماليك الذين اضطروا إلى التخلى عن لغاتهم القوقازية التى كانت ثقيلة على المصريين، وأنهم أقبلوا على التكلم باللغة العربية التى صارت تعبر عن هويتهم الجديدة. بيد أنه يبين بأن الإندماج فى الثقافة المصرية كان تدريجيًا، وأن تخلى المماليك والعثمانيين عن لغاتهم الأم لم يكن كاملا" فقد اخترعوا لأنفسهم لهجة خاصة ذات عبارت تتألف من كلمات عربية وتركية خليطة يقال لها (ملمع)" (٥١).

النظرة إلى الذات من خلال الآخر:

لما كانت بؤرة اهتمامات أوليا چلبى قد تركزت حول تحليل طبيعة المجتمع المصرى الذى ترغب السلطنة العثمانية فى الاستقصاء عنه، والتعرف على ما طرأ عليه من تغييرات، وفهم أسبابها ودواعيها وما تمخض عنها، ليذلل

لها كيفية ضبط هذه الولاية الهامة - فقد كان من المتوقع أن تصبح الفكرة المركزية فى النص قائمة على رسم ملامح دقيقة لصورة الواقع المصرى، بتكويناته الثقافية والاجتماعية والمادية، وهو ما شغل بالفعل الحيز الأكبر فى النص، ولذلك لم يتسع المجال الكتابى، على سبيل المثال، للمقارنة بين ما هو تركى/عثمانى وما هو مصرى.

غير أن ذلك لا يعنى أن النص خلا تماما من الإشارات المتعلقة بهذا الجانب، فهناك معلومات ندت عن قلمه فى مناسبات معينة؛ كإبدائه موقفًا تحفظيًا إزاء بعض عادات المصريين المستهجنة عند الأتراك، أو لجوئه أحيانا إلى الإفصاح عن انتقاداته الصريحة لبعض الممارسات التى لم يقبلها هو نفسه على مستوى شخصى، أو فى تحريه وتتبعه للوجود التركى وإشادته بانتشاره المتميز فى مجالات مختلفة، وفضلا عن هذا وذاك فى وسعنا تلمس البعد المقارن، بين الذات والآخر، فى طريقته فى استخدام المصطلحات بمضامين تُعلى من شأن الذات فى مقابل الآخر، وهو ما يقتضى رصد تلك المصطلحات وتحليل دلالات توظيفها داخل نص الرحلة.

والحقيقة إن الإشارات القليلة الواردة فى الرحلة تُظهر ملمحًا أساسيًا فى النظرة إلى الآخر من خلال ما يُعرف"بالذاتية المتعالية" (٥٢): فالعثمانيون هم سادة البلاد وحكامها، وهم جماعة النخبة المعبر عنهم"بأولاد الروم" أصحاب الحول والطول فى إدارتها، والتنعم بخيراتها ومردودها العينى والمادى، أما الآخرون فهم المصريون الذين يُجرى تصنيفهم تحت المصطلح التاريخى الشهير"أولاد العرب"(٥٣). ولا شك أن استخدام مصطلح"أولاد الروم" كمقابل لمصطلح"أولاد العرب"، إنما يعكس بوضوح البعد الإثنى فى المفاضلة التى توضح من تلقاء نفسها موقع السيد بمركزيته الحاكمة، ومكانة التابع ودوره الوظيفى وموقعه فى التراتبية الاجتماعية.

صحيح أنه أشاد بالحضارة الفرعونية وبماضى مصر القديم، إلا أنه، وكعادته، فى استخدام أسلوب التجريد للآخر من القدرة على العمل الخلاق، نجده يشير إلى أن شبكة الرى المحكمة وقواعد البناء الهندسى الدقيقة التى أنشأها قدماء الكهنة" إنما كانت مستلهمة من معجزة إدريس عليه السلام"(٥٤) أى مستوحاة من الأنبياء الذين لا ينطقون عن الهوى، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرناه آنفاً، من إرجاعه عظمة حضارة مصر إلى المشيئة الإلهية العجيبة، لتبين لنا أنه، وبشكل غير مباشر، قصد تجريدهم من دورهم وإبداعهم الخلاق الأصيل! ومن ثم تظل دلالة مصطلح"فرعونى/ فراعنة" المستخدمة فى تقريره، تشير فحسب إلى المعانى السلبية(التجبر والقهر) التى لصقها بالمصريين بصفة عامة. وخلافاً لإدراكه للبعد الثقافى وتبايناته، كانت مسألة تذكير القارىء، غير مرة، بأن المصريين تجمعهم أرومة واحدة، هى"الفرعونية"، وأنه لا يوجد بها أحد من"غجر الأروام/ الأتراك"(٥٥)، تؤكد على مدى سيطرة التصنيف الإثنى عليه عند وصفه لطبيعة انتشار الجاليات المختلفة على أرض مصر.

ومن السهولة بمكان على قارىء الرحلة أن يلحظ ما يعنيه أوليا چلبى بكلمة"ابن عرب" أو مصطلح"أولاد العرب"، إنه يُعنى عنده تحديدًا"الفلاح /الفلاحين"(٥٦)، وينص على ذلك صراحة:"إن فلاحى مصر من أولاد العرب"(٥٧)، ومصطلح"الفلاحة/الفلاحين" (المعبر فى رأيه عن غالبية المصريين(٥٨)) إنما يحمل فى منظوره درجة من الإزدراء، تفيض به نعوته وأوصافه وعبارته التى وسم بها الفلاحين المصريين، والتى ترسم صورة لنوعية شاذة من البشر، تستحق، فى تقديره، المتابعة والمشاهدة والتسجيل(٥٩) وكأنهم أشبه بالمخلوقات الغريبة التى هبطت من السماء، فهو يصفهم بـــ"المكر والدهاء واللصوصية، وأفعال الشيطنة، والعناد والفسق والفساد(٦٠). ويلفت النظر عنوان جانبى كاشف لدلالة اعتقاده فيهم ونظرته إليهم:"بيان ما بمصر من الأفعال القبيحة"؛ إذ لم يخص تحت هذا العنوان سوى الفلاحين المصريين وحدهم! (٦١). على حين لم يعن بالعنوان المقابل"بيان محاسن مصر" سوى شبكة الرى والفيضان

ووجود"فتيان الأتراك"، القادرين على ضبط الأمن وضمان توزيع حصص المياه على القرى بنظام لا يعتريه الخلل(٦٢) وإذًا فإن مضمون"محاسن مصر" من وجهة النظر التركية التى يمثلها أوليا چلبى تشكلت على ضوء مصالح استانبول نفسها ونظرتها البرجماتية لعلاقتها بولاية مصرمن ناحية، ووجود دور محورى لرجال من الأغوات العثمانيين من ناحية ثانية، أما مضمون"ما هو قبيح" فيظل مرتبطًا – فحسب – بالفلاحين"جبابرة مصر" المثيرين للقلاقل والاضطراب، بما يهدد، فى بعض الأحيان، مصالح السلطة. ومن غير شك حملت هذه النظرة درجة من التعالى والازدراء من شأن الفلاح المصرى.

ومن الجدير بالذكر أن النخبة العثمانية البيروقراطية المثقفة كانت تستخدم كلمة"فلاح" عمومًا للتعبير عن ازدراء الآخر، ليس فى مصر فحسب، وإنما فى الأقاليم المجاورة كذلك: ونذكر على سبيل المثال الواقعة الشهيرة لراغب باشا، الحاكم العثمانى على دمشق، الذى وصف نظيره أسعد باشا العظم حاكم دمشق (العربى) السابق، بأنه"فلاح ابن فلاح"؛ لما رفض هذا الأخير مساعدة راغب باشا بالانتقال سريعا إلى استانبول واستلام مهامه كصدر أعظم(٦٣). وإذا كانت كلمة"عرب" تعرفها اللغة العثمانية الكلاسيكية بمعنى"أسود/ زنجى"(٦٤) وتحمل المعنى نفسه فى قواميس اللغة التركية الحديثة! (٦٥)، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن السياقات التى وظف فيها أوليا چلبى، بشكل عام، الصفات الثلاث"فلاح/ ابن عرب/ فرعون"، لوصف ما هو مصرى، لم تكن بعيدة تمامًا عن أن تحمل فى طياتها ذات المضمون المنتقص من شأن ومكانة الآخر(المصرى).

وفى خط متواز مع نظرته الإثنية للمصريين، نجده يُعرض بالمماليك، بل ويعبر عن وجهة نظره فيهم بصورة أكثر وضوحًا وأشد نقدًا لهم: ففى سياق مقارنته بين السلاطين المماليك وسلاطين العثمانيين، نجده يصف السلالة التركية"بالعرق الطاهر"؛ ويعلل ذلك بفكرة روجتها السلطنة حول أصول

العثمانيين الأولى، بأن نسبهم يعود إلى بعض أنبياء الله، وبالتحديد"يوسف ونوح عليهما السلام"[٦٦]، على حين يتحدث عن سلالة السلاطين والأمراء المماليك باستياء واضح، معرضًا بأصولهم غير مرة، واصفًا إياهم"بالعبيد الأرقاء.. الذين ليس لهم نسب وحسب"."[٦٧] بل وتتضح نظرته الدونية لهم حين وصفهم، إبان مقاومتهم للسلطان سليم الأول بـــ"حشرات الجراكسة"![٦٨]. بينما فى المقابل استخدم مفردات تُعلى من شأن عسكر السلطنة؛ مثل وصفه لهم بـــ" الأبطال العثمانيين... الغزاة المجاهدين"[٦٩]. ويطيب له أن يذكر بأن السلاطين العثمانيين إنما ترعاهم العناية الإلهية التى كللت كل جهودهم وفتوحاتهم بالنجاح، وميزتهم عمن سبقهم من الملوك والسلاطين: فقد تم لهم"الاستيلاء على بلدان سبعين ملكًا.. وسلطانهم هو خادم الحرمين الشريفين ومولى ملوك الروم والعرب والعجم"[٧٠]، وهو ما لم يتحقق لسلاطين المماليك قبلهم.

وبين ماضى المماليك وحاضرهم فى زمانه يبدو حانقًا عليهم؛ جراء سيطرتهم المتزايدة على السلطة فى مصر والاستيلاء على مقاطعاتها الغنية دون الدولة صاحبة الولاية، فيكتب بمرارة:"الحال تغيرت الآن؛ فقد سيطر مماليك مصر وجنودها على جميع الأمور، ووضعوا أيديهم فى هذا العصر على جميع المقاطعات التى فى القانون السليمى، ولم يبق شىء لأتباع الباشا.. ويكتفى ضباطه وأغواته برواتبهم ومخصصاتهم الخاصة، ولهم 24 إقطاعًا، يتكففون بايراداتها التى لا تكاد تسد حاجاتهم"[٧١]. وخلافًا لما يعنيه هذا من تبنيه لوجهة النظر السياسية (العثمانية) فى الأمراء المماليك، فإن تأكيده طوال الوقت على أنهم من العبيد المجلوبين إلى مصر يظل يحمل فى طياته المعانى المعبرة عن ذات المنظور الإثنى المقارن.

وفى هذا السياق نفسه يمكن أن نفهم دلالة ومغزى المقارنات السريعة، التى تناثرت بطول المجلد، بين سلوكيات النخبة التركية وغيرها من المجموعات الاجتماعية المستقرة بمصر. نذكر منها على سبيل المثال مقارنته بين الرواق

التركى ونظيره العربى بالجامع الأزهر فهو يصف"الرواق الرومى" بأنه"رواق نظيف جدا ومحبوب لسكانه (الأتراك) وكثير الأوقاف، بينما الرواق العربى والرواق المغربى ليسا بنظيفين"[٧٢]. وحتى إذا وُجِدَ مكان ما يكترث الناس بنظافته، نجده يعلل الأمر بالحضور التركى القريب أو المجاور للمكان: فمثلا فى معرض وصفه لمسجدى الشيخ كريم الدين الدبوشرى والهندى، القائمين خارج باب الفتوح، عزا نظافة المكان إلى"مجاورته لأعيان الروم وأشرافهم"؛ وكأن شرط النظافة يظل مرتبطًا بوجود النخبة التركية نفسها ودون غيرها! [٧٣]. أيضًا عند تناوله لوصف طريقة المصريين فى الاحتفال بالأفراح السلطانية، نجده يستخدم مفردات تشى بعدم ارتياحه أو انزعاجه منها، فهى تمضى فى ظل"طنطنة وجعجعة" غير منظمة، ولا يكاد يسمح للأهالى بالاحتفال حتى تقع فيهم الفوضى والمشاجرات، ويصبحون – حسب وصفه القاسى –" كالخيول الشرسة التى رفع عنها القيد"!. ومن وجهة نظره، تظل طبيعة المصريين بالضرورة قاسية"فهم يشرعونِ فى الشجارلأتفه الأسباب لأن طبع مصر زهرى"![٧٤] على حين أن مثل هذه الأفراح تمضى فى استانبول بنظام لا يعتوره خلل؛ لأن"أهالى استانبول يعيشون على الضبط والنظام"[٧٥].

وإذاً فالقدر هو الذى شكل عقلية المصريين وحدد طبيعة سلوكياتهم اليومية، حين كُتِبَ على مصر أن تكون منتمية للأبد إلى كوكب الزهرة، بينما سلوكيات الأتراك لا تحتاج عنده إلى تفسير مماثل؛ لأن طبيعتهم جُبِلَت على النظام والرفعة، وكذا الحال فى تلقيهم للعلم وعلوم الدين والشريعة: فمثلا عند المقارنة بين متعلمى قراءات القرآن الكريم من الأتراك ونظرائهم المصريين، نجده يُشيد بالحفظة الأتراك وبقدرتهم على التعلم السريع، وتشبيع وإعطاء الحروف حقها، وحسن أداء نطقها، وفقا للقراءات السبع المعروفة؛ بينما نظراؤهم المصريين، ولو أن بينهم بعض الحفظة العظام، إلا أنهم"يقعون فى اللحن الجلى والخفى، ويخرجون الحروف بامالات التسهيل والترقيق"[٧٦].

ويُعزى التفوق التركى فى هذا الصدد إلى طبيعة الشعب التركى نفسه"فهو شعب ذكى ومقلد رشيد"[٧٧].

وتمتد ظاهرة الالتزام بالضبط والنظام وحسن الأداء إلى العسكر العثمانى الذين يتصفون بالقوة والحزم والشجاعة والقدرة على تمكين أى ملتزم يستعين بهم فى جباية الضرائب:" فكل ملتزم يأخذ معه ٤٠ أو ٥٠ أو ١٠٠ فتى من فتيان الأروام (الأتراك) الأقوياء ذوى المكانة والشجاعة يضمن ضبط قريته وينفذ فيها حكمه"[٧٨].

ومن ناحية أخرى، ومن واقع طبيعته المتحفظة، نجده يصف النساء المصريات" بأنهن فى غاية من قلة الأدب والحياء" وذلك برغم إشادته بأنهن جاذبات جدا[٧٩]، كان هذا بالطبع مقارنة بنظرائهن من النساء التركيات. لكن الملفت بالفعل أن نقده العام للنساء المصريات قد جاء، على غير توقع، فى سياق انتقاداته اللاذعة لطبيعة الفلاحين"الجبابرة" وحيواناتهم العصية على الطاعة كذلك؛ والسبب – كما ذكرنا آنفًا – راجع لشرب هؤلاء جميعًا (رجال الفلاحين والنساء والخيول) من مياه النيل![٨٠].

ومن الجلى أن فكرة التمييز القائمة على نسب، كل ما هو مهندم ونظيف ومرتب، وذى حياء والتزام وسلاسة، إلى العنصر الرومى (التركى)، والجزم فى المقابل ببقاء المصريين، بفعل عوامل حتمية لا فكاك منها، فى دائرة التخلف والتجرد من تلك الصفات الحسنة – إنما تتضمن بشكل واضح رغبة حقيقة فى تحسين صورة التركى العثمانى فى مقابل الحط من قدر الآخر العربى/ المصرى.

إن هذه المقابلة ذات الطابع الإثنى تشير إلى ما هو أكثر من الإنفصال الذى أملته المسافة الجغرافية؛ تشير إلى إحساس بالاختلاف بين ما هو تركى/ عثمانى وما هو عربى/ مصرى والتى تجد انعكاسها، بدرجة متوازية إلى حد كبير، مع المثقفين العرب(أمثال الخفاجى والنابلسى والمرادى وغيرهم) الذين

زاروا استانبول واحتكوا بنظرائهم الأتراك، ومروا بالتجربة نفسها، وأدركوا حالة التباين والاختلاف الثقافى بين الجانبين.

****

نخلص من هذه الدراسة إلى أن أوليا چلبى، حين رحل إلى مصر، كان مُحَمَّلا بضروب من التعاطف والإنحياز لبنى جلدته وللثقافة العثمانية التى كان ينتمى إليها ويُباهى بها. وأنه بعد تجربة الاحتكاك والمعايشة فى مصر، لعدة سنوات، لم يستطع تغيير رأيه فى المصريين؛ لأن الأمر برمته كان متعلقاً بعقيدة راسخة فى الذهنية التركية حول مفهوم"التابع / العربى" الذى لا يرقى، على المستوى النظرى، إلى ثقافة النخبة التركية. وفى هذا الإطار بدا الوعى بـــ"الأنا التركية" المتسيدة واضحًا جليًا عند أوليا چلبى، واتخذها، فى كثير من الأحيان، معيارًا لوصف الأشياء، والحكم على السلوكيات خلال رحلته فى مصر.

لقد كان أوليا چلبى – إذًا – يُكيف صورة المصريين مع أفكاره المسبقة، لا كما عاينهم فى الواقع، مما جعل رؤيته غير بريئة من التحيز الإثنى/ الثقافى. ومن هنا كان الجديد الذى بهره بالفعل هو حالة مصر المادية والحضارية لا حال المصريين أنفسهم!. ويعكس ذلك طبيعة الخطاب المعبر عن شريحة من المثقفين الأتراك، والمستند على ما يمكن تسميته بالنزعة المركزية الاستعلائية التركي Turko-centrism تلك النزعة التى تواصلت وازدادت قوة ووضوحًا بعد ذلك فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى إطار ما يُعرف بإيثار ثقافة"الذات" على ثقافة الآخر.

الهوامش :-

(١) وتشمل كل من: تركيا وروسيا وألبانيا وبلغاريا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وبولندا وإيران والعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين والسعودية ومصر والسودان والحبشة والصومال وجيبوتى. راجع محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق 1989، ص 387.

(٢) على سبيل المثال كان"ابن كمال" ، وهو من كبار المثقفين الأتراك فى القرن السادس عشر، يكتب فى كتاباته"بأن العثمانيين فاقوا كل السلطنات الإسلامية قوة، وحولوا دولتهم إلى قوة بحرية عظيمة فى البحر المتوسط"، راجع خليل إينالجك: الدولة العثمانية : الاقتصاد والمجتمع 1300 – 1600، منشورًا فى: التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للدولة العثمانية، مجلدان، تحرير خليل إينالجك ودونالد كواترات، دار المدار الإسلامى، بيروت 2007، مج 1 (ترجمة: عبد اللطيف الحارس)، ص 65.

(٣) بول كولز: العثمانيون فى أوربا، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد 126،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص 187.

(٤) ترجم محمد على عونى نص الرحلة، ونشرتها دار الكتب والوثائق القومية تحت عنوان: سياحتنامة مصر، تحقيق عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، وتقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولى، القاهرة 2003.

(٥) حسين محمد فهيم : أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، الكويت1989، ص ص 192–193.

(6) Robert Dankoff : An Ottoman mentality: the world of Evliya çelebi, Leiden 2004.

(٧)انظر دراسة كل من كارل بربير وعبد الكريم رافق ومحمد صبرى الدالى:

Karl Barbir : Ottoman Rule in Damascus, 1708 -1798(Princeton university press, 1980),[pp.59 – 60]

؛ عبد الكريم رافق: الهوية والانتماء فى بلاد الشام فى العهد العثمانى، منشورًا فى كتاب: دراسات اقتصادية واجتماعية فى تاريخ بلاد الشام الحديث، دمشق 2002،[ص ص 347 – 374]؛ محمد صبرى الدالى: ثقافة النقد والرفض عند علماء مصر(القرن السابع عشر– شهاب الدين الخفاجى نموذجًا)، منشورًا فى: ثقافة النخبة وثقلفة العامة فى مصر فى العصر العثمانى، تحرير ناصر ابراهيم، وإشراف رءوف عباس، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، كلية الآداب جامعة القاهرة،القاهرة 2008،[45 – 96].

(٨) أوليا چلبى : سياحتنامة مصر، ص 223.

(٩) ويبدو أن السماح له بالاطلاع على السجلات الرسمية لم يكن قصراً على حالة مصر وحدها، وإنما سُمِحَ له بهذه المزية كذلك فى ولايات أُخرى زارها وكتب عنها، فمثلا: دون نتائج تعداد إستانبول عام 1638 ، وتعداد دمشق فى عهد الدفتردار زاده محمد باشا (1652 – 1655)، وتعداد القاهرة فى عهد السلطان سليم الأول وتعداد القاهرة الثانى فى السلطان مراد الرابع. راجع، محمد حرب : المرجع السابق، ص 388.

(١٠) أوليا چلبى : سياحتنامة مصر، ص 222.

(١١) نفسه، ص 235.

(١٢) نفسه، ص ص 239، 477، 504،

(١٣) نفسه، ص 576.

(١٤) نفسه، ص 202.

(١٥) نفسه، ص 437.

(١٦) نفسه، ص ص 202،431.

(١٧) نفسه، ص ص 26 ،27.

(١٨) نفسه، ص 505.

(١٩) نفسه، ص ص 537– 541.

(٢٠) نفسه، ص ص 244–247 ؛624 – 626.

(٢١) نفسه، ص ص 244–247 ؛624 – 626.

(٢٢) نفسه، ص 207.

(٢٣) نفسه، ص 576.

(٢٤) نفسه، ص 608.

(٢٥) نفسه، ص607.

(٢٦) نفسه، ص 576.

(٢٧) نفسه، ص607.

(٢٨) نفسه، ص 505.

(٢٩)ونجده يفرد فصلا خاصا فى رحلته يتضمن أهم الصناعات الحرفية التى تتمايز بها مصر كما وكيفا عما هو سائد فى الولايات العثمانية الأخرى، راجع ص ص 481 – 487.

(٣٠)نفسه، ص 453.

(٣١)نفسه، ص 207، 608.

(٣٢)نفسه، ص607.

(٣٣)نفسه، ص ص 47- 52.

(٣٤) نفسه، ص 268 – 310، 318 – 338، 379 -381، 387 -398.

(٣٥)نفسه، ص 222 -223.

(٣٦)نفسه.

(٣٧)نفسه، ص 236.

(٣٨) نفسه، ص 207. ويلاحظ تكرار المقولة مرة أخرى عند إشادته بخيرات مصر الوفيرة:" الإقليم المصرى لا يشبه سائر الأقاليم.. إنها بلاد من صنع الله العجيب"،(ص 437).

(٣٩)نفسه، ص ص607 -608.

(٤٠)نفسه، ص 607.

(٤١)نفسه، ص575.

(٤٢)نفسه، ص 438.

(٤٣)نفسه، ص 435.

(٤٤)نفسه.

(٤٥)نفسه، ص265.

(٤٦)نفسه، ص435.

(٤٧)نفسه، ص ص517 – 518.

(٤٨)نفسه، ص 435.

(٤٩)نفسه، ص505.

(٥٠)نفسه، ص266.

(٥١)نفسه، ص ص 229 – 230.

(٥٢)إدوارد سعيد : الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عنانى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2008، ص 289.

(٥٣)نفسه، ص 609.

(٥٤)نفسه، ص 432.

(٥٥)نفسه، ص 265.

(٥٦)نفسه، ص ص 608 – 609، 611.

(٥٧)نفسه، ص 609.

(٥٨)نفسه، ص 607.

(٥٩)نفسه، ص 434 ، 609.

(٦٠)نفسه، ص 434، 611.

(٦١)نفسه، ص 432 – 434.

(٦٢)نفسه، ص 431 – 432 ، 434.

(63) Karl Barbir : Ottoman Rule in Damascus, 1708 -1798(Princeton university press, 1980), pp.59 - 60

(٦٤) ترد كلمة"عرب – عراب" فى قاموس اللغة العثمانية القديمة بمعنى" أسود / زنجى"، وتستخدم كصفة دالة على اللون الأسود؛ فللإشارة إلى القمح الأسود يقولون :"عرب داريسى"، ويقولون"عرب كُولَه" بمعنى المملوك الأسود. راجع : محمد على الأنسى: قاموس الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات، د.ت، ص 375، مادة"عرب".

(65) Redhouse Yeni Türkce – Ingilizce Sözlük Istanbul: Redhouse Press, 1968), p. 69.

(٦٦)نفسه، ص 136.

(٦٧) نفسه، ص ص 98 ؛ 435.

(٦٨)نفسه، ص 168. كما وصفهم بتعبير شعبى"الجراكسة المناحيس"،(ص 174).

(٦٩)نفسه، ص 170.

(٧٠)نفسه، ص 141.

(٧١)نفسه، ص 189.

(٧٢)نفسه، ص 272.

(٧٣) نفسه، ص 306 – 307.

(٧٤)نفسه، ص 566.

(1) نفسه، ص 565.

(٧٦)نفسه، ص 314.

(٧٧) نفسه، ص 315.

(٧٨) نفسه، ص 434.

(٧٩) نفسه، ص435.

(٨٠)نفسه.

قبل الاحتلال والحداثة

الأوربيون في الإسكندرية العثمانية بين التعايش والخلافات

محمد صبرى الدالى(*)

في ظل عصر العولمة Globalization ثمة قضايا أصبحت تحظى باهتمام بالغ، وربما مُبالغ فيه. وفى هذا الإطار تبرز قضية التعايش المُشترك Coexistenceبين الجنسيات أو الإثنيات كواحدة من تلك القضايا(١). ومع أن الهدف من الاهتمام قد يختلف" هنا" عن" هناك" (٢) وأن الطرح الموضوعي يختلف عن الطرح المُغرض لأهداف سياسية أو اقتصادية(٣).. فإن قضية التعايش المشترك تحتاج إلى قدر من الاهتمام الذى يساعد على معرفة مدى جِدتها على المجتمع المصرى / الشرقى قبل الاحتلال الفرنسى وما عُرف بالحداثة. وسوف تكون الإسكندرية فى العصر العثمانى هى" دراسة الحالة".

ومع أن الإسكندرية فى العصر العثمانى كانت مدينة (بندر) (٤) مهمة للأوربيين حتى حُددت فيها – من الناحية القانونية – إقامتهم بمصر(٥).. فالدراسة لا تهدف إلى إظهارها مثالاً للتعايش بانتقاء" لقطات" إيجابية، بقدر ما تحاول التعامل مع حقيقة التعايش فيها آنذاك. إن السؤال الرئيسى : إلى أى مدى تعايش أهالى الإسكندرية والأوربيون، ومن ثم إلى أى مدى كانت المدينة" كوزموبوليتانية" قبل" الكولونيالية" الأوربية و" الحداثة"(٦). قد يبدو السؤال بسيطاً ولكن تفكيكه يُظهر غير ذلك، لاسيما وأن قضايا عديدة وأسئلة ترتبط به. فهل يمكن أن يكون هناك تعايش بين الأهالى والأوربيين مالم يكن الأهالى أنفسهم تعايشوا فيما بينهم ؟. وماذا عن نسبة الأوربيين بالقياس إلى سكان الاسكندرية، وهل كانت تعاملاتهم وحياتهم مع الأهالى تسير بشكل" طبيعى" أم كان هناك

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد. كلية الآداب – جامعة حلوان.

تمايز بُناء على أبعاد إثنية أو دينية ؟. هل عاش الأوربيون فى الاسكندرية بلا مشاكل خاصة فى ظل الامتيازات، بل وإلى أى مدى عاشوا تحت حماية الامتيازات ؟[٧]. هل يمكن قراءة الخلافات كدليل على التعايش باعتبارها تعكس مصالح" براجماتية" حقيقية، فردية وجماعية، ولكنها طبيعية دون اعتبار كبير بالاختلافات السياسية أو الدينية التى قد يُدشنها رجال السياسة أو الدين هنا وهناك فى لحظات بعينها ؟. إلى أى مدى تأتى ضرورة تفسير التاريخ فى إطار صيرورته الطبيعية التى وإن تضمنت قدراً من التناقضات فلا تعنى حتمية الصدام ؟. وفى ظل الوجود الأوربى، ما مدى مصداقية القول بوجود قطيعة حضارية بين مصر وأوربا قبل الاحتلال الفرنسى ؟. وهل يصدق ما ذهب إليه البعض من أن" التجار الأوربيين عاشوا فى غالبيتهم فى البلاد الإسلامية فى جماعات مُنعزلة ولم يتفاعلوا عموماً بدرجة كبيرة مع الأهالى، وأنه فيما عدا التجارة كانت المعاملات مع الأوربيين غير مرغوبة"[٨].

وللاقتراب من هذه القضايا، سوف نتعامل مع الواقع فى الأساس، وبالاعتماد على الوثائق وكتابات المؤرخين المصريين، وبعض قصص الرحالة التى قد لا تخلو من تحامل يُناقضه" تفكيك" ما أوردوه بأنفسهم. على أنه يبدو من المفيد أن نشير فى البداية إلى ثلاثة أمور : -

<u>أولاً</u> : للاسكندرية تاريخ طويل فى التعاون والعداء مع الأوربيين حتى العصر الحديث، وكانت معروفة جيداً لهم حتى بارحها البندقى"فارتيما" سريعا عام ١٥٠٣م لأنها" معروفة للجميع" بينما كان يريد رؤية" البلاد التى لم يرها البنادقة أو لم يترددوا عليها كثيراً"[٩].

<u>ثانياً</u> : كانت المدينة فقيرة زراعياً لوقوعها بين البحر والرمال. لذا فبقدر ما مَثّلت أمور البحر والتجارة مع الداخل والخارج نشاطاً لمُعظم أهلها.. بقدر ما كانت ضرورة، خاصة وقد توفرت عوامل النجاح : الموقع الدولى والموضع

الممتاز. على أن التجارة مع أوربا كانت أساسية للاسكندرية[١٠] ولمصر حتى كتب Emanuel Piloti فى القرن الخامس عشر أنه" بدون الاسكندرية لا يمكن أن تبقى القاهرة ومعها مصر بأسرها"[١١]. وتوضح وثائق العصر العثمانى أن "محصول ميناء الاسكندرية يأتى فى الأصل عن طريق التجار الافرنجة" وأن الأزمات المالية كانت تظهر عند إحجامهم عن المجئ للمدينة لأسباب منها وقوع" القحط" أو ظهور الطاعون[١٢].

__ثالثاً__ : شاركت الاسكندرية مصر سوء أوضاعها الاقتصادية أواخر العصر المماليكى، بل وكانت أحد أسبابها ومظاهرها والأكثر تأثراً، فقلت أعداد السفن والتجار وتعددت هجمات القراصنة. وقد استمر ذلك فى بداية الغزو العثمانى : إما لاستمرار الأسباب السابقة أو لطبيعة احتياجات الغُزاة[١٣]. على أن أوضاع المدينة تحسنت تدريجياً لأهميتها للعثمانيين، خاصة من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية[١٤]. لقد كانت من المدن القليلة التى زارها السلطان سليم[١٥] وبعدها تتابع تنظيم أمورها الإدارية والمالية[١٦]. ومن مينائها خرج معظم من رُحِّلوا لاستانبول[١٧] وعادوا كما استمرت المنفذ الرئيسى لوصول رموز السلطة ومُغادرتها وكذا القوات التى أُرسلت لمشاركة الدولة حروبها[١٨]. فى الوقت نفسه تابعت استقبال" الفرنج" والانتفاع منهم خاصة وأن حوالى ٨٠% من تجارة مصر مع بلاد البحر المتوسط – والتى استأثرت الاسكندرية بنصيب مُهم منها – كانت عن طريق البحر[١٩]. هذا بالإضافة إلى أن العثمانيين لم يوقفوا التجارة مع الأوربيين[٢٠] بل إن جهود العثمانيين الحربية، والصعوبات التى واجهت البرتغاليين للحفاظ على طريق التجارة الجديد.. كان لها تأثيرها الإيجابى فى عودة قسم كبير من التجارة لطريقها القديم[٢١] لاسيما وقد اندمجت مصر فى عالم سياسى واجتماعى واقتصادى شمل حدودها الجنوبية والنصف الشرقى من حوض البحر المتوسط[٢٢]. وبينما ضُمت الاسكندرية إلى الخزينة السلطانية عام ١٥٢٠[٢٣] وأصبحت من" خواص همايون" وفق" قانون نامه مصر" ١٥٢٥

ومقراً لأمير البحر" القبودان"[٢٤] ولقطع من الأسطول، وهو ما ساهم فى إعادة أهميتها والنشاط إليها.. رغم ذلك ساهمت الاسكندرية ورشيد بحوالى ٦% من ميزانية مصر ١٥٩٧/٩٦[٢٥].

تعدد إثنيات المجتمع

تعتبر أصول السكان من أهم دلالات" كوزموبوليتانية" الاسكندرية التى قيل إن سكانها لم يتجاوزوا الثمانية آلاف حتى الغزو الفرنسى[٢٦]. فبالإضافة إلى أهلها المصريين شديدى التنوع.. هناك ذوو الأصول العربية والتركية بل وذوو الأصول الأوربية ممن استقروا بمصر (خاصة يهود إسبانيا وفرنسا)[٢٧]. وقد اختلط هؤلاء جميعاً مع التجار والسُيَّاح وغيرهم من فرنسيين وانجليز وبنادقة وجنويين وألمان وإسبان ومجريين وهولنديين وبلجيك (فلمنك) وبرتغاليين وروس ونمساويين.. ناهيك عن اليونانيين والألبان والروديسيين. ويُلاحظ أن كثيراً من هؤلاء، ومنهم أوربيون، فضلوا البقاء بالاسكندرية، فاستأجروا البيوت والحوانيت، واشتروا المراكب، وتزوج بعضهم من بنات جلدتهم وغيرهن[٢٨] وكونوا العائلات[٢٩]. وكثيراً ما تُفرِّق الوثائق بين القاطنين بالمدينة وغيرهم. فهناك" السكندرى" للإشارة إلى ابن المدينة الأصلى، وكذلك" المُستوطن" للدلالة على الغريب الذى اختار المدينة مُستقراً[٣٠] و" القاطن بالثغر"[٣١] والذى يحمل معنى الاستقرار أكثر من الوجود المؤقت، و" نزيل الثغر" والذى قد يعنى عدم الاستقرار[٣٢]. أما الأوربيون فغالباً ما أشارت إليهم الوثائق بناءً على جنسياتهم. ونظرة فى قوائم جمع الأموال إبان الغزو الفرنسى كفيلة بأن تكشف هذا التنوع الإثنى[٣٣] الذى يعنى أن الاسكندرية كانت عامرة باللغات واللهجات وأنماط الحياة، وبشكل يشبه ما جاء فى وصف البندقية أو جنوه[٣٤] ويُذكرنا بما كتبته زوجة سفير انجلترا "مارى مونتجو" عام ١٧١٨ عن كثرة اللغات التى كانت تسمعها فى استانبول أو التى استخدمها العاملون فى بيتها[٣٥].

وفى محاولة لمعرفة نسبة وجود الأوربيين بالاسكندرية أحصيت عدد المترددين على المحكمة من خلال عينات بالسجلات. ومن بين ١٦١٧ حالة تم رصدها على مدى القرون الثلاثة (من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر) بلغ عدد الأوربيين ٢١٧ حالة بنسبة حوالى ١٣,٤٢ %. وقد جاء توزيع الحالات كالتالى : ٢٢٧ حالة فى النصف الأول من القرن السادس عشر، منهم ٢١ حالة لأوربيين بنسبة ٩,٢٥ % (٩ فرنسيين، ٤ بنادقة، روديسيان، راجوزى، قبرصى، افرنجيتان غير محددتى الجنسية، سكندريتان افرنجيتا الأصل وأسلمتا). ٦١٨ حالة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، منهم ٥٢ حالة لأوربيين بنسبة ٨,٧٤ % (١١ لوندسى، ٨ فرنسيين، ٦ افرنجه غير معلومى الهويه، ٥ جنويين، ٥ بنادقة، ٤ روديسيين، ٤ قبارصة، ٣ فلورنسيين، ٢ راجوزيين، برتغاليين يهوديين، انجليزى، كريتى نصرانى). ٣١٠ حالة فى النصف الأول من القرن السابع عشر، منهم ٨١ حالة لأوربيين بنسبة ٢٦,١ % (١٤ فرنسى، ١٢ بندقى، ٩ مسينيين، ٩ روديسيين، ٦ لوندسيين (رجال ونساء)، ٤ انجليز، ٣ إسبان، ٣ كريتيين، قبرصيين نصرانيين، فلورنسى، جاريتين افرنجيتين غير محددتى الهويه، ٩ افرنج غير محددى الجنس، افرنجيه غير محددة الجنسية، أفلاقى مسلم معتق، جاريه أفلاقيه، مجرى مسلم معتق، جاريه مجرية نصرانيه، مالطى، موسكوفى أسلم وأعتق). ١٥٤ حالة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، منهم ١٥ حالة لأوربيين بنسبة ٩,٧٤% (٥ مالطيين، بندقيان، افرنجيان غير محددى الهوية، افرنجية غير محددة الهوية، نصرانى كريتى، إنجليزى، فرنسى، لوندسى، إفرنجى غير محدد الجنسية). ١٧٦ حالة فى النصف الأول من القرن الثامن عشر، منهم ١٥ حالة لأوربيين بنسبة ٨,٥٢ % (٨ فرنسيين، كريتى مسلم، روديسى مسلم، افرنجى غير محدد الهوية، ٤ افرنج غير محددى الجنسية). ١٣٢ حالة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى الغزو الفرنسى، منهم ٣١ حالة لأوربيين

بنسبة ٢٣,٤٨ % (٩ بنادقة، ٧ فرنسيين، ٤ فلمنكيين، ٣ روس، ٣ نمساويين، ٣ انجليز، ٢ قبارصة مسلمين مقيمين بالاسكندريه). ومعنى هذا أن متوسط نسبة ترددهم على المحكمة دارت بين ٨,٥٢ % و ٢٦,١ %[٣٦]. لكن السؤال يبقى عن نسبتهم إلى غيرهم بالمدينة ؛ فهل يعكس هذا نسبة وجودهم بها ؟. سنعود إلى هذه القضية مرة أخرى.

أنشطة السكان وخلق إمكانية التعايش

شارك سكان الاسكندرية غيرهم من سكان المدن فى المهن والحرف، لكن الاسكندرية تميزت بوجود طوائف قوية مثل مغربلى البهار[٣٧] وتُجار الجلود[٣٨] وكذا بوجود وكالات تجارية ضخمة، بالقياس إلى حجم المدينة وتعداد سكانها. ونحن لا نقصد فقط التبادل التجارى بين الأهالى والأوربيين، بل وأيضاً ما خلقته التجارة من أنشطة خدمية[٣٩]. والأهم أن المدينة تميزت بكثرة اشتغال أهلها بالملاحة ومُتعلقاتها : كمُلاَّك للسفن، أو بحارة وملاحين وصيادين وغطاسين، أو عاملين فى أمور تتعلق بالشحن وصناعة السفن[٤٠]. وقد زاد من أهمية ذلك أن المدينة كانت مركز القيادة البحرية فى مصر. وبقدر ما ارتبطت الأنشطة بالبحر والقادمين منه.. بقدر ما أتاحت للسكندريين الفرصة والقدرة للتعامل والتعايش مع الآخرين أياً كانت جنسياتهم ودياناتهم. وفى هذا الإطار يمكن فهم ما كتبه الوزان عن أن ما اعتُقد أنه قبر الاسكندر الأكبر الذى" يأتى عدد كثير من الأجانب من كل فج عميق ليشهدوه ويتعبدوا فيه ويتركوا صدقات جسيمة.. يُقدسه المسلمون ويُعظمونه"[٤١].

وفى إطار الوعى بأهمية الآخر وكذا الوعى بضرورة التعايش معه، تكررت مقولات ترتبط بقضايا التعايش، ومن ذلك القول بأن الثغر" محل رحال الواردين"[٤٢]. والأمر نفسه بخصوص الاهتمام الملحوظ بتوفير المياه العذبة للأهالى و" المُستأمنين"[٤٣] وكذا الاهتمام بترميم الميناء ومرافقه بسبب" أرزاق

التجار الواردة إلى الثغر والنازلة منه"(٤٤). وبالتالى لن يكون غريباً ما ورد فى حيثيات تعيين" ناظر" على التونسيين لكى" ينظر فى أمورهم وشئونهم.. وتيسير أمور الأسباب وتحصل العمارة بالكون فى جميع الأمصار والأقطار"(٤٥). وحتى المعاهدات (العهدنامات) التى عقدتها الدولة العثمانية مع دول أوربية وعُرفت بعد ذلك بالامتيازات.. لا يمكن النظر إليها فى إطار التفسيرات الاستعمارية منذ القرن التاسع عشر(٤٦). فمنذ" قانون نامه مصر" (٤٧) وحتى القرن الثامن عشر.. تناولت المعاهدات أموراً ذات صلة بالتعايش المشترك من قبيل ضرورة استقبال الأوربيين بالاحترام وعدم إهانتهم ومعاملتهم بالعدالة، وحقهم فى البيع والشراء بلا حدود ولا إكراه وإحضار ما يريدون من بلادهم للاتجار فيه، وعدم إجبارهم على دفع عوائد غير عادية للجمارك أو للحمالين وغيرهم، وعدم الاستيلاء بالقوة على مراكبهم أو على ما فى متاجرهم ومخازنهم، والمحافظة على سلعهم التى تتعرض للغرق وردها لأصحابها وتقديم العون للسفن التى تلجأ إلى الميناء لسوء الأحوال الجوية، والحق فى وجود قساوستهم ومُمارسة شعائرهم الدينية ودفن موتاهم فى أطر مُقننة" وإذا لم يتخطوا حدود مهنتهم" وأنه لا يمكن اعتبار الأوربيين مسلمين" إلا إذا رغبوا فى ذلك واعترفوا صراحة بلا إكراه". بل وتضمنت المعاهدة مع فرنسا الإطلاق المشترك للأسرى وعدم أسر المزيد، والتعاون ضد القراصنة. أما القناصل فكان من حقهم ممارسة الشئون القضائية لمواطنيهم والبت فى أمورهم، ومن يلجأ من مواطنيهم إلى القضاء الإسلامى لينقُض حكماً أصدره القنصل فلا يُسمع له ولا يحق للقاضى نظر شكواه، وعليه إعادته إلى قنصله. كما مُنح القنصل الحق فى إبداء الرأى فى سفر الأفراد على ظهر سفن بلاده، بعد الحصول على" تأشيرة" وأن لا يُعاقب القنصل بجريرة أى فرد من أبناء بلده. هذا بالإضافة إلى حق القنصل فى امتطاء جواده والخروج إلى الحدائق العامة أو إلى أى مكان فى أطراف الاسكندرية. وبشكل تدريجى تطورت وزادت هذه الحقوق فى المعاهدات مع البندقية وفرنسا وانجلترا والنمسا

وغيرها من الدول الأوربية[٤٨].

والواقع أن الحقوق وإن تنامت بمرور الوقت حتى استُخدمت كذريعة للاحتلال الفرنسى لمصر.. إلا أنها لا تعكس فقط ضعف الدولة العثمانية، بل وضرورات التعايش فى إطار الحقوق والواجبات، حتى مع أبناء" الولايات المُحاربة" التى رفضت الدولة محاولات بعض القناصل الأوربيين بالاسكندرية"سلبهم" بذريعة أنهم فى عداء معها. وقد جاءت أسباب الرفض بناء على وجود معاهدة مع هؤلاء منذ عهد سليمان القانونى تتضمن"ضرورة مراجعة هؤلاء والنظر فى مصالحهم" ولأن القناصل الذين أقدموا على ذلك إنما يخالفون"عهود التجار الذين يأتون من الولايات المحاربة لمجرد سلبهم". أما الأهم فلأن ذلك يؤدى إلى"انسحاب التجار الذين يأتون إلى الثغر من الولايات المحاربة" وبذلك"يقع النقص بمحصول الثغر وبالمال الميرى"![٤٩].

وثمة ظاهرة أخرى لا يمكن إهمالها من مطالعة بعض سجلات المحكمة، وهى أن مجتمع مدينة الاسكندرية كان مجتمعاً غير متشدد، على الأقل بالمُقارنة بعصره. لنأخُذ مثلاً حق الزوجة فى السكن بالمكان الذى تُريده [٥٠] والعمل بالمهنة التى ترغبها، حتى ولو قضت معظم الليل خارج بيتها[٥١] بل وحقها فى"الخُلع" إذا ما طال سفر زوجها أو تزوج بغيرها[٥٢]. وبقدر ما شاركت الاسكندرية فى ذلك غيرها من المدن المصرية.. إلا أنها تميزت بقدر من الخصوصية، لاسيما مع كثرة أسفار أبنائها – أو قاطنيها – فى أمور تتعلق بالتجارة وغيرها[٥٣]. من ناحية أخرى فإن قضايا فعل المنكر فى البيوت[٥٤] أو حتى على ساحل البحر[٥٥] ودخول غير المسلمين لمقابر الأولياء[٥٦] وشرب الخمر لرجال ونساء مسلمين[٥٧] وأقباط ويهود[٥٨] وبجوار المساجد أحياناً[٥٩].. كل تلك القضايا تُشير إلى مجتمع غير متشدد. على أنه لا يمكن فصل ذلك عن الوجود الأوربى خاصة وقد سُمح للأوربيين بصناعة الخمور فى الاسكندرية

واستيرادها(٦٠). كما لا يمكن فصل ذلك عن عدم حزم السلطة أحياناً فى التعامل مع الأمور، بل ومشاركة بعض رموزها فى معاقرة الخمر(٦١) ومن ثم كان من الطبيعى أن يتغافل بعضهم عن يهود اعتادوا شرب الخمر فى الأماكن التى يعيشون فيها أو يعملون بها(٦٢) أو عن" نصارى" حولوا بعض مقابر الأولياء إلى خمارات(٦٣). وهكذا استمرت بين الحين والآخر الشكاوى ضد تجاوزات محتسى الخمر الأوربيين. ومع أننا أمام شكاوى رافضة.. فإن استمرار الشكاوى وأسبابها وزيادة أعدادها ونوعها وكثرة الفتاوى وأوامر السلطة.. توضح أن الأمور كانت فى تزايد وأن المنع كان شكلياً، وأن التعايش كان الفيصل حتى فى صنع الخمور واحتسائها.

أماكن سكن الأوربيين ودلالاتها

اعتمد تقسيم المدينة على الحارات / الخطوط التى سُميت باسم طائفة حرفية (الصيادين(٦٤) أو التجار(٦٥)).. أو سميت باسم مذهب (مثل حارة الأقباط شرق الثغر، وكان اسمها من قبل حارة الشاكرين أو الحمام) (٦٦) أو وفق الدين (مثل حارة اليهود التى سيغلب عليها، وبشكل تدريجى، مع القرن الثامن عشر اسم حارة شلتوت لأن غالبية سكانها أصبحوا من المسلمين) (٦٧) أو وفق اسم عائلة / أسرة (حارة أولاد جلبى) (٦٨). ومع أن التقسيم كان إسمياً لأن الجميع تجاوروا.. فإنه تضمن وجود" خط الأندلس"(٦٩) بل ووجود"خط البندقى، داخل درب المحمودية المعروف بابن أبي شريف"(٧٠) ومنطقة" بوابة الانقليز"(٧١).

وجرياً على ما كان فى العصر المملوكى سكن الأوربيون الفنادق مثل" فندق البنادقة الكبير" و" فندق مسينه" بخط باب البحر والذى عُرف أيضاً بالفندق الصغير، و"فندق الفرانسه" و"فندق الراجوزه" و"فندق الطاحون" وفندق"ناربون" وفندق"القطالونيين" و"فندق الريفية"(٧٢). كانت الفنادق مُختلفة المساحات مُتاحة للأوربيين، وبينما كانت المخازن بالأسفل مخصصة للبضائع والحيوانات

(والخنازير أحياناً).. خُصصت الأدوار العليا للمكاتب وغرف الاستقبال وعنابر النوم. وفى الفنادق كانت تُقدم الأطعمة، ويوجد الفرن والحمام وأحياناً الطبيب والحدائق، علاوة على كنيسة صغيرة. وبينما كانت الفنادق تعود ملكيتها لمصريين أو سكندريين[٧٣] أو وقفاً على مؤسسات دينية إسلامية[٧٤].. فإنها كانت تؤجر للأوربيين، كما كانت إدارتها أوربية حيث سادت قوانين كل دولة وإدارتها من خلال القنصل الذى عادة ما كان أحد كبار التجار، حيث يقوم برعاية أحوال مواطنيه ويهتم ببضائعهم وشحنها مُقابل مُكافأة بنسبة مئوية معينة من الأموال التى تمر بيديه، كما كان له الحق فى رفع شكاواهم إلى سلطات المدينة. وفى مسائل المنازعات حيث لا تكون هناك ترضية من جانب الأمير فى الاسكندرية، كان للقنصل الحق فى الذهاب بقضيتهم إلى القاهرة. وكان جميع من يطلبون الإقامة ممن يمكن قبولهم يتلقون منه ما يُعينهم على الإقامة. وفى العادة كان لكل دولة قنصلها الذى يقوم بالتفاوض من أجل مواطنيه، وأحياناً من أجل جنسيات أخرى[٧٥].

ومع أن بعض القنصليات الأوربية اتخذت مقاراً لها فى منازل[٧٦].. فالملاحظ أن الأوربيين تنازعوا فيما بينهم على حق السكن بالفنادق واستئجارها. ففى ١٦٤٤ رفع قنصل انجلترا شكوى للباشا حول أحقية الانجليز بالسكن فى فندق مسينا لأنه"من العادة له وطايفته.. من قديم الزمان ولم يكن لهم محل يسكنون به" غيره. وبناء على أمر الباشا أرسل القاضى من عاين الفندق وساكنيه. وبشهادة"جماعة من المسلمين" القاطنين فى مُحيطه، ثبت أن الانجليز يقيمون بالفندق منذ ست سنوات حتى أصبح اسمه"خان المسينيين والانكليز"[٧٧]. وفى ١٦٧١ نجح الانجليز مع الفلمنك والمالطيين فى إثبات حقهم فى السكن بـــ" فندق الطاحون" على حساب الفرنسيين، بعد اللجوء إلى القضاء وإظهار وكيل قنصلهم" أمر خنكارى يمنع طايفة الفرنسيس ويُمكنه من السكن بالفندق". وبعد سؤال المحكمة للجيران..ثبَّت القاضى حق الانجليز[٧٨].

بيد أن بعض الأوربيين فضلوا الإقامة خارج الفنادق، بل وخارج" حى الأعمال" التى كانت الفنادق توجد فيه بشكل رئيسى. وهكذا عاش الأوربيون بين أهالى الاسكندرية، خاصة على شاطئ البحر. ففى عام ١٥٥٤ استأجر"نقولا البندقى" من حمزه بن جعفر" علو مُركب على حاصل" بسوق البحر للسكن فيه(٧٩). أما" آنستانى" وكيل قنصل البنادقة فى عام ١٦٤٨ فكان له" منزل سكنه بحارة النصارى"(٨٠). وأما" دانيال اليهودى البندقى" فسكن فى عام ١٦٧١ مع ابنه بدار" فريحة اليهودى"(٨١). أما" رَبع اليهود" الذى كان مبنياً على" أرض مُحتكرة من وقف أبو العباس المرسى" فكان" مُعداً لسكن فقراء اليهود والأغراب"(٨٢). وفى ١٧٨٠ قام" أنطون البنادقى" بـــ" تعمير وترميم بيت سكنه على شاطئ البحر بأعلى الزاوية.. بسوق الحمارين.. فى وقف حسين جوربجى" وذلك بموافقة مُستأجر الوقف" الحاج يوسف من رشيد". وبعد أن أتم عمله ذهب إلى المحكمة بصحبة البنائين والنجارين - وكلهم مسلمون - حيث شهدوا على صحة ما أنفقه(٨٣). وهذه الحالة تؤكد أموراً عديدة : فالبندقى سكن فوق زاوية وإلى الشرق منه وكالة مصطفى أغا و" سكن الفرنسيس". والبيت يقع فى وقف مُسلم تركى ومُؤجر على مُسلم رشيدى، حيث أجره بدوره للبندقى. وترميم البندقى للبيت وإشرافه عليه ينم عن ثقة تامة من الرشيدى الذى لم يحضر أى شئ (بما فيه الحساب وتسجيله بالمحكمة) كما يعنى قدراً من تعامله اليومى المالى والعملى والإنسانى مع الحرفيين، حتى أنهم شهدوا معه فى المحكمة وأخذوا ما أنفقه على محمل الصدق. ومن الواضح أنه كان يعرف العربية بدليل عدم وجود ترجمان.

على أن القرن الثامن عشر شهد" نزوحاً" اختيارياً من الأوربيين للسكن خارج الفنادق، وبما يدعم كوزموبوليتانية السكن وحقيقة التعايش. وهناك حالات لفلمنكيين ونمساويين وانجليز وروس استأجروا بيوتاً بين الأهالى(٨٤). لكن اللافت للنظر أن بعض الأوربيين أجبر بعض الأهالى للتنازل عن سكنهم. وفى

إحدى الحالات التى تعود لعام ١٧٩١ كان السكندرى" شميل اليهودى" جاراً فى السكن للقنصل الانجليزى. لكن القنصل" تعدى على شميل" وكان" مانعه السكن محل بيته وطال النزاع والخصام". وبعد تدخل مراد بك لدى بعض المشائخ والأغوات وورثة الوقف، انتهى الأمر بإجراء" مُزايدة" ربحها القنصل، فاستأجر البيت من" عبد الرازق جوربجى" الناظر على الوقف، أما شميل فأُعطى مُهلة لإخراج" حوايجه"[٨٥].

والخلاصة أن الأوربيين لم يسكنوا الفنادق فقط بل انتشروا خارجها فى أماكن قريبة من البحر والميناء. وبقدر ما يُشير ذلك إلى زيادة أعدادهم وأنشطتهم، فإنه يُشير إلى قُدرتهم ورغبتهم خاصة وأن القناصل كانوا يرفعون"بُنديرتهم" على البيوت"القنصلية" بما يعنى إشهاراً لوجودهم ونفوذهم[٨٦]. وحين دبت الخلافات بينهم قامت المحكمة - بتأييد من ولاة الأمور - بدور مهم فى تسويتها وبالاعتماد على الواقع وشهادات الجيران السكندريين الذين عاش الأوربيون بينهم وجاوروهم، وهو الأمر الذى يبدو طبيعياً ويتناسب والأسباب التى حدت بهم إلى الذهاب إلى المدينة.

قد يقول البعض بأن العيش بالفنادق كان عزلاً للأوربيين أو عُزلة منهم. على أن هذا ينفيه كون الفنادق قد أُحيطت بجيران سكندريين : فخان الجنويز كان إلى الشرق من" باب سوق البحر" وعلى مقربُة من"سوق الجوخ"[٨٨]. وعندما يُحدد قنصل الانجليز بالمحكمة موقع" فندق الطاحون" ذكر أنه" المجاور لسكن محمد الدرشابى"[٨٩]. والعلو الذى استأجره" نقولا البندقى" من" حمزة بن جعفر "كان" مُركباً على حاصل مجاور لوكالة منصور" بسوق باب البحر[٨٩] وعلى مقربة من السوق كانت" حارة التجار" بالنجع البحرى، وإلى الجنوب منه كان "سوق الصاغة" وفى شرقه" حاصل ودويرة" محمد النجار الذى امتلك أيضاً قهوة و" نصف وكالة" بـــ" خط سوق الصُيَّاغ"[٩٠]. وهكذا كان هناك تداخل بين الجميع

فى السكن حتى أن" خان الجنويز" مثلاً كان من الأماكن التى يُشار إليها فى تحديد حدود البيوت أو الحوانيت[٩١]. ومرة أخرى : هل كان من الممكن أن يعيش الأوربيين بهذا الشكل مالم يكن أهالى الاسكندرية أنفسهم – مسلمين وأقباطاً ويهوداً – قد تجاوروا فيما بينهم ؟. والإجابة تتضح من كون السكندريين تداخلوا مع بعضهم البعض فى السكن، وأن مُسميات الحارات لم تدل فى الواقع على انغلاقها على أصحاب دين أو إثنية بعينهم. وإذا كانت الوثائق تحوى الكثير من حالات ذلك التداخل بين الأهالى (على مختلف أديانهم) والأوربيين[٩٢] فإن كتابات الرحالة تعُج باختلاطهم بالأهالى. وبالطبع لم تنعدم المشاكل، خاصة وأن التجاور – ومن ثم التداخل – كان من الطبيعى أن يؤدى إلى نزاعات على استئجار الأراضى والبيوت[٩٣] أو لأمور تتصل بالعادات، حيث الشكوى من أن تعلية غير المسلم لبيته يكشف له عورات بيوت جيرانه[٩٤]. على أنه لابد من فهم النزاعات على أنها نتيجة للعيش المُشترك وليس على أساس آخر، وهو أمر سنعود إليه.

أنشطة الأوربيين ودلالاتها على التعايش

تعددت أهداف الأوربيين من المجئ إلى مصر والاسكندرية. وإذا كان معظمهم جاء من أجل التجارة والربح.. فقد جاء بعضهم للحج والسياحة وجمع المعلومات الطبية والمومياوات أو حتى للتبشير والتجسس، وهى المهام التى حظيت بدور متنامى منذ القرن الخامس عشر[٩٥]. ولقد كان مما أدهش القنصل الفرنسى عام ١٥٩٨ علمه من زائريه التشيك أنهم حاربوا الأتراك فى أوربا وبعدها مباشرة جاءوا للحج[٩٦]. أما التجارة بين مصر وأوربا، والتى مارسها الأوربيون فى إطار اتفاقيات مع الدولة العثمانية أو حتى بدون اتفاقيات، فقد سيطر الفرنسيون والإيطاليون على غالبيتها[٩٧]. وعلى كل فالتجارة الأوربية فى مصر لم تقتصر على الرجال بل وشاركت فيها أوربيات بنصيب[٩٨].

وقد رصدنا من تعاملات المحكمة فى النصف الأول من القرن السادس عشر ٦٧ حالة بيع وشراء وقروض وفداء أسرى، وتوزعت كالتالى : ٤٦ حالة لسكندريين فيما بينهم، بنسبة ٦٨,٦٦ %. ١٢ حالة لسكندريين وأوربيين بنسبة ١٧,٩ %. أربع حالات لأوربيين فيما بينهم، بنسبة ٥,٩٧%. حالتان لسكندريين وأتراك وأروام بنسبة ٢,٩٩%. حالة واحدة وبنسبة ١,٤٩ % لكل من فرنسى ومغربى، سكندرى مغربى ومغربى، تركى ومغربى. وبشكل مفصل كانت التعاملات كالتالى : عشرين حالة لسكندريين مسلمين فيما بينهم. تسع حالات لسكندريين مسلمين ويهود. ثمان حالات لسكندريين مسلمين وأقباط. ثلاث حالات ليهود سكندريين وفرنسيين. حالتان لكل من : سكندرى يهودى وبندقى، سكندريين أقباط فيما بينهم، سكندريين يهود فيما بينهم، سكندريين أتراك الأصل ومسلمين، سكندرى مسلم وبندقى. ثم حالة واحدة لكل من : سكندرى مسلم وتركى مسلم، سكندرى طرابلسى الأصل ورومى مالكانى، مملوك جركسى وسكندرى مسلم، سكندريان تركى مسلم وسكندرى يهودى، تركى مسلم ومغربى مسلم، مغربى سكندرى ومغربى، سكندرى مسلم وقبرصى، سكندرى مسلم وتركى سكندرى مسلم مع سكندرى يهودى، بندقى وتركى، فرنسيان، يهودى وانجليزى، قبرصى وافرنجى غير محدد، فرنسى ومغربى مسلم، روديسيان، سكندرية مسلمة وافرنجية غير محددة الهوية، مسلم غير محدد الهوية وفرنسى، سكندرى مسلم وقرمانى. وهذا يعنى أن التعاملات الأوربية زادت على ٢٣% من إجمالى التعاملات. وبالطبع سيطول العرض للتعاملات فى العصر كله، وبشكل عام نلاحظ ما يلى :

١- الزيادة الواضحة فى التعاملات بين السكندريين أنفسهم(٩٩). وهذا يعنى أن المصلحة والتعايش المحلى - لا الدين - قد لعبا الدور الأهم. وهكذا زادت، وعلى سبيل المثال، نسبة تعاملات المسلمين مع كل من الأقباط واليهود عن تعاملات الأقباط أو اليهود بعضهم مع بعضهم.

٢- اتسمت مبالغ التعاملات مع الأوربيين بالضخامة مُقارنة بالتعاملات بين الأهالى، وهو ما يعكس الفرق بين التعاملات بالجملة والتجزئة. فبينما تم الشراء والبيع بين الأهالى بالتجزئة غالباً، كان كبار التجار أو الوسطاء يقومون بتجميع السلع، ثم يقومون ببيعها للأوربيين.

٣- مع أن قلة التعامل بين الأوربيين أنفسهم كان طبيعياً، فإن تنافسهم بدا واضحاً. وإذا كان الهولنديون (الفلمنكيون) - كمثال - شاركوا الانجليز بعض أماكنهم من قبل.. فقد شهد القرن الثامن عشر استقلالهم بها. لقد استأجروا رَبعاً على شاطئ البحر فى وقف إبراهيم القُرضه (تكون من ستة حواصل وحانوت حلاقه). وفى عام ١٧٨٦ حاولوا تثبيت إيجار الربَع عليهم وذهب قنصلهم" وازلين" إلى المحكمة التى أيدته بمساعدة من المسئولين، بل ونجح فى زيادة الأماكن المُستأجرة[١٠٠]. وفى عام ١٧٨٨ حصل على حق استئجارها لعشر سنوات أخرى[١٠١]. وهنا اشتكى الفرنسيون بأن تأجير الحاصلين الواقعين" تحت الوكالة الكبرى" غير قانونى لأنهما فى إيجارهم لسنة وسبعة أشهر. وفى النهاية أيد القاضى ذلك مُعتبراً إيجار الفلمنكيين" لا يجوز شرعاً" طالما بقى للفرنسيين المدة المذكورة، كما" أفتى" العلماء و" شهد جماعة من المسلمين" بأن" الحق بيد الفرنساوية". وهكذا انتهى الأمر بإعطاء حق الانتفاع للفرنسيين للمدة الباقية لهم على أن تسلم الأماكن للفلمنكيين بعدها[١٠٢]. وكما نرى فالقضية بمجملها تعكس تداخلاً واضحاً فى التعامل بين السكندريين والأوربيين، وتنافساً بين الأوربيين. وإذا كان ذلك يدفعنا للتساؤل عن موقف الفرنسيين عندما غزوا مصر فى السنة التى انتهى فيها عقد إيجار الفلمنكيين، فإنه يدفعنا لتساؤل أهم : هل كان ذلك يؤثر على التعايش بين الأوربيين أنفسهم فى الاسكندرية؟.

٤- لم يقم الأوربيون دائماً بأعمالهم المالية وأوكلوا أحياناً إلى سكندريين مهمة استخلاص حقوقهم من المدينين(١٠٣). وفى المقابل هناك توكيلات من مصريين لأوربيين(١٠٤). كما توجد حالات قام فيها طرف سكندرى بضمان طرف أوربى رغم خطورة ذلك فى ظل الامتيازات(١٠٥). بل وتوجد نماذج على حمل أوربيين" أمانات" لسكندريين(١٠٦) وحمل سكندريين أمانات لأوربيين(١٠٧). وهنا علينا أن نضع فى الاعتبار أنه لولا الثقة الناتجة عن تعاملات بعيدة المدى واختلاط وجيرة بين السكندريين والأوربيين، لما أوكل طرف الآخر ولما ضمن طرف الآخر أو استأمنه على أمواله. ونعتقد أن ذلك بقدر ما نبع من طبيعة المجتمع السكندرى(١٠٨) بقدر ما نبع من واقع التعايش وليس مجرد الرغبة فيه.

٥- استخدم الناس العملات المختلفة دون اعتبار لما إذا كانت أوربية أو عثمانية / إسلامية. لقد تعايشت العملات وكانت الأقوى هى الأكثر استخداماً. ومن بين ٧٣ تعاملاً بالمحكمة فى النصف الأول من القرن السادس عشر، كانت العُملات كالتالى: خمسة وعشرون تعاملاً بأنصاف فضه (عددية وسليمانية وعثمانية)، تعامُل واحد بفضة سليمانية وذهب، عشرة تعاملات بدينار بندقى، أحد عشر تعاملاً بدينار ذهب سلطانى جديد، إحدى وثلاثين عملية تعامل بدينار أكرونى ذهب، ستة عشر تعاملاً بدينار ذهب دون تحديد نوعه، تعامل واحد بدينار قايتباى، تعامل واحد بدرهم فلوس جدد، تعامل واحد بدينار عبدلى، تعامل واحد بدينار مشجر. وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر هناك ١٤٢ حالة تعامل وكانت العملات المُستخدمة : أربع وأربعون حالة بأنصاف فضة (سليمانية ومرادية وعثمانية)، حالة تعامل واحدة بعثامنة رومية، أربع وسبعون حالة تعامل بدينار ذهب سلطانى جديد، خمس وعشرين حالة تعامل بالذهب الأكرونى، ثلاث عشرة حالة تعامل بدينار (دون تحديد)، حالة تعامل واحدة بدينار بندقى ذهب

ونحاس، حالة تعامل بفلوس نحاس كبار. وفى النصف الأول من القرن السابع عشر لدينا ٦٧ تعاملاً وكانت العملات : اثنتان وعشرون حالة تعامل بدينار ذهب أحمر سكة شريفى سلطانى، إحدى وعشرين حالة تعامل بأنصاف فضة (عثمانية وأحمدية)، حالة تعامل بدينار إبراهيمى، حالتا تعامل بدينار بندقى، ثلاث حالات تعامل بدينار ذهب غير محدد، سبع حالات تعامل بقروش ريال، حالة تعامل بأنصاف نحاس حالة تعامل بقروش فضة أكارنه، ثلاث حالات تعامل بقروش ريال أبى مشط، حالة تعامل بدينار غير محدد، أربع حالات تعامل بقروش فضة كبار (ريال)، حالة تعامل بقروش (غير محددة)، حالة تعامل بقروش أسدية. وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر لدينا ٢٨ تعاملاً وكانت العملات المُستخدمة : حالتان بقروش عددية، واثنتا عشر حالة قروش (فقط)، حالة واحدة لقرش عربى، خمس حالات لقروش فضة، أربع حالات لأنصاف فضة عددية، حالة واحدة لقروش ريال سفيلية، حالتان لقروش ريال أبى مشط، حالة واحدة لفضة ديوانية. وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر هناك ٣١ حالة وكانت العملات : حالة واحدة لكلب أسدى، ست حالات قروش (فقط)، عشر حالات لأنصاف فضة، حالتان لدينار ذهب شريفى أبو طره، حالة واحدة لقروش فضة، ثلاث حالات لريال حجر أشبيلية، حالة واحدة لريال أبى مشط، حالة واحدة لقروش معاملة عددية، ثلاث حالات لقروش رومى، حالة واحدة لريال تونسى، ثلاث حالات لدينار شريفى ذهب فندقلى، حالة واحدة لدينار محبوب. وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر توجد ٣١ حالة تعامل أيضاً وكانت العملات المستخدمة : حالة واحدة لقروش (فقط)، عشر حالات لريال حجر محبوب بطاقة (أبو طاقة)، ثلاث عشرة حالة تعامل بريال معامله (فقط)، حالة واحدة لريال بندقى، ثمان حالات بأنصاف فضة، حالتان لقروش رومى. وعلى كل فالوثائق توضح

أن العملات الأوربية كانت موجودة باستمرار، خاصة فى القرن الثامن عشر لكن الأهم هو أن ذلك كان يعنى نوعاً من الثقة فى الأوربيين أنفسهم وليس فى عملاتهم فقط، حتى قيل"إلعب بالمجر لما يجيك البندقى"(١٠٩).

٦- على الرغم من عدم ظهور تاجر مصرى يهودى فى حجم أحمد الرويعى أو إسماعيل أبو طاقيه.. قام يهود الاسكندرية بدور بارز فى تبادل السلع مع الأوربيين حتى عهد على بك الكبير(١١٠) وجنوا أرباحاً ضخمة. كان ذلك نتيجة لعوامل عديدة منها تركزهم فى المدن، وخاصة فى الاسكندرية التى عاشت فيها أكبر ثانى جالية يهودية بمصر بعد القاهرة، وعلاقتهم بالسلطة فى استانبول والقاهرة(١١١) بل وكونهم أحياناً جزءاً مُهماً من الإدارة المالية (كمشاركتهم فى التزام جمرك الاسكندرية الذى توالى عليه سلسلة من اليهود الربانيين) (١١٢) وبما يعنى تمتعهم بالكثير من الامتيازات والمميزات التى استغلوها لمصلحتهم (علاقة السلطة بالثروة). هذا ناهيك عن إجادتهم للغات حتى أتقن بعضهم سبعاً منها، وكذا جو الحرية التجارية والتسامح الذى عاشته الاسكندرية وفتحها أبوابها للتجارة والتجار من كل جنس ودين، وأنها كانت بمثابة المنفذ الرئيسى للاتصال بالعالمين العثمانى والأوربى، ولعبت دوراً مزدوجاً جمع بين وظيفتها كميناء للصادر والوارد من البضائع والسلع وكملتقى للتجار الفرنج والمحليين. والواقع أن إجادة اليهود للغات كانت نتيجة وسبباً ؛ فمنهم من كانت أصوله أندلسية أو فرنسية، ومن ثم كانوا الأقدر على الترجمة. على أن العمل بالترجمة فتح لليهود آفاقاً أخرى، ومنها تمتعهم ببنود الامتيازات (كإعفائهم من بعض الضرائب والرسوم، والسماح لهم بحرية الحركة بين مصر وأوربا) (١١٣) وتأهلهم للوكالة بالمحكمة عن الأوربيين، والاتصال بالأهالى فى البيع والشراء. كما أن عملهم بالترجمة أدى إلى قيامهم أحياناً بلعب دور السماسرة وتُجار التجزئة بين المنتجين وصغار التجار والأوربيين، بل والوكالة فى أعمال التجارة

بشكل عام عن الأوربيين. وبالتدريج استطاع اليهود الاتجار مع الأوربيين، أو مشاركتهم فيها أحياناً بل والذهاب بالتجارة إلى أوربا، أو حتى إرسالها مع وسطاء أوربيين(١١٤). ومع أن هذا لا ينفى ماقلناه عن تجاور الأوربيين والسكندريين غير اليهود وتعاملهم الذين استطاع بعضهم الذهاب بتجارتهم إلى أوربا(١١٥) وأن اليهود فى معظمهم كانوا مصريين.. فإننا نتساءل عن مدى كون اليهود مسئولين عن تحجيم علاقة الأوربيين بالمصريين ؟. بالإضافة إلى ما سبق علينا ملاحظة أن بروز دور اليهود فى العلاقة بالأوربيين لا ينفى قيام الخلافات بين الجانبين بسبب" طمع" اليهود فى الهيمنة على أمور السمسرة، الأمر الذى رفضه الفرنسيون مثلاً واتضح فى معاهدتهم مع الدولة فى عام ١٧٤٠(١١٧).

الخلاصة أن الاسكندرية كانت مفتوحة للجميع من الناحية التجارية دون تفرقة بين الأجناس أو الأديان، وهو ما جعل الأوربيون يمثلون نسبة مُهمة من تجارها وساكنيها. ومع أن القاهرة جذبت القناصل فقد بقى بعضهم بالاسكندرية. وفى كل الأحوال كان للأوربيين الحق فى اختيار ممثليهم وفرضهم حتى قيل إن فرنسية تولت منصب قنصل الاسكندرية حوالى منتصف القرن السادس عشر(١١٨). وهناك حالة ذهب فيها إلى المحكمة عدد من الفرنسيين" والجنويز والدبرونك والانكليز.. وسيمون بن أنطونيو الفرنسى وصحبته جماعة من الفرنج من التجار الفرنج المتسببين الواردين بمراكبهم لبندر اسكندرية بأنواع البضايع والمتاجر" حيث" أخبروا.. أنه بلغ إليهم أن بيرو بن جاكمو تولى قنصلاً على طايفة الفرانسة.. وأنهم غير راضين بذلك ولا يقبلون أن يكون قنصلاً عليهم إلا مرسليا كوستارين لحسن سيرته فيهم، وبحكم ما بأيديهم من الأحكام الخنكارية والتمسكات الباشوية ومراسيم سلطان فرانسا بأنه لا يتولى عليهم إلا من يختاروه ويرضوا به، وأنه متى تولى عليهم بيرو لا يحضر أحد منهم إلى الاسكندرية ولا يتعاطون فيها بيع ولا شراء.. والتمسوا من القاضى ضبط مقالتهم وطلبهم

ليعرض على الأمرا ليترتب عليه بمقتضاه، فأجابهم لما طلبوا"[١١٩]. ومن المهم ملاحظة أننا أمام حالة فرض فيها بعض الفرنسيين والأوربيين ممثلهم على فريق آخر حظى بدعم بعض الأمراء، وأنهم رفعوا سلاح" المقاطعة". وعلى كل تعددت مشاكل تعيين القناصل الفرنسيين فى مصر، ودائماً ما قامت السلطة فى استانبول والقاهرة والاسكندرية بواجباتها تجاه تلك المشاكل[١٢٠].

ومع أن التجارة كانت أهم نشاط للأوربيين فى مصر وحققوا منها أرباحاً طائلة جعلتهم على قدم المساواة مع أثرياء التجار المحليين[١٢١].. فإن بعضهم استأجر الأراضى[١٢٢] أو مارس الحرف. فهذا" سكى اصطاولى" وقد تجاور حانوته بسوق البحر مع حانوت سكندرى مسلم[١٢٣]. أما" سكن النصارى المُعد لتخزين الجلد" فوقع ضمن الوقف الخيرى لست الأشراف بنت على أغا، بسوق أبى زيان وجاوره" حاصل محمد الزناد"[١٢٤]. وما يهمنا مرة أخرى هو تداخل الأوربيين وجوارهم مع سكندريين، حيث كانت الظاهرة عادية ونبعت فى الأساس من ظاهرة تجاور حوانيت ومتاجر السكندريين أنفسهم.

نماذج من حياة الأوربيين فى الاسكندرية

هناك من الشواهد ما يشير إلى أن الأوربيين عاشوا حياة طبيعية لحد كبير. لقد كانت لديهم القدرة على الزواج، وتوجد نماذج لزواج أوربيين بأوربيات حيث سُجل ذلك فى المحكمة بشروط لا تختلف عن المُعتاد فى زواج المصريين (مُقدم ومُؤخر وشهود) [١٢٥]. وفى المقابل هناك حالات للطلاق[١٢٦]. ورغم قلتها، نعثر على حالات زواج بين مصريات وأوربيين[١٢٧] وبين سكندريين وأوربيات[١٢٨] وخاصة بجوارى أُعتقن وأسلمن. وما سبق يعنى قدرة الأوربى على تكوين أسرة، أو اصطحاب أسرته معه. وهذه حالة" الخواجا آنستانى وكيل قنصل البنادقة" برشيد الذى سكن حارة النصارى فى بيت جيد التأثيث واحتوى على مقتنيات ذهبية وخادم" نصرانى".. لكنه هرب بصفقة كتان

لم يسدد ثمنها تاركاً زوجته[١٢٩]. حالة أخرى دل فيها توزيع تركة" أندريا وكيل البنادقة" على أنه اصطحب معه عائلته، وعند موتهم جميعاً - ربما بالطاعون - ذهب الميراث إلى والدة زوجته" خرستيا" وإن أخذ وكيل القنصل الجديد جزءاً منه[١٣٠]. بالإضافة لذلك تكررت حوادث تحول بعض الأوربيين إلى الإسلام وزواجهم واستقرارهم فى مصر.

من جهة أخرى كان للأهالى تعاملاتهم مع الأوربيين بما فيهم من سكنوا الفنادق، خاصة وقد أتقن بعضهم العربية أو على الأقل كان يفهمها[١٣١]. ومع أن الأوربيين الذين عاشوا فى الفنادق كان لهم من يُعد خبزهم وطعامهم ومن ثم نعثر على لقب" الخباز" أو" الفران بفندق التجار الفرنج"[١٣٢].. فإن ذلك لا يدل على عُزلة بل على نوع من النظام والتقاليد الاجتماعية والغذائية، بل وعلى قدرة مالية. أما الذين عاشوا خارج الفنادق فكانوا يشترون طعامهم مباشرة من سكندريين. والطريف أن" النوبتجى" نبه لأكثر من مرة على" حميد المخبزى" بألا" يبيع خبز الطلمة لطايفة النصارى إلا بحانوت سكنهم بسوق باب البحر داخل الثغر كالعادة، ولا يبيع البقسماط إلا بالحواصل التى بالقرب من المينا الشرقية بوكالة السنانية"[١٣٣]. ويمكن قراءة الوثيقة على أساس أن السكندريين والأوربيين لم يلتزموا بمنع السلطة شراء الأوربيين للخبز من المخابز مباشرة. ومع أن بعضهم عاش عيشة رغدة حتى اصطحب معه مُستشاراً طبياً (مثل قنصل البندقية عام ١٥٨٢ Gorgio Emo الذى اصطحب معه الطبيب Prospero Alpini).. فهناك من استأجر مكاناً بسيطاً للعيش فيه. وهذا" دانيال اليهودى البندقى" وقد استأجر حجرة بدار" المعلم فريحة اليهودى" حتى أنه مات بسبب سقوطه من على سلم أثناء صعوده للسطح لإحضار الحطب[١٣٤].

ورغم حساسية أمور الملبس والتى وصلت أحياناً إلى السماح للأوربيين بارتداء زى أهل البلاد[١٣٥].. ذكر بعض الرحالة أن الأوربيين ارتدوا القُبَّعات"

والملابس القصيرة والضيقة" التى اعتادوها فى بلادهم مع أنها لم تكن تليق وعادات أهل البلاد وملابسهم، كما مارسوا الرقص والموسيقى(١٣٦). وإذا كانت بعض النسوة مارسن أحياناً أنشطة ذات طبيعة خاصة كإحياء الأفراح(١٣٧).. فقد مارس الرجال هواياتهم فى لعب الطاولة و" الكوتشينه" أو التنزه وصيد الأسماك والحيوانات والطيور(١٣٨). والأهم أن ممارسة الأوربيين لهواياتهم كان على مرأى من الأهالى، بل ومساعدتهم أحياناً. وهناك حالة حاول فيها القاضى منع سكندرى يتمتع بالحماية التوسكانية من ممارسة لعب الطاولة مع رجل توسكانى" والحياة على شاكلتهم". لكن إبراهيم بك أرسل إلى القاضى بعدم التدخل على أساس أن الرجل تعود على حياتهم" والحال [أن] المذكور من قديم حكم معتادهم فى بلادهم، ومعيشة المذكور هو وعياله منهم وافرنج فى بعضهم مالك معهم مقارشة". ومن ثم أمر بأن" تمنعوا كل من يتعرض له بوجه من الوجوه"(١٣٩). وبالطبع تمتع الأوربيون بحرية الانتقال فى المدينة للتجارة ومشاهدة الآثار(١٤٠). وفى كل الحالات كانت لدى الأوربيين القدرة والحرية فى التعامل مع أهالى الاسكندرية. ولعل ما ورد فى كتابات الرحالة من وصف للمجتمع وعاداته، بل وللقلاع.. لمما يؤكد واقع اختلاطهم بالناس(١٤١). لم لا وقد أشارت الوثائق لمجئ أوربيين إلى القاهرة لعلاج بعض الحكام(١٤٢).

ومن حقوق الأوربيين التى تعكس التعايش حقهم فى الشهادة بالمحكمة طالما كانوا أطرافاً فى قضايا أو ممن تُطلب شهادتهم. لقد خلقت التعاملات الظروف التى يجب أن يدخل فيها الأوربى المحكمة لسماع شهادته، وكان من المُعتاد أن تأخذ المحكمة بقسمه(١٤٣). كما كان من حق الأوربيين ضبط التركة وفقاً لنظامهم على يد قنصلهم أو وكيله، وبشكل تُراعى فيه حقوق الورثة(١٤٤). وعندما يستولى بيت المال على التركة لعدم وجود الوريث، فإنه كان يتنازل عنها عند ظهوره، وبعد أن تُخصم ديون المتوفى(١٤٥). وكثيراً ما أنصفت المحكمة أوربيين طالما لم يستطع خصمه إحضار" البينة الشرعية" الكافية(١٤٦). بل ولقد

أنصفت المحكمة" إفرنجياً" على سكندرى مسلم، رغم اتهام السكندرى للأوربى بإهانته للقرآن، وذلك لعدم وجود شاهد ثان[١٤٧].

على أن ماسبق لا يعكس كل أشكال التعايش. وإذ أوردت الوثائق تولى بعض اليهود من أصل أوربى لالتزام مقاطعة جمرك الاسكندرية (مثل شموٴال الافرنجى) [١٤٨] وقيام" قنصل الفلمنك" لأكثر من مرة بالتبرع لأماكن وقف استأجرها[١٤٩].. فإنها تفاجئنا بمثال آخر عام ١٥٧٢ عن مشاركة الأوربيين فى حفر الخليج الناصرى الذى أمد الاسكندرية بالمياه واستُخدم أحياناً لنقل التجارة[١٥٠]. لقد أمر الباشا بحفر الخليج" ثمانية آلاف ذراع طولاً وستة عشر ذراعاً عرضاً وثلاثة عمقاً" وتوكيل الأمير" قيت أغا التوفكجية بالقاهرة" للإشراف على العمل، على أن يتم" صرف دينار من الذهب الجديد عن كل ذراعين". وفى الاسكندرية استعان"قيت" بآخرين" وندب القاضى" وجماعة الأعيان" حيث أشهدوا على أنفسهم بأنهم" قبضوا وتسلموا أجر حفر الثمانية آلاف ذراع". وهكذا كان نصيب" أهل الجزيرة" ثلاثة آلاف ذراع" منها على طايفة المسلمين ألف ذراع وسبعماية" والباقى، وهو ١٢٠٠ ذراع، كان على اليهود. أما" أهالى الناحيه" فكان نصيبهم ٥٠٠٠ ذراع تم توزيع حصصها كالتالى : "جماعة الجانب الشرقى والبرانقه والزلاطه" ١٠٠٠ ذراع،" أهالى كوم التكه" ٥٠٠ ذراع،" أهالى باب السدره" ٣٠٠ ذراع،" جماعة النجعين" ٣٠٠ ذراع، "جماعة المغاربة" ٤٠٠ ذراع،" أهالى الرمل" ٥٠٠ ذراع،" النصارى القبط" ٣٠٠ ذراع. والأهم أن بقية الحصص تم توزيعها كالتالى :" حصة النصارى القبارسه" ٢٠٠ ذراع" عنها ماية دينار تسلمها زكريا ولد لويز وغبريال ولد مركوا. ومن ذلك حصة الإفرنج التجار بالثغر من جماعة الفرانسة والوندس والديرويه ألف ذراع وخمسماية ذراع عنها ذهب سبعماية وخمسون ديناراً تسلمها المعلم باولوا وجون ولد يندرا وفرنسيسكوا وكازلو الحكيم وعليهم الخروج من عّهدة ما قبضوه بالطريق الشرعى وبمقتضى ذلك بريت ذمة الأمير قيت من المال المقبوض بيده"[١٥١].

إننا أمام مسئولية جماعية شارك الأوربيون فى أعبائها بقدر ما كانوا يشاركون فى منافعها. لم تأت المسئولية من فراغ خاصة وأن الخليج يشرب الجميع منه. ومن ثم تم توزيع عبء" حفر الأذرع" على قاطنى المدينة بشكل يبدو أنه اتفق مع مدى استفادة كل فريق وبما يتناسب مع أعداد السكان، وهو ما يُعيدنا بالتالى إلى نسبة وجود الأوربيين بالاسكندرية. فإن صح ذلك فإن نسب الحصص كانت كما يلى : أهل الجزيرة ٣٧,٥ % من الإجمالى، منها ٢١,٢٥ % للمسلمين و١٥ % لليهود. حصة أهالى الناحية ٦٢,٥% من الإجمالى، منها ٦,٢٥% لجماعة الجانب الشرقى والبرانقه والزلطه و٣,٧٥% لأهالى باب السدره و٣,٧٥ % لجماعة النجعين و١٢,٥% لأهالى كوم التكه و٥% للمغاربه و٦,٢٥% لأهالى الرمل و٣,٧٥ % للأقباط. أما حصة الأوربيين فكانت ١٨,٧٥% وحصة القبارصة ٢,٥ %. فلو أضفنا حصة القبارصة لحصة لأوربيين لأصبح نصيب الأوربيين ٢١,٢٥%. والواقع أن أهمية الوثيقة تعود فى الأساس إلى أنها تعبر عن مدى المسئولية الجماعية عن مشروعات عامة فى ظل التعايش المشترك، حيث ساهم الجميع، بمن فيهم الأوربيون، فى حفر الخليج. لم تكن المسئولية الجماعية آتية من فراغ بل تم توزيعها على قاطنى الاسكندرية بشكل ميز بين كل فريق حسب نسب السكان، وأيضاً وفق الاستفادة المشتركة من الخليج، ومن ثم اشترك المغاربة والنصارى والافرنج الروديسيون، والافرنج الفرنسيون.

عن الحياة الدينية للأوربيين بالاسكندرية

بقدر تعدد الأجناس / الإثنيات.. تعددت الديانات والمذاهب التى تعايشت إلى حد كبير فى الاسكندرية إبان العصر العثمانى. وهكذا فبالإضافة إلى المسلمين والأقباط واليهود.. كان هناك الملكانيون والكاثوليك والبروتستانت، حيث كان لأصحاب كل دين ومذهب مؤسساتهم الدينية التى مارسوا فيها

شعائرهم[١٥٢]. وتشير وثائق القرن السادس عشر إلى وجود" كنيسة الفرنج" بشرق الثغر. أما كتابات الرحالة فتشير إلى امتلاك بعض القنصليات لكنائس، وأن الكنائس الصغيرة وُجدت بالعديد من الفنادق مثل كنيسة سانت مارى الجنوية وكنيسة سانت نيقول البيزية وكنيسة سانت ميشيل البندقية والتى كان الموتى يدفنون فى مقابرها. وقد وصف الرحالة الألمانى كريستوفر هارانت كنيسة فندق الفرنسيين بالاسكندرية عام ١٥٩٨ بأنها" واسعة ولطيفة"[١٥٣]. وعلى كل فإن ممارسة الأوربيين لشعائرهم كانت بموافقة السلطة وتأييدها[١٥٤].

ومع أنه ليس من مهمة هذه الدراسة تتبع تطور الممارسات الدينية للأوربيين فى الاسكندرية بكل مشاكلها الخاصة بعلاقة كنيسة روما – وغيرها – بالكنيسة القبطية، وبالتبشير[١٥٥] وأيضاً بقضية التحول إلى الإسلام[١٥٦].. فإننا نتوقف أمام حادثتين دالتين. الأولى عام ١٧٨٦ حين أرسل مراد بك إلى مسئولى الاسكندرية بأن أحداً منهم لم يخبره بأن" النصارى جددوا وعمروا كنيستين" ولا ما إذا كان ذلك تم بأمر من" الدولة العليه" أم لا وأن" هذا أمر يُخل فى دين المحمدية" حتى طالب بضرورة أن" تهدوا الكنايس المذكورة للأرض".. فإنه – وإبراهيم بك – أرسلا بعدها بشهر ليُجيزا" لقناصل الإفرنج بتعمير دير الرهبان بتاعهم على ما كان" وألا يُعارضهم أحد" بحيث أن يعمروه حُكم قديمه من غير زيادة ولا نُقصان.. ومن اليوم ورايح لم أحداً يتعرض إلى المذكورين من كل وجزء لأنهم محسوبين لطرفنا وكل من يتعرض لهم ترسلوا تعرفونا واحنا نعرف خلاصنا.. وتطمنوا القناصل والتجار بالثغر لم يكن عندهم شاغل ولا فكره ومن اليوم ورايح لم لهم إلا كل راحه" وأن ما حدث من قبل" حصل عن غلط" لأن الإبلاغ عن الأمر كان" بخلاف الواقع"[١٥٧]. وهذا المثال يوضح أننا لسنا فقط أمام حرية الممارسة الدينية للأوربيين، بل وقدرتهم على" إعادة بناء" كنيسة، مع أن الأرض كانت"ملك الجامع الغربى".. الأمر الذى يشير من جديد إلى" الكوزموبوليتانية الدينية" للمدينة.

أما الحادثة الثانية فتتصل بالصراع بين فرنسا والنمسا بعد الثورة الفرنسية للسيطرة على أماكن دينية بالاسكندرية، وما تعكسه من حق حماية الكاثوليك. لقد أثارت النمسا المشاكل بعد صلحها مع الدولة العثمانية وحصولها فى إطار الامتيازات على تعريفة جمركية لتجارها(١٥٨). وفى يوليو ١٧٩٤ وبحضور القاضى واثنى عشر من المسئولين والعلماء" وتراجمة البنادق وسويد والدوبره والانجليز والفلمنك وغيرهم".. أبرز ترجمان النيمسة فرماناً من الباشا يتضمن ضرورة عدم التعرض للدير" المقيمين به طايفة القساقيس" الذين" صاروا تحت حماية سلطان النيمسة. وأما الفرنساوية لم بقا لهم علاقة مع الدير ولا الرهبان وتمنعوا الفرنساوية المنع الكُلى". كما أبرز رسالتان من إبراهيم ومراد بك بالإضافة إلى" صورة فرمان من السلطان.. دل مضمونه على تقديم عرضحال شكاية من القساقيس" بأنه"يحصل لهم الأذيه والعذاب والإهانة وأخذ أموالهم". على أن المشايخ والحكام طلبوا حضور" ريس الدير والقساقيس القاطنين به لأجل السؤال منهم : هل أحداً من أهل الثغر تعرض لهم بأذيه أو ضرب أو أخذ شئ منهم". لكن الترجمان أجاب" لم أحداً من أهالى الثغر تعرض لهم بشئ وإنما التعرض من بعض ناسات من بلاد غير ثغر اسكندرية"(١٥٩). ومعنى هذا أن الفرنسيين والنمساويين هم من نغصوا التعايش الدينى بسبب صراعاتهم السياسية فى أوربا بعد الثورة. وإذا كان الفرنسيون لم يقبلوا بما حدث واشتكوا لاستانبول، فإن شكواهم أوضحت توسع النمساويين فى استخدام ما سُمح لهم به. ففى أبريل ١٧٩٥ أرسل مراد لمسئولى الثغر عن شكوى الفرنسيين من" أن وكيل قنصل النمسة شال البيرق والكرسى بتاع قنصل الفرنساوية" من أعلى الدير. وإذا كانت رسالته توضح أن الدير كان فى الأصل فندقاً فإن المفاجأة الأخرى كانت فى قوله" والظاهر أن الذى قدم الدعوى إلى الدولة.. عرضها بخلاف الواقع لأنه مُحقق عندنا قط لم انفرد بيرق على الدير ولا انوضع كرسى أبداً لا من قنصل الفرانسة ولا من خلافه" وهو ما يعنى أن النمساويين استغلوا الحرب فى أوربا

لرفع علمهم على الدير – الذى كان فندقاً – وإنزال العلم الفرنسى، مع أنه لم يحدث من قبل أن رفع أى طرف منهما بيرقه عليه. وفى مواجهة تعقد الإشراف على الدير طلبت الدولة عودة الوضع إلى ما كان عليه قبل الحرب" وإلى حين يحصل الصلح". وهنا كتب مراد" والحال قبل هذه الحرب كان المعبد تحت حماية سلطان الفرنساوية وأما الآن الفرنساوية لم لهم سلطان. فمن الواجب واللازم تعتبروا وتعتمدوا على مضمون الفرمان.. أن لا أحد يعارض الدير ورهبانه لا من الفرنساوية ولا من النمساوية ولا فى خلافهم، ولا يحصل من أحدهم مُجادلة ومُحاججة فى هذه النصوص بل يُمنعوا جميعاً، وبحيث أن الدير جارى فى وقف الجامع الغربى والرهبان فى كل سنة يدفعوا الأجرة إلى الناظر وقاموا بعمارته بموجب حجج وسندات تحت أيديهم يحتاج أن الدير يكون فى حماية الشرع الشريف ويقتضى منع المجادلة بين القناصل حكم أمر الفرمان.. ولم أحد يقارش الدير ولا الرهبان إلى حين يحصل الصلح ويكون لهم الصيانة والرعاية"(١٦٠). أما إبراهيم بك فأرسل برسائل شبيهة أوضحت أن الدير كان فى الأصل فندقاً تابعاً للفرنسيين وأن النمساويين استغلوا الحرب للسيطرة عليه وجعلوه ديراً، وأكد على ضرورة أخذ موقف معتدل لا يخدم مصلحة أى طرف(١٦١).

وإذا كانت القضية برُمتها توضح الطبيعة الدينية الكوزموبوليتانية للمدينة إبان ذلك العصر، إلا أنها توضح أيضاً أن الأوربيين استخدموا الدين لتحقيق أهداف سياسية، مُعتمدين على الامتيازات، وأن السلطة فى استانبول ومصر اتخذت موقفاً غير مُتحيز. ويبقى السؤال إلى أى مدى أثر ذلك على التعايش بين الأوربيين أنفسهم، وماذا كان موقف الفرنسيين من الدير عند احتلالهم مصر ؟!.

التعايش بالاستفادة من المشاكل

لم يقتصر التعايش فى الاسكندرية إبان العصر العثمانى على التعاملات المعتادة، بل تعداه إلى أمور قد تبدو مدهشة. ونستطيع العرض لبعضها فيما يلى:

١- <u>فهم النزاعات فى إطار التعايش</u>: بقدر تعدُد أشكال التعاملات والجيرة، تعددت النزاعات. وفى اعتقادنا أنه لا يمكن الحديث عن تعايش بين الأهالى والأوربيين مالم يكن هناك تعايش بين الأهالى أنفسهم (مسلمين وأقباطاً ويهوداً). على أنه لابد من التفرقة بين التعايش وبين النزاعات"الطبيعية" التى ارتبطت به. وإذا كنا نفهم التعاملات باعتبارها أشكالاً للتعايش، فمن الإنصاف فهم النزاعات فى هذا الإطار أيضاً، وباعتبارها نتيجة. وعندنا أنه طالما وُجِدت تعاملات وجيرة.. طالما وُجِدت النزاعات التى تعكس نوعاً من ضرورات التعايش[١٦٢]. ووفقاً لذلك يمكن فهم دعاوى أهالى على أوربيين (بنادقة [١٦٣] وجنويين [١٦٤] وروديسيين [١٦٥]) وأوربيين على أهالى بل وأوربيين على أوربيين [١٦٦] وأهالى على أهالى. فهذه دعوى رفعها" أبو الخير الزيات" السكندرى على" نقولا القبرصى" بأنه ابتاع منه كمية من العسل، لكن القبرصى باع العسل لشخص آخر، فحكم عليه القاضى بالالتزام بالبيع الأول[١٦٧]. دعوى ثانية رفعها سكندرى مسلم على برتغالى يهودى، على أساس أن والده يستحق فى ذمة والد البرتغالى ٤٨٠ دينار بقية صفقة بهار بمبلغ ١٨١٩ دينار، وانتهى الأمر بأن منع القاضى السكندرى من مطالبة البرتغالى[١٦٨]. دعوى ثالثة رفعها" سلمون بن أنطونيو الفرنسى وكيل طايفة الفرنج الفرانسه" ضد" حزامين البهار" حيث اشتكى أنه من" عادة جماعة الحزامين بالثغر فى حزم البهار كل شخص ٨ نصف وكل نقيصة ٤ نصف، وأن جماعة الحزامين يطلبون الآن من التجار زيادة على ذلك فى كل نقيصة ٦ نصف". استدعى القاضى اثنان من الحزامين فأفادا" أن العادة القديمة أن أجرة حزم البهار يكون زنته من ٧ قناطير إلى ١٢

قنطار إلى ما دونها، ومن ٥ قناطير إلى ما دونها ٤ نصف، وإذا زادت عن ٥ قناطير بستة قناطير يكون حزمها ٦ نصف". لكن سلمون" لم يصدقهم على ذلك" فتم الاحتكام إلى" جماعة القبانة" الذين وقع كلامهم" موقع القبول"(١٦٩). ومن الواضح أن التعاملات أدت للاختلاف الذى تولت المحكمة حله، باستدعاء بعض ممثلى طائفى القبانية للاستفادة من خبرتهم، وتم الفصل فى الأمر بشكل قانونى لصالح الفرنسى. وعلى كل فإن الأمثلة السابقة توضح أننا أمام تعايش حقيقى لم تصنعه الامتيازات بقدر ما صنعه الواقع والمصلحة المتبادلة فى إطار حقوق وواجبات.

فى الإطار نفسه يمكن فهم ادعاءات السب(١٧٠) والاعتداءات المُتبادلة، حتى كانت هناك حالات اتهام من سكندرى ضد سكندرى وأوربى(١٧١) وتعاون أوربيين وسكندريين فى سرقة مصريين(١٧٢) وخطف أوربيين لأوربيين(١٧٣) وحالات قتل لفرنسيين توزعت تهمتها بين سكندريين وفرنسيين(١٧٤). ورغم خطورة استخدام الأوربيين للامتيازات(١٧٥) وكره معظم السكندريين لها.. شارك بعضهم الأوربيين فى الاستفادة منها على حساب سكندريين(١٧٦). وبالمثل استقوى بها أوربيون على أوربيين : كاستقواء الفرنسيين بها على البنادقة (بالتدخل فى أمورهم التجارية وتحصيل" حق القنصل" على بضائعهم) وكذا على الانجليز (بالادعاء بضرورة أن يمارس الانجليز تجارتهم تحت رعاية القنصل الفرنسى)(١٧٧).. ثم استقواء الانجليز بها بعد ذلك على غيرهم(١٧٨). وفى كل الحالات كان تدخل السلطة – والأهالى أحياناً – عاملاً مهماً لكبح استقواء طرف أوربى على آخر.

٢- <u>الاستفادة من القرصنة</u> : كانت حوادث القرصنة من الأمور المتكررة(١٧٩) لذا لم تتوقف الجهود لتلافى أخطارها وحفظ أمن الطريق التجارى البحرى بين الاسكندرية واستانبول، خاصة وقد حاول البعض – من الجانبين

أحياناً – استغلال القرصنة خدمة لأغراضه(١٨٠). وتمدنا الوثائق بالعديد من حالات الأسر المتبادلة بين أوربيين(١٨١)، وعرب وعثمانيين(١٨٢). وبينما اشتهر المغاربة بالقرصنة(١٨٣) فلا يبدو أن السكندريين شاركوا بفاعلية فيها، بل وتبدو الاسكندرية باعتبارها مركزاً مهماً لتحرير الأسرى من الجانبين. والأهم أن الناس تعايشت مع الظاهرة. ورغم ما فى حالتى الألمانيين" يوهان وايلد" و"أبراهام سيمون" من دلالات(١٨٤).. فهذه حالة طريفة أسر فيها أوربى سكندرى واستولى على" أسبابه ونقده". وبعدها استطاع السكندرى الهرب، حيث تصادف أن التقى الأوربى بالاسكندرية فأمسك به، لكن الطريف أن البعض خلصه منه" وكفلاه وأطلقاه منه باليد العادية"!(١٨٥). وهكذا فعلى الرغم من الآثار الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية السلبية للقرصنة(١٨٦).. راجت سوق فداء الأسرى بين الجانبين، واشتهر فى ذلك" سماسرة" من أمثال أحمد بن منديل ووكيله سالم الطرابلسى، وأحمد اللتوانى وعبد الرحمن المنستيرى(١٨٧). لكن اللافت للنظر أن الأمر لم يقتصر على هؤلاء، بل شاركهم أوربيين فى إعادة الأسرى مقابل" عمولات"(١٨٨).

وتشير بعض المعاهدات بين الدولة العثمانية ودول أوربية إلى الاهتمام بمقاومة القرصنة، وخاصة التى قام بها المغاربة(١٨٩). أما الوثائق فتشير إلى قيام التعاون العملى أحياناً بين العثمانيين ودول أوربية فى مقاومة القرصنة الأوربية(١٩٠). ومع خطورة القرصنة على التجار ومُلاَّك السفن ربط البعض بينها وبين بعض القناصل والتجار مما حدا بهم إلى الشكوى. وأياً كانت الحقيقة فإن الباشا أرسل إلى القاضى والمسئولين ليؤكد على" أن جميع القناصل والافرنج المقيمين الآن بالثغر أصدقاءً وأحباباً للدولة العلية ومقيمين بالثغر بحمايتها ورعايتها، خصوصاً الآن جميع قراناتهم مع الدولة.. فى غاية الصداقة والرغبة والمحبة التامة. وقد تبين من عرض حالهم أنه قد حصل بعض كلام فى حقهم من أهالى الثغر بسبب حضور بعض القرصان إلى بوغاز اسكندرية. والحال أن

القناصل والافرنج المقيمين بالثغر أحباءً وأصدقاءً" وبالتالى لا يُتوقع منهم الاتفاق مع القراصنة الذين هم أعداء الجميع، ومن الضرورى التعامل معهم"بطريق الحماية والعيالة بموجب ما بأيديهم من العهدنامات.. وشَهر المناداة، وأن لا أحد يتعرض لهم بوجه من الوجوه.. وعليكم بمنع القيل والقال ولا تدعوهم إلا حامدين شاكرين منكم.. وكل من خالف وعاند لا يلومن إلا نفسه"(١٩١). أما الأمر الذى لم يستطع الجميع التعامل معه – خاصة فى القرن الثامن عشر – فكان صراع الدول فيما بينها وإضرارها بالتجارة، وهناك حالات تعكس على سبيل المثال أضرار الصراع الانجليزى الفرنسى (١٩٢) والروسى العثمانى(١٩٣).

<u>٣- الجوالى بين القانون والحماية والتجوه :</u> الجوالى هى الأموال التى فُرضت على الأغراب غير المسلمين نظير حمايتهم، وخصصت لها" مقاطعة مال حماية خراج ياوه" التى عادة ما كانت تتبع مقاطعة الجوالى المختصة بتحصيل الجزية على غير المسلمين من الأهالى(١٩٤). ومع أن قضايا الجزية والجوالى كثيراً ما أثارت الإدارة.. فما يهمنا أن مشاكل القائمين على جمع الجوالى من" النشاوى والطوارئ والأغراب" عادة ما كانت من أمور مثل" أن جماعة من أهل الذمة.. يزعمون أنهم من الأغراب ويتجوهون.. مُمتنعين عن القيام بما عليهم" وهو ما يعنى" تجوه" بعض المصريين أو ادعائهم بأنهم" أغراب". أما الأوربيون من" الطوارئ والأغراب" فدائماً ما حثت الأوامر على أن يدفعوا الجوالى إذا مضى عليهم ستة أشهر" من غير حماية ولا تجوه" ؛ أو على أن" النصارى الغرباء من كان منهم بيده تمسك من بلاده بأنه دفع ما عليه من مال الجزية فيؤخذ منه بعد مضى ستة أشهر جزية كاملة، فإن لم يكن بيده تمسك.. فيؤخذ منه جزية كاملة ولولم يمكث ستة أشهر. وكل كاشف أو ملتزم أو شيخ عرب أحمى أحداً" يؤخذ منه جوالى من أحماه ؛ أو على أن" الطوارى والأغراب.. ونصارة الأندلس وكل من كان بيولد فى دور الأغراب وبلاده فتؤخذ منه الجزية بعد مضى ستة أشهر.. ومن ما يكن من غير حماية ولا تجوه"(١٩٥). وهكذا فنحن دائماً أمام التجوه والحماية. وبقدر ما كانت الحماية نابعة

من الامتيازات، فإن التجوه كان بالاعتماد على بعض الكُشّاف والمُلتزمين وشُيوخ العرب !. ألا يستدعى ذلك أن نرى الأمور فى إطار العلاقات والمصالح والتعايش ؟!.

٤- أوامر السلطة ورغبات الناس : كان من الوارد إساءة بعض الباشاوات للتجار(١٩٦) أو أن ترسل الدولة بمنع التعامل مع الأوربيين لحروبها مع بلادهم أو لسوء العلاقات. على أن التعايش بالاسكندرية حكمته اعتبارات تتصل بحياة الناس ومصالحهم التى قد تتعارض وأوامر السلطة، ومن ثم كانت" الموالسة وحظوظ الأنفس" التى تطلبت تدخل السلطة أحياناً من خلال" الخطوط الشريفة"(١٩٧). ففى مارس ١٧٠٣ اجتمع حشداً من التجار والدلالين المسلمين – بناء على أمر عالى – وقرروا مُقاطعة" غير المسلمين جميعاً" وأنه" لا أحد من طايفة الدلالين يتعاطى متجراً من اليهود ولا النصارى" ومن فعل ذلك من الدلالين أو التجار" يكون بطالاً من هذه الصناعة". ولتأكيد جدية الأمر تم تسجيله بالمحكمة" ضبطاً للحال وليُراجع عند الاحتياج وليُعرض على من له ولاية الأمر ليكون حُجة عند قيام الحُجة"(١٩٨). لكن الوقائع لا تثبت أن التعاملات توقفت. وإبان الحرب ضد روسيا ورد" خط" فى أكتوبر ١٧١٤ بعدم بيع أو إرسال أى كميات من القهوة والقمح والأرز إلى" الافرنج". ومرة أخرى لا تؤيد الوثائق توقف التعاملات، خاصة وقد سبق ذلك" خطاً" آخر بالمضمون نفسه، لكنه لم ينفذ(١٩٩). بل إن الثابت هو أنه، وفى أوقات أزمات الغلال والمجاعات، قام تجاراً سكندريين" ببيع القمح للكفار ليلاً ووسق ذلك بالمراكب"(٢٠٠) بل وقام بذلك بعض الباشاوات(٢٠١). ورغم أن أضر بالعامة خاصة، وظهور بعض الأمراء فى مظهر الحُناة على الأهالى أحياناً(٢٠٢).. استمرت ظاهرة تهريب الغلال(٢٠٣) ولم يتعفف بعض كبار المماليك والتجار عن السماح بخروج كميات من القمح إلى أوربا(٢٠٤) رغم أنف الباشا أحياناً (٢٠٥) بل وحتى عندما اضطرت مصر إلى استيراد القمح من" الديار الرومية" وغيرها (٢٠٦).

٥- التحايل على الرسوم الجمركية ودلالاته : كانت الرسوم الجمركية من الأمور المهمة للخزينة والإدارة فى مصر واستانبول، الأمر الذى جعل السلطة تهتم دائماً بتنظيمها، ولا تتسامح فيها مع الأوربيين أو مع رعايا الدولة العثمانية(٢٠٧) كما كانت تحرص تماماً على وضع تعريفة الرسوم لكل دولة من الدول التى تعقد معها اتفاقيات. ومع ذلك فكثيراً ما تحايل الأوربيون - بذرائع شتى - للإفلات من دفع الرسوم، منذ القرن السادس عشر(٢٠٨) وما بعده (٢٠٩). ولقد كانت الخلافات حول قيمة التعريفة التى يجب دفعها على السلع هى إحدى صور تلك التحايلات. ولدينا فى ذلك حالات للإنجليز(٢١٠) والبنادقة(٢١١) وغيرهم. على أن الأهم هو أن تهرب الأوربيين من دفع الرسوم الجمركية كان بمساعدة من بعض العاملين بالجمرك وبعض التجار، بل ومن الأمراء أنفسهم، خاصة فى ظل" المحسوبية" التى لم تخل من دلالات (٢١٢). ويبدو أن القضية برمتها كانت تعكس محاولات الجميع لتحقيق مكاسب شخصية على حساب" الخزينة السلطانية" التى كثيراً ما أشارت وثائق القرن الثامن عشر إلى عجزها (٢١٣).

دلالات أخرى على ضرورة التعايش

١- النقل ودوره : على الرغم من أن الدولة العثمانية منعت أحياناً شحن البضائع على السفن الأوربية بسبب الصراعات العسكرية (٢١٤).. فإن الأمر لم يتعد المنع الرسمى غالباً وقامت السفن الأوربية بدور مهم فى تنشيط حركة التجارة من وإلى الاسكندرية (٢١٥) بالمشاركة مع سفن مصرية وتركية ويونانية(٢١٦).. حاملة السلع لحساب الأشخاص أو الدولة(٢١٧) دون اعتبار لجنس أو ديانة. والأهم أن إجراءات النقل كانت تحتاج إلى تعاملات عديدة. فتأجير سفينة كان يحتاج لمفاوضات قبل التعاقد بين ريس السفينة والتاجر لضمان عدم نكوص طرف على الآخر (٢١٨) وللحصول على أفضل الأسعار لنقل السلع وإمكانية حمل الأشخاص دون ثمن (٢١٩) وللاتفاق على طريقة الدفع ومكانه،

وعلى كيفية تسليم السلع وتسلمها، وضمان تخزينها فى العنابر بما يحفظها من التلف [٢٢٠].. ناهيك عن أنه كان يحدث أحياناً موت شخص أثناء السفر، ومن ثم كان على ريس المركب حفظ تركته لتسليمها إلى بيت المال [٢٢١]. وفى حالة غرق المركب، كان أصحابها وأصحاب السلع يحرصون على إنقاذها وما عليها[٢٢٢]. ألا يمكن أن نضيف إلى ذلك التعارفات والتعاملات أثناء السفر أو حتى المشاكل التى جرَّت القضايا، وهى أمور كانت تتطلب تعامل المحكمة معها ومعاقبة الجانى بعد سماع الشهود والتحرى [٢٢٣]. وباختصار يمكننا القول أن السفن شاركت فى التعايش، بل وكانت أحد أشكاله. ومع ذلك علينا أن نلاحظ أن التنافس دب أحياناً بين أصحاب السفن، ولدينا حالة أشاع فيها بحارة مراكشيين أخبار الحرب بين البنادقة والتونسيين للاستحواذ على صفقة مهمة لنقلها إلى تونس فى طريقهم عودتهم. لكن البنادقة أصروا على حمل البضاعة مُستندين إلى الامتيازات. وهنا لم يستطع القاضى – وبحضور كبار التجار – إلا ترجيح كفتهم طالما تعهد قنصلهم بدفع ضعف ثمن التجارة إذا تعرضت لسطو بنى جلدتهم[٢٢٤]. هذا ناهيك عن أنه ورغم – القرصنة والغُربة واختلاف اللغة والدين – كان بحارة السفينة فى بعض الأحيان خليطاً من المسلمين والأوربيين، أو من المصريين والعرب واليونانيين والأوربيين، حيث لم يتردد بعض الأوربيين عن العمل على مراكب سكندريين[٢٢٦] أو فى المساعدة على كراء السفن للأمراء المماليك [٢٢٦].

٢- __تأثيرات حضارية__ : عندما وصف إبن إياس المحمل سنة ٩٢٠ فإنه أشار إلى أن" طلب المقر الناصرى ابن السلطان" كان" فيه نوبتين هُجن بأكوار زركش من ذهب بنادقة" وأن"محفة خوند زوجة السلطان كانت غاية فى الحسن.. طرازها وأرضية الثوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة" [٢٢٧]. أما الوزان فكتب عن وجود" فنادق الثياب الصوفية المستوردة من جميع بلاد أوربا" وأن" فنادق القماش" كان يباع فى بعض محلاتها" أجمل قماش إيطاليا"

وعن ارتداء بعض الشخصيات المهمة والتجار فى مصر لملابس أوربية [٢٢٨]. أما الوثائق فتحتوى على مسميات عديدة لسلع"افرنجية" مثل الشايات[٢٢٩] والحرير[٢٣٠] والمساند[٢٣١] والدست[٢٣٢] والجبن [٢٣٣] والقسطل [٢٣٤] والصابون[٢٣٥] والكحل [٢٣٦] والرخام [٢٣٧] والورق البندقي والفرنسى[٢٣٨]. وفى جرد محتويات مخزن" يوسف المملوك بالثغر" كان مما وُجد فيه" ٣ مفرش صفره فرنجى، و٢٢ فوطه فرنجي و٢ موس فرنجي و٩ ستاير فرنجي وطاوله عشه و٣ زير فرنجي و٤ طاوله فرنجي و٢٦ كرسي جوز فرنجي وخزانه فرنجي خشب" [٢٣٩]. وفى هذا الإطار يُشار إلى أن مصر كانت موزعاً للصناعات الغربية، بل وعن" اختراق المنتج الأوربى للسوق المصرية منذ نهاية القرن الثامن عشر" [٢٤٠]. ولا يمكن غض الطرف عن وجود مصطلحات أوربية مثل"الكنتراتو" [٢٤١] و" المركنتيه" التى استخدمت أحياناً فى التعامل مع الأوربيين[٢٤٢] وكذلك"الكمرك" و"الإسكاله" من الإيطاليه Commercio و Scala[٢٤٣]. كما كان من الوارد أن تصبح" الافرنجية" لغة يلجأ إليها بعض الأوربيين لإثبات حقوقهم ومسئولياتهم[٢٤٤] وعند الضرورة كانت المحكمة تأمر بترجمة الحجة إلى العربية [٢٤٥]. ألا يدل ذلك على تعايش مشترك حتى كتب الطهطاوى عام ١٨٢٦ أنه وجد الاسكندرية" قريبة الميل فى وضعها وحالها إلى بلاد الافرنج.. فهمت ذلك مما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر، ولكثرة الافرنج بها ولكون أغلب السوقة يتكلم ببعض شئ من اللغة الطليانية ونحو ذلك. وتحقق ذلك عندى بعد وصولى إلى مرسيليا، فإن سكندرية عينة مرسيليا وأنموذجها" [٢٤٦].

<u>٣- الأوربيون ووقف الصادر</u> : اعتمد" وقف الصادر" على أمرين، الأول: ما أوقفه صلاح الدين الأيوبى. والثانى : وهو ما يهمنا - وخصصه صلاح الدين أيضاً - فتمثل فيما" يؤخذ من النصارى الافرنج الحربيون الواردين إلى الثغر"[٢٤٧] أو" من عوائد مراكب النصارى الواردين" لمصلحة" الأشراف

والعلماء والفقهاء والمدرسين والصلحاء والمساجد والزوايا ومقامات الأولياء"[٢٤٨]. وقد أبقت الدولة العثمانية النوع الثانى من الصادر على ما وجدته عليه. أما الأوربيون فاعتادوا دفع" رسوم" على تجارتهم لصالح الصادر ومستحقيه حتى أواخر القرن السادس عشر حين توقفوا عن دفعه. ونظراً لأن" تمردهم" عن دفع" ما جرت به العادة" أدى إلى" غاية الضرر" لمُستحقى الصادر.. فقد أكد الباشا على أن" مثل ذلك لا نرضاه" خاصة وقد أفتت العلماء" بلزومهم دفع ما جرت به العادة المستمرة من نحو عشرين سنة كما هو القانون، وأن كل قضية مضى عليها خمسة عشر سنة يبقى على حكمها ولا يُنتقض ولا يُعاد". وهكذا أرسل بضرورة" إجراء الأمر فى ذلك على جارى العادة الشاهد به القانون والسجلات.. من غير حماية ولا تمرد"[٢٤٩]. على أن التجار الأوربيين اشتكوا من زيادة الرسوم، فأرسل الباشا بعدها بيومين إلى قاضى الاسكندرية والقبودان وأمين الثغر" حول" الزيادة الفاحشة" التى" تؤخذ من رسوم البهارات والعطريات فى الصادر" والتى" أضرت بحال تجار الإفرنج" وطالب بضرورة" أن ينظر القاضى فى ذلك" وأن" يتفحص.. هل يُؤخذ ما جرت به العادة وعوايد القانون أم يؤخذ زيادة على ما كان يُعهد أخذه. فإن كان كذلك فالمنع والردع لازم، فتُمعنوا النظر وتمنعوا من يتعاطى أخذ ما لم يشرعه الحاكم الشرعى". وقد استُجيب للأمر واتضح أنه لا تُؤخذ رسوم أعلى من المعدل، بل وأقل أحياناً [٢٥٠]. ومن الواضح أن الأمور سارت على ذلك لفترة طويلة، حتى رفض البنادقة عام ١٧٨٦ دفع مستحقات" الصادر" مُعتمدين على ما أعلنه حسن باشا من القضاء على كل" المظالم" فى مصر. ويبدو أنه لم يكن يعلم كل حقيقة" الوقف" ومن ثم وأمام شكاوى المستفيدين وقراءة" سندات الوقف" تراجع عن أمره، بل وأجبر البنادقة على دفع رسم الصادر[٢٥١]. وبعدها بثلاثة شهور قدم قنصل البنادقة شكوى من" الحوادث التى أحدثوها الظالمين" بمصر قبل مجئ حسن باشا، ومن ثم أرسل الباشا إلى مسئولى الاسكندرية وعلمائها بضرورة" رفع تلك المظالم".

لكن القنصل استغل الموقف وحاول اعتبار"وقف الصادر" من تلك المظالم. وهنا أرسل القاضى إلى الباشا موضحاً أن ما يدفعه البنادقة لوقف الصادر ينقسم لقسمين، الأول :" تعلق أرباب السجاجيد وطلبة العلم" والموقوف عليهم من أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى ووافق السلطان سليم على بقائه" للمشاركة فى الثواب". أما القسم الثانى فهو" تعلق الجمرك لديوان مولانا السلطان.. وذلك من مدة سنين عديده". وبناء على ذلك أمر الباشا" إثبات ذلك وإجراءه على ما هو عليه.. ومنع كل من يتعرض إلى المعتادات القديمة بوجه من الوجوه"[٢٥٢]. وفى هذا الإطار أُعيد فى المحكمة قراءة وتسجيل مرسوم صلاح الدين الأيوبى بخصوص رسم الصادر، ليؤكد من جديد استمرار الوقف[٢٥٣]. أما البنادقة فعادوا والتزموا بدفع ما عليهم بعد أن" فهموا وتحققوا من حضرة قاضى الثغر.. والسادات العلما أن عوايد الصادر مرتبه على جوامع وإلى علما ومشايخ وعميان وفقها ومستحقين. فحين فهموا هذا الأمر ما جاء من قلبهم يراجعوا ويتوقفوا فى أمر مثل ذلك، بل إنهم ارتضوا وصاروا قابلين فيه بحيث يكون برضا حضرة الدستور المكرم غازى حسن باشا الذى.. يريد إبطال كل العوايد الذى تكون ضد العهدنامه"[٢٥٤]. وفى هذا الإطار سار وقف الصادر. أما الأهم فهو أن الوقف كان يعنى وعياً من المنتفعين به بقيمة مجئ الأوربيين إلى الاسكندرية. لم لا وقد وصل ريعه إلى ٤٥٠٠٠ ريال عام ١٧٨٦ تم توزيعها على ٢٠٦ عائلة بمتوسط ١-١٠ ريال لكل شيخ / عائلة بخلاف" كبار المستحقين" الذين بلغ عددهم ٢٨ شيخاً تراوح نصيب كل منهم بين ١-١٠ ريال[٢٥٥] الأمر الذى يوضح كبر عدد المستفيدين من الوقف وتوارثهم الانتفاع به [٢٥٦] ناهيك عن عمل بعضهم فى وظائفه[٢٥٧].

٤- <u>الترجمة للأوربيين</u> : كان معظم الأوربيين لا يتحدثون العربية[٢٥٨] لذا كان طبيعياً أن تحتاج تعاملاتهم المتنوعة والمتعددة إلى مترجمين لتسهيل أعمالهم واتصالاتهم. وفى إطار" العهدنامات" كان من حق القناصل اختيار من يقوم على

أمر الترجمة لهم[٢٥٩] ومن ثم احتفظ معظمهم بالعديد من التراجمة" فى ملابس بنفسجية" لترجمة ما يدور بينهم وبين الموظفين الأتراك[٢٦٠]. وتشير الوثائق إلى أن بعض اليهود المصريين كانوا من أصول أندلسية وفرنسية وإيطالية [٢٦١] وهو ما ساعدهم على معرفة لغات أوربية أكثر من غيرهم، لذا شاركوا بنشاط فى تولى مهام الترجمة فى الأعمال المالية وغيرها حتى عهد على بك الكبير [٢٦٢]. وإذا كان بعض التراجمة لا نعرف اللغة التى ترجموا منها للعربية [٢٦٣].. فهناك من نعرف أنهم ترجموا من الفرنسية إلى العربية والعكس[٢٦٤] ومن الإيطالية للعربية والعكس[٢٦٥] ومن الألمانية للعربية والعكس [٢٦٦]. أما الأقباط فكان لهم أيضاً دورهم فى الترجمة [٢٦٧] حتى كان منهم أول ملتزم نعثر عليه اختص بـــ" ترجمانية الافرنج بالديار المصرية" عام ١٥٢٥ وهو" المعلم يوسف بن صدقه النصرانى اليعقوبى السكندرى" فى مقابل ستين دينار شهرياً [٢٦٨]. أما المغاربة فتميز بعضهم فى الترجمة من الإيطالية [٢٦٩] والفرنسية [٢٧٠]. كما تطالعنا الوثائق أحياناً بأسماء مترجمين سكندريين مسلمين [٢٧١] وإن كان معظمهم ترجم من التركية إلى العربية [٢٧٢]. ومن الواضح أن دور المترجم تعدى الترجمة إلى أمور أخرى، ومنها دورهم فى الشهادة بالمحكمة [٢٧٣]. وعلى كل كان ذلك مما يعطى أهمية أخرى للمترجم من حيث قدرته على التعامل مع الجميع، ومساهمته فى قضايا التعايش.

لقد أكد كانط فى" مشروعه للسلام الدائم" على مبدأ" الحق" فى التعايش بين الناس و" الإكرام" الذى معناه حق الأجنبى فى" حق الضيافة" وألا يُعامل كعدو من البلد الذى يحل فيه ما دام مُسالماً وما دامت هناك اتفاقيات بين بلده والبلد الذى حل به. وبينما أكد على أنه لا يحق للأجنبى أن يدَّعى لنفسه حق الإكرام، وأن من حق البلد المضيف أن يرفض إيواء الأجنبى الذى تضر إقامته بمصلحة ذلك البلد.. فإنه استبعد أن تتصل فكرته بـــ" المحبة"[٢٧٤]. والحقيقة أن ما سبق وعرضناه يوضح أن الاسكندرية وأهلها مارسوا" التعايش" مع الأوربيين فى

الواقع، دون اعتبار كبير بالخلافات السياسية أو الاختلافات الدينية والإثنية. وما سبق يوضح أيضاً أن الأوربيين لم يعيشوا بالاسكندرية فى عزلة، وأن السكندريين مارسوا" الحق" و" الإكرام" تجاه الأوربيين.. بل وتعدوا ذلك إلى المحبة أحياناً، على الرغم من الاختلافات الدينية واللغوية التى اعتبرهما كانط - مع الطبيعة - يحولا دون قيام السلام الدائم. والواقع أن ذلك لم يكن اعتباطاً، ولكن لأن الطابع الاستعمارى" غير الكريم" على حد قول كانط، والذى ظهرت أوربا به آنذاك فى زياراتها - بمعنى غزوها ومظالمها وبغيها - للشرق الأقصى وإفريقيا والعالم الجديد لم يكن قد ظهر بعد فى حياة مصر والمصريين ؛ هذا بالإضافة إلى أن الأمر اعتمد على تبادل المصالح الذى أشار إليه كانط (٢٧٥) وأدى إلى قيام علاقات نفعية وصلات وتعايش طبيعى، حتى فى ظل المنافسة والخلافات، بل وفى ظل التناقضات التى لم تؤد أبداً إلى" صدام" حضارى.

أما المعاهدات التى عقدت بين الدولة العثمانية ودول أوربية فلا يمكن فهمها فقط باعتبارها أوامر سلطانية أو امتيازات أوربية، ولكن باعتبارها رد فعل لحاجات الناس. وفى اعتقادى فإن التعاون والتعايش كانا موجودين طالما كان الشرق قوياً أو على الأقل طالما كان فى حالة توازن للقوة مع الغرب، وأن المشاكل الضخمة والمعقدة حدثت فيما بعد عندما أصبح الغرب أقوى من الشرق، وعندما خلط أهدافه الاستعمارية مع قضايا التعاون والتعايش. وبالاختصار فإن الاسكندرية كانت مدينة" كوزموبوليتانية" قبل" الكولونيالية" الأوربية و" الحداثة".. ولأن الامتيازات الأجنبية لم تكن قد تطورت إلى صورها المقيتة التى بدت عليها فى القرن التاسع عشر. وفى ظل ذلك التعايش والوجود الأوربى فى الاسكندرية ومصر.. يصبح من المقبول التشكيك فى القول بوجود قطيعة حضارية بين مصر وأوربا قبل الغزو الفرنسى لمصر.

الهوامش

(١)ألقى هذا البحث فى ١١ فبراير ٢٠٠٨ بمركز دراسات الشرق الحديث ببرلين Zentrum Moderner Orient فى إطار المنحة التى حصلت عليها (أكتوبر ٢٠٠٧- يوليو ٢٠٠٨) فى إطار برنامج Europe in the Middle East - Middle East in Europe. وأنتهز الفرصة لأتوجه بالشكر إلى أولريك فريتاج مديرة المعهد على تعاونها، وللصديقة نورا لافى التى أعتبرها نموذجاً على التعاون المُثمر بين الباحثين. كما أشكر القائمين على معهد الدراسات المتقدمة ببرلين Wissenschftskolleg zu Berlin ومؤسسة Fritz Thyssen Stiftung. الشكر أيضاً لميشيل توشيرير الذى وافق على أن أستعين ببعض الوثائق الواردة فى " قاعدة بيانات الاسكندرية " التى جمعها باحثون مصريون بإشرافه، وقد أودعت نسخة من قاعدة البيانات هذه بمكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لتصبح فى متناول الباحثين.

(٢) عادة ما يُشار فى ذلك إلى أعمال هنتنجتون وفوكوياما والتى تناولها البعض بالنقد لأنها تنصب على العولمة والغرب على حساب التعدد واختلاف الآخر. Ulrich Beck; the truth of others: a cosmopolitan approach. In : " talking peace with Gods, part 1, Duke University press, 2004, pp. 430 - 438.

(٣) كتب ميجنولو أن العولمة " مجموعة من الخطط للسيطرة على العالم، بينما الكوزموبوليتانية مجموعة من المشاريع نحو سعادة العالم ". Walter D. Mignolo; the many faces of Cosm-Polis: border thinking and critical cosmopolitanism, in " Public Culture", Duke University press, 2000, p.721.

(٤) كثيراً ما استخدمت مصادر العصر العثمانى مُسمى " بندر الاسكندرية ". مصطفى بن إبراهيم القينالى: مجموع لطيف يشتمل على وقايع مصر القاهرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بفينا، Arabe 93-His H-o 38 ، ورقه ٣١ أ.

(٥) فى المعاهدة بين سليم الأول والبنادقة عام ١٥١٧ اتُفق على حظر انتقال تجارهم إلى القاهرة وممارستهم نشاطهم بـــ " الثغر " جرياً على" العادة القديمة " منذ عهد السلطان قايتباى. محسن شومان : المقاطعات الحضرية فى مصر من الفتح العثمانى حتى أوائل القرن التاسع عشر، ماجستير غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٩٠، ص ١٧٤.

(٦) كتب سعيد " لقد حضر العلماء أو الباحثون أو المبشرون أو التجار أو الجنود إلى الشرق أو فكروا فى أمره، لأنهم كانوا يستطيعون الحضور إلى الشرق أو التفكير فيه، دون مقاومة تذكر من جانب الشرق ". وعنده أن ذلك ينطبق على الفترة من أ

القرن ١٨ فصاعداً. على أن هذه الفكرة تحتاج إلى مراجعة لاسيما فى ظل التعايش المتسامح الذى عاشه الأوربيون فى الشرق. إدوارد سعيد : الاستشراق.. المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عنانى، دار رؤية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٥١.

(٧) يرى ريمون أن الحصانة الكبيرة من التعرض للإهانات المحلية والأمن والأمان الذى وفرته المعاهدات التجارية وحماية القناصل لعبت دوراً مهماً فى خدمة التجارة الأوربية وسفنها. أندريه ريمون : الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، ترجمة : ناصر أحمد إبراهيم، باتسى جمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ج١، ص ٣٠٨.

(٨) آن وولف : كم تبعد القاهره، ترجمة : قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٤٧.

(٩) رحلات ڤارتيما (الحاج يونس المصرى)، ت : عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى، عدد ١٣٤، القاهرة، ١٩٩٤، ص٢٣. وقد نُشرت بالإيطالية عام ١٥١٠.

(١٠) كان ميناء " مرسى البرج " ترسو فيه " أجمل السفن وأهمها كسفن البندقية وجنوة وصقلية وغيرها من السفن الأوربية. وتأتى عادة أيضاً سفن فلاندرز وانجلترا وبسكاى والبرتغال وسائر سواحل أوربا لكن أكثرها سفن إيطالية.. والسفن التركية ". أما " مرسى السلسلة " فكانت ترسو فيه السفن الآتية " من بلاد البربر وجربة وغيرها". ونتيجة لأهمية التجارة أُقيم على الشاطئ " بُرَيج " على ربوة عالية " مُصطنعة " لمراقبة دخول وخروج السفن، وفيه كان يُقيم باستمرار " رقيب يَرقب السفن التى تمر ويتقاضى أجراً عن كل سفينة أعلم بها موظفى المكس. وإذا نام أو ذهب للتفسح وجاءت سفينةلم يُعلم بها مستخدمى المكس، حُكم عليه بغرامة تبلغ ضعف أجره وتُسلم إلى بيت المال ". أما تحصيل الجمارك فكان " عملية فى غاية الأهمية ". الحسن بن محمد الوزان الفاسى : وصف أفريقيا، ترجمة : محمد حجى، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٣، ج٢، ص ١٨٩، ١٩٤ - ١٩٦. والوزان مغربى الأصل، وقع فى أسر الإيطاليين قرب جزيرة جربة، فأخذوه إلى نابولى وبعدها أهدوه للبابا ليون العاشر. ويُقال أنه اعتنق المسيحية ظاهراً. وقد زار مصر فى عام ١٥١٧.

(١١) آن وولف : كم تبعد القاهرة، ص ١١٤.

(١٢) سيد محمد السيد : الاسكندرية ومكانتها الاستراتيجية فى العصر العثمانى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١١٦.

(١٣) للمزيد : محمد بن أحمد ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، مطبعة بولاق، ١٣١١هـ، ج ٤، ص ١٠٨، ١٥٣، ٢٥١، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣٥٥، ٣٥٩ ، ٤٢٣، ٤٢٤.ج٥، ص ٨٩، ٩٠، ٣٢٣، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٧٢، ٤٠٨.

(١٤) يمكن مُلاحظة بقاء أهمية المدينة أيضاً من استقرار بعض كبار المسئولين فيها ومرابطة بعض القوات لحراسة الميناء والمدينة، وتركز جزء مهم الأسطول العثمانى فيها أو تردده عليها، وكونها نقطة المرور الرئيسية لتعامل مصر مع استانبول.. وهو ما كان يعنى توجيه قسم من الأموال إلى تلك الجهات فى صورة مرتبات وغيرها، حيث كان يُعاد إنفاق أو تدوير جزء من الأموال بالمدينة بوسائل عديدة، منها فرص العمل التى كانت تُتاح. وهكذا تضمنت الميزانية العديد من البنود مثل مرتبات رجال الأوجاقات العاملين فى حراسة قلاع المدينة أو العاملين فى إدارة الميناء، أو لتجهيز المؤن الخارجة عبر المدينة والميناء إلى استانبول، أو لنزويد الأسطول بالمياه العذبة والمؤن، أو فى ترميم الميناء والشون. للمزيد : أحمد عبد العال سليم : ميزانية مصر فى العصر العثمانى فى القرن السادس عشر.. دراسة حاله ميزانية عام ١٠٠٥/١٠٠٦ = ١٥٩٦/١٥٩٧، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب جامعة المنيا، عدد ٤٨، ٢٠٠٤، ص ١٦، ٤٨، ٥٣، ٦٦-٧٠، ٧٧، ٨٢، ٨٤.

(١٥) ابن إياس : بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٧٤ – ٤٧٦، ٤٧٩. ج٥، ص ٨٣، ١٨٤ – ١٨٧.

(١٦) للمزيد انظر : محسن شومان : المقاطعات، ص ٥٧ – ٦١.

(١٧) ابن إياس : بدائع، ج٥، ص ١٦٥، ١٨٢، ١٨٨، ١٩٠، ٢٧٩، ٢٨٣، ٣٥٤، ٤١٤.

(١٨) يوسف الملوانى: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق : عماد هلال وعبد الرازق عيسى، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥١، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٢٣، ٣٣٦، ٣٦٣. أحمد شلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢١٦، ٤٤٥. أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان : الدرة المصانة

فى أخبار الكنانة، تحقيق : دانيال كريسيليوس وعبد الوهاب بكر، دار الزهراء، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٠، ٤٧.

(١٩) أندريه ريمون : مرجع سابق، ج١، ص ٣٠١، ٣٠٢.

(٢٠) يدل على ذلك ما ورد فى قانون نامه مصر الذى أصدره السلطان سليمان من أنه فى حالة استيفاء " الغلال الخاصة " فى القاهرة.. يُباع بعضها فى رشيد ودمياط والاسكندرية.. وإذا قدمت إلى ميناء الاسكندرية سفن الفرنجة أو سفن من أطراف البلاد طالبة غلالاً يباع لها ما تطلبه إن وجد ". كما يدل عليه ما ورد فى البند ٣٨ من معاهدة ١٧٤٠ بين الباب العالى وفرنسا من أن " البرتوغاليين والصقليين (أهالى سيسيليا) والكاتالينيين والمسينيين والانكونيين وسائر الأمم المعادية لنا والتى لا سفراء ولا قناصل ولا وكلاء لها لدى بابنا العالى وترغب بملء حريتها فى المجئ إلى ممالكنا المحروسة " كما كانت تفعل قديماً " تحت راية امبراطور فرنسا فهؤلاء يدفعون الرسوم الجمركية كالفرنساويين بدون أن يجاز لأحد معارضتهم بشرط أن لا يتعدوا حدودهم ولا يرتكبوا ما يعبث بالأمن والراحة ". قانون نامه مصر، ترجمة : أحمد فؤاد متولى، دار الهانى، القاهرة، ص ٥٠، ٥١. يوسف آصاف : المعاهدات الدولية التى عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروباوية، القاهرة، ١٨٩٦، ص ١٥.

(٢١) محسن شومان : المقاطعات، ص١٥، ١٦. آن وولف : مرجع سابق، ص ١١٥. وعند " أباظه " أن عودة النشاط التجارى إلى مصر فى القرن السادس عشر كان نسبياً وأن العودة القوية لم تكن إلا مع بداية القرن الثامن عشر. فاروق عثمان أباظه : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الاسكندرية، مطبعة الانتصار، ١٩٨٨، ص ٤٧، ١١٨.

(٢٢) أندريه ريمون : مرجع سابق، ج١، ص ٢٧٠-٢٧٢.

(٢٣) تم ذلك بإرسال " دفتردار " مختص بهذه المهمة. وذكر ابن إياس فى حسرة " وأما المال الذى كان يرد من ثغر الاسكندرية ودمياط والبرلس وجده.. فإنه كان يحمل إلى خزائن السلطان سليم شاه وولده سليمان ". ابن إياس : بدائع، ج٥، ص ٢١٨، ٢٤١، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤١٠.

(٢٤) احتفظت استانبول بمهمة الدفاع عن موانئ الاسكندرية ودمياط والسويس عن طريق ثلاثة من القبودانات كانت تبعث بهم على رأس حامية تُجدد سنوياً ويشغلون مناصبهم كصناجق من بين ٢٤ صنجقاً رتبهم سليم بمصر. وبمرور الوقت شُغلت

حصون وقلاع الموانى برجال الأوجاقات المعينين من قبل ديوان القاهرة وكانوا يتقاضون رواتبهم من الخزينة. وبعد أن كان القبودانات بمنأى عن الباشا وديوان القاهرة ويستمدون سلطتهم من السلطان.. انغمسوا فى السياسات المحلية والصراعات العسكرية، وانتهى الأمر بتجريدهم من رتبة صنجق التى لم يعد يحتفظ بها سوى قبودان الاسكندرية (والسويس أحياناً). ومع أنها كانت صنجقية ميته "باية".. فإنها استبقت لقبودان الاسكندرية بعض سلطة ونفوذ جعلت منه ملاذاً يحتمى به بعض الفارين من بطش منافسيهم من المماليك أو حتى من القناصل عند تعرضهم لاعتداءات السلطات المحلية. محسن شومان : المقاطعات، ص٤٤، ١٥٧-١٦٠.

(٢٥) بلغت ميزانية مصر ذلك العام ٦٦,٠٨٠,٤٧٦ باره. وبينما بلغ محصول خراج الأراضى ٤٠,٧٨٩,٦٩١ باره بنسبة ٦١,٧٣%.. فإن خراج الجمارك بلغ ٤,٤٥٠,٥٧٩ باره، أى بنسبة ٨,٢ %. وكان خراج ثغرى الاسكندرية ورشيد وتوابعها أعلى خراج يحصل من الموانئ وبلغ ٣,٥٦٢,١٨٦ باره، أى ما يعادل ٦٥,٤% من إجمالى خراج الموانئ المصرية. أحمد سليم : ميزانية مصر، ص ١١، ١٢، ٧٨.

(٢٦) جاء فى قانون نامه أنه فى حالة توفر الغلال فى القاهرة، يُباع من مخازنها " مائة ألف أردب حنطه وخمسين ألف أردب شعير، ويباع فى رشيد ألفا أردب حنطه وفى دمياط ثلاثة آلاف أردب حنطه، وفى الاسكندرية عشرة آلاف أردب حنطه وألفا أردب شعير ". ونعتقد أن هذه الأرقام تعكس زيادة احتياجات الاسكندرية بالمقارنة برشيد ودمياط، ومن ثم تشير إلى أن عدد سكانها لم يكن قليلاً كما قيل، على الأقل حتى القرن السابع عشر. قانون نامه مصر، ص ٥٠.

(٢٧) محسن شومان : اليهود فى مصر العثمانية حتى القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ج١، ص ٦٧، ١٦٧. ج٢، ص ٥٨.

(٢٨) س ٢٩، ص ٧٤، ق ١٨٥، ٥ جماد ثان ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٣/١٩. وللاختصار استخدمنا الرمز (س) ليعنى السجل، و(ص) ليعنى رقم الصفحة، و(ق) ليعنى رقم الوثيقة. كما اعتمدنا على وثائق محكمة الاسكندرية مالم نُشر لغير ذلك.

(٢٩) س ٤٢، ص٣٥، ق ١١٢، ١٧ ذى القعدة ١٠١٥ = ١٦٠٧/٣/١٦. س ٦٠، ص ٢٢٩، ق ٣٩٧، ٣ ذى الحجة ١١١٤ = ١٧٠٣/٤/٢٠. س ٩٠، ص ٤٦٠، ق ٥٦٣، ٢٥ ذى الحجة ١١٨٢ = ١٧٦٩/٥/٢

(٣٠) س ٦٠، ص ٢٦٧، ق ٤٦١، ٢ ذى الحجة ١١١٤ = ١٧٠٣/٤/١٩. س ٧٦، ص ٥ ، ق ٨، ٣٠ ذى القعدة ١١٥٤ = ١٧٤٢/٢/٦.

(٣١) س ٥١، ص ٨٣٤، ق ١٨٥١، ٢٨ صفر ١٠٧٨ = ١٦٦٧/٨/١٩. س ٧٦، ص ١٧٧، ق ٣٠١، ١٠ ذى القعدة ١١٥٥ = ١٧٤٣/١/٦.

(٣٢) س ٦٣، ص ٢٤٩، ق ٤٤٧، ١شوال ١١٢٦ = ١٧١٤/١٠/١٠.

(٣٣) فهناك الفيومى والصعيدى والرشيدى والدلجمونى واللقانى والإدكاوى والبشبيشى، والمغربى والزرهونى والغريانى والمستيرى والصفطى والبنغازى والطرابلسى والجربى والدرناوى والزاويتى والمصمودى والجبيلى والنابلسى والبغدادى والتركى والأرنؤدى.. إلخ. س ١٠٧، ص١٢٥، ق ٢٢٥، ١٤ صفر ١٢١٣ = ١٧٩٨/٧/٢٨. ص ١٣٠، ق ٢٢٩، ١٥ جمادى الأول ١٢١٣ = ١٧٩٨/١٠/٢٥. ص ١٣٦ – ١٣٨، ق٢٣٢، ١٠ ذو الحجة ١٢١٤ = ١٨٠٠/٥/٤.

(٣٤) آن وولف : كم تبعد القاهره، ص ٣٩.

(٣٥) لقد كتبت " أنا فى خطر شديد أن أفقد إنجليزيتى ؛ فأنا لا أستطيع الكتابة بنصف السهولة التى كنت أكتب بها منذ اثنتى عشرة سنة.. أعيش فى مكان يشبه جداً برج بابل : فى بيرا يتحدثون التركية واليونانية والعبرية والأرمينية والعربية والفارسية والروسية والسلافية والهندية والألمانية والهولندية والفرنسية والانجليزية والإيطالية والمجرية. والأسوأ من ذلك أن هناك عشر من هذه اللغات تنطق داخل بيتى. فسائسو الخيل الذين يعملون لدى عرب، وحرس المشاة فرنسيون وإنجليز وألمان، والممرضة أرمنية، والخادمات روسيات ونصف دستة أخرى من الخدم يونانيون، والقهرمان إيطالى والجنود الانكشارية من الأتراك.. ". ليدى مارى وتلى مونتجو : رسائل من تركيا ١٦-١٧١٨، ترجمة : إيزابيل كمال، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد ١٠٣٦، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٦٨.

(٣٦) اعتمدت فى ذلك على عينات من السجلات الواردة بعض أرقامها فى الدراسة، والتى تناولت أولئك الذين ذهبوا إلى المحكمة، وبالتالى لا يمكن الاعتماد عليها إلا كمؤشر للتنوع السكانى بالاسكندرية آنذاك.

(٣٧) س ٢٩، ص ٩٨، ق ٢٥٦، ٢٥ جماد ثان ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٤/٨.

(٣٨) س ١٢، ص ٤٢، ق ١٠١، ١٦ ذى القعدة ٩٨٥ = ١٥٧٨/١/٢٤.

(٣٩) فـ " خليفه بن عاشور " عمل في " الاسكاله " كحارس جلود لأحد الفرنسيين، و" درغماش البدوى " كان " في خدمة " قنصل الانكليز، بأجرة معلومه ". س ٤٣، ص ٩٣، ق ٢٦٤، ٣ ذى الحجة ١٠١٨ = ٩ مارس ١٦١٠. س ٤٧، ص ١٢٩، ق ٣٤٥، ١١ رجب ١٠٥٣ = ١٦٤٣/٩/٢٥.

(٤٠) س ١، ص ٥٥، ق ٢٤٦، ٢٨ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٩. س ٥١، ص ٥٢٣، ق ١١٩١، ١٥ محرم ١٠٧٧ = ١٦٦٦/٧/١٨. س ٦٩، ص ١٧٤، ق ٢٧٨، ١٦ صفر ١١٤١ = ١٧٢٨/٩/٢٠. س ٨٩، ص ٢٨٠، ق ٣٦٤، ٢٠ ربيع الثاني ١١٧٣ = ١١/١٢/ ١٧٥٩. س ٩٠، ٤٦٠، ق ٥٦٣، ٢٥ ذى الحجة ١١٨٢ = ١٧٦٩/٥/٢.

(٤١) الحسن بن محمد الوزان : وصف أفريقيا، ج٢، ص ١٩٦، ١٩٧، ٢١٦ – ٢١٨.

(٤٢) س ١٢، ص ٣، ق ٥، ٥ رجب ١١٩٥ = ١٧٨١/٦/٢٧.

(٤٣) من ذلك أن " الخلماء والحكام والمتكلمين والمشايخ والفقراء وسكان الاسكندرية " اجتمعوا " بمجلس الشرع " واشتكوا من أن هناك " ضرراً علي المسلمين والمستأمنين الذين يأتون بالسفن بسبب السد.. الموجود بالجانب الشرقي من قلعة أبو قير المتوصل من المجرى القديم لترعة الأشرفية حيث تأثر بتلاطم أمواج البحر المالح. ومن زيادة هذه الأمواج اختلطت مياه البحر بمياه الترعة مما سبَّب الخراب ". وبناء على ذلك طالبوا الديوان العالى " بالاستعجال فى إصدار مرسوم ببناء السد " حتي يفصل بين الترعة وبين ساحل البحر المالح " خاصة وأن " نقصان الماء بالترعة وافساده يضر بأبناء السبيل والموجودين بالسفن الذين يشربون من ماء الترعة ". س ٨٣، ص ١٣٣، ق ٢٨٤، ٣٠ محرم ١١٥٧ = ١٧٤٤/٣/١٥.

(٤٤) الملوانى : تحفة الأحباب، ص٣٥٥. س ٩٦، ص ١٧٩، ق ٢٧٩، ١٥ ربيع أول ١١٩٠ = ١٧٧٦/٥/٤. س ١٠١، ص ٢٠٢، ق ٤٤٠، ٤٤١، ١٣ صفر ١٢٠٥ = ١٧٩٠/١٠/٢٢.

(٤٥) س ١٢، ص ٧٧، ق ٤٠، أواسط شعبان ١١٩٩ = ١٧٨٥/٦/٢٢.

(٤٦)اشتكى آصاف فى أواخر القرن التاسع عشر " أننا أصبحنا فى عصر تضاربت فيه الأمور واختلفت الأحوال وتعددت علاقات الأجانب معنا حتى أحس كل منا بأن الحاجة ماسة لمعرفة العهود التى ارتبطنا بها معهم.. إن دولتنا العلية ما منحتهم هذه الامتيازات إلا لتنظيم علايقهم معنا ونشر لواء العدل والأمان على جميع القاطنين فى

سائر ممتلكاتها المحروسة على اختلاف المذاهب والأجناس..". يوسف آصاف : مرجع سابق، ص٢ من المقدمة.

(٤٧)ورد فى قانون نامه مصر أنه " إذا قدمت إلى ميناء الاسكندرية سفن الفرنجة.. طالبة غلالاً يباع لها ما تطلبه إن وجد بعد عرض الأمر من قبل القاضى والأمين ". أما " الرسوم والعشور فى الموانى " فيتم تحصيلها طبقاً " للعوائد والقوانين المعمول بها منذ عهد قايتباى " وبما لا يلحق ضرراً لا بالأموال السلطانية ولا بالتجار. وهكذا يتم تحصيل الرسوم من التجار بناء على تقويم عادل لأمتعتهم فلا تقدر " بأسعار باهظة بقصد الاختلاس " أو " بسعر منخفض حباً فيهم ". ويتم تحصيل الرسوم من سفن الفرنجة القادمة إلى مصر بموجب الدفاتر المعتمدة الخاصة برسوم الأمتعة التى يحتفظ بها قناصلهم وفى حالة استبدال قنصل بآخر كان على القنصل قبل مغادرة البلاد أن يأتى بالدفتر المختوم إلى مجلس القضاء ليدون القاضى ما به ويأخذ أمين الجمرك صورة منه " ليعامل التجار على ضوئه بموجب القانون ". قانون نامه مصر، مصدر سابق، ص٥١ – ٥٨.

(٤٨)للمزيد عن هذه القضية، انظر : يوسف آصاف : مرجع سابق، ص ٤ – ٣٦. فاروق عثمان أباظه : مرجع سابق، ص ٧٣ – ٩١. صلاح هريدى : الجاليات فى مدينة الاسكندرية، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٦٦، ٦٧.

(٤٩)ورد ذلك فى أمر من " الديوان الهمايونى " إلى باشا مصر وقاضى الاسكندرية فى يوليو ١٥٨٦، وبناء على شكوى من " عامل الاسكندرية.. أحمد عادلى " الذى أرسل " عرضحال " بتعرض قناصل البندقية وانجلترا وفرنسا ودوبرونيك لبعض أبناء الأمم الأخرى. سيد محمد السيد : الاسكندرية، ص ١٦٥.

(٥٠)س ١٢، ص ٨، ق ٢٢، ٢٤ ذى القعدة ٩٨٥ = ١٥٧٨/٢/١.

(٥١)من ذلك عملها بجلاء العرائس حيث أذن زوج لزوجته " فى الخروج إلى صناعتها متى اختارت فى الليل أو النهار أسوة أمثالها من الريسات ". س ٢٩، ص ٣٢٦، ق ٩٤٤، ٢٥ ذى القعدة ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٩/٢.

(٥٢) س ١، ص ٧٤، ق ٣٤٨، ١٠ شوال ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٢١. س ٤٢، ص ١٨٤، ق ٥٩٣، ١٦ شعبان ١٠١٦ = ١٦٠٧/١٢/٦.

(٥٣)كتب الوزان أن القاهريين " يزاولون التجارة والصناعة، إلا أنهم لا يغادرون بلادهم ". الوزان : مصدر سابق، ج٢، ص ٢١٦.

(٥٤) س ٤٧، ص٩٢، ق ١٩٨، ١٦ محرم ١٠٥٣ = ١٦٤٣/٤/٥. س ١٤، ص ٤٣، ق ١٤٣، ١٢ ربيع ثانى ١٢٠٦ = ١٧٩١/١٢/٨.

(٥٥) أمسك الصوباشى بعائشه بنت سلامه على شاطئ البحر بظاهر باب رشيد " بجوار كنيسة النصارى " حيث كانت تستحم بالبحر وهى " عريانه.. والأجانب ينظرونها ". س ٢، ص ١٧٨، ق ٥٧٦، ٧ رمضان ٩٦١ = ١٥٥٤/٨/٦.

(٥٦) ادعى سليمان بن كرد من جماعة حصار عبد الله الرايس على بطرس بن جرجس بأنه دخل " مقام سيدى على البهلول وداس برجليه وفيها زربون على مدفن الشيخ ". لم يكن الاتهام لزيارة القبطى للضريح بل وطئه بحذائه وهو ما أكده الشهود. س ٢٩، ص ٣٥٥، ق ١٠٤١ ب، ١٦ ذى الحجة ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٩/٢٢.

(٥٧) تشير الوثائق إلى انتشار الخمور واجتماع النساء والرجال فى مكان واحد لمعاقرتها. ففى عام ١٥٥٤ قبض الصوباشى على" أحمد الشبلى" فى بيته مع " مسعوده المغربية " وجماعة من " الفسقة " وهم متلبسون بشرب الخمر. أنكر الشبلى " وقال أنا كنت مريض وعزمت على جماعة بطعام وما ندرى ما صنعوا ". على أن الشهود " شهدوا بأنهم رأوا أحمد والصحبة والخمر " كما أكد الصوباشى أن " له عادة يجمع الجموع بدار سكنه " ولقد كان السجن هو العقاب. وفى ١٥٩١ قبض الصوباشى على خديجة بنت مصطفى " سكرانه.. ورائحة الخمر ظاهرة فى فمها " وبسؤالها فى " مجلس الشرع.. أجابت بالاعتراف وأن سبب ذلك شرب البوظة " وقد أقام عليها القاضى " حد السكر ". س ٢، ص ٧٩، ق ٢٦٩، ٤ رجب ٩٦١ = ١٥٥٤/٦/٥. س ٣٠، ص ١٠٦، ق ٢١٢، ٦ ربيع أول ١٠٠٠ = ١٥٩١/١٢/٢٢.

(٥٨) بُناء على شكاوى رُفعت إليه، أرسل إبراهيم باشا إلى قاضى الثغر " وجميع الأغاوات والسردارات والبلوكات " من أجل " إبطال المخامير وصناعة الخمر ". قُوبل الأمر من حيث الشكل " بمزيد الامتثال.. وصدر الكشف على المخامير " وتم تعيين " القاضى قاسم المالكى.. وصحبته صالح جلبى من أتباع أغا الحوالة والحاج عيسى مقدم بالديوان ويوسف جاويش مستحفظان وسلام القواص ومحمد سوباشى.. والأغا المعين ". ذهب هؤلاء إلى البيوت الشهيرة بكونها خمارات وكانت ليهود كبيت " سلطانة " و" سليمان " الذى كانت المفاجأة أنه لم توجد بأى منها " عدا قزازة صغيرة فارغة ". أما بيوت رقية وقميرة وكربوسه وفريجه ورزاد وساحم " فلم يوجد شئ بالمرة بأى منها ". عاد الجميع " وأخبروا مولانا.. وعندها أمر بكتابة ذلك ". وفى

اليوم نفسه تم تفتيش خاص لدار قميرة " من داخلها محلاً بمحل فلم يوجد بها شئ من آنية الخمر ولا رائحته ولا اسمه ". والطريف أن قميرة طلبت من القاضى " كتابة ذلك وتقييده بالسجل وأُجيبت لذلك وكتب ضبطاً لواقع الحال وليُراجع عند الاحتياج ". س ٥٢، ص ٤٣٠، ٤٣٤، ق ٨٥٥، ٨٦٠، ٢٧ شوال ١٠٨٢ = ١٦٧٢/٢/٢٦.

(٥٩) فى " أمر عالى" إلى قاضى الاسكندرية تمت الإشارة إلى شكوى " حسين ورضوان بلك باشى ورفقتهما.. أنهيا فيها أن بالثغر محلاً معداً لبيع الخمر.. من قديم الزمان. ثم أن الجماعة التى يتعاطو بيع ذلك تعدو ونقلوا الخمامير لمحل آخر بالقرب من المسجد وصاروا يجمعون الناس من مسلمين ونصارى ويتعاطون الخمر جهاراً ". وهنا طالب " الأمر " فقط بأن ينظر القاضى ذلك " وإجراء الأمر على جارى العادة القديمة المستمرة من غير حادث ولا مظلمة ومنع المذكورين من التجرئ على الأفعال المخالفة ومن التعدى على غير محلاتهم ". س ٢٨، ص ١٩٥، ق ٩١، ١٤ ذى الحجه ١٠٠١ = ١٥٩٣/٩/١٠.

(٦٠) يوسف آصاف : مصدر سابق، ص ١٧.

(٦١)س ٦٥، ص ٢٧، ق ٦٣، ١٧ محرم ١١٣٠ = ١٧١٧/١٢/٢٠. س ١٠١، ص ٢٣١، ق ٥٨٦، ٢٣ شعبان ١٢٠٥ = ١٧٩١/٤/٢٧.

(٦٢)كانت وكالة سنان مشهورة باستئجار اليهود لأجزاء منها لممارسة أنشطتهم التجارية كما كانت فى موقع تجارى مهم يوجد فيه الأهالى والأوربيين، ومن ثم كانت هدفاً لبعض الشكاوى، ومنها التى قدمها " جماعة من الأهالى.. ورفقتهم من التجار " وفحواها " أن الوكالة.. مُعدة لسكن من يرد بالثغر من الفقهاء وقضاة الأنام والعلما وعساكر الإسلام من قديم الزمان وإلى الآن. ثم إن جماعة من اليهود تعدوا بالسكن وتجروا باستعلايهم على المسلمين وبجعل الكنايس والخمارة بها وربط الحمير بأسفلها وغير ذلك من المهملات الواجبة الإزالة لكون أنها يترتب عليها إهانة للمسلمين وفساد عبادات أهل الدين ". ومع أن بعض العلماء أفتوا " بمنعهم من ذلك أشد المنع وردعهم أشد الردع.. وأنه كُتب فى شأن منع ذلك سابقاً " فإن ذلك لم يؤد لنتيجة. وكان رد الديوان " وتعجبنا من غفلة حكام الثغر عن مثل ذلك سابقاً وذلك لا نرضاه فى أيام عدالتنا " وأنه من الضرورى النظر فى الأمر " ومنع اليهود المذكورين من السكنى بالوكالة على الوجه المشروح ". س٢، ص ١١٥، ق ٣٨٥، ٢٧ رجب ٩٦١ = ١٥٥٤/٦/٢٨. س ٤٢، ص ٢١٨، ق ٧٠٧، ٣٠ ربيع أول ١٠١٦ = ١٦٠٧/٧/٢٣.

(٦٣)ورد خطاباً من ديوان القاهرة إلى " أمير اللوا والحاكم الشرعى" عن شكوى من " محمد ورفقايه " بأن " بالثغر محلاً مدفوناً به شهدا وأوليا " وأن " جماعة من النصارى القاطنين " اعتدوا على حُرمة المكان وجعلوه مكاناً لتعاطى الخمور. ومع أن الديوان طالب السلطات بتحرى الأمر وكتابة "عرض مُفصل " بالواقع " ليترتب على كل أمر مقتضاه ".. فإن الأمور سرعان ما عادت إلى ما كانت عليه. وبعد أربع سنوات ونصف تكررت شكوى الأشخاص أنفسهم من أن " بالجزيرة مقابر الأوليا والصلحا والمشايخ وغيرهم من المسلمين وأن طايفة النصارى أخذوا خماره فوقها وصاروا يبيعون فيها الخمر ويتجاهرون ". ومن جديد أرسل الديوان بضرورة تحرى الأمر وإذا ثبت " يمنعون من ذلك ويقابلون عليه بما يستحقونه شرعاً أشد المقابلة ". ومن جديد لم تؤد الشكوى سوى لنتيجة مؤقتة، فتقدم الأهالى بعد أكثر من عامين بشكوى ثالثة مؤكدين " أنه كُتب فى شأنها أحكام عديدة بإبطالها.. ومع ذلك لم يبطلوها بسبب إرشايهم ". ومرة ثالثة صدرت التوجيهات بضرورة " الكشف عن ذلك وتحريره.. ليرتب على كل أمر مقتضاه". س ٢٨، ص ١١٦، دون رقم، ٢٨/٤/٩٩٧=١٥/٣/١٥٨٩. ص ١٢٥، ق ٤٦، ٢٨ محرم ١٠٠٣=١٣/١٠/١٥٩٤، ص٥، بدون رقم، ٢٠ ربيع الأول ١٠٠٥= ١١/١١/١٥٩٦.

(٦٤) س ٩٠، ٤٦١، ق ٥٦٤، ٣٠ ذى الحجة ١١٨٢ = ٧/٥/١٧٦٩.

(٦٥) س ٧، ص ٢٩١، ق ٧١٢، أواخر رمضان ١١٢٧= ٢٨/٩/١٧١٥.

(٦٦)س ٣٠، ص ١٦٤، ق ٣٦١، ٨ ربيع ثان ١٠٠٠ = ٢٣/١/١٥٩٢. س ٤٢، ص ٣٢٢، ق ٩٥٣، ١٤ الحجة ١٠١٢ = ١٤/٥/١٦٠٤. ص ٢١٣، ق ٦٩٠، ٩ ربيع ثان ١٠١٦ = ٢/٨/١٦٠٧. س ٤٣، ص ١١٥، ق ٣٣٢، ٥ صفر ١٠١٩ = ٢٩/٤/١٦١٠.

(٦٧)س ٧٨، ص ٢٦٦، ق ٣٩٨، أواسط رمضان ١١٥٧ = ٢٠/١٠/١٧٤٤. س ١٠٨، ص ٢٣، ق ٥٠، ١٨ ذى القعدة ١٢١٢ = ٥/٥/١٧٩٨.

(٦٨) س ٦٥، ص ٢١٤، ق ٣٩٧، غرة ذى الحجة ١١٣٠ = ٢٥/١٠/١٧١٨.

(٦٩) س ١٠٨، ص ٥٠، ق ١٠٢، ١ محرم ١٢١٢ = ٢٦/٦/١٧٩٧.

(٧٠) س ٢٦، ص ٥٥٨، ق ١، ١٩ شوال ٩٤٩ = ٢٥/١/١٥٤٣.

(٧١) س ٧٨، ص ٣٠٤، ق ٤٦١، أواسط ذى الحجة ١١٥٧ = ١٧/١/١٧٤٥.

(٧٢)س ٧، ص ٥٧٣، ق ٦، ٢٤ محرم ٩٣٣ = ١٥٢٦/١٠/٣١. س ٢٠، ص ٣١٢، ق ٨٧١، ٢٥ جمادى الثانى ٩٧٧ = ٥ ديسمبر ١٥٦٩. س ٤٢، ص ١٧٧، ق ٥٧٣، ١٠ رمضان ١٠١٦ = ١٢/٢٩/ ١٦٠٧. س ٤٧، ص ١٨٦، ق ٤٨٤، ٣ رمضان ١٠٥٣ = ١٦٤٣/١١/١٥. س ٥٢، ص ٣٥٤، ق ٦٩١، ٩ رجب ١٠٨٢ = ١٦٧١/١١/١١. صلاح أحمد هريدى : الجاليات فى مدينة الاسكندرية، ص ٦٣.

(٧٣)ومن ذلك أن " الفندق الكبير الكاين بباطن الثغر.. المجاور لفندق البنادقة من الشرق " كان " فى ملك واختصاص " السراجي سراج الدين عمر. س ٧، ص ٦٥٧، ق ١، ١٥ ربيع الثانى ٩٣٣ = ١٥٢٧/١/١٨.

(٧٤)ومن ذلك أن " فندق الريفية شرق الثغر المشتمل علي ١٣ دكان و٦ حوانيت " كان وقفاً على جامع صفوان بعد أن اشتراه أحد الأشخاص وأوقفه على الجامع. س ١، ص ٨٣، ق ٣٩٣، ١٦ شوال ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٢٧.

(٧٥)آن وولف : مرجع سابق، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٧٦)فى بيورلدى من الديوان الهمايونى إلى باشا مصر وأمير الاسكندرية وقاضيها، فى ٣ ذى القعدة ٩٧٨ = ٢٩ مارس ١٥٧١.. ورد " أنه منذ زمانه كان هناك ثلاثة منازل تعرف بكاوران (باب كاربان) سراى فى الاسكندرية وأنها خصصت لقناصل فرنسا وكان ناظر الفرنج يسكن فيها ". سيد محمد السيد : الاسكندرية، ص ١١٩.

(٧٧)س ٤٧، ص ٢٢٨، ق ٥٧٨، ١٤ ذى الحجة ١٠٥٣ = ١٦٤٤/٢/٢٣.

(٧٨)س ٥٢، ص ٣٥٤، ق ٦٩١، ٩ رجب ١٠٨٢ = ١٦٧١/١١/١١.

(٧٩)س٢، ص ١١٨، ق ٣٩٥، ٢٩ رجب ٩٦١=١٥٥٤/٦/٣٠. آن وولف: مرجع سابق، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٨٠)س ٤٧، ص ١١٨، ق ٣١٨، ٩ جماد ثان ١٠٥٣ = ١٦٤٣/٨/٢٤.

(٨١)س ٥٢، ص ٣٠١، ق ٥٨٥، ٢١ ربيع أول ١٠٨٢ = ١٦٧١/٧/٢٨.

(٨٢)س ٦٥، ص ١٨٥، ق ٣٣٧، غرة شوال ١١٣٠ = ١٧١٨/٨/٢٧.

(٨٣)س ٨٧، ص ٩٥، ق ١٢٦، ٨ ذى القعدة ١١٩٤ = ١٧٨٠/١٠/٢٩.

(٨٤)س ١٢، ص ٨٢، ق ٥٤، ٤ رجب ١٢٠٠ = ١٧٨٦/٥/٣.

(٨٥)س ١٤، ص ٥١، ق ١٦٣، ٢٧ ربيع ثان ١٢٠٦ = ١٧٩١/١٢/٢٣.

(٨٦)س ١٢، ص ٨٢، ق ٥٥، ٤ رجب ١٢٠٠ = ١٧٨٦/٥/٣. س ١٠١، ص ١٣٦، ق ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٨ شعبان ١٢٠٣ = ١٧٨٩/٥/٢٤.

(٨٧) س ٣٠، ص ١٦٨، ق ٣٧٠، ١٨ محرم ١٠٠٠ = ١٥٩١/١١/٥.
(٨٨)س ٥٢، ص ٣٥٤، ق ٦٩١، ٩ رجب ١٠٨٢= ١٦٧١/١١/١١.
(٨٩)س ٢، ص ١١٨، ق ٣٩٥، ٢٩ رجب٩٦١ =١٥٥٤/٦/٣٠.
(٩٠)س ٨١، ص ٧٥، ق ١٠٩، ١ شوال ١١٦٥ = ١٧٥٢/٨/١١.
(٩١)س ٣٠، ص ١٦٨، ق ٣٧٠، ١٨ محرم ١٠٠٠ = ١٥٩١/١١/٥.
(٩٢)فالدار التى اشتراها " القس يونانى بن جورجى الملكى " من " سليمان بن مراد " بوسط الثغر " بخط مقام الولى نجم الدين السبع ".. كان حدها القبلى إلى " دار وقف فقراء النصارى ". أما الحانوت الذى استأجره عبد العال الشيشينى " بسوق باب البحر " من فخر الدين القسنطينى فكانت حدوده " القبلى فندق الجنويز.. والشرقى حانوت سكن عبد القادر بن أبى القاسم، والغربى حانوت لابنة غبريال النصرانية ". أما وقف شمس الصفاقصى " فكان فيه حانوتين بسوق القطانين إلى الغرب منهما " دار غبريال النصرانى " وحانوت ثالث بسوق باب البحر إلى الشرق منه "خان الجنويز" ورابع "وقف المدرسة التكرتية سكن بقطر النصرانى العطار ". س ٢، ص ١٨٠، ق ٥٨٣، ٨ رمضان ٩٦١ = ١٥٥٤/٨/٧. س ٣٠، ص ١٦٨، ق ٣٧٠، ١٨ محرم١٠٠٠ = ١٥٩١/١١/٥. س ٢٩، ص ١٠٠، ق ٢٦٨، ١٨ جماد ثان ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٤/١.
(٩٣)من ذلك النزاع بين الشريف حسن برهان وراحيم بنت إبراهام اليهودى، حيث ادعى الأول ملكيته لمكانين " بحكر أبى العباس المرسى.. بالشراء قبل تاريخه من شموأل.. وأن المدعى عليها تعارضه ". وبسؤالها أكدت معارضتها لأن زوجها إسحاق باع لها المكانين بالوكالة عن والدته " فعارضهما فى ذلك " على أساس " أن حجة التمليك المشار إليها أسبق من حجة البيع الصادر من اسحاق " وبناء على ذلك حكم القاضى لمصلحة الشريف. س ٦٠، ص ٧٥، ق ١٣٧، ١٢ ربيع آخر ١١١٤ = ١٧٠٢/٩/٥.
س ١٥، ص ٦، ق ٨، ١ رمضان ٩٨٨ = ١٥٨٠/١٠/١٠.
(٩٤)س ٢٨، ص ٤٤، ق ١٨، أول رجب ١٠٠٤ = ١٥٩٦/٢/٢٩.
(٩٥)تييرى هنتش : الشرق المتخيل : رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطى، ترجمة : غازى برو، خليل أحمد خليل. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٤٤، ١٤٥.
(٩٦)آن وولف: كم تبعد القاهره، ص٤٤، ١١٨، ١٣٤، ١٤١، ١٤٤، ١٨٩، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٥٥. وقد ذكرت مثلاً أن Fillippo Pigafetta من Vicenza وصل الاسكندرية

عام ١٥٧٧. وفضلاً عن كونه حاجاً، فإنه كان مبعوثاً فى مهمة جاسوسية فجمع أدق التفصيلات عن القوات التركية فى مصر وعن قلعة قايتباى والاسكندرية، وأهدى كتابه إلى البابا سيكستوس الخامس الذى كان قد أرسله إلى ملك فارس للتحالف ضد الأتراك.

(٩٧)أندريه ريمون : مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٩.

(٩٨)ومن ذلك التعاملات التجارية لــ " فالومه بنت بنيامين الفرنسية " مع " الشريف شمس الدين البرديني " بمبلغ ٩٠٠ قرش نظير أنواع من القماش، وكذا مع " على بن شهاب الدين البلبيسى " فى قماش وغيره بمبلغ ٩٣٠ قرشاً. باب عالى، س ١١٧، ص٢٠١، م ٩٢٢، ٤ صفر ١٠٤٦=٨ يوليو ١٦٣٦. ص٢١١، م ٩٧٧، ٦ صفر ١٠٤٦=١٠ يوليو ١٦٣٦.

(٩٩)نكتفى بهذه الأمثلة الدالة. لقد اقترض الأمير سهراب بن عبد الله وجلال الدين بن شهاب والناصر محمد بن إبراهيم والمعلم سلمون بن داود والمعلم شمس بن إبراهيم والمعلم شموأل بن إسحق والمعلم يوسف بن حبيب.. اقترضوا من " فخر الدين عثمان بن شحاده عين أعيان التجار بالثغر " ألفى دينار ذهب " مُتكافلون فى ذلك ". ونلاحظ أن المقترضين من المسلمين والأقباط واليهود ممن سنجد لهم تعاملات مهمة بعدها. فشموأل استأجر وقف الصادر بعدها بخمسة أيام بمبلغ ٢٧٥٠٠ نصف، وبعدها بشهر اشترى " جارية بيضا نصرانية " بخمسين قرش واستأجر " الحانوت والأرضية التى فى وقف حسن باشا.. بالجزيرة بسوق الطيارة بالمينا الشرقية لمدة ثلاث سنوات بأجرة ٥٦٨ نصف " واستأجر حانوتين آخرين فى الوقف نفسه ولمدة ثلاث سنوات بأجرة ١١٣٦ نصف. أما فخر الدين عثمان فادعى" أنه يستحق بذمة عبيد بن سلمون اليهودى القاطن بمصر السلانيكى " مبلغ مئتى دينار ذهب " لزم ذمته عن بدل قرض شرعى من مدة تزيد على سنتين " بل وقام بحماية الصاغة الأقباط ضد الصاغة المسلمين. لقد اشتكى محمد بن شمر من أن " طايفة القبط الصياغين " يقومون بغش المصاغ. لكن المُشكو فى حقهم ذكروا أنهم "لا يتعاطوا فى صناعة الصياغ إلا القروش الريال الطيبة والذهب الطيب.. وبمعرفة المتكلم عليهم فى ذلك، الخواجا عثمان " الذى لم يكتف بإفشال محاولة بن شمر بل وقاد الصاغة الأقباط للشكوى ضده من " تعرضه إليهم فى كل حين وتزايد بلصه عليهم ". وهكذا ذهب فخر الدين عثمان إلى القاضى وصحبته ١٢ شخصاً من "جماعة الصياغين بالثغر" الذين أخبروا أنهم "

متضررين من المعلم محمد بن يوسف شمر الصايغ من كثرة بلصه وتعرضه عليهم.. وسألوا من مولانا إحضار المذكور ومنعه من التعرض لهم، فأجابهم لذلك وأحضره بمجلس الشرع ومنعه من التعرض لهم من بلص وتعصب وغير ذلك.. بحضور الخواجا عثمان ". كما سيقوم عثمان بشراء قطعة أرض "بالضفة القبلية من الخليج الناصرى " إبان التزام المعلم سليمان بن مردخاى " الملتزم بالأموال السلطانية " بعشرين قرشاً " من القروش الكبار الفضه الريال ". س ٤٢، ص ٢٦٩، ق ٨٦٢، ٢٣ ذى الحجة ١٠١٥=١٦٠٧/٤/٢٠. ص٢٦٨، ق ٨٥٩، ٣٠ ذى الحجة ١٠١٥=١٦٠٧/٤/٢٥. ص٢٤٢، ق ٧٨٩، ٧ صفر ١٠١٦=١٦٠٧/٦/٢. ص١٨٣، ق ٥٨٩، ١ جماد ثان ١٠١٦=١٦٠٧/٩/٢٣. ص٢٣١، ق ٧٤٣، ٢٢ ربيع أول ١٠١٦=١٦٠٧/٧/١٧. ص ١٦٥، ق ٥٣٩، ١٠ شوال ١٠١٦=١٦٠٨/١/٢٨. ص ١١٤، ق ٣٨٧، ٤ ذى القعده ١٠١٦=١٦٠٨/٢/٢٠. س٤٨، ص١٣٦، ق ٥٩٤، ٢٦ رمضان ١٠٢٨= ١٦١٩/٩/٥.

(١٠٠)س ١٢، ص١٠٣، ق ٧٤، ١ محرم ١٢٠١ = ١٧٨٦/١٠/٢٤. ص ١٠٤، ق ٧٥، ١٥ محرم ١٢٠١ = ١٧٨٦/١١/٧. س ١٢، ص ١٠٧، ق ٧٨، ١٨ صفر ١٢٠١ = ١٧٨٦/١٢/٩.

(١٠١)س ١٠١، ص ٥، ق ١١، ٢٥ ذى الحجة ١٢٠٢ = ١٧٨٨/٩/٢٦. ص ٢٠٨ و٢١٠، ق ٤٥٩، ٤٦٦، ١ ربيع آخر ١٢٠٣ = ١٧٨٨/١٢/٢٩. ص ٢٠٩، ق ٤٦١، ٢٣ ربيع أول ١٢٠٥ = ١٧٩٠/١١/٣٠.

(١٠٢)س ١٠١، ص ٢١٩، ق ٤٨٤، ٤٨٥، ٣ و٤ جماد أول ١٢٠٥ = ٨ و١٧٩١/١/٩.

(١٠٣)فهذا يانى ولد مريال يُوكل رضوان بلك باشى فى قبض ٢٠٠٠ عثمانى من غبريال ولد موشكو " وكالة شرعية وفى الحبس والترسيم.. والإخراج والبراءة.. ورضى بقوله وفعله ". أما " القبودان دبيروا الفرنساوى " فأوكل أحمد جاويش سردار مستحفظان بالثغر فى رفع دعوى على مصطفى الفلاح للحصول على مستحقاته لديه البالغة ٥٠ ريال. س ٤٢، ص ١٢١، ق ٤١٣، ٢٠ ذى الحجه ١٠١٦ = ١٦٠٨/٤/٦. س ٩٦، ص ٢٤٧، ق ٣٩٣، ٢ جماد ثان ١١٩٠=١٧٧٦/٧/١٨.

(١٠٤)أرسل حسين جاويش مستحفظان من القاهرة إلى قنصل الفلمنك يؤجره " ربع " ويوكله فى ترميمه وتجديده. ومما ورد فى الرسالة " بعد مزيد السلام.. والحال أننا

استخرنا الله وأقمناك عوضاً عنا وكيلاً وأذنا لكم فى العمارة اللازمة الضرورية الذى يصير بها النفع إلى ضبط المحل تعلقنا، وكامل ما أصرفته على بناية الربع والرصيف سكنكم بالاسكندرية من ثمن جير وحجر وأخشاب ترسل لنا به قايمة مشمولة بختمكم نرسل لكم عوضها وصل مشمول بختمنا من أصل أجرة الربع.. والله خير الشاهدين. واشترطنا أن تكون مباشر كل شئ أنت بنفسك وأنت عوضاً عنا وشكل ما تخاف على مالكم خاف على مال الناس". وقد قبل القنصل المهمة، وبعد إتمامها سجل ذلك بالمحكمة بدون حضور حسين جاويش. س ١٠١، ص ٢١٠، ٢١١، ق ٤٦٦، غرة ربيع آخر ١٢٠٣ = ١٧٨٨/١٢/٢٩.

(١٠٥)هذه حالة طالب فيها يهودى بضامن لأوربى رغم كثرة تعاملاته مع الأوربيين. لقد شحن " المعلم ياسو " بعض البضائع إلى البندقية على مركب رياسة " سومطوا ". لكن ياسو " طلب كفيلاً يكفل ريس المركب لضمان توصيل البضايع ". وقد تكفل أحمد أغا وكيل خرج السلطنة والأمير على بن عبد الله المتفرقة بضمان ريس المركب " وأنه إذا لم يوصل البضايع إلى بلاد البنادقة كان عليهما القيام بقيمة هذه البضايع للمعلم ياسو". س ٤٧، ص٥١، ق ١٤١، ٣ محرم ١٠٥٣=١٦٤٣/٣/٢٣.

(١٠٦)س ٩٦، ص ٢٣٦، ق ٣٧٩، ١٦ ربيع ثان ١١٩٠ = ١٧٧٦/٦/٣.

(١٠٧) س ١٢، ص ٦٩، ق ١٨٣، ٣ محرم ٩٨٦ = ١٥٧٨/٣/١٢.

(١٠٨)من الأمثلة الدالة على وجود توكيلات رغم اختلاف الدين، قيام محمد بن أبى الخير " بالوكالة الشرعية " عن المعلم غبريال بن اسحاق النصرانى اليعقوبى فى تأجير حمام إلى محمد بن ابراهيم. ووكالة " منصور بن الشهابى أحمد من جماعة الينكجرية بمصر " عن " غزلان بنت جرجس البهجورى النصرانى القبطى " للطلاق من زوجها. ووكالة الشيخ أحمد بن قنيد عن " هيلانه بنت عبد المسيح وكترينه بنت دميترى الروميتان " ضد " الشيخ محمد الجريونه ". س١١، ص ١٢٤، ق ٤١٦، ١٧ رمضان ٩٧٨ = ١٥٧١/٢/١٢. س ٤٢، ص ٢١٢، ق ٦٨٩، ١٩ ربيع الثانى ١٠١٦ = ١٦٠٧/٨/١٢. س ١٠٨، ص١٦٢، ق ٣١٦، ١ رجب ١٢١١ = ١٧٩٦/١٢/٣١.

(١٠٩)وهذا يدل على أن الدينار البندقى كان أجود ذهباً ومن ثم أعلى قيمة من الدينار المجرى. والمراد ارض بما قسم لك ولا تنغص عليك عيشك حتى تأتيك السعة. أحمد

تيمور : الأمثال العامية مشروحة ومرتبة حسب الحرف الأول من المثل مع كشاف موضوعى، مركز الأهرام للترجمة، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٦، ص ٣٩.

(١١٠)يعود ذلك فى أحد أسبابه إلى أن الشوام استحوذوا على موقع مهم فى التجارة المصرية فى النصف الثانى من القرن ١٨ خاصة حين وجه على بك ضربة قوية إلى نفوذ اليهود باستبعادهم من إدارة دواوين الجمارك عام ١٧٦٩/٨ لحساب مسيحيى الشام مثل " المعلم يوسف عرفنجي". ومن ثم ظهر من الشوام تجار مثل فرج الله حنا حمصى وأنطون زغيب وحنا شاشى وميخائيل كحيل. أندريه ريمون : مرجع سابق، ج١، ص ٢٨٥. محسن شومان : اليهود، ج١، ص ٤٣، ١٨٢، ١٩٤. ج٢، ص ١٥٣، ٢٧٥. ويعزو شومان عدم ظهور تجار كبار بين يهود مصر إلى أن الذين تصدوا منهم لعقد الصفقات الكبرى لم يكونوا من التجار المحترفين، بل كانوا فى غالبيتهم من المتنفذين الذين أُتيح لهم - بحكم مواقعهم بدواوين الجمارك وكصيارفة بالديوان العالى- الحصول على صفقات سهلة ومربحة.

(١١١)كان نفوذ اليهود بالاسكندرية امتداداً لنفوذهم باستانبول. وقد كتبت زوجة السفير الانجليزى من أدرنه فى مايو ١٧١٧ " حدا بى الفضول أن أذهب لرؤية السوق فى ردائى التركى الذى يخفى شخصيتى.. لاحظت أن معظم التجار الأثرياء من اليهود، وهؤلاء القوم لهم قوة غير معقولة فى هذا البلد. لديهم من الامتيازات ما يفوق المواطنين الأتراك أنفسهم.. فيحاكمون بقوانينهم الخاصة ويمسكون بتجارة الامبراطورية كلها فى أيديهم إلى حد كبير..كل باشا لديه اليهودى الخاص به يعمل لديه بمثابة مدير لأعماله.. ومنهم الأطبا والقهرمانات والمترجمون لعلية القوم.. وهم بالطبع فى حماية البلاط مهما اختلفت الوزارات القائمة، حتى التجار الانجليز والفرنسيين والإيطاليين الذين يدركون مكرهم يضطرون للتفاوض معهم، فلا يمكن لأى تجارة أن تفلح دون تدخلهم، وأحقر شخص فيهم يمثل أهمية كبيرة لا يمكن معها إغضابه أو الامتناع عن مجاملته لأن بقية أفراد الطائفة يولونه التقدير والاحترام الذى يولونه لأكبر شخص فيهم ". مارى وتلى : مصدر سابق، ص ١٢٥.

(١١٢)محسن شومان : اليهود، ج١، ص ٢٨، ٦٣، ١٦٧، ١٨٢، ١٩٤، ١٩٨.ج٢، ص ٥٨، ٢٥٦، ٢٦٥. أندريه ريمون : مرجع سابق، ج٢، ص ٦٨٤- ٦٨٧.

(١١٣)ورد بالبند ١٣ من معاهدة ١٧٤٠ مع فرنسا " أن التراجمة القائمين بخدمة سفرائهم يعفون من رسوم القصابية ومن سائر الرسوم الاختيارية المسماة تكاليف

عرفية ". أما بند ٢٠ فسمح لهم بحرية الحركة خارج مصر، كما نص البند ٤٢ على أن الامتيازات الممنوحة للفرنسيين تشمل " التراجمة الذين فى خدمة سفراء فرنسا ". آصاف: مصدر سابق، ص ٨، ١٠، ١٧.

(١١٤)محسن شومان : اليهود، ج١، ص ١٩٨. ج٢، ص ٢٥١، ٢٧٢. أندريه ريمون : مرجع سابق، ج١، ص ٦٨٥.

(١١٥)وهذه حالة " الشيخ شحادة " الذى تسلم من " البدرى محمد أحد أنفار مستحفظان مصر " ٦٠٠٠٠ نصف فضة على " أن يشترى بها جلوداً.. ويتوجه بها إلى بلاد النصارى ويتصرف فيها بالبيع وساير التصرفات الشرعية وما أظهره الله تعالى من الربح بعد المصاريف يكون مقسوماً على أربعة أرباع منها ثلاثة أرباع لمحمد والربع الباقى يكون للحاج شحادة ". س ٥٢، ص ٤٣٢، ق ٨٦٩، ١٢ ذى القعدة ١٠٨٢ = ١٦٧٢/٣/١٢.

(١١٦)ورد بالبند ٦٠ " اتصل ببابنا العالى أن بعض أصحاب الطمع ومحبى الانتقام يريدون تكدير التجار الفرنساويين.. وبما أنهم لا يقدرون على قضاء مآربهم فيضطهدون بين وقت وآخر بدون أدنى مسوغ ويقلقون سماسرة أولئك التجار لارتباك تجارتهم. فبناء على ارادتنا السنية لا يسمح بمعارضة هؤلاء السماسرة فى المستقبل عند ذهابهم وإيابهم وتجولهم بين التجار لقضاء أشغال التجار الفرنساويين وأن لا يعارضوا بأى وجه كان ولا يسوغ لأحد إكراه هؤلاء السماسرة أو منعهم من الخدمة من أية أمة. وإذا كان بعض الإسرائليين وغيرهم يزعم أن السمسرة عادت إليه بالإرث فللفرنساويين الحرية فى استخدام من يريدون وعندما يطردون من خدمتهم من استخدموه للسمسرة أو أنه توفى فلا يسوغ لأحد أن يطلب ممن خلفه رسماً.. والذين يخالفون منطوق هذا الحكم يعاقبون ". يوسف آصاف : مصدر سابق، ص ٢٣، ٢٤.

(١١٧)وفى عام ١٥٧٧ انتقل قنصل البندقية إلى القاهرة تاركاً نائباً له بالاسكندرية، حيث أصبح القنصل الفرنسى هو أهم القناصل بالاسكندرية. آن وولف : مرجع سابق، ص ١٣٤.

(١١٨)س ٣٠، ص ١٦٤، ق ٣٦٠، ٦ ربيع ثانى ١٠٠٠ = ١٥٩٢/١/٢١.

(١١٩)فهذا " بيورلدى" صادر فى مارس ١٥٧١ عن " الديوان الهمايونى " إلى باشا مصر وأمير الاسكندرية وقاضيها بسبب النزاع بين الفرنسيين بشأن منصب القنصل، ومضمونه أن السفير الفرنسى باستانبول طلب عزل " جزروغر ديوانى " الذى عمل

قنصلاً بالاسكندرية دون إبلاغ ملك فرنسا أو أخذ الإذن منه، وتعيين " خرستوفور ماجليه بكرزاده " بدلاً منه مع استعادة كل ما أخذه " من السفن والتجار التابعين للقنصلية من أموال وأغراض تحت اسم حق القنصل " وإعطائها للقنصل المُعين أو لقائمقامه " وأخذ كل ما هو متعلق بالقنصلية من أحكام وصور عهدنامه وقانونامه وأختام وكافة الأوراق من جزرو ومن أبيه غوليلمو دن.. وإعادة كل هذه الأوراق.. إلى القنصل الحالى ". سيد محمد السيد : الاسكندرية، ص ١١٩.

(١٢٠)أندريه ريمون : مرجع سابق، ج١، ص ٣٥١.

(١٢١)من ذلك أراضى" القلى والغاسول " فى رشيد واسكندرية والبحيرة التى استأجرها لنفسه قنصل انجلترا من اسماعيل أغا الناظر علي وقف قايتباى، بمعرفة القاضى أحمد الأنصارى " لينتفع بذلك الانتفاع الشرعي علي الوجه الشرعي أسوة أمثاله " لسنة ٩٩٦ الخراجية مقابل ١٢٠٠٠ نصف " إجارة صحيحة.. مشتملة علي الإيجاب والقبول والتسليم والتسلم الشرعيان بعد النظر والمعاقدة.. وثبت الاشهاد بذلك لدى الحاكم الحنبلي" بشهادة شاهدين مسلمين. وبعدها أرسل الباشا إلي المسئولين بالاسكندرية ورشيد والبحيرة بأن " فخر الأمرا بالملة المسيحية مرجع الكبرا فى الطايفة النصرانية القنصل موسيليو قنصل انكليرت أنهي إلينا أنه مستأجر أراضي القلي.. وقد رسمنا بأن يتقدم كل واقف عليه من المشار إليهم بتمكين المذكور من التصرف مما هو جار فى تواجره.. ومنع من يتعرض له.. وتقوية يده وشد عضده.. وعدم التخلف عنه ومنع من يتعدى بالسرقة ". س ٢٨، ص ١١٢، ق ٣٩، ٢٤ ربيع الآخر ٩٩٧ =١٥٨٩/٣/١١. ١ جمادى الآخر ٩٩٧=١٥٨٩/٤/١٦.

(١٢٢)س ٢، ص ٦، ق ٢٠، ٨ جمادى الأول ٩٦١ = ١٥٥٤/٤/١١.

(١٢٣)س ٦٠، ص٣٠١، ق٥١١، اربيع ثان ١١١٥= ١٧٠٣/٨/١٤.

(١٢٤)من النماذج زواج قبرصى من قبرصية ولوندسى من لوندسية وافرنجى متطبب من افرنجية كان وكيلها سكندرى يهودى. س١، ص ٤٠٥، م ٧٧٥، ٢١ جمادى الأولى ٩٥٨ = ٢٧ مايو ١٥٥١. س١، ص٨٣، ق٣٩٢، ١٥ شوال ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٢٦. س ٤٢، ص ١٠، ق ٣٢، ٦ شعبان ١٠١٥ = ١٦٠٦/١٢/٦.

(١٢٥)س ٤٢، ص ١١، ق ٣٧، ١١ شعبان ١٠١٥ = ١٦٠٦/١٢/١١.

(١٢٦)ومنها زواج مارى القبطية من فرنسى. س ٦٠، ص ٦٩، ق ١٢٨، ٤ ربيع ثان ١١١٤ = ٢٨ /١٧٠٢/٨.

(١٢٧)س ١، ص ٩٧، ق ٤٦١، ٢٥ شوال ٩٥٧ = ١٥٥٠/١١/٥.
(١٢٨)س ٤٧، ص ١١٨، ق ٣١٨، ٩جماد ثان ١٠٥٣= ١٦٤٣/٨/٢٤.
(١٢٩)س ٤٧، ص ٥٧ و٥٨، ق ١٥٦ و١٦٠، ٩ و١٠ محرم ١٠٥٣ = ٢٩ و١٦٤٣/٣/٣٠.
(١٣٠)عن ذلك، وعن نماذج لتحول بعض الأوربيين للإسلام وزواجهم : آن وولف : مرجع سابق، ص ٢٤١، ٣٣٥ وغيرها.
(١٣١)س٢٩، ص١٩٢، ٧ رمضان١٠٠٠=١٥٩٢/٦/١٧. س٤٧، ص٢٢٨، ق ٥٧٨، ١٤ الحجة ١٠٥٣=١٦٤٤/٢/٢٣.
(١٣٢) س ٤٢، ص ٢٩٧، ق ٩٢٠، ١٩ ذى القعدة ١٠١٥ = ١٦٠٧/٣/١٨.
(١٣٣)س ٥٢، ص ٣٠١، ق ٥٨٥، ٢١ ربيع أول ١٠٨٢ = ١٦٧١/٧/٢٨. آن وولف : مرجع سابق، ص ١١٨.
(١٣٤)ورد فى البند ٦٣ من معاهدة ١٧٤٠ مع فرنسا أن " التجار الفرنساويون وسواهم من تبعة دولة فرنسا.. ولأجل أمانهم وراحتهم يمكنهم أن يلبسوا زى أهل البلاد ويتعاطوا أشغالهم فى ممالكنا المحروسة بدون أن يسوغ لأحد أن يقلق مثل هؤلاء إذا لم يتخطوا حدود أعمالهم ". يوسف آصاف : مصدر سابق، ص ٢٥.
(١٣٥)كارستن نيبور : رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١- ١٧٦٧، ت : د. مصطفى ماهر، ج١، رحلة إلى مصر ١٧٦١- ١٧٦٢، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٥٦، ٢٩٠، ٣١٢، ٣٢٨ وغيرها.
(١٣٦)هذه حالة اتفقت فيها " الريسه معشوقه بنت عبيد الله الفرنجيه وجان كلدى بنت تقطباى بن عبد الله الفرنجيه على أنهما يتعاطيا صناعة الأفراح بالثغر مهما قسم الله تعالى بينهما يكون لجان كلدى الثلث من المتحصل مع الزياده على جارى عادتها معها ومع ناجيه ". س ١، ص ١٠٦، ق ٥٠٨، ٤ ذى القعده ٩٥٧ = ١٥٥٠/١١/١٣.
(١٣٧)آن وولف : مرجع سابق، ص ١٥٦.
(١٣٨)س١٢، ص ٢٧، ق ٢٥، ٩ جماد الأول ١١٩٨= ١٧٨٤/٤/٣١.
(١٣٩)سافر الطبيب الفرنسى بيير بيلون دى مانس للاسكندرية عام ١٥٤٧ حيث أمضى سبتمبر وأكتوبر واهتم بدراسة النباتات والحيوانات والزواحف، واعتاد سؤال التجار فى السوق. آن وولف : مرجع سابق، ص ١٤١.

(١٤٠)ويعكس هذا مثلاً ما كتبه " فْنسلِيبو " عن قلعة الاسكندرية وتحصيناتها، وبما يعنى قدرته على جمع المعلومات والاختلاط بالأهالى. فبينما كتب عن قلعة القاهرة " لا أعتقد أنها مزودة بمدفعية كبيرة لأنى على ما سمعت.." فإنه كتب عن قلعة الاسكندرية أنها " مزودة بكل نوع من المدفعية والدروع والبنادق والحراب والقذائف والقنابل والتحصينات ". جوفنى ميكليله فْنسلِيبو : تقرير الحالة الحاضرة لمصر ١٦٧١، ترجمة : وديع معوض، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٥٩، ٨٥. آن وولف : مرجع سابق، ص ١٢٦، ١٤١، ١٤٣ وغيرها.

(١٤١)أرسل الباشا إلى القاضى ومسئولى الثغر بأنه " سابق تاريخه اقتضى الحال إحضار وطلب المعلم الحكيم بورغاكى البندقى لمقتضى معالجة بعض خاصتنا واستقر واستمر عندنا إلى الآن. واقتضى الحال توجهه إلى ثغر اسكندرية لأجل تشهيل مواد لازمة له فى الطب والحكمة والتمس منا فرماناً للثغر بالإذن فى ذلك مدة أربعين يوماً ذهاباً وإياباً وإقامة.. فعند وروده إليكم تشهلوا المذكور.. فى جميع مطالبه وتعاونوه فى إدراك جميع مقاصده لأنها خدمتنا.. وتمنعوا كل من يتعرض له بوجه من الوجوه ". س ١٠١، ص ٥٠، ق ٨٨، ٢ جماد أول ١٢٠٧ = ١٧٩٢/١٢/١٦.

(١٤٢) فعندما يَدَّعِى " جنتى الأندلسى" على " نقوله البندقى" بستين ديناراً قرضاً.. طلب المُدَّعِى يمين المُدَّعى عليه، وهنا " حلف بالله العظيم الذى لا إله إلا هو اليمين الشرعى فنزل الإنجيل على قلب عيسى بن مريم روح الله صلوات الله عليه على يد قسيس النصارى البنادقة يونسيتور من طلبهما لذلك بالمجلس ورضاها بذلك الجامعة لها فى الحلف شرعاً أنه لم يكن اقترض منه المبلغ المدعى به ولا بعضه ولا شيئاً منه". س ٤٢، ص ١٥، ق ٥١، ١٩ شعبان ١٠١٥ = ١٦٠٦/١٢/١٩. س ٤٢، ص ٢٦٦، ق ٨٥٥، ٦ محرم ١٠١٦ = ١٦٠٧/٥/٣.

(١٤٣)س ٤٧، ص ٥٧، ق ١٥٦، ٩ محرم ١٠٥٣=١٦٤٣/٣/٢٩. ص ٥٨، ق ١٦٠، ١٠ محرم ١٠٥٣=١٦٤ /٣/٣٠.

(١٤٤)س ٥٢، ص ٢٦٨، ق ٥١٦، ٣٠ محرم ١٠٨٢ = ١٦٧١/٦/٨. ص ٢٨٨، ق ٥٥٥، ٢٣ صفر ١٠٨٢ = ١٦٧١/٦/٣٠. س٦٠، ص ٢٠٨، ق ٣٦٦، ٧ ذى القعدة ١١١٤ = ١٧٠٣/٣/٢٥.

(١٤٥)ففى ١٦٠٧ تقدم " على بن يوسف سر بلوك باشى بالحصار الكبير الأشرفى المتكلم على جهة بيت المال " بدعوى ضد قبرصيين لأنهما حضرا إلى الاسكندرية

ومعهما ٣٩٣ قنطار و٢٥ رطلاً من الخروب، ثم باعاه دون سداد ضريبته. ومع أنه طالب بحق " جهة بيت المال " إلا أن إنكارهما ملكهما للخروب وعجز المدعى عن إحضار البينة وحلفهما على ما قالاه.. أدى بالقاضى إلى " منع على من التعرض لهما " وبعدها باعا الخروب لتجار من البرلس. وفى ١٦٧١ " اشتكى أبو زيد بن محمد الجميعى " إلى ديوان القاهرة الذى أرسل إلى " القاضى وعلى أغا الحوالة والأمير على كتخدا قبودان الثغر وجميع الأغاوات والسرداريات " عن أن أبى زيد " له بذمة أبروزوا النصرانى ٤٥ قرش ثمن صوف.. وأنه باع لبروزوا ١٥٠ خرق صوف بمبلغ ٥٠ قرش ويطالبه بذلك ". لكن المدعى عليه أنكر ولم يستطع المدعى سوى إحضار شاهد واحد، ومن ثم " منع القاضى المدعى من معارضة المدعى عليه ". وفى ١٧٧٦ ادعى " عثمان بن مصطفى أرنقوت " على " جورجى القبطان البناديقى" بأنه ضاع منه بسفينة الثانى مبلغاً من المال، وطالبه به. على أن المدعى عليه أنكر، وعجز المدعى عن إثبات صحة دعواه، ومرة أخرى " منع القاضى المدعى من التعرض للمدعى عليه ". س١٢، ص ٥٨، ق ١٤٧، ٢٥ القعدة ٩٨٥ = ٢/٢/ ١٥٧٨. س ٤٢، ص ٢٢١، ق ٧١٨، ١٧ ربيع ثان ١٠١٦ =١٠/٨/ ١٦٠٧. س ٥٢، ص ٣٧٤، ق ٧٣٣، ٢٩ شعبان ١٠٨٢ = ١٦٧١/١٢/٣١. س ٩٦، ص ٢٧٨، ق ٤٥٠، ١٥ رجب ١١٩٠= ١٧٧٦/٨/٣٠.

(١٤٦)س ٥٢، ص ٤٣٦، ق ٨٦٥، ٦ ذى القعدة ١٠٨٢ = ١٦٧٢/٣/٦.

(١٤٧)سيد محمد السيد : مرجع سابق، ص ١٣٣، ١٣٦.

(١٤٨)س١٠١، ص ٢١٤، ق ٤٧٥، ١٥ ربيع ثاني ١٢٠٤= ١٧٩٠/١/١.

(١٤٩)فى عام ١٧١٥ عثر القاضى " خليل أفندى " بالصدفة على حجة " كان أصلها مقيداً بسجلات محكمة الثغر المزمنه، وجدت بورقه من جملة أوراق السجلات القديمه ساقطه بدولاب السجلات بالمحكمه مُفككه من سجل أصلها لشدة قدمه وفرط أوراقه ودواب جلده من طول الأزمنه وتداول الأيدى عليه ". وهنا وافق على " قيدها.. بالتماس علماء الثغر واطلاعهم عليها لأجل حفظها خوف ضياعها والاحتياج إليها ". والحجة تعود فى اعتقادنا إلى ولاية سنان باشا الثانية (يونيه ١٥٧١ - أبريل ١٥٧٤) الذى كان " من محاسن آثاره حفر الخليج الذاهب إلى الاسكندرية، فقطعه وعمره فعاد على أحسن ما يكون ". وبالتحديد تعود لعام ١٥٧٢ حيث نعثر على " إشهاد " من أهالى " ناحية الصافية بالغربية " على أن " عليهم القيام بحفر سبعماية ذراع.. فى

خليج الثغر السكندرى.. بمقتضي التوجيه علي النواحي المذكورة.. حسب الأمر الشريف السلطاني ". باب عالى، س ٣٣، ص ٢٧٧، ق ٩٤٣، ٢٠ ذى الحجة ٩٧٩ = ١٥٧٢/٥/٣. محمد بن أبى السرور البكرى : التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتب والوثائق، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١١٣.

(١٥٠)س ٦٤، ص ٢٨٤، ق ٤٢٢، ١ شعبان ١١٢٧= ١٧١٥/٨/١.

(١٥١) توجد بالوثائق أسماء ومواقع بعض الكنائس. فقد أشار وقف " مريم بنت مرقص اليعقوبية " عام ١٥٧٩ إلى كنيسة الشهيد مارى جرجس شرق الثغر بالقرب من حصار سيدى عبد الله، وكنيسة أبى سرجة بحارة النصارى، وكنيسة مخائيل بالحبالين داخل الثغر. وهناك كنيسة عزوزال وربما هى نفسها " الكنيسة الكبرى " التى عرفت بالبرانية " بجوار أرض من جملة وقف أبى العباس " وأحاطت بها العديد من الأرباع والوكالات والمساكن التى استأجرها وعمل فيها أو سكنها خليطاً من المسلمين والأقباط واليهود. س ١٤، ص ٤٠٠، ق ١٢٦١، ١٣ القعدة ٩٨٦ =١٥٧٩/١/١١. س٢، ص ٢٢، ق ٧٧، ٢١ جمادي الأول ٩٦١ = ١٥٥٤/٤/٢٤. س٦٠، ص٧٥، ق ١٣٧، ١٢ربيع آخر ١١١٤ = ١٧٠٢/٩/٥. س ٦٥، ص ٣٢، ق ٦٩، ٣ صفر ١١٣٠ = ١٧١٨/١/٥. س ١٠٨، ص ٩، ق ٢٠، ١٤ ذى القعدة ١٢١١ = ١٧٩٧/٥/١١.

أما اليهود فكان لهم "ربع الكنيس" بالجزيرة قرب " سوق الأسماك.. وربع وكالة تربانة " كما كان هناك كنيساً لليهود بخط الميدان وقرب " خط سوق الصاغة ". س ٦٥، ص ١٨٥، ق ٣٣٧، غرة شوال ١١٣٠ = ١٧١٨/٨/٢٧. س ٧٨، ص ٣٠٠، ق ٤٥٥، ٨ الحجه ١١٥٧ = ١٧٤٥/١/١١. س٨٢، ص ٢٥٢، ق ٤٧٦، س ٩٧، ص ٣٨١، ق ٤٨٢، ٩ القعدة ١١٩٢ = ١٧٧٨/١١/٢٨.

وقد تضمنت تركة حبيم اليهودى المباشر بديوان الثغر وكالة " بالقرب من كنيسة الروم.. فى وقف سنان باشا بالجزيرة بالمينة الغربية ". وفى يوليو ١٧٠٢ ذهب " قسيس كنيسة الروم " إلى المحكمة " وأنبأ مولانا بأن حايط الكنيسة القديمة انشقت ويُخشى وقوعها وبعض الأوض خربت.. ويحتاج إلى المرمة والتمس الكشف على ذلك وكشف على ذلك فوجدت كذلك واستأذنه فى ترميم ذلك فأذن له من غير تجديد بُنا ". س ٨٨، ص ٣٧٩، ق ٥٤٢، ٧ صفر ١٠٣٦ = ١٦٢٦/١٠/٢٨. س ٦٠، ص ٤٤، ق ٨٠، ١٠ صفر ١١١٤ = ١٧٠٢/٧/٦.

(١٥٢) س ٣٠، ص ١٨٦، ق ٣٧٣ ب، ٢٦ صفر ١٠٠٠ = ١٥٩١/١٢/١٣. ص ١٥٩، ق ٣٥٠، ٥ ربيع ثانى ١٠٠٠ = ١٥٩٢/١/٢٠. آن وولف : مرجع سابق، ص ١٢٥، ٣١٢.

(١٥٣) ورد فى البند ٣٥ من معاهدة ١٧٤٠ بين الدولة وفرنسا " لا تُعارض الكنائس التى يملكها الفرنساويون فى أزمير وصيدا والاسكندرية.. ولا يطلب منهم أموال ". يوسف آصاف : مصدر سابق، ص ١٦.

(١٥٤) تعددت محاولات البابوية للاتصال بالكنيسة القبطية منذ ١٥٥٤ واستطاع مُبشرون أوربيون الدخول فى اتصالات مع بعض الأقباط تحت ذرائع تجارية وبالاستعانة بالقناصل البنادقة والفرنسيين. من ذلك بعثة الجزويت عامى١٥٦٢/٦١ ثم ١٥٨٤/٨١ التى فشلت فى إنجاز أهدافها لعداء الأقباط. وهناك البعثات الفاشلة للفرنسيسكان والكابوشيين فى القرن ١٧ ثم محاولات الفرنسيين فى القرن ١٨ والتى لاقت نجاحاً محدوداً للغاية. ومنذ ١٧٨٠ قدمت الاسكندرية بعض الدعم للبعثات الكاثوليكية، من خلال اليونانيين والشوام. وهناك محاولات البروتستانت كمحاولة المبشر الألمانى اللوثرى Hugo Grotius الذى حصل فى ثلاثينيات القرن ١٧ على مساعدة لغوية من الأقباط وكذا على مساعدة القنصل الفرنسى وطبيب من بروكسل يعمل بالقاهرة. وهناك محاولة الألمانى البروتستانتى ثم الكاثوليكى Wansleben فى ستينيات القرن ١٧. وإلى حد ما يمكن فهم الصراع الفرنسى النمساوى بالاسكندرية أواخر القرن ١٨ على أنه يعكس الصراعات التبشيرية بين الكاثوليك والبروتستانت. وقد استخدم بعض الأوربيين التجارة كهدف ظاهر للدخول فى محاولات للتقارب مع الأقباط أو لإثنائهم عن بعض عقائدهم. خالد محمد نعيم : الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية فى مصر، دار المختار، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢٩-٣٤. Alastair Hamilton; The Copts and the West 1439-1822 (The European Discovery of the Egyptian Church), Oxford, 2006, pp. 35, 56 - 69, 76 - 89, 101-103, 110 - 116, 139, 142, 144, 150, 151, 160 – 164.

(١٥٥) هناك حالات عديدة للتحول للإسلام وكانت فى غالبها لرقيق وجوارى مُعتقين مثل "يوسف بن عبد الله المجرى الجنس " الذى " أعتقه الوزير حسن باشا.. ابتغاء لوجه الله " وكذلك قمر الدين القبرصية التى أسلمت وأعتقتها فاطمة بنت بالى. ومنهم من أسلم بمحض رغبته مثل حسين بن عبد الله الترجمان "المهتدى" ومحمد بن عبد الله المهدى والذى كان اسمه من قبل (أرتو بن كره). على أنه كان هناك من رفضوا

التحول للإسلام رغم مرقوقيتهم ومنهم القبرصية " ويبالقه النصرانية مع ولدها.. غُرض عليهما الإسلام مرّات " ورفضت واشتراها باولوا بن روملوا الفرنجى الفلورنسى من يوسف بن يعقوب اليهودى بسبعين دينار. س ١، ص ٨٥، ق ٤٠٠، ١٦ شوال ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٢٧. س ٢، ص ١٢٤، ق ٤١١، ١ شعبان ٩٦١ = ١٥٥٤/٧/٢. س ٢، ص ١٦٥، ق ٥٣٣، ٢٨ شعبان ٩٦١ = ١٥٥٤/٧/٢٨. س ١٢، ص ٦٠، ق ١٥٣، ٢٧ القعدة ٩٨٥ = ١٥٧٨/٢/٤. س ٤٢، ص ٢٣٢، ق ٧٤٨، ١ ربيع أول ١٠١٦ = ١٦٠٧/٦/٢٦.

(١٥٦) س ١٢، ص ٨٠، ٨١، ق ٤٧ - ٥٣، ١٠- ١٢ جماد أول ١٢٠٠ = ٩- ١٧٨٦/٣/١٣.

(١٥٧) أرسل محمد عزت باشا فى أكتوبر ١٧٩٢ إلى القاضى" وأغات الحوالة ووكيل الجمرك وكتخدا الحسبة ودزدار القلاع والسرادرة بلوكات وسائر الحكام والأعيان " عن عقد الصلح بين الدولة والنمسا بشروط " منها أن جميع ما يلج من دولة النمجة إلى قناصلهم الساكنين ورعاياهم من مأكول ومشروب وملبوس وهدايا لم يكن للكمركجى على ذلك تفتيش بوجه من الوجوه وأيضاً المتاع الإسلامى أو الافرنجى إذا دفعوا الكمرك الذى عليه فى بلاد الإسلام ونقل ذلك المتاع إلى الديار المصرية لم يدفع عليهم كمرك ثانى مرة.. وأما مادة الكمرك اللازم دفعه مثل ما يدفع الرؤسية المئة ثلاثة معاملة فقط من غير زيادة، وكذلك عوايد سفاينهم وعوايد المرسة فقط.. ولم أحد له معهم مقارشة فى سببهم وسؤالهم عند إيابهم وذهابهم". وبعد ثلاثة أسابيع أرسل كل من مراد وإبراهيم بك إلى المسئولين أنفسهم بأنه تم تعيين " حنا قيسلية يوشانتى قنصل على طايفتى النمسة وتسقانة بالثغر من طرف الحضرة السامية والملة المسيحية باليوس كارلو روستى المقيم بالمحروسة مصر من طرف ايمبرطور نامسة وتسقانة وبيده فرمان شريف.. فعند حضوره إليكم تعلموا جميعه بالمحكمة وتتلوا الفرمان.. وتسجلوه وتجروه على موجبه وتعاملوه بمعاملة القناصل الموجودين عندكم.. وتمشوا أحكامه بين الطايفتين وينظر فى أمور تجارهم ومراكبهم.. ولا يكون لأحد معارضه فى جميع أموره وما يتعلق به والمساعدة فى كامل أحواله ". س ١٠١، ص٣٠، ق ٧٧، ١٤ صفر ١٢٠٧ = ١٧٩٢/١٠/١. ص ٣١، ق ٧٨ و٧٩، ٩ ربيع أول ١٢٠٧ = ١٧٩٢/١٠/٢٥.

(١٥٨) س ١٠٧، ص ٢٩، ق ٥٧، ١٤ ذى الحجه ١٢٠٨ = ١٧٩٤/٧/١٢.

(١٥٩) س ١٠٧، ص٦٠، ق ١٠٨، غاية رمضان ١٢٠٩= ١٧٩٥/٤/١٨.

(١٦٠) س ١٠٧، ص٦٠، ق ١٠٩، غرة شوال ١٢٠٩= ١٧٩٥/٤/٢١.

(١٦١) هناك العديد من الدلالات حول التعايش فى العصر العثمانى، حيث حصل أهل الذمة على حق الوقف وكان من حق الجميع وقف ما يريدون على من شاءوا من أفراد أو مؤسسات، وجعل النظر لمن يختارون. كما كان هناك حق الاستبدال وعدم تحديد دين أو جنسية المنتفعين، لذا استأجر بعض الأقباط مثلاً أوقافاً لمسلمين حتى تلك التى كانت مرصدة على أماكن ذات صفة دينية أو علمية. وهناك أيضاً عدم تحديد " فقراء الثغر " من المنتفعين بريع الأوقاف. للمزيد : دار الوثائق المصرية، محكمة الاسكندرية والجزيرة، س ١، ص ٤٣، ق ١٩٧، ٢٠ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/١. س ١٤، ص ٤٠٠، ق ١٢٦١، ١٣ ذى القعدة ٩٨٦ = ١٥٧٩/١/١١. س ٥١، ص ٧١، ق ١٦٧، ٢٤ ربيع الأول ١٠٧٤ = ٢٦/ ١٦٦٣/١٠. ص ٥٠٥، ق ١١٤٧، ١ ربيع الأول ١٠٧٧ = ١٦٦٦/٨/٣١. س ٥٢، ص ٣٠٨، ق ٥٩٨، ١ محرم ١٠٨٢ = ١٦٧١/٥/١٠. س ٥٤، ص ١٨٩، ق ٣٥٣، ١ صفر ١٠٨٩ = ١٦٧٨/٣/٢٤. س ٥٨، ص ٩٠، ق ١٦٣، ١ جمادى الثاني ١١٠٢ = ١٦٩١/٣/٢. س ٦٠، ص ٤٠، ق ٧٣، ١ محرم ١١١٤ = ٢٨/ ٥/ ١٧٠٢. أندريه ريمون : مرجع سابق، ج٢، ص ٦٧٧. محسن شومان : اليهود، ج٢، ص ٤٩، ٥٠.

(١٦٢)من ذلك نزاع " على بن بيرم ريس مركب الوزير " وقنصل البنادقة " فرانشيسكو " وانتهى بحصول الأول على مئة دينار مقابل ثمن مملوك وحبوب وتوابل، وكان " المعلم يوسف بن موسى العامل بالثغر " هو وكيل قنصل البنادقه. ومنه قيام " نيقولا الراكوزى وبيكون البندقى " بالاعتداء على شحاته الرشيدى بالضرب " بحجر ومجداف فأدماه ". وبينما أجاب المتهم الأول بأن شحاته " تعدى عليه بالضرب " فإن الثانى أنكر الاتهام. على أن الشاهدين أكدا ما حدث " ورويا تفاصيل الضرب والجرى ومحاولة الهروب من جانب شحاته للنجاه منهما فى الماء ". س ١، ص ٥٤، ق ٢٤١، ٢٨ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٩. س ١، ص ٤١، ق ١٩١، ٢٠ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/١.

(١٦٣)س ١٥، ص ٣١، ق ٣٢، ٩٨٩/٧/٢٨ = ١٥٨١/٨/٢٨.

(١٦٤)من ذلك ادعاء " أبو العز بن على المصرى الزيات بسوق الجزيرة " على " نسيم الرودسى " بأنه يستحق فى ذمته ١٤٠ نصف من ثمن فخار. وعندما أنكر الروديسى

وعجز المُدعى عن أحضار البينة " التمس يمين المدعى عليه ". وعندما اشترى " عثمان بن شحاته " من " استيفنو الروديسي" مسمار حديد " فإن الروديسى أنكر البيع وطلب من المشترى إثباته بإحضار شهود. س١٢، ص ٥٨، ق ١٤٧، ٢٥ ذى القعدة ٩٨٥ = ١٥٧٨/٢/٢. س ٢٩، ص ١٥٢، ق ٤٢٢ ب، ٩ شعبان ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٥/٢١.

(١٦٥)هذه حالة ادعى فيها قنصل الانكليز على درغماش البدوى بأنه يعمل فى خدمته " بأجرة معلومة وأنه من نحو ثلاثة أيام تعدى واختلس له من جيب قفطانه ٣ دنانير ويطالبه بذلك.. وبسؤاله أجاب بالاعتراف فى أخذ المبلغ وأنه أغراه الشيطان على ذلك فألزم بدفعها ". والمُلاحظ أن القنصل ذهب للمحكمة بصحبة باكير كتخدا قبودان الثغر. س ٤٧، ص ١٢٩، ق ٣٤٥، ١١ رجب ١٠٥٣ = ١٦٤٣/٩/٢٥.

(١٦٦)ففى أبريل ١٥٩٢ ادعى " جورجى بن يانى على نقوله لزورات اللوندسى كل منهما أنه قاوله على أن يطلع له من جوف المركب.. صندوق ملآن بالأفيون ويعطى له نصف ما بالصندوق.. وأنه أطلعه ولم يدفع له حصته ". لكن " نقوله أنكر وأحضر سكندريان، مُدعياً أنه قاولهما على الأفيون " وهنا لم يصدقه المدعى " وذكر أن الشاهدين خصمه وأنهما تعاونا على منع المدعى عليه ". ونظراً لتشاجر المتخاصمين بالمحكمة فقد خرجا دون حل النزاع. وفى أغسطس ادعى " اسحاق بن ابراهيم اليهودى الرودسى " على " يانى بن منول النصرانى من لوندس " بأنه يستحق فى ذمته ٧١ دينار " بدل قرض شرعى ". لكن " يانى " لم يعترف سوى بستين ديناراً فقط، وأنه سبق وأن دفع له الدين على دفعات سابقة. ومن الواضح أن ادعاء اليهودى كان للحصول على الفوائد " وخرجا على ذلك ". س ٢٩، ص ١١٢، ق ٣٠٣، ١٣ رجب ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٤/٢٦. ص ٢٧٣، ق ٨١١، ٢٦ شوال ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٨/٥.

(١٦٧)س ١، ص ٩٢، ق ٤٣٥، ٢١ شوال ٩٥٧ = ١٥٥٠/١١/١.

(١٦٨)س ٢٩، ص ٢٣٥، ق ٦٩١، ٥ شوال ١٠٠٠ = ١٥٩٢ /٧/١٥. ص ٢٥٠، ق ٧٤١، ١٣ شوال ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٧/٢٣. ص ٣٨٦، ق ١٢٥، ١٨ شوال ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٧/٢٨.

(١٦٩)س ٢٩، ص ٤١٣، ق ١١٩٢، ١٣ رجب ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٤/٢٦.

(١٧٠)من ذلك ادعاء " على المغربى " على " دمترى ولد ماركو.. وولده استيفانى، البحرى كل منهما بمركب.. أنه تشاجر مع استيفانى فتناوله بألفاظ قبيحة " فشكاه إلى

والده الذى سبه بالقول " أنت ذيل بمعنى حمار وفزع عليه بشاتور حديد" ومن ثم طالبهما "بما يترتب على ذلك ". ورغم إنكارهما ذلك بالمحكمة فإن الشهود أثبتوه، لذا " بقى دميترى واستيفانى تحت التعزير ". س ٤٧، ص ١٨٢، ق ٤٧٤، ١٧ شعبان ١٠٥٣ = ١٦٤٣/١٠/٣٠.

(١٧١)أرسل محمد باشا إلى أمير اللوا وقاضى الاسكندرية بأن " عمر السكندرى " اشتكى من أن " بريش بن كونيستوا.. وعلي بن فتيش مقدم الجمالة " تعديا على ابنه " واتهماه بالحرام.. فلم يثبت عليه شئ. وما كفاهما ذلك حتي أنهما اشتكياه إلي والي الثغر وسجناه.. تعدياً من غير وجه شرعي، وغرماه مبالغ لها صورة بلصة من غير حق مع أن بيده فتاوى شرعية.. بأنه لا يلزمه مغرم حيث لم يثبت عليه شئ ". ومن ثم طلب الباشا رد الأموال وإطلاق سراح الإبن " من غير تجوه ولا تمرد ولا عناد ". س ٢٨، ص ١٤٨، ق ٦٣، ١ ربيع الأول ١٠٠٥ = ١٥٩٦/١٠/٢٣.

(١٧٢)س ٥٢، ص ٣٧٧، ق ٧٤١، ١٤ رمضان ١٠٨٢ = ١٦٧٢/١/١٥.

(١٧٣)س ٦٠، ص ٦٩، ق ١٢٨، ٤ ربيع ثان ١١١٤ =١٧٠٢/٨/٢٨.

(١٧٤)شهدت الاسكندرية عام ١٧٩١ حادث قتل للفرنسى " أناو" وأرسل القاضى إلى القاهرة بأنه حضر إلى المحكمة " جماعة ومعهم رجل افرنجى من طايفة التجار الفرنساوية " وذكر أحدهم " أنه كان متوجهاً إلى بيته فى البلد العتيق ومر فى طريقه بمحل خالى من الناس وبعيداً عن العمار فوجد النصرانى الافرنجى ملقى على الأرض ميت.. ووجد الافرنجى هذا فوقه ويده ملوثة بالدماء.. ولما أراد القبض عليه فر هارباً.. إلى أن أدركوه جماعة من السائرين وحضروا به إلى مجلس الشرع. وبسؤاله بحضور الترجمان أجاب بالإنكار وأن اثنين من الناس خرجوا عليه وضربوه وأنه حاول إنقاذه. وبعد ذلك تم إرسال هذا النصرانى إلى القنصل حتى يتأكدوا أنه لم يغير كلامه.. ولكنه أقر بما كان ". وبعدها أرسل الباشا إلى القاضى والمسئولين ليصف الأمر بشكل مختلف، متأثراً بما نقله إليه القنصل الفرنسى. لقد كتب أن " جماعة الافرنج القاطنين بمصر " أبلغوه أن الفرنسى القتيل " خرج نهاراً يتمشى بالثغر على حسب عادته.. فقابله جماعة من أهالى اسكندرية فقتلوه وأخذوا ساعة من يده. فعند ذلك اشتكوا لكم الافرنج على أنكم تفتشوا على القاتل وتضبطوه فعرفتوهم أن الخواجة الفرنساوى لم قتله إلا رفيقه. وهذا كلام لم يصح ولم يدخل بالعقل ووقوع هذا الأمر سقط وأنتم حكام وضابطين بالثغر ووقوع هذه الأمور لم تطلب إلا منكم " ومن ثم

طالب بضرورة التفتيش عن القاتل الحقيقى " وتكفوا نظركم على طايفة الافرنج وتمنعوا كل من يتعرض لهم لأنهم محسوبين على طرف الدولة ". وفى خطابه إلى المسئولين أنفسهم.. أكد إسماعيل بك " أمير اللواء " على ما سبق وضرورة أن " تدوروا وتفتشوا وتبحثوا البحث الكلى على قاتل الخواجة فى أى موضع " كما هددهم بـ " مزيد الضرر " إذا لم يقوموا بالأمر على أتم وجه. س١٠١، ص٢٢٣، ق ٥٧١، ٣ رجب ١٢٠٥ = ١٧٩١/٣/٨. ص ٢٢٦، ق ٥٧٨، ٩ رجب ١٢٠٥=١٧٩١/٣/١٤. ص ٢٢٧، ق ٥٧٩، ١٤ رجب ١٢٠٥ = ١٧٩١/٣/١٩.

(١٧٥)أرسلت الدولة "خطاً " للباشا فحوله إلى مسئولى الاسكندرية وفحواه قيام أعمال شغب بمدينة أزمير وصدرت الأوامر على بعض " الأشقياء ". على أن منهم " طايفة معاندين " و" لمنع مضرتهم ودفع شرورهم " وجب الاحتراس من إمكانية حضور بعضهم إلى الاسكندرية فى صورة تجار أو غيرها حيث يحتمون بالحماية الروسية. ولما كان عند القنصل الروسى" دفتر ممضى ومختوم " بأسماء من يتمتعون بالحماية، فبالتالى يجب ألا يقوم بإدراج المزيد فيه خاصة وأن " سفاين الروسية يتخذوا فيها مراكبية وينسبوا أنفسهم أنهم روسية ". ومن ثم لابد من التيقظ وعدم السماح للقنصل بذلك " وأن المتوطن منهم فى سابق أواننا بسبب كسب ومعاش " يُسمح له بالإقامة " وما عداهم تطردوهم " فإن عادوا ثانية " فيكونوا مثل السارق فيجب وضعهم فى الحبس.. والذى يحضر منهم فى سفاين وناديك لم يحضر مسلح ولم يطلع البر من غير موجب لأنهم لم يكونوا وندكية وإن نسبوا أنفسهم لهم لم تعتبروا بذلك ". وبدوره أرسل مراد بك ليؤكد على ذلك. س ١٠٧، ص ١٠١، ق ١٩٣، ٧ ربيع أول ١٢١٢ = ١٧٩٧/٨/٣٠. س ١٠٧، ص ١٠٠، ق ١٩١، ٨ ربيع أول ١٢١٢=١٧٩٧/٨/٣١.

(١٧٦)أرسل سلامة الكتاتنى إلى الباشا بأن له حقوقاً عند " عمر زيتون واستثيار الفرنجى وأنهما متجاهين عن دفع الحق ويظهرا العناد ". وهنا أرسل الباشا بضرورة إحضار المدعى عليهما " واستخلاص حقه منهما بتمام ذلك وكماله.. من غير تهاون ولا إهمال ولاحماية ولا تجوه ". س ٢٨، ص ١٢١، ق ٤٤، ٢٨ جمادى أول ٩٩٧ = ١٥٨٩/٤/١٤.

(١٧٧)سيد محمد السيد : مرجع سابق، ص ١٢١، ١٣٨، ١٥٥، ١٦٣.

(١٧٨)ذهب " الخواجا تماز الانكليزى " وكيل القنصل الانجليزى بالثغر إلى المحكمة حيث ادعى على مجموعة من تجار مسينا بأن " من العادة على طايفة النصارى الواردين إلى الثغر صحبة مراكب الانكليز والفلمنك " دفع نسبة ٣% على البضائع لمرتين، عند الدخول وعند الخروج من الاسكندرية، ومن ثم طالبهم بضرورة دفع ذلك. على أنهم أفادوا المحكمة " بأن من العادة القديمة المستمرة على جميع طايفة تجار النصارى الواردين للثغر بمراكب الانكليز وغيرهم " أن يدفعوا نسبة ٣% فقط عند الخروج " ولم يكن عليهم عادة غير ذلك من قديم حكم التجار والقناصل السابقة وبموجب القوانين الخنكارية ودفاتر الديوان " وأنهم لا يمتنعوا عن دفع غير ذلك " وطلبوا الحساب من وكيل القنصل وقبض ما هو عليهم حسب العادة.. وتخلية سبيل مراكبهم المتوجه لبلادهم ". وأمام إصرار " تماز" على مطلبه " أبرز جماعة التجار من أيديهم بيورلدى.. بدفع العادة حسب القانون على المشاع وتخلية سبيل المراكب المتوجهة والدعوة بالديوان العالى". وهنا قام القاضى بـــ " كشف القانون، فلم يوجد به ما يدل على دعوى القنصل ". بل إن القاضى لجأ لسؤال بعض المعمرين حيث " أخبر كل من المعلم يوسف بتروا والمعلم داود الدباح المباشر بالديوان الطاعنين كل منهما فى السن والمعلم اسحاق والمعلم سلمون أن لم يكن عادة على التجار الواردين بمركب الانكليز ما عدى ٣ قروش كل ١٠٠ على الأسباب عند الخروج ولم يكن عليه عادة غير ذلك ". وبناء على ذلك انتصرت المحكمة للمسينيين. س ٤٧، ص ١٩٧، ق ٥٠٩، ٤ شوال ١٠٥٣ = ١٦٤٣/١٢/١٦.

(١٧٩)من الأمثلة على ذلك ما أُشيع فى ذى الحجة ٩٢٦ عن أن الأمير شيخ الذى أرسله خاير بك لتعزية السلطان سليمان فى وفاة والده وتهنئته بالسلطنة عاد إلى الاسكندرية وأخبر أنه " وجد البحر الملح قد امتلأ بمراكب الفرنج فلم يستطع التوجه منه ". وفى شعبان ٩٢٧ " قدمت الأخبار من اسطنبول بأن طائفة من طوائف الفرنج يقال لها الأنكرش.. تحالفوا مع سبعة من ملوك الفرنج على قتال السلطان ". ابن إياس : بدائع، ج٥، ص٣٧٣، ٣٩٩.

(١٨٠)فى أمر من "الديوان الهمايونى" لأمراء الموانئ فى أكتوبر ١٦٠٤ "تقرر بقاء الشروط والعهود المندرجة فى العهدنامه السلطانية للبندقية كما كانت "مع عقاب كل من ألحق الضرر "بولاياتهم وقلاعهم ورجالهم". كما تضمن الأمر "عدم خروج أو دخول سفن قادرغه وغيرها من السفن الصغيرة التابعة لتجار أمراء البندقية ورجالهم

على غفلة عن طريق البحر أو البر لاستانبول وغلطة وديار بلاد العرب واسكندرية وللمضايق الموجودة جنوب غاليبولي.. وينبغي تنبيه الدزدارية من قواد القلاع فى تلك الموانى أولاً، فيخرجون ويدخلون بالإذن ". للمزيد عن ذلك وعن بعض الإجراءات والاحتياطات أواخر القرن ١٦ والتى حرصت سلطات استانبول على اتخاذها لحماية التجار والتجارة ضد القرصنة. سيد محمد السيد : مرجع سابق، ص ١٧٢.

(١٨١)س ٢٩، ص ٢٢١، ق ٦٤٤ و٦٤٥، ٢٣ رمضان ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٧/٣. ص ٢٢٨، ق ٦٦٨، ٢٧ رمضان ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٧/٧. س ٤٧، ص ٢٣٥، ق ٥٩٢، ٢٧ ذى الحجة ١٠٥٣ = ١٦٤٤/٣/٧.

(١٨٢)س ١، ص ٣٠، ق ١٣٩، ١٤ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/٩/٢٥. س٢، ص ١٦٥، ق ٥٣٣، ٢٨ شعبان ٩٦١ = ١٥٥٤/٧/٢٨. س ٤٢، ص ٢٣٦، ق ٧٦٢، ١٠ ربيع أول ١٠١٦ = ١٦٠٧/٧/٥.

(١٨٣)نبيل مطر : الإسلام فى بريطانيا ١٥٥٨– ١٦٨٥، ترجمة : بكر عباس، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد ٣٣٣، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٩ وغيرها.

(١٨٤)حارب وايلد العثمانيين فى المجر حيث تم أسره عام ١٦٠٣م ولتتناقله عدة أيدى لأكثر من عشر سنوات حتى صار عبداً لتاجر فارسى، فتجول معه فى المنطقة لحوالى أربع سنوات أخرى. بيد أنه كان يكره سيده وانتهى الأمر بأن اشتراه تركى مصرى " بعد أن عرف معاناته " واعتبره ابناً له وعامله كما كان يعامل ولداه اللذين ماتا وأعتقه بعد عام. لكن وايلد آثر العودة لبلاده، فساعده التركى على ادخار بعض المال الذى اشترى به بضاعة تاجر فيها. ومع أنه عاد بعد أن خسر البضاعة وكاد يموت غرقاً، فإن التركى ساعده مرة أخرى، حيث عاد بتجارة إلى موطنه. أما سيمون فكان عبداً أيضاً وعاش عيشة مستقرة مع سيده محمود جاويش بالقاهرة. وقد تعرف سيمون على وايلد بل وساعده على الانتقال لملكية التركى الذى أعتقه. آن وولف : مرجع سابق، ص١٦٣، ٣٢٢-٣٣٢.

(١٨٥)س ٢٨، ص ١٦٨، ق ٧٣، ١٤ جماد الأول ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٢/٢٨.

(١٨٦)هناك الكثير مما يؤكد ذلك، خاصة وأن الأسير كان يترك أسرته وبيته وبلده وتجارته. وإذا كان بعض الأسرى تمت فديتهم وعودتهم لبلادهم، حيث ارتبط بهم لقب الأسير مثل " الرايس أحمد بن يوسف " الجربى السكندرى " الأسير كان ببلاد العدو

المخذول المنفك الآن من الأسر ".. فإن منهم من قضى فترات طويلة فى الأسر مثل " الحاج على.. الأسير الآن ببلاد الكفار من عشر سنوات ". حالة أخرى أنهى فيها " أحمد بن حسن المغربى " وفاة ابن عم له وأنه يريد أن يثبت نسبه حتى يرثه ويقوم بفديته من أسره " منذ ٣١ سنة ببلاد العدو ". ومنهم من مات فى أسره أو من لا نعلم ما إذا تم تحريره أم لا. س ٤٧، ص ١٠٣، ق ٢٨٤، ١٦ ربيع ثان ١٠٥٣ = ١٦٤٣/٧/٣. ص ١٣٧، ق ٣٦٥، ٢٠ رجب ١٠٥٣ = ١٦٤٣/١٠/٤. س ٥٢، ص ٣٢٩، ق ٦٣٩، ١٥ ربيع ثانى ١٠٨٢ = ١٦٧١/٨/٢. س ٦٥، ص ٢٢٦، ق ٤١٠، أواسط ذى الحجة ١١٣٠ = ١٧١٨/١١/٧. س ٧٨، ص ١٦٩، ق ٢٤٢، ٢٢ ربيع أول ١١٥٧ = ١٧٤٤/٥/٥. س ٦٠، ص ١٧٥، ق ٣١٣، ١٠ شوال ١١١٤ = ١٧٠٣/٢/٢٦.

(١٨٧)س ١، ص ٣٨، ق ١٧٥، ١٨ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/٩/٢٩. س ٢، ص ١، ق ١، ٤ جمادى الأول ٩٦١ = ١٥٥٤/٤/٧. س٢، ص ١٧، ق ٥٦، ١٧ جمادى الأول ٩٦١ =١٥٥٤/٤/٢٠.

(١٨٨)س ٢، ص ١١٢، ق ٣٧٤، ٢٥ رجب ٩٦١ =١٥٥٤/٦/٢٦. س ١٢، ص ٣١، ق ٧٣، ٨ ذى القعدة ٩٨٥ = ١٥٧٨/١/١٦. س ٤٢، ص ٢، ق ٥، ٢٤ رجب ١٠١٥=١٦٠٦/١١/٢٥.

(١٨٩)من ذلك ما جاء فى البند ١٩ من معاهدة ١٥٧٩ بين الدولة العثمانية وانجلترا من أنه " إذا أسر القرصان أو المراكب الشرقية أحد المراكب الانكليزية قصد سرقتها وسلب ما فيها من الأموال والأمتعة، وكذلك إذا أخذ شئ من الانكليز بالقوة يبذل حكامنا قصارى الجهد وكل الوسائل الممكنة لإيجاد الأشياء المسلوبة ومعاقبة الجانين عقاباً صارماً ". أما البند ٥٤ من المعاهدة بين الدولة وفرنسا عام ١٧٤٠ فورد فيه " إذا اقترف أحد القرصان أو سواهم من أعداء بابنا العالى جرماً عدائياً فى موانئ ممالكنا المحروسة فلا يؤاخذ بجريرتهم قناصل فرنسا والتجار الفرنساويون.. كما أنه من الضرورى لاستتباب الأمن المتبادل معرفة الأشقياء ليكونوا معلومين.. فعندما تأتى إلى موانئ ممالكنا المحروسة مراكب المغاربة وغيرهم من القرصان يتحتم على قواد سفننا وغيرهم من الضباط فحص جوازاتهم بكل دقة وانتباه.. ويشترط كذلك على القناصل الفرنساويين الفحص بكل دقة والإفادة عما إذا كانت المراكب الآتية إلى موانينا تحت الراية الفرنساوية هى فرنساوية بحتة. وبعد التحقيقات والتحريات بشأن

ذلك.. يتبادل ضباطنا والقناصل الفرنساويون الآراء مشافهة أو كتابة إذا دعت الحال لتوطيد أمن الفريقين ". أما البند ٨١ فجاء فيه " أنه بالرغم عن المساعدة الممنوحة مراراً للفرنساويين والمأمور اتباع أحكامها فيما يختص بالقرصان المغاربة فهؤلاء لا يكتفون بتكدير المراكب التى يلتقون بها فى عرض البحر بل إنهم يهينون ويدبرون المكايد للقناصل والتجار الفرنساويين المقيمين فى الأساكل التى ينزلون إليها. وحيث الأمر كما ذكر اقتضت إرادتنا السلطانية أنه من الآن فصاعداً إذا حدثت أفعال مغائرة كالحوادث المنوه عنها فعلى الباشاوات والمأمورين وغيرهم من ضباط حكومتنا بأن يحموا ويدافعوا عن القناصل والتجار الفرنساويين " ومن ثم فإذا كانت " المراكب التى تأتى تحت القلاع وفى أساكل ممالكنا.. هى فرنساوية بحتة يمنع بكل وجه هؤلاء القرصان عن أخذها ولا تؤخذ سفينة ما قط تحت مرمى المدفع. وإذا سبب هؤلاء القرصان ضرراً ما لفرنساويين فى جهات ممالكنا حيث يوجد باشاوات أو حكام ينبغى إعطاء الأوامر الصارمة بتحملهم الخسائر التى تحدث منهم كبحاً لجماحهم ". يوسف آصاف : مصدر سابق، ص ٢٠، ٢١، ٣٣، ٦٦.

(١٩٠)فى يونيو ١٥٧٦ أرسلت استانبول إلى باشا مصر بأنه سبق الأمر بإعداد أربع قطع بحرية بقيادة أميرين من مصر " وشحنها بالمحاربين.. لترسل إلى الأسطول الهمايونى ". وبينما استعدا للإبحار، وصلت إلى ميناء الاسكندرية سفينة فرنسية " وأخبرت بتحرك سبع قطع مالطية لممارسة القرصنة " وأنها " على وشك الإتيان إلى هذه النواحى لما علمت بأن الأمراء والقباطنة غالباً يتحركون من تلك النواحى ويغادرونها ". وقد أكد الأمر على ضرورة اتحاد قباطنة السفن فى حراسة الثغر لمواجهة " القراصنة الأعداء" وأن تأخذ السفن حذرها " وحراسة تلك النواحى كما ينبغى بالقادرغات ولتحرس السفن التى تقوم بتحميل البضائع من الاسكندرية والتى تخرج لعرض البحر، ولتوصلها إلى رودس ولتقم السفن الموجودة فى رودس أيضاً بتسلم هذه السفن سالمة.. وليكن قبطان الاسكندرية.. مسئولاً عن حراسة تلك النواحى ". سيد محمد السيد : مرجع سابق، ص ١٤٦.

(١٩١)س ١٠١، ص ١٣٦، ق ٢٤٦، ٢٧ شعبان ١٢٠٣ = ١٧٨٩/٥/٢٣.

(١٩٢)من ذلك أن الأسطول الانجليزى هاجم " مركب أنطونى فرنسيس ". وعند سؤال أنطونى عن الأمر " ذكر أنه كان موسوقاً من الثغر إلى بلاده، فلما وصل بالقرب من كنديه تعرض له جماعة من الانكليز من مركب وطلقوا عليهم المدافع ومسكوهم

وأخذوا منهم وسقهم وأسبابهم ومراسيهم ومدافعهم ومكثوا معهم ثمانية أيام ثم عفوا عنهم ". وفى ١٧٤٤ استولى الأسطول الانجليزى بالمتوسط على كتان أرسله سكندرى لصفاقص إبان الصراع الانجليزى الفرنسى. لقد تم شحن الكتان فى مركب " رياسة القابودان دكالى الفرنساوى متوجهة إلى اسقالة القورنه، يَنزل بها ويُنزل البضاعة إلى أخرى متوجهة إلى تونس.. والحال أنه لم يكن بلغت الفتنة بين الفرنسيس والانكليز إلى مدينة اسكندرية ولم يعلم بها أهلها. وتوجهت المركب للقورنه ومنها إلى تونس وقابلها الانكليز وأخذوها ". س ٤٢، ص ٢٤٨، ق ٨٠٤، ٧ صفر ١٠١٦ = ١٦٠٧/٦/٢. س ٧٨، ص ٢٦٤، ق ٣٩٥، ١٥ شوال ١١٥٧ = ١٧٤٤/١١/١٩.

(١٩٣)عندما ظهر الأسطول الروسى بالبحر المتوسط فى النصف الثانى من القرن ١٨ فإنه شارك فى القرصنة واستولى على بعض السفن التى كانت ملكيتها تعود لرعايا عثمانيين. ومن ذلك استيلائه على مركب تعود ملكيته لسكندرى مسلم واستانبولى مسلم ويونانى، وكان ريسه يونانى. س ٩٦، ص ٢٤٠، ق ٣٨٥، غاية ربيع ثان ١١٩٠ = ١٧٧٦/٦/١٥.

(١٩٤)محسن شومان : المقاطعات الحضرية، ص ١٣٩. أحمد عبد العال : ميزانية مصر، ص ١٣.

(١٩٥)فى عام ٩٨٨ صدر " الأمر العالى " للقضاة والكشاف والحكام ومشايخ العربان وولاة الأمور بأن ملتزم الجوالى بالوجه البحرى أفاد بأن " جماعة من أهل الذمة يتجوهوا عليه ويمتنعون عن القيام بما عليهم " وبضرورة " إلزام كل من كان من أهل الذمة بالقيام بما عليه " بعد " تحرير النشاوى والطوارئ والأغراب ". وبعدها صدر أمراً آخر بأن ملتزما الجزية والجوالى عن عام ٩٨٩ " بالوجه البحرى والقاهرة والأغراب والنشاوى والطوارى" أخبرا بأن " جماعة من أهل الذمة مقيمين بدمياط واسكندرية ويزعمون أنهم من الأغراب ويتجوهون ومتعصبون.. ممتنعين عن القيام بما عليهم " لذا طولب الجميع بتقديم المساعدة الممكنة لتحصيل الجزية " ومنع المتعصبين والمتجوهين ". ومن الواضح أن بعض أهل الذمة (الأهالى) حاول الاحتماء بالأوربيين لعدم دفع الجزية. تكرر الأمر فى العام التالى وأرسل الباشا بأن " جماعة من أهل الذمة مقيمين بثغرى اسكندرية ودمياط.. يزعمون أنهم أغراب ويحتموا بالأكابر ويتعصبوا " ومن ثم أكد على إلزامهم بما عليهم " ولا يحتمى أحد ولا يتجو". تكررت المشكلة فى الأعوام التالية. وفى عام ١٠٠٠ اشتكى ملتزم الجزية من أنه

جرت العادة " أن يقبض من طايفة النصارى عن كل نفر ثمانون نصفاً خالصاً.. ويقبض من النشاوى والطوارى أسوة أمثالهم " لكن " جماعة يُعارضونه " لذا تم التأكيد على مساعدته وأن " النصارى والغربا من كان منهم بيولد فى دور الأغراب أو بلاده فتؤخذ منه الجزية بعد مضى ستة أشهر.. وكل كاشف أو ملتزم أو شيخ عرب أو كبير أو صغير أحمى أحداً من أهل الجزية فيستخلص منه ما على المحمى ". وفى عام ١٠٠١ وردت " صورة حكم الجوالى" بأن ملتزم الجوالى " جارى فى التزامه والنشاوى والطوارى والأغراب والمواريث الحشرية ونصارة الأندلس وكل من كان من الأغراب " وأن كل واحد من هؤلاء " تؤخذ منه الجزية بعد مضى ستة أشهر من مكثه ". وفى اليوم نفسه أرسلت القاهرة إلى " أميرى اللوا بثغرى اسكندرية ورشيد.. وقضاة المسلمين.. والأمنا والملتزمين والحكام " أن " نصوح جاويش" اشتكى للديوان " أن جماعة من أهل الجزية بكثرة مقيمين بالثغر.. ولم يقوموا بما عليهم من الجزية تمرداً وعناداً ". وبعدها أرسل الباشا بأن " الزينى ناصف أمين الجوالى" أخبر بأن "جماعة" يعارضونه فى جمع الجزية ومن الضرورى أن " يقبض من النشاوى والطوارى جزية كاملة أسوة أمثالهم من غير ضرر ولا مصالحة عليهم.. وكل كاشف وملتزم أو شيخ عرب أو كبير أو صغير أحمى أحداً من أهل الجزية فيستخلص منه ما على المحمى.. بالشرع والعادة والقانون من غير حماية ولا تجوه ولا تمرد ". س ١٥، ص١٢، ق ١٦، ٢٨ محرم ٩٨٩ = ١٥٨١/٣/٤. ص ٥٧، ق ٤٢، ١ شوال ٩٨٩ = ١٥٨١/١٠/٢٩. ص ٨٥، ق ٥٩، ٢٨ ربيع الثاني ٩٩٠ = ١٥٨٢/٥/٢١. س ٢٨، ص ٢١٧، ق ١٠٠، ٢٨ محرم ١٠٠٠ = ١٥٩١/١١/١٥. ص ١٢٩، ق ٤٩، غرة ربيع الأول ١٠٠١ = ١٥٩٢/١٢/٥. ص ١٥٦، ق ٦٦، أوائل رجب ١٠٠١ = ١٥٩٣/٤/٣. ص ٨١، ق ٢١، ١٤ ذى القعده ١٠٠١ = ١٥٩٣/٨/١٢.

(١٩٦)من هؤلاء مصطفى باشا (١٠٢٨- ١٠٢٩) الذى اتصف بـــ " مصادراته لبعض التجار وكثرة الرمايا، فعظم بذلك على التجار البلايا فذهبت فيه الشكاوى.. لحضرة مولانا السلطان عثمان فعزله ". البكرى : التحفة البهية، ص ١٣٩.

(١٩٧)القينالى : مجموع لطيف، ورقه ١٨١ أ و١٨٢ ب، ١٨٤ أ، ١٩٤ أ.

(١٩٨)س٦٠، ص ١٩٤، ق ٣٤٨، ٤ ذى القعدة ١١١٤ = ١٧٠٣/٣/٢٢.

(١٩٩)يوسف الملوانى : تحفة الأحباب، ص ٣٣٥. أحمد شلبى بن عبد الغنى : أوضح الإشارات، ص ٢٦٤.

(٢٠٠)س ٢٨، ص ٤٢، ق ١٦، ١ جمادى الآخرة ١٠٠٤ = ١٥٩٦/١/٣١.

(٢٠١)فى عهد على باشا (١٦٠١-١٦٠٤) حدث " الغلاء العظيم.. بحيث أن أمين الحسبة أوقف ناساً على الأفران يمنعون الناس من خطف العجين من المواخير والخبز من الأسواق ". ومع ذلك فإن الباشا " شرع فى بيع قمح العنبر الشريف إلى الافرنج فى الجلود على هيئة البهار. فعند ذلك قامت العسكر عليه وقالوا له : كيف ما تبيع القمح للإفرنج بستين فضة وقد أكلت الناس بعضها فى بعضا من الغلاء، والقمح يباع بستة وثلاثين نصف فضة ". أحمد شلبى بن عبد الغنى : مصدر سابق، ص١٢٧.

(٢٠٢)أرسل مراد وإبراهيم إلى " سردار مستحفظان " بضرورة أن " تحرجوا على كامل الغلال لم أحد من الثغر يطلع إلى بحر برا أردب واحد، وإن كان أحد يطلع أردب واحد تربطوا كامل غلته وتخرجوا من حقه ". كما أرسلا إلى القاضى " والعلما وكامل أعيان الثغر " بالمعنى نفسه، وهددوا بقطع الغلال عن الثغر ما لم يتم تنفيذ أمرهما " ويبقى ذنب الفقرا والمساكين فى رقبتكم ". أما مراد فأرسل بضرورة " أن لا تدعوا أحداً ينزل قدح واحد وتقرطوا على كامل التجار ". س ١٠٧، ص ١٦، ق ٢٩ و٣٠، ١٢ جماد آخر ١٢٠٨ = ١٧٩٤/١/١٤. ق ٣١، ١ رجب ١٢٠٨ = ٢/٢/ ١٧٩٤.

(٢٠٣)حاول إسماعيل باشا منع تصدير الغلال لغير استانبول وأرسل إلى مسئولى الثغر بأن " خمسة مراكب حضروا إلى الثغر.. مشحونين حطب رومى وبعد خروج الحطب توجهوا إلى أبو قير بقصد شحن الغلال والتوجة إلى بلاد النصارى وتوجهوا مركبين فارغين والثلاثة مراكب قاطنين فى أبو قير مستنظرين حضور النقاير بالغلال من ثغر رشيد ويشحنوها ويتوجهوا بها.. وهذا الأمر لا نرضاه ولا يرضى أحد ويحصل بسبب ذلك ضيق للفقرا والمساكين. فيجب على كل مسلم منكم منع ذلك وإبعاده. وقد أمرناكم سابقاً أن لم يشحن غلال من الثغر وخلافه إلا لجانب الدولة.. وقد أصدرنا فرمان بخصوص ذلك إلى رشيد.. وكل من كان ينزل قدح واحد إلى بلاد النصارى لم يلوم إلا نفسه.. وإذا حضروا لكم تنظروا إلى مراكبهم إن كان فيهم غلال تضبطوه إلى الميرى ومن بعد تاريخه لم أحد كائناً من كان يشحن غلال من الثغر إلى بلاد النصارى ". وفى اليوم نفسه أرسل خطابين بالمعنى نفسه إلى " أغاة الحوالة ونقيب الأشراف وسردار مستحفظان ودزدار القلاع ". س ١٠١، ص ١٨٣ - ١٨٥، ق ٣٧٤، ٣٧٥ و٣٩٨ و٣٩٩، ٩ شوال ١٢٠٤ = ١٧٩٠/٦/٢٢.

(٢٠٤)رغم الأزمة، استمر تصدير الغلال إلى أوربا. يدل على ذلك ما أرسله إسماعيل بك إلى القاضى " وعلى جاويش سردار مستحفظان " بأن " الحاج مصطفى الديدى تابعنا عرفنا أن عنده قايق مراده يسافر غلال فى المينة الغربية فأعطيناه إجازة. فعند حضوره إليكم تدعوه يسافر القايق بتاعه لم أحد يعارضه بوجه من الوجوه وكذلك معلم الديوان لم تدعه يعارضه ". س ١٠١، ص ١٩٠، ق ٤١٢، ١٨ ذى القعدة ١٢٠٤ = ١٧٩٠/٧/٣١.

(٢٠٥)أصدر إسماعيل باشا أوامره بأن "لم أحد يسفر مراكب مستأمنة ولا خلافه إلا بفرمان " لكن ذلك كان يعنى الخسائر لبعض الأمراء الذين أجبروه على التراجع، ومنهم اسماعيل بك الذى أرسل لمسئولى الثغر رداً على خطاب لهم بخصوص أمر الباشا " والحال فى تاريخه توجهنا لسعادته وفهمناه على العادة القديمة المعتادة وعندها فهم ذلك.. وأبقى كل شئ على قديمه.. فحال وصول الجواب إلى عندكم ترسلوا الفرمان المرقوم وإن كان قيدتموه بالسجل المحفوظ تشطبوه ". كما أرسل رضوان كتخدا إليهم بالمعنى نفسه. وبدوره أرسل الباشا بتراجعه عن فرمانه " وتمشية القوانين القديمة ". س ١٠١، ص ١٣٤ و١٣٥، ق ٢٤٢ و٢٤٤، ٢٨ شعبان ١٢٠٥=١٧٩١/٥/٢. س ١٠١، ص ٢٠٩، ق ٤٦٢، ٢٥ رجب ١٢٠٥=١٧٩١/٣/٣٠.

(٢٠٦)فى ظل أزمة الغلال أرسل الباشا فى مارس١٧٩٣ إلى قاضى الاسكندرية والمسئولين والعلماء والتجار بخطاب دال. لقد أوضح أن السفن تأتى للثغر " مشحونه غلال لأجل راحة عباد الله والفقرا " وأن " القباطين وأصحاب الغلال وسائر الحكام والمتكلمين " تعهدوا بإرسال ثلثى الكمية للقاهرة وإبقاء ثلثها بالاسكندرية " يدخر فى المخازن ويوزع كل يوم بمعرفة المذكورين بالثغر للأهالى والفقرا ". لكن " التجار المعتمدين فى خصوص ذلك نقضوا العهد من طمعهم الزايد " حيث كانوا يقومون أثناء الليل بنقل الغلال من المخازن إلى السفن. وبناء على ذلك ووصول بعض الشكاوى إلى الباشا، فقد أصدر الفرمان " خطاباً للأهالى والتجار عموماً والحكام ومن فى قلبه ذرة من الإسلام، بالنهى من وقوع هذه الأحوال الذى تؤدى إلى الخسران ". وبعد التهديد أشار إلى ضرورة ألا يقوم أحداً من التجار أو الأهالى بنقض " أمور الشرع " وأن يتم تسجيل كميات الغلال عند ورودها ".. ويوزع مقدار الكفاية فى كل يوم للخبازين وسائر المحتاجين بمعرفة الحكام ومعلم الساحة وخلاف التجار المعتادين.

وإذا حضر أحد من الأغراب لم تدعوه يأخذ شئ من الغلال لأجل راحت الفقرا والمساكين وأهالى الثغر " ومن فعل غير ذلك لابد من عقابه. س ١٠١، ص ٦٣، ق ١٠٥، ٩ شعبان ١٢٠٧=١٧٩٣/٣/٢٢.

(٢٠٧)س ٤٧، ص ١٩١، ق ٤٩٥، ١٤ رمضان ١٠٥٣= ١٦٤٣/١١/٢٦.

(٢٠٨)أرسلت القاهرة لقاضى الثغر بأنه جرت العادة " أن تجار الفرنج حين يحضروا بالبضايع من بلادهم يؤخذ منهم العُشر على حُكم القانون، وحين يقايضوا بالبضايع البهار يؤخذ منهم على البهار كل صنف بصنفه على حكم القانون. والآن يحضروا بالبضايع لمصر لمنفعة نفسهم ويبيعوا بضايعهم بالنقد والقياض وحين يتوجهوا للدفتر ويطلب منهم الدخيره على البهار يمتنعوا عن دفع الذخيره على حكم القياض الذى قايضوه بمصر ويجعلوا البهار المثمن بالنقد قصد الضياع.. والبهار القليل المثمن يجعلوه بالقياض فبذلك يحصل الضرر" ومن ثم فلابد من عودة الأمر كما كان " على جارى العادة القديمة.. من غير حماية ". س ٢٨، ص ٢٩٨، ق ١٥٨، ١٤ رجب ٩٩٦ = ١٥٨٨/٦/٩.

(٢٠٩)ورد فى "حكم" إلى باشا مصر أن سفن البندقية التى ترد ميناء الاسكندرية تبيع بضائعها فى المدينة وتشترى بضائع أخرى تعود بها إلى البندقية دون دفع الرسوم المعتادة "عن الجمارك والذخيرة والترجمة وغيرها.. وتتعلل بقولها أننا لم نستبدلها ببضائع أخرى وإنما بعنا واشترينا بنقود الآقجه وسوف ندفع الجمارك فقط ". ونتيجة شكوى " ضباط الاسكندرية " فمن المحتم " العمل بما كان يجرى عليه الأمر من قبل.. وعدم السماح لأى شخص بأن يخالف ما اعتيد عليه.. وألا تدع البنادقة بهذه الحجة يتصرفون بخلاف عهودهم". سيد محمد السيد : مرجع سابق، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٢١٠)تشير لذلك رسالة من قاضى الثغر إلى إبراهيم بك بأنه " وقع كلام بين حضرة قنصل الانجليز ومعلمين الديوان من قبل الجمرك المطلوب عن البضايع، وأرسلنا حضَّرنا العهد نامة.. وحضَّرنا معلمين الديوان وعرفناهم أنهم لازم يمشوا على حكم العهد نامه " بأن تكون الرسوم ٣% على الواردات. س ١١٥، ص ١٩٠، ق ١٦٣، جماد أول ١٢٠٦= ديسمبر ١٧٩١.

(٢١١)س ١٠٧، ص ٢٢، ق ٣٩، ٢٨ جمادى ثان ١٢٠٨=١٧٩٤/١/٣٠.

(٢١٢)أرسل الباشا لقاضى الثغر " والحكام والأعيان والمتكلمين والتجار " بأن مراد بك أخبره " بأن مقاطعة الدواوين الاسكلهات متأخر منها تحت الأموال الميرية مبلغ مال

له صورة والتزم به.. وبقيت الدواوين فى تعلقه والتزامه " وأضاف " وقد تحققنا أن أغلب العجز الحاصل من ديوان الثغر طرفكم بسبب تهريب البضايع من الكمرك.. فمنهم الذى يطلع بضاعة من الديوان قهراً واغتصاباً ومنهم الذي يعمل عليهم مصلحة بدون كمرك ". وبعدها أرسل مراد إلى سردار مستحفظان الثغر بضرورة القضاء على " التفليت الواقع فى بضايع التجار " وأنه " لازم تتبهوا على القوارب لحد أذان المغرب كامل القوارب تربط وكل قارب يخرج بالليل احرقوه واضربوا ريسه ألف كرباج لأجل يتأدب غيره ". ورغم أوامر مراد التى تبدو صارمة فإنها لم تنطبق عليه. والدليل خطابه إلى القاضى والعلما والأعيان وفيه " بلغنا خبر أنكم تتعرضوا إلى المراكب الذى تسافر بالغلال إلى بحر برا وتحتجوا بالخط الشريف الذى حضر سابقاً من محروسة اسلامبول. والحال أن هذا الأمر شغلنا كما هو شغلكم. وأما الغلال المطلوبة إلى اسلامبول فنازلة بموجب المطلوب. وأما الغلال المطلوبة إلى بلاد خلاف اسلامبول.. فلا لكم فيها معارضة ". كما طلب منهم عدم معارضة المراكب " الذى يسافروا إلى بحر بره ". وبعدها بتسعة أيام أرسل إلى سردار مستحفظان الثغر " بلغنا خبر التعرض الذى حاصل إلى مراكب القياق الشماليه الذى يحضروا إلى ثغر اسكندرية وأبو قير وأن واقع عليهم تحريج أنهم لم يوسقوا إلا الميرى. والحال أن عندنا تحقيق أخبار صحيحة أن كامل غلال الميرى لها مراكب كفايتها من مراكب الميرى وأما التعرض الذى تسمعوه فإنه بلص للمراكب. فحال حضور الجواب لكم لم أحد يتعرض إلى مراكب التجار ويوسقوا ويتوجهوا إلى المحل الذى يريدوه وإن كان يحصل تعرض أرسلنا نحرج على كامل الغلال ولم يخرج قدح واحد ويبقا إذا حضر جواب من الدولة إحنا نعطوا جوابه.. والفرمانات الذى بتحضر فإنها تحضر لنا وجوابها علينا ". وفى اليوم التالى أرسل بخطاب طبق الأصل إلى " شيخ الإسلام.. حضرة محبنا العزيز الشيخ محمد المسيرى خادم العلم بثغر اسكندرية ". س ١٠٧، ص ١١ – ١٢، ق ٢٣، ٣٠ رجب ١٢٠٨ = ٣ مارس ١٧٩٤. ص٤٢، ق ٧٢، شعبان ١٢٠٩ = فبراير ١٧٩٥. ص ٥٥، ق ٩٠، ٢٣ رمضان ١٢٠٩ = ١٧٩٥/٤/١٣. ص ٥٦، ق ٩٢، ٩٣، ٢ شوال ١٢٠٩ = ١٧٩٥/٤/٢٢.

(٢١٣)اتضح ذلك إبان حملة حسن باشا الذى حاول ضبط رسوم التجارة وأرسل إلى مسئولى الثغر مُعرباً عن النقص الكبير فى مال الميرى وضرورة عقد " جمعيه بالمحكمة.. وتحضروا جمهور الناس من جميع التجار وخلافهم وتعرضوه عليهم

وتسجلوه.. وتشهروا المناداه حتى الجميع يحيطوا علم ". وفى هذا الإطار أمر باتباع إجراءات منها أن " كامل الأرزاق الذى ترد الثغر إلى التجار والوكلا وإلى الخاص والعام يدخلوا إلى مخزن جمرك مولانا السلطان.. ويتمن كل صنف بصنفه بسعر الحاضر ويدفعوا جمركه من غير منازعه ولا شهامه.. وأن جميع المراكب الواردين بالثغر عند دخولهم إلى الميناء.. كلاً من الريس والمركانتى يقدم إلى وكيل الديوان قايمة علم الشحنه، وأن لا أحداً من القواربيه ولا خلافهم يتوجه إلى المراكب الواردين قبل قارب الديوان السلطانى. وجميع المواعين والقوارب وصنادل المراكب الذين ينقلون الأرزاق إلى المراكب فى المينا.. ومن أذان المغرب يربطوا المواعين والمراكب والصنادل.. ولا يسرحوا بنقلهم إلا وقت طلوع الشمس. وكل من هرَّب أرزاق من الجمرك يؤخذ منه جمركين.. ويكون ضبط شافى للأوزان فى الأرزاق وغيره ولا أحداً من القبانية ولا خلافهم يوزن أرزاق فى وكايل أو محلات خارجاً عن الديوان من غير إجازة.. وأن العتالين والشيالين لم يشيلوا ولا طرداً واحداً إن كان وارد أو صادر من غير إجازة، ولا أحد يمنع توابع الديوان عن التفتيش.. ولا أحداً يشترى أرزاق من المراكب الواردين ويستبقهم برفع الجمرك عن نفسه بل يكون دفع الجمرك على البايع". وبعدها أرسل فرماناً آخر بما سبق وإن أضاف " لا أحد يبدأ بشحن مركب مستأمن مالم يكن فى يده فرماناً من ديواننا.. ويسجل بمحكمة الثغر وبعده يأخذ التسريح فى الديوان ". س ١٠١، ص ١٣٥، ق ٢٤٣، ١٧شعبان ١٢٠٣ = ١٧٨٩/٥/١٣. س ١٢، ص ١٣٧، ق ٩٠، ١٩ جماد ثان ١٢٠١ = ١٧٨٧/٤/٨.

(٢١٤)انظر : س ٦٣، م ٤٩٦، ص ٢٩٥، ٣٠ شعبان ١١٢٦ = ٩ سبتمبر ١٧١٤.

(٢١٥)فى الوثائق مئات الحالات لسفن بندقية وفرنسية وفلمنكية وانجليزية، بل وروسية حملت السلع والأشخاص إلى استانبول وسوسه وجربه وتونس وغيرها. ويبدو لنا أن السفن الفرنسية جاءت فى المقدمة، وتلتها سفن البندقية وانجلترا، وأحياناً سفن فلمنكية وراجوزيه. وكان من المُعتاد قيام الأشخاص المسئولين عن إرسال السلع من الاسكندرية بكراء السفن والاتفاق مع قباطنتها، ثم تسجيل الأمر بالمحكمة. انظر : س ٣٠، ص ١٦٧، ق ٣٦٩، ١٦ ربيع ثانى ١٠٠٠ = ١٥٩٢/١/٣١. س ٤٢، ص ٢٢٥، ق ٧٢٨، ٢٨ ربيع أول ١٠١٦ = ١٦٠٧/٧/٢٣. ص ٢٧٦، ق ٨٧٨، ٢ ذى الحجة ١٠١٥ = ١٦٠٧/٣/٣٠. س ٦٠، ص ٦٠، ق ١١١، ٢٠ ربيع أول ١١١٤=١٧٠٢/٨/١٤. س ٦٥، ص٢٦٠، ق ٤٦٧، ١ شوال ١١٣٠ =

١٧١٨/٨/٢٧. س ٧٨، ص ٢٢٦، ق ٣٢٩، ١ رجب ١١٥٧ = ١٧٤٤/٨/٦. س ٩٦، ص ١١٨، ق ١٨٩، ١٤ محرم ١١٩٠ = ١٧٧٦/٣/٥. س ٩٦، ص ٣٠٥، ق ٤٩٠، ١٩رمضان ١١٩٠= ١٧٧٦/١١/١. باب عالى، س ٩٤، ص ٣٤٨، ق ١٤٧، ١٣ ربيع ثان ١٠٢١ = ١٦١٢ /٦/١٣.

(٢١٦)س ٦٥، ص ١٦٩، ق ٣٠٣، ٢٥ شعبان ١١٣٠ = ١٧١٨/٧/٢٤.

(٢١٧)س ١٠١، ص ١٧١، ق ٣٤٤، ١٢ رجب سنة ١٢٠٤ = ١٧٩٠/٣/٢٨. س ٤٢، ص ١٨١، ق ٥٨٣، دفتر عن البضايع المرسلة الي استانبول، ١٦ شعبان ١٠١٦= ١٦٠٧/١٢/٦.

(٢١٨)س ٦٠، ص ٢١٣، ق ٣٧٨، ٢٧ ذى القعدة ١١١٤ = ١٧٠٣/٠٤/١٤.

(٢١٩)من ذلك تعاقد " الرايس أحمد وسالم وأحمد وعثمان وأحمد مع البترون جان ريس المركب المرساه بميناء الثغر.. على أن يحمل لهم بمركبه.. إلى مدينة سوسة.. كتان وغزل وفلفل وقماش هندي بياض وأرز وعدس وحمص " فى مقابل أجرة محددة، على أن ينقل البترون جان للرايس أحمد " ٢٥ قنطار من صنف البضائع المذكورة أعلاه و ٤ مماليك من غير أجرة. وعلى أن يكون دفع الأجرة عند البلاغ إلى مدينة سوسة حسبما تعاقدوا على ذلك.. بحضور جاكموا وترجمته بذلك ". س ٤٢، ص ٢٧٥، ق ٨٧٧، ٧ ذى الحجة ١٠١٥ = ١٦٠٧/٤/٤.

(٢٢٠)س٦٥، ص ٤٨، ق ٩٣، ١٦ محرم ١١٣٠=١٧١٧/١٢/١٩. آن وولف : مرجع سابق، ص ٣٢٥.

(٢٢١)س ٤٢، ص ٢٧٠، ق ٨٦٥، ٢٨ ذى الحجة ١٠١٥ = ١٦٠٧/٤/٢٥.

(٢٢٢)س ١، ص ٥١، ق ٣٧٠، ٢٦ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٧.

(٢٢٣)فى عام ١٧٧٦ تشاجر القبرصى " محمد الدباغ " مع كستيدى المسكوه " وانتهى الأمر بموت القبرصى. على أن أخ القتيل تنازل عن الدعوى بعد أن دفع له أخو القاتل ١٥٠٠ قرش. والحالة توضح أنه كان من سلطة القاضى إرسال مندوبين عنه إلى ظهر السفينة للاستفسار عما حدث. وهكذا " التمس (أى المُبلغ والذى كان من ركاب السفينة والشهود) من القاضى الكشف عليه وتوجه من قبل القاضى جماعة للكشف على الميت وشهد طايفة السفينة على لسان الترجمان بصحة الدعوى وكتب المندوبون من المحكمة نتيجة كشفهم ليراجع به عند الاحتياج ". دعوى أخرى رفعها "حسن أبو هيف" على " القبطان ميكيو الفرنساوى " حيث ذكر أن شريكه " أحمد بن حسين "

الكريتى أرسل له مع " القبطان ميكيو.. خمس تبانى زيت " وعند تسلمهم وجد إحداهن ناقصة، فأحضر " سليمان شراره والقبطان المدعى عليه والترجمان " وأشهدهم على الأمر " فتحقق الجميع أن التبه ناقصه " كما وجدوا أن " الجلد الذى على الطابه منشال والمسامير الذى عليه منشالين.. ووجدوها ناقصه ما يزيد عن ماية أقه ويطالب القبطان المدعى عليه بنقص التبه ". حاول المدعى عليه إثبات أن الزيت الناقص لم يسرق وإنما حدث " خرر " غير مقصود قبل الإبحار، وتم إخبار " أحمد بن حسين" بذلك لكن المدعى "لم يصدقه ". س ٩٦، ص ٣٠٥، ق ٤٩٠، ١٩ رمضان ١١٩٠=١/١١/١٧٧٦. س ١٤، ص ٣٢، ق ٩٩، ١٢٠٦/٢/٢٨= ١٧٩١/١٠/٢٦.

(٢٢٤)س١٢، ص٢٦، ق ٢٤، ١٣ جماد ١١٩٨ = ١٧٨٤/٤/٤.

(٢٢٥)يدل على ذلك أن حسن ريس " الوكيل عن ورثة موسقوا النصرانى " ادعى أن المتوفى كان يعمل بمركب " الرايس قاسم " وأنه له فى ذمته " جملة فوط وأرز وغير ذلك مما يعدل قيمة ٧٥ ريالاً ووضع الرايس قاسم يده على ذلك " وأن زوجة المتوفى أوكلته للمطالبة بها. على أن قاسم " أجاب بأن موسقوا كان بحرياً عنده.. وله مدة فى عشرته هو وأخيه " وأنه عندما مات لم يترك سوى ٨ قروش ريال.. وأنها تحت يده، وأن المركب أسر لدى النصارى بعد هلاك موسقوا وهو متوجه للغرب ولم يترك شيئاً زايد على ٨ قروش " وانتهى الأمر بتسلم ورثة المتوفى للثمانية ريالات بعد أن أقسم قاسم على ما قال. س ٤٧، ص٨١، ق ٢١٩، ١ ربيع أول ١٠٥٣=١٩/٥/١٦٤٣. س ٦٠، ص ٤٤، ق ٨١، ١ صفر ١١١٤ = ١٧٠٢/٦/٢٧.

(٢٢٦)أرسل مراد إلى " فخر القناصل ماقلون طايفة الفرنسيس " أنه حضر " محمد جوربجى.. وشاكر لنا فيكم، وعرفنا عن حبكم لطرفنا واعتناكم فى خدمتكم لنا بالمراكب الذى تتكرى لنا، وعلى الخصوص الضبط الواقع منكم مع قبايطين مراكبكم الواردين مشحونين أرزاق. الحال أنكم تكونوا على هذا المنوال ولم تخلوا أحد من قبايطنكم يفرط فى شئ من تعلق ديواننا السعيد ووكلنا من طرفنا بالثغر أحمد جوربجى.. وكامل ما يلزم لكم من الأمور عرفوه عنها والمذكور يراسلنا ". س ١٠٧، ص ٨٥، ق ١٧٤، شوال ١٢١١ = مارس ١٧٩٧.

(٢٢٧)ابن إياس : بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٠٩، ٤١٠.

(٢٢٨)الحسن الوزان : وصف أفريقيا،ج٢، ص١٨٧، ٢٠٥.

(٢٢٩)س ٦٠، ص ٢٤١، ق ٤١٣، ٨ ذى الحجة ١١١٤ = ١٧٠٣/٤/٢٥.

(٢٣٠)س ٤٢، ص ١٧٢، ق ٥٥٨، ٢٦ شوال ١٠١٦ = ٢/١٣/ ١٦٠٨.
(٢٣١)س٥٢، ص٣٠٢، ق ٥٨٧، ٢٢ ربيع أول ١٠٨٢= ١٦٧١/٧/٢٩.
(٢٣٢)س ٢٩، ص ٣٥٥، ق ١٠٤٠ ب، ١٤ ذي الحجة ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٩/٢٠.
(٢٣٣)س ١، ص ٨٣، ق ٣٩٣، ١٥ شوال ٩٥٧ = ١٥٥٠/١٠/٢٦.
(٢٣٤)س ١٢، ص ٩١، ق ٢٣٩، ١٥ محرم ٩٨٦ = ١٥٧٨/٣/٢٤.
(٢٣٥)س ٤٢، ص ٨١، ق ٢٦٠، ٢٨ ٤ ١٠١٦= ٨/٢١/ ١٦٠٧.
(٢٣٦)س ٢٩، ص ٢٥٠، ق ٧٤٠، ١٣ شوال ١٠٠٠ = ١٥٩٢/٧/٢٣.
(٢٣٧)س ٨١، ص ٧٥، ق ١٠٩، ١ شوال ١١٦٥ = ١٧٥٢/٨/١١. س٩٠، ص ٢٦٩، ق ٣٣٩، ١ محرم ١١٨٢ = ١٧٦٨/٥/١٨. ص ٣١٥، ق ٣٩٣ ب، ١ ربيع الأول ١١٨٢ = ١٧٦٨/٧/١٥.
(٢٣٨)محسن شومان : اليهود، ج١، ص ٦١.
(٢٣٩)س ١٢، ص ١٠٧، ق ٧٨، ١٨ صفر ١٢٠١ = ١٧٨٦/١٢/٩.
(٢٤٠)أندريه ريمون : مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٦، ٣٦٩.
(٢٤١)س ٩٦، ص ١١٨، ق ١٨٩، ١٤ محرم ١١٩٠ = ٥ /٣/١٧٧٦.
(٢٤٢)س ١٢، ص ٢٦، ق ٢٤، ١٣ جماد أول ١١٩٨ = ١٧٨٤/٤/٤.
(٢٤٣)محسن شومان : المقاطعات الحضرية، ص ٥٥.
(٢٤٤)س ٩٦، ص ٢٣٦، ق ٣٧٩، ١٦ ربيع ثان ١١٩٠= ١٧٧٦/٦/٣.
(٢٤٥)حين اتُهم " دميترى من جزيرة آنتيه " بالاستيلاء على مركب وكانت معه " حجة مكتوبة باللغة الافرنجية " تُرجمت بأمر المحكمة إلى العربية. س ٩٦، ص ٢٤٠، ق ٣٨٥، ٣٠ ربيع ثان ١١٩٠ = ١٧٧٦/٦/١٥.
(٢٤٦)رفاعه الطهطاوى: تخليص الإبريز فى تلخيص باريز، دار الكتب والوثائق، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٢.
(٢٤٧)س ٤٢، ص ٢٦٨، ق ٨٥٩، آخر ذى الحجة ١٠١٥ = ١٦٠٧/٤/٢٥.
(٢٤٨)كانت تلك الرسوم تفرض على " ما يصدر بالثغر السكندرى لطايفة النصارى الفرنج، يدفعون ذلك عن مبايع معلومة ". وقد أوردت الوثائق بالتفصيل السلع التى يجب أن تفرض عليها الرسوم، وقيمة الرسوم على كل سلعة. وفى عام ١٧٤٤ طالب البعض بنصيب للجوامع فى عائدات الصادر لكن القائمين على أموره رفضوا وأكدوا على أن الوقف موجه فى الأساس لمصلحة الأشخاص وليس على المبانى. س ٢٨،

ص ١٤٢، ق ٥٩، ٢٨ جمادى الآخره ١٠٠٢ = ١٥٩٤/٣/٢١. س ٧٨، ص ٢٦٩، ق ٤٠٢، ٢٠ شوال ١١٥٧ = ١٧٤٤/١١/٢٥.

(٢٤٩) س ٢٨، ص ١٤٢، ق ٥٩، ٢٨ جمادى الآخره ١٠٠٢ = ١٥٩٤/٣/٢١.

(٢٥٠)س ٢٨، ص ٩٧، ق ٣٢، ١ رجب ١٠٠٢ = ١٥٩٤/٣/٢٣.

(٢٥١)س ١٢، ص ١٢٥، ق ٨٥، ٧ صفر ١٢٠١ = ١٧٨٦/١١/٢٨.

(٢٥٢)س ١٢، ص ١١٠، ق ٧٩، ١١ جماد أول ١٢٠١ =١٧٨٧/٣/١.

(٢٥٣)مما جاء بالنص المؤرخ فى ٢٢ صفر ٥٧٠ " هذه صورة مكتوب وقف شرعى.. مضمونها.. هذا ما تصدق به.. سلطان الإسلام.. على فقها ثغر سكندرية.. وطلبة العلم وأيمة المساجد والمرابطين وأولادهم.. فتصدق عليهم بجميع ما يأتى ذكره فيه من الرباع وغيرها.. وهى القيسارية.. وجميع ما يستخرج من الحقوق من الأموال الديوانية.. وهى صادر الخُمس الرومى ورسم صادر البحر غير حب المغل الكريم الواردين إلى الثغر ورسم الصراف ورسم الولاه ورسم كاتب الخمس والجميزه ورسم الطعمه والترجمة عليهم أيضا فتصدق السيد الأجل الملك الناصر.. على مقيمى ثغر سكندرية.. وطلبة العلم وأيمة المساجد والمرابطين بجزيرته وأولادهم ونسمهم.. صدقة منه محررة مؤبدة مسبلة محبسة موقوفه.. لا يغير شئ منها ولا يبدل ولا ينتقض ولا يفسخ.. طلباً منه لنشر العلم وحفظ معالم الدين والتوصل لتناول أرزاق الفقها والمرابطين وطلبة العلم وأيمة المساجد والمنقطعين لما فى ذلك من المصلحة الخاصة بهم والعامة للمسلمين وتقصير الرغبات من حفظ معالم الدين.. وجعل الولاية عليها للشيخ الفقيه.. أبى محمد عبد الوهاب أبى الفقيه شيخ الإسلام جمال الدين بن الطاهر اسماعيل بن عوف وأن يجرى فى استخراج ما يستخرج منها على عادته.. ويفرق ما بقى من المستخرج منها بعد عمارة ما تدعو الحاجة بعمارته.. وفى فقها ثغر سكندرية وطلبت العلم وأولادهم ونسمهم وأيمة المساجد والمرابطين الثابت أسماوهم ". وقد أكدت الحجة على أن يستمر لكل واحد من هؤلاء نصيبه طول حياته، فإن مات " لا يدخل مع المشار إليهم.. إلا من رضيه الفقها المعينين.. وأن من رام الدخول معهم ممن هو خارج عن هذه الطايفه أو صرف شئ من المستخرج من المواضع والحقوق المذكورة فى غير ما عين فيه من الصدقة فليس له ذلك وهو ممنوع منه.. وكذلك من رام نزع مستحق عنها ممن ثبت اسمه فى الدواوين المذكورة مما قرر لهم والدخول

موضعه فهو ممنوع ". س ١٢، ص ١٢٥، ق ٨٦، ١٩ جماد الثاني ١٢٠١= ١٧٨٧/٤/٨.

(٢٥٤)س١٢، ص١١١، ق ٨٠ ، ١٧ رجب ١٢٠١=١٧٨٧/٥/٥. ص ١٣٢، ق ٨٨، ٦ ذى الحجه ١٢٠١.

(٢٥٥)س ١٢، ص ١١٧، ق ٨١، ١ ذى الحجه ١٢٠٠ = ١٧٨٦/٩/٢٤.

(٢٥٦)س ٥١، ص ٣٨، ق ٨٩، ١٣ محرم ١٠٧٤ = ١٦٣٧/٦/٧.

(٢٥٧)س ٦٠، ص ١٥٩، ق ٢٨٦ و٢٨٧، ٢٤ شعبان ١١١٤ = ١٧٠٣/١/١٢. ص ١٥٩، ق ٢٨٧، ١ رمضان ١١١٤ = ١٧٠٣/١/١٩.

(٢٥٨)آن وولف : كم تبعد القاهرة، ص ٤٧.

(٢٥٩)فى إطار التنظيم الإدارى الذى وضعه سليمان ظهر " التزام ترجمة الفرنج" أو " ترجمانية الفرنج بالديار المصرية " فى إطار المقاطعات الحضرية، وكانت مدته سنة. وقد تضمنت المعاهدة مع البندقية حق استخدام التراجمة كوسطاء، بل وعدم منع معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم. أما المعاهدة مع فرنسا فتضمنت حق القناصل الفرنسيين فى استخدام التراجمة " الذين يريدون.. بدون أن يقدر أحد على إكراههم لاستخدام من لا يوافقهم ". يوسف آصاف : مصدر سابق، ص ١٨. محسن شومان : المقاطعات، ص ٤٤، ٥٣. فاروق أباظه : مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢٦٠)آن وولف : مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٢٦١)س ٢، ص ٢٢، ق ٧٧، ٢١ جمادى الأول ٩٦١ = ١٥٥٤/٤/٢٤.

(٢٦٢)أندريه ريمون : مرجع سابق، ج٢، ص ٦٨٧.

(٢٦٣)من هؤلاء " ابراهيم اليهودى الترجمان " و" المعلم روفائيل الترجمان " و" مردخاى اليهودى ". س ٢، ص ٨٣، ق ٢٨١ ب، ٧ رجب ٩٦١ = ١٥٥٤/٦/٨. س ٣٨، ص ١٣٦، ق ٥٩٤، ٢٦ رمضان ١٠٢٨ = ١٦١٩/٩/٥. س ٥٢، ص ٣٧٤، ق ٧٣٣، ٢٩ شعبان ١٠٨٢=١٢/٣١/ ١٦٧١.

(٢٦٤)عندما اتفق مغاربه مع الريس " فرنسيسكو الفرانسى" على نقل بضائعهم إلى سوسه فإنهم سجلوا ذلك بالمحكمة " بشهادة شهوده، وبحضور المعلم اسرائيل والمعلم يعقوب وترجمتهما ". أما " المعلم اسرائيل بن باروخ اليهودى " فكان " ترجمان طايفة الفرانسة" وكذلك كان "يوسف اليهودى". أما أنتونى وشطو اليهودى فكلاهما كان " ترجماناً بخدمة الأمير مصطفى جوربجى" وتوليا ترجمة مطالبته بقرض شرعى فى

ذمة القنصل الفرنسى المتوفى "بوره". س٤٢، ص ٢٧٦، ق ٨٧٨، ٢ ذى الحجة ١٠١٥=١٦٠٧/٣/٣٠. ص ١٧٧، ق ٥٧٣، ١٠ رمضان ١٠١٦=١٦٠٧/١٢/٢٩. س ٤٧، ص ١٠٣، ق ٢٠٦، ٢ ربيع أول ١٠٥٣ = ١٦٤٣/٥/٢٠. س ٤٧، ص ١٨٦، ق ٤٨٣، ٣ رمضان ١٠٥٣=١٦٤٣/١١/١٥. س ٦٠، ص ٢٠٨، ق ٣٦٦، ٧ ذى القعدة ١١١٤= ١٧٠٣/٣/٢٥.

(٢٦٥)من هؤلاء " اسرائيل بن يوسف " الذى ترجم من الإيطالية و" دون بن سلمون اليهودى ترجمان البنادقة " و" إبراهيم بن سلمون اليهودى ترجمان طايفة البنادقة " وكذلك " باروخ اليهودى ترجمان البنادقة " و" موسى اليهودى ترجمان الدوبره ". س ١٢، ص٩١، ق ٢٣٩، ١٥ محرم ٩٨٦ = ١٥٧٨/٣/٢٤. س ٤٢، ص ٦، ق ٢١، ١ شعبان ١٠١٥ = ١٦٠٦/١٢/١. س ٥٢، ص ٣٠١، ق ٥٨٥، ٢١ ربيع أول ١٠٨٢ = ١٦٧١/٧/٢٨. س ٩٦، ص ٢٣٦، ق ٣٧٩، ١٦ ربيع ثان ١١٩٠ = ١٧٧٦/٦/٣. س ٩٦، ص ٣٨٥، ق ٦٠٠، ١ جماد ثان ١١٩٠ = ١٧٧٦/٧/١٧.

(٢٦٦)من هؤلاء هارون اليهودي ويوسف العويضى وحنانى اليهودى ترجمان النصارى النمسا. س٤٢، ص ١١، ق ٣٧، ١١ شعبان ١٠١٥=١٦٠٦/١٢/١١. س١٢، ص١٣٣، ق٨٩، ٥ ذى الحجه ١٢٠١= ١٧٨٧/٩/١٧.

(٢٦٧)ومنهم يوحنا بن ميخائيل اليعقوبى. س ٢، ص ٣٧، ق ١٢٥، ٣ جمادي الثانى ٩٦١ = ١٥٥٤/٥/٥.

(٢٦٨)س ٤، ص ٤٦٨، ق ٤، ٢٥ محرم ٩٣١ = ١٥٢٤/١١/٢١.

(٢٦٩)س ١، ص ٣٠، ق ١٣٩، ١٤ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/٩/٢٥.

(٢٧٠)فهذا " محمد بن عطيه بن راشد المغربى الطرابلسى " الذى ترجم إشهاداً على دين لسكندرى على فرنسى بما يعنى معرفته بالفرنسية. س ١، ص ١٥، ق ٤٦، ٣ رمضان ٩٥٧ = ١٥٥٠/٩/١٤.

(٢٧١)ومنهم يحيى الترجمان ونوح الترجمان. س٢، ص ٧٤، ق ٢٥٤، ٣٠ جمادى الثانى ٩٦١ = ١٥٥٤/٦/١. س ٢٩، ص ١٢٢، ق ٣٣٥، ٢٠ رجب ١٠٠٠= ١٥٩٢/٥/٣.

(٢٧٢)س ١٢، ص ٨٨، ق ٢٣٠، ١٣ محرم ٩٨٦ = ١٥٧٨/٣/٢٢.

(٢٧٣)س ٤٢، ص ١٨٤، ق ٥٩١، ١٥ شعبان ١٠١٦ = ١٦٠٧/١٢/٥. س ٤٢، ص ١٧٧، ق ٥٧٣، ١٠ رمضان ١٠١٦ = ١٦٠٧/١٢/٢٩. س ٩٦، ص ٢٧٨، ق ٤٥٠، ١٥ رجب ١١٩٠ = ١٧٧٦/٨/٣٠.

(٢٧٤)إيمانويل كانط : مشروع للسلام الدائم، ترجمة : عثمان أمين، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ٦٠.

(٢٧٥) كانط : مشروع للسلام الدائم، ص ٦٢، ٨٠، ٨١.

مدرسة مصرية في باريس خلال عصر محمد على

عبد المنعم إبراهيم الجميعى(*)

لم يكتف محمد على خلال محاولاته بناء الدولة الحديثة فى مصر بإيفاد البعثات العلمية فى مختلف التخصصات إلى أوربا، بل عمل على استغلال علاقاته الودية مع فرنسا التى افتتن بها، ومال إليها منذ بدايات حكمه، خاصةً وأنها كانت بالنسبة له ولابنه ابراهيم بلاد الحرية ومنبع الأنوار. فرأى إنشاءَ مدرسة مصرية عسكرية فى باريس لتعليم الطلاب المصريين، ولتكون مدرسةً تحضيريةً تعد خريجيها بعد ثلاث سنوات للالتحاق بالمدارس الحربية العليا فى فرنسا، كما تكون مركزاً لاستقبال بعثاته التى تفد من مصر بعد ذلك إلى باريس.[١]

وقد بلغ عدد تلاميذ هذه المدرسة فى عام ١٨٤٥م اثنين وستين تلميذاً ذهبوا إلى باريس على دفعات.[٢] ورغبةً فى ضبط أمور هذه المدرسة أمر محمد على بوضع لائحة داخلية تنظم أمورها فقام بوضعها المسيو "جومار Jomard" أحد علماء الحملة الفرنسية، وعضو المجمع العلمى المصرى أيام بونابرت والذى كلفه محمد على بالإشراف على بعثاته، كما شاركه فى وضعها "إصطفان ديمرجيان" الأرمنى[٣]، عضو بعثة ١٨٢٦ (التى ضمت رفاعة الطهطاوى) وإلى جانب ذلك فقد أشرف سليمان باشا الفرنساوى – الذى عهد إليه محمد على بتنظيم الجيش المصرى على الأساليب الحديثة– على اختيار طلابها.[٤]

وقد أورد عمر طوسون نظام المدرسة الداخلى فى ٢٥ مادةً أبرز ما فيها أنها مدرسة عسكرية داخلية، محظور أن يدخلها المواد الغذائية والمشروبات

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة الفيوم.

الروحية والمواد الكيماوية ونص فيها على علاقة التلاميذ بأساتذتهم، وسلوكهم داخل المدرسة وخارجها، وطريقة معاقبة المقصر منهم، كما أوضحت اللائحة منهج الدراسة وموادها وأيام الفسح الأسبوعية، ومواعيدها(٥)، والعطلة السنوية للطلاب والتى يقضونها بين تمرينات عسكرية ودروس فى الفنون الحربية وغيرها، والقيام برسوم طوبوغرافية وبين زيارة المعالم والمنشئات الحيوية فى فرنسا مثل متحف الأسلحة، ومتحف التاريخ الطبيعى، والمرصد، ومعهد الفنون والصنائع، ومعهد سيفر Sevres والمطبعة الملكية، ومصنع سك النقود وغيره.

وقد وضعت هذه المدرسة تحت اشراف الحكومة الفرنسية مباشرة فكان المارشال "دوق دى دالماسى" Duc de Dalmathie وزير الحربية الفرنسى ورئيس مجلس الوزراء وقتذاك رئيساً لها، وكان ناظرها أمير الآلاى المسيو "بوانسو" Poincot احد ضباط فرنسا المشهورين، كما كان أساتذتها جميعاً من الفرنسيين، يضاف إلى ذلك فقد شكلت لجنة من ستة ضباط لتنظيم سير الدراسة بالمدرسة. (٦)

وبعد أن صدق محمد على على نظام المدرسة الداخلى(٧)، بدأت الدراسة بمبنى المدرسة الكائن بشارع "ريجار" Regards بباريس فى ١٦ أكتوبر ١٨٤٤ حيث شملت دفعتها الأولى أعضاء البعثة التى أوفدها محمد على فى عام ١٨٤٤ إلى باريس، وضمت بين جنباتها نجلين لمحمد على هما الأميران "حسين بك" و"حليم بك" واثنين من أحفاده (نجلا ابراهيم باشا) وهما الأمير "أحمد" وأخوه "اسماعيل بك" الذى صار بعد ذلك أول خديو على مصر، ولذلك أطلق على هذه البعثة "بعثة الأمراء"(٨)، كما كان من خريجى هذه المدرسة من قام بنصيب فى النهضة التعليمية والاقتصادية والإدارية، وتقلد مناصب بارزة فى الحكومة بعد ذلك أمثال أبي التعليم على مبارك مهندس تخطيط القاهرة الحديثة والوزير المعروف، و"شريف باشا" أبي الدستور والذى تولى رئاسة مجلس النظار اكثر

من مرة و"حماد عبد العاطى" الذى عمل بالقضاء، و"على باشا ابراهيم" الذى تقلد العديد من الوظائف الهامة فى الإدارة والقضاء والتعليم، كما عين ناظرا للمعارف ثم ناظرا للحقانية فى عام ١٨٨٢. (٩)

ومع أن هذه المدرسة أنشئت لتعليم العلوم العسكرية واتبعت فى ادارتها النظم العسكرية البحتة، فقد بدأت الدراسة بها عند افتتاحها بمنهج مؤقت، شمل مواداً ثقافية مثل الخط، واللغة الفرنسية، والعلوم الرياضية، والجغرافيا، والتاريخ والرسم، وخلال ذلك تم تقسيم الطلاب إلى قسمين بحسب استعدادهم ومحصولهم العلمى، ثم أدخل بها بعد ذلك العلوم العسكرية والرياضة البدنية، وتعليم استخدام السلاح الأبيض واللعب بالسيف، ثم تطورت الأمور بعد ذلك وجعلت المواد تسعاً وهى الخط واللغة الفرنسية، وتقويم البلدان والتاريخ والرياضيات والرسم والطبوغرافيا والمعارف والفنون العسكرية، وعلم التحصينات والمدفعية والتمرينات العسكرية. (١٠)

وإلى جانب ذلك فقد أراد محمد على أن يعد من تلاميذ هذه المدرسة من يصلح للسلك المدنى، فاختير منهم تسعة ممن لا تسمح حالتهم بالبقاء فى السلك العسكرى والمضى فيه، وافتتح لهم قسماً خاصاً لدراسة العلوم المدنية (١١)، يتلقى فيه هؤلاء الطلاب ما يعدهم للمدارس المدنية المختلفة التى سيلتحقون بها (١٢)، فكان فى هذه المدرسة تلاميذ يتعلمون الطب البيطرى وآخرون يتعلمون الطب البشرى والصيدلة.

وقد اهتمت الحكومة الفرنسية بمتابعة أمور هذه المدرسة فزارها فى يونيو ١٨٤٥ الدوق "دى نيمور" Nemours ابن الملك "لوى فيليب" يصحبه الجنرال "بوبيه" أحد جنرالات فرنسا المشهورين، كما كلف ناظر المدرسة بكتابة تقارير دوريةً عن أحوالها لوزير الحربية كل خمسة عشر يوما. وإلى جانب ذلك فقد ظل محمد على معنياً بشئون هذه المدرسة، فكان ناظر خارجيته "أرتين بك"

يبلغه بأحوال الطلاب ويطلعه على أمورهم ودرجات امتحانهم التى كانت تعقد كل ثلاثة أشهر، وكان محمد على يتابع ذلك بنفسه، وليس أدل على اهتمامه بهم من الرسائل التى كان يرسلها إليهم من حين لآخر يحثهم فيها على العمل، ويدعوهم إلى بذل قصارى جهودهم فى الدراسة، وان يكونوا مرآة صادقة لحياة المصريين من ناحية حسن الخلق والالتزام بالواجب، وذلك حماية لسمعة مصر فى الخارج، وهدد كل من يخالف ذلك بالعقاب الصارم، هذا إلى جانب قيامه بتشجيعهم وحضهم إلى بذل المزيد من الجهد [١٣]، وحتى لا يبتعد الطلاب عن أمور دينهم أمر محمد على بتعيين أحد علماء الأزهر وهو الشيخ "نصر أبو الوفا الهورينى" إماماً لهذه المدرسة [١٤]، ومعلماً لتلاميذها العلوم الدينية، ورقيباً على اخلاقهم، وتمسكهم بدينهم وسيرهم فى الطريق المستقيم.

ورغبةً من محمد على فى مسايرة أمور الحياة العسكرية الصحيحة بالمدرسة اعترض على إدارتها، عندما علم انها كانت تعامل الأمراء وأبناء الباشوات من التلاميذ معاملةً خاصةً، وقيامها بتقسيم طلابها إلى ثلاث طبقات وهم الأمراء والبكوات والأفندية، والتفرقة بين كل طبقة من هذه الطبقات من حيث المسكن والطعام والخدمات الأخرى، حيث كان الأمراء يمتازون فى كل شئ، ويعد لمأكلهم طعام فاخر بما يتنافى مع طبيعة الحياة العسكرية [١٥]، ولا يتساوون مع الآخرين إلا فى قاعات الدرس، فقد اعترض محمد على على هذه المعاملة فى خطاب بعث به إلى ناظر المدرسة فى ٢٧ اكتوبر ١٨٤٤ يطلب فيه ضرورة المساواة التامة بين الطلاب، وأهمية معاملة أولاده وأحفاده فى المدرسة معاملة باقى التلاميذ، حتى لا يسيطر الكبر على نفوسهم، مما أدى إلى تعديل هذا النظام، وإلغاء الكثير من عناصر الترف والتباين [١٦]، فخفض بناء على أوامر الوالى طعام الأمراء من ثلاثة عشر صنفا إلى أربعة أصناف فى الغداء، وثلاثة فى العشاء [١٧].

وإلى جانب ذلك فقد طالب محمد على إدارة المدرسة باستعمال القسوة والعنف مع الأمراء إذا ركنوا إلى التكاسل، أو تباطئوا فى إطاعة أوامر رؤسائهم، مثلما يحدث مع أى تلميذ آخر، يضاف إلى ذلك ان محمد على كان يحض أولاده على الاجتهاد فى علومهم، والتواضع مع زملائهم فى الدراسة وحب الوطن والذود عنه، كما كان يقوم بتوبيخهم وعقابهم إذا اقتضت الضرورة.

وفى محاولة من محمد على لمتابعة أمور المدرسة على الواقع أرسل ابنه ابراهيم لزيارتها وتفحص أمورها فى مايو ١٨٤٦م، فسافر ابراهيم إلى فرنسا، وأقيمت على شرفه مناورة عسكرية هناك، حضرها طلاب البعثة كجزء من برنامجهم الدراسى، كما حضر إبراهيم باشا امتحان طلاب المدرسة، وكان بصحبته رئيس وزراء فرنسا ووزير الحربية وبعض كبار المسئولين الفرنسيين، وقام بتوزيع الجوائز على الأوائل من المتفوقين، وكان منهم على مبارك كما تناول طعام الغداء مع طلاب المدرسة [١٨]، وفى أعقاب ذلك قام الطلاب بتمرينات ضرب النار، كما تم امتحان طلاب السنة النهائية فى قسم من مواد الدراسة وهى حساب المثلثات والهندسة الوصفية والاحصاء وعلم توازن القوى والآلات والكيمياء والطبيعة واللغة الفرنسية والتاريخ، والطبوغرافيا، والتحصينات المؤقتة والمدفعية والفنون العسكرية، والنظريات واللوائح الخاصة بخدمة المعركة، وبعد اجتياز الطلاب لهذه الامتحانات استكملوا استذكار العلوم المتبقية تمهيداً للامتحان فيها وهى الجبر ومبادئ الهندسة، والجغرافيا، والإدارة العسكرية وفن الحرب (أى اللوائح العسكرية، وتعليم الجندية، وفرقة الفرسان، وأقسام لائحة الحركة الخاصة بالوقائع الحربية الصغيرة، وقسم الآلاى). [١٩]

وقد تم نقل الطلاب الناجحين فى الامتحان النهائى إلى مدارس التطبيقات الفرنسية، وإلى مدارس فرنسا الحربية العليا كمدرسة الطوبجية، ومدرسة أركان

الحرب ومدرسة الفرسان، وكان نصيب الطالب "على مبارك" وبعض زملائـــه الالتحاق بكلية "متز" Ecole Metz ليتخرجــوا منهـــا ضـــباطاً فـــى المدفعيـــة (الطوبجية) والهندسة الحربية ومنحوا عند دخولهم لها رتبة المـــلازم ثـــان [٢٠]، وأقاموا بها مدة عامين درسوا خلالها فن الاستحكامات الخفيفة والثقيلـــة وفـــن الحرب والألغام وما يتعلق بها، مع استعادة ما ســبق لهـــم دراســـته بمدرســـة باريس[٢١]، وكانت هذه المدرسة مدرسةً داخليةً بالنسبة لهم احتفظوا فيها بـــزيهم المصرى. وفى الامتحان النهائى بكلية "متز" كان ترتيب على مبارك الخـــامس عشر من بين جموع الناجحين الخمسة والسبعين ثلاثة مصريون واثنان وسبعون فرنسياً [٢٢]. ولما كانت خطة ابراهيم باشا ان تستمر إقامة على مبارك وزميليـــه فى أوربا حتى يمكنهم تطبيق العلم على العمل، فقد تم الحاقهم فى أوائـــل عـــام ١٨٤٩م بآلايات الجيش الفرنسى للتدريب والتطبيق.

وهكذا اثبتت هذه المدرسة أن الأمل كان لا يزال يراود محمد على فـــى استمرار بناء مصر الحديثة، فعلى الرغم من القيود التى فرضتها الدول الأوربية على محمد على فى معاهدة لندن ١٨٤٠م والتى قضت بارجـــاع مـــصر إلـــى حدودها القديمة وحرمانها من ثمرة انتـــصاراتها وتقييـــد اســـتقلالها بالـــسيادة العثمانية، وعلى الرغم من القيود الثقيلة فى فرمان ١٨٤١م الذى حـــدد أعـــداد الجيش المصرى فى وقت السلم بالاّ يزيد عن ١٨ الف جندى، فإن محمد على لم يستسلم لكل ذلك ولم تفتر همته لحظة، كما تصور الكثير من الناس، بـــل قـــام بإنشاء هذه المدرسة فى عام ١٨٤٤م ووضعها تحت رعايته على أمـــل تغيـــر الأحوال، مما ينفى ما تردد حول أن أحوال مصر السياسية بعد تـــآمر الـــدول الكبرى والسلطان عليها كانت فى حالة ركود تـــام مـــن النـــاحيتين الخارجيـــة والداخلية، فليس إرسال البعثة الكبرى إلى فرنسا عام ١٨٤٤م وإنشاء مدرسة فى باريس لرعاية الطلاب المصريين إلا مظهراً من مظـــاهر اســـتمرار الأمـــل، واستبقاء جيش قوى يكون حصناً لمصر على الرغم مما ورد فـــى المعاهـــدات

والفرمانات من قيود. (٢٣)

وقد استمرت هذه المدرسة قائمةً تؤدى دورها إلى ان تولى عباس باشا الحكم فى ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨م فأمر بإغلاقها واستحضار تلاميذها فصدرت الأوامر باستدعاء "على مبارك" مع زميليه بعد الحاقهم بآلايات الجيش الفرنسى قبل ان يكتمل عام على التحاقهم بهذه الآلايات، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً فقد أعيد افتتاح هذه المدرسة فى عصر إسماعيل، وصدرت لائحة تنص على انشائها على مثال المدرسة التى أنشأها محمد على، وأن تخضع للنظام العسكرى وتكون إدارتها من اختصاص وزير المعارف المصرى، وأن يكون نظام التعليم بها والفرق الدراسية، وطريقة أداء الامتحانات وقوانينها وأنظمتها كالمدرسة الأولى ولكن هذه المدرسة لم تستمر فى أعمالها طويلاً فلم تلبث أن أغلقت فى أعقاب الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا، مما أدى إلى عودة أعضاء البعثات المصرية من باريس، ثم الغاء هذه المدرسة تمامًا فى سبتمبر ١٨٨٢م. (٢٤)

ملحق رقم (١)

خطبة أمير الآلاى بوانسو Poincot ناظر المدرسة المصرية

فى باريس أمام طلاب المدرسة فى ١٧ أكتوبر ١٨٤٤م

أيها التلاميذ

إن مليككم [٢٥] أرسلكم إلينا لتتلقوا ثقافةً عسكريةً واسعةً فأهلاً ومرحباً بكم واننا وطدنا العزم على أن نكون عند ثقة الحكومة المصرية بنا. ولقد اختارنى المارشال وزير حربيتنا ورئيس مجلس الوزراء لإدارة مدرستكم فأنا فخور بهذا المنصب، وسأبذل قصارى جهدى لأبرهن على أنى جدير بهذا الاختيار.

إن النظام هو الأساس لكل ثقافة عسكرية، وسأوجه عنايتى قبل كل أمر لتوطيده بين صفوفكم، غير أنى عند القيام بهذه الواجبات الشاقة التى القيت على عاتقى سأعرف كيف ألطف من شدة وقعها عليكم نظرا لما أشعر به بل لما تشعر به فرنسا كلها من الحب والعطف على شباب هجروا الأهل والأوطان وحلوا ضيوفاً علينا.

إن المهنة العسكرية فى كل أمة وفى كل بلد هى سلسلة من الابتلاء والحرمان والتعب والشظف، ولأجل القيام بأعبائها كما ينبغى لابد من الغيرة والحمية والتضحية والمثابرة ويشهد بذلك تاريخ الأمم كلها وبالأخص تاريخ فرنسا فما عليكم إلا الامتثال والاذعان لهذا الابتلاء. فبرضاكم بهذه المحن تكلل أعمالكم بالنجاح الذى تصبو إليه نفوسكم. وأنى لعلى يقين بأننى سألاقى منكم الطاعة التامة، ونهاية الخضوع لى ولرؤسائكم. ولا يفوتنكم أن أساتذتكم لهم عليكم حق المراعاة والاحترام. وعندما أراكم وقد انبثت فى نفوسكم هذه الصفات الشريفة أكون قد نلت ثمرة تعبى. أ.هـ. [٢٦]

ملحق (٢)

لائحة النظام الداخلى للمدرسة

الذى صدق عليه محمد على ونفذ فى ٢٠ أكتوبر ١٨٤٤م

١- على التلاميذ أن يحترموا الأساتذة والمعيدين والموظفين ويطيعوهم ويحيوهم بإشارة التعظيم العسكرى عند مقابلتهم .

٢- ينادى على التلاميذ كل صباح بعد النفخ فى بوق اليقظة بربع ساعة، ويقدم لناظر المدرسة كشف بأسماء الغائبين وفى حالة وجود الجميع يذكر ذلك.

٣- تتعين ساعة المناداة بحسب فصول السنة، وكل تلميذ لا يجيب عند المناداة يحرم من أحد يومى الخروج الأسبوعى وإذا تكرر منه ذلك يجازى بغرامة.

٤- لا يدخل المدرسة أى كتاب أو رسم إلا باذن خاص .

٥- ألعاب النرد والورق والميسر كلها ممنوعة.

٦- ليس لتلميذ ما أن يدخل فى غير القسم المخصص له.

٧- يجب على كل تلميذ أن يكون داخل المدرسة وخارجها مرتدياً الكسوة المقررة عليه، وعليه الاعتناء بها.

٨- ليس للتلاميذ حق استخدام الخدم فى أمور خارج المدرسة الا بعد الحصول على إذن.

٩- كل حزمة أو ملف معد للدخول فى المدرسة باسم أى تلميذ يجب أن يطلع عليه حاجب الباب.

١٠- يمنع دخول أى مادة كيميائية بالمدرسة، وكذلك مواد الغذاء والنبيذ وسائر المشروبات الروحية.

١١- أيام الخروج من المدرسة هى الأحد والخميس ففى يوم الأحد يمكن خروج التلاميذ الساعة العاشرة صباحا، وفى يوم الخميس فى منتصف الساعة الثالثة مساء. ويجب عليهم العودة من الساعة العاشرة مساء عدا الذين يحصلون على اذن بالتأخر من أمير الآلاى ناظر المدرسة. وكل طلب من هذا القبيل يجب أن يوجه إليه إذ لا يمكن لأى تلميذ أن يخرج فى غير هذه المواعيد أو يتأخر عنها إلا بإذن منه. وعلى التلاميذ أن يوقعوا بامضاءاتهم فى السجل الذى عند الحاجب، وأن يبينوا فيه وقت رجوعهم، والذين يرخص لهم بالخروج يوقعون بامضاءاتهم عندما يزايلون المدرسة .

١٢- لا يسمح لأى تلميذ أن يدخل شخصاً أجنبياً فى المدرسة.

١٣- لا يسمح للتلاميذ ان يكون لهم غرف فى المدينة بأى حجة كانت.

١٤- معاقبة التلاميذ تكون إما بحرمانهم من الخروج مرةً أو أكثر وإما بحجزهم فى غرفهم، وإما بتوقيع غرامات عليهم.

١٥- العقاب يلزم التلميذ أن يواصل الدراسة فى يوم الأحد من الساعة العاشرة صباحاً إلى منتصف الساعة الثالثة مساءً وفى يوم الخميس من الساعة السابعة إلى التاسعة والربع مساءً.

١٦- يجب ان توجه الطلبات إلى ناظر المدرسة بواسطة الجاويشية من التلاميذ.

١٧- يجب على التلاميذ ان يلازموا الصمت حين دخولهم حجرات التدريس، والأماكن توزع عليهم فى كل حجرة منها بالاقتراع مرة واحدة.

١٨- لا يجوز لأى تلميذ أن يغير موضعه فى حجرة من حجرات التدريس أو ينتقل إلى حجرة غير حجرته بدون إذن وهذا النظام يتبع فى الفصول جميعاً.

١٩- يجب على التلاميذ فى أثناء الدراسة أن يمتنعوا عن اللعب بالكليـة وألا يحدثوا أى ضوضاء، وأن يكفوا عن كل ما ينشأ عنه انصراف جهـودهم عن المثابرة فى الدرس والكلام بصوت عال منهى عنه، وكذلك الاشتغال بغير الدرس.

٢٠- لا ينبغى للتلاميذ أن يتركوا حجرات التدريس لأجل الدخول فى غرفهم أو التمشى فى الردهات أو الحديقة.

٢١- ليس لتلميذ ما أن يترك حجرة التدريس قبل انتهاء الدرس وقبل الايـذان بالفراغ منه.

٢٢- أعمال الرسوم جميعها يوقع عليها التلاميذ بامضاءاتهم ثم يـضم المعلـم بعضها إلى بعض بعد فراغهم منها.

٢٣- محرم على التلاميذ أن يتلفوا أى شئ من الأشياء التى تـوزع علـيهم أو يستعملوها فى غير وجوهها

٢٤- التلاميذ مسئولون عن الأثاث والكتب والآلات التى بعهدتهم، وعن كل ما يتلف فى غرفهم، فما يستبدل من هذه الأشياء او يصير إصلاحه تكـون نفقاته عليهم.

٢٥- كل فرنسى يستخدم فى المدرسة، ويكون سلوكه موضع الشكوى يمكـن فصله بقرار من أمير الآلاى ناظر المدرسة.

الهوامش

(١)زكى صالح ومحمود مرسى: البعثات العلمية فى القرن التاسع عشر، جـ١، ض ٤٩.

(٢)عمر طوسون: البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس وسعيد، ص ١٩٧.

(٣)لتفاصيل ذلك انظر محمد رفعت الامام: الأرمن فى مصر القرن التاسع عشر، ص ١٢٣.

(٤)احمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى عصر محمد على، ص ٤٤٣.

(٥)عمر طوسون: مرجع سابق، ص ١٧٦- ١٧٩.

(٦)محمد السروجى: الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر، ص ١٤١.

(٧)عمر طوسون: مرجع سابق، ص١٧٥.

(٨)لم يستمر معظم هؤلاء الأمراء فى دراسة التعليم العسكرى بهذه المدرسة إما لضعف بصره، أو لعدم قدرته على الاستمرار فى مزاولة التدريبات العسكرية فانتقل الأميران حليم بك واسماعيل بك إلى قسم خاص لتلقى الدروس المدنية، وبقى حسين بك فى السلك العسكرى أما الأمير احمد بك فقد رغب فى الالتحاق بمدرسة الفنون الهندسية بباريس .

أنظر: عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٤٤٦.

(٩)عزت عبد الكريم: مرجع سابق، ص ٤٤٣- ٤٤٧.

(١٠)عمر طوسون: مرجع سابق، ص ١٩٠ والجدير بالذكر أنه تم اضافة علوم الميكانيكا والأسلحة إلى مناهج الدراسة بعد ذلك.

(١١)على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١، ص ٢٢٢.

(١٢)شملت المواد التى درسها هؤلاء الطلاب علم الاحصاء التاريخى والطبيعة، وعلم رسم المناظر وغيره، أنظر: عمر طوسون: مرجع سابق، ص ٢١٥.

(١٣)الأهرام فى ١٩٤٩/١١/٢٣ ودفاتر المعية تركى دفتر رقم ٣١ ترجمة الوثيقة رقم ٢٢.

(١٤)دار الوثائق: أوامر لديوان المدارس، محفظة رقم (٢) ودفتر ٢٩ مدارس عربى ، ص ١٤٠٢، رقم ٣٩٨.

(١٥)عمر طوسون: مرجع سابق، ص ١٨٣- ١٨٤.

(١٦)زكى صالح ومحمود مرسى: مرجع سابق، ص ٤٩.

(١٧) عمر طوسون: مرجع سابق، ص ١٨٦.

(١٨)للتفاصيل أنظر: على مبارك: الخطط التوفيقية، جـــ٩ ، ص ص ١١٦- ١١٧ علـــى حين يذكر "يعقوب أرتين" انه عندما زار ابراهيم باشا المدرســة لــم يعجبــه مــستوى الطلاب، وأبدى قلقه من تقدمهم الضئيل رغم ما يتمتعون به من امتيازات ورعاية بقوله "لقد أصبح كل منهم سلطانا"

للتفاصيل أنظر: Artin Pacha , L' Instruction Publique en Egypt, P. 85

(١٩)على مبارك: الأعمال الكاملة،جــ١، دراسة وتحقيق محمد عمارة، ص ٣٨- ٣٩.

(٢٠)على مبارك: الخطط التوفيقية، جــ ٩، ص ١١٧.

(٢١)الأعمال الكاملة لعلى مبارك، ص ٣٩.

(٢٢)محمد عمارة: على مبارك مؤرخ ومهندس العمران، ص ٤٦.

(٢٣)محمد فؤاد شكرى وآخران: بناء دولة مصر محمد على – السياسة الداخلية ، ص ص ١٠٤- ١٠٥.

(٢٤)عبد المنعم الجميعى: وثائق التعليم العالى فى مصر القرن التاسع عشر، ص ٤٢٠.

(٢٥)يقصد محمد على.

(٢٦)عمر طوسون: البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ص ١٨٠- ١٨١.

محمد نجيب في الميزان

عادل حسن غنيم(*)

كان اللواء محمد نجيب على رأس الانقلاب أو حركة الجيش التي قامت صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، والتي تحولت بعد ذلك إلى ثورة نتيجةً للإصلاحات الجذرية التي قامت بها الحركة وعلى رأسها قانون الإصلاح الزراعي، ولاشك أن وجود رتبة كبيرة على رأس الضباط الشبان الذين قاموا بالثورة – والذين كانت أعمار معظمهم تتراوح بين ٣٠ و ٣٤ عامًا – قد طمأن الضباط الأحرار والجماهير على إمكانية نجاح الحركة وكان عاملاً هامًا في التفاف الشعب حولها.

وهذا هو عبد اللطيف بغدادي يوضح هذه النقطة في مذكراته " والرأي العام ربما لا يقتنع بنا عندما يعلن الانقلاب وأسماء قادته، ونحن سنكون في أشد الحاجة إلى ثقة واطمئنان الشعب خاصةً في المراحل الأولى من الانقلاب. ومحمد نجيب كان قد عرف للرأي العام أثناء المعركة الانتخابية لمجلس إدارة نادي الضباط، وكان معروفًا أيضًا لدى ضباط الجيش ... ".

وقد سبق قيام الحركة تاريخ مشرق لقائدها حيث كان الضابط الوحيد الذي قدم استقالته بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢م لكنها لم تقبل، كما أنه كان أحد قادة حرب ١٩٤٨م وأبلى بلاءً حسنًا في الحرب وأصيب خلالها ثلاث إصابات خطيرة، ثم كان قائدًا لمدرسة الضباط العظام، ومديرًا لسلاحي الحدود والمشاة، ثم كان هو الرجل الذي اختاره الضباط رئيسًا لنادي الضباط في عملية أخذت شكل تحدٍ علني للملك الذي كان يود أن يفرض حسين سري عامر أحد رجالاته رئيسًا لهذا النادي.

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة عين شمس . رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

ولقد تعرف محمد نجيب بالضباط الأحرار قبل ثورة يوليو عن طريق عبد الحكيم عامر الذي كان في فترة ما أركان حرب للوائه. ولم يكن نجيب عضوًا في تنظيم الضباط الأحرار قبل الثورة، حيث يعترف في مذكراته أن عبد الناصر هو مؤسسه ورئيسه، وأنه من بين الضباط التسعة الذين استقر عليهم مجلس القيادة بعد الثورة، قابل خمسة منهم قبل الثورة : عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم وصلاح سالم وزكريا محي الدين. فليس صحيحًا ما ذكره أحد الباحثين من أن محمد نجيب كان عضوًا في لجنة القيادة قبل الثورة.

ورغم أن دور محمد نجيب الفعلي بدأ منذ نجاح الثورة، لكنه كان دورًا شجاعًا وبارزاً، فها هو خالد محي الدين يقرر " أن الرجل قد قدم لنا اسمه ومستقبله وتضامن معنا وتحمل المسئولية عن عمل لم يعرف تفاصيله، ولم يبال بما قد يترتب عليه من نتائج خطيرة ".

وعلى ذلك فلم يكن هناك في الحقيقة دور هام لمحمد نجيب في تنظيم الضباط الأحرار قبل قيام الثورة سوى أنه كان أحد القادة العسكريين القلائل الصالحين الذين فكر فيهم الضباط الأحرار لاختيار أحدهم لقيادة الحركة وهم : عزيز المصري وفؤاد صادق، ومحمد نجيب، وهو الوحيد من بين هذه الشخصيات الذي قبل قيادة الثورة بشكل مباشر، فعزيز المصري استفسر عن بعض النقاط من التنظيم حتى يطمئن ولم يعط إجابةً واضحةً، وفؤاد صادق أخبرهم أنه قد أقسم اليمين للولاء للملك والوطن، ولكنه مستعد للتفكير في الموضوع إذا تعرَّف بالضباط الأحرار قبل أن يعطي الموافقة، ولم يكن عبد الناصر ليوافق على ذلك فهو الوحيد الذي كان يعرف الضباط الأحرار، ولم يكن من مصلحة التنظيم أن يتعرف غيره على أعضائه.

لقد بدأ الدور الحقيقي لمحمد نجيب في الثورة من لحظة قيادته للحركة وتحمله تلك المسئولية معرضًا نفسه لأسوأ الاحتمالات في حالة فشل الحركة.

وبعد قيام الثورة مباشرة لم يكن محمد نجيب يحضر اجتماعات مجلس القيادة، حيث يذكر خالد محي الدين في مذكراته أنه بعد نجاح الثورة كان مجلس القيادة مجتمعًا فدخل عليهم محمد نجيب، وكان الموقف بالغ الحرج لكنهم طلبوا منه أن يجلس معهم وواصلوا الاجتماع، لكن أعضاء القيادة التسعة اجتمعوا بعد ذلك في جلسة مغلقة حيث تقرر ضم محمد نجيب ويوسف صديق وزكريا محي الدين وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين، وبذلك أصبح مجلس القيادة مكونًا من أربعة عشر عضوًا.

أصبح نجيب إذن رئيسًا لمجلس الثورة بعد نجاح الثورة، وكان يحاول أن يمارس مسئولياته، إلى أن توترت الأمور بينه وبين جمال عبد الناصر، وبالتالي بينه وبين معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين كان عبد الناصر يسيطر على الكثيرين منهم أو يتحكم في توجهاتهم بشكل أو آخر، فكان المجلس يجتمع أحيانًا دون معرفة نجيب.

ولقد بدأت المشكلة صغيرةً ثم تفاقمت مع مرور الوقت، فلقد اتفق مجلس قيادة الثورة في البداية على أن تكون قراراتهم بالأغلبية بمن فيهم محمد نجيب رئيس المجلس، لكن نجيباً بعد فترة كان يريد أن يكون له حق المراجعة أو الاعتراض – خاصةً بعد أن أصبح رئيسًا للجمهورية في ١٨ يونيه ١٩٥٣م- فلم يوافق المجلس على ذلك.

واستمر نجيب أكثر من عام ونصف العام (من قيام الثورة حتى قبول استقالته في ٢٥ فبراير ١٩٥٤م) يحترم رأي الأغلبية رغم معارضته لبعض الموضوعات، مثلما حدث في قانون الإصلاح الزراعي وإلغاء الثورة لدستور ١٩٢٣ والتصديق على بعض القرارات المهمة في الجيش مثل ترقية عبد الحكيم عامر من صاغ إلى لواء وتعيينه قائدًا عامًا للقوات المسلحة.

وكان من حق نجيب كرئيس للجمهورية عدم التصديق على ما يراه من قرارات، لكنه لم يستخدم هذا الحق إلا قليلاً، وكان من تلك القرارات رفضه التوقيع على القرار الجمهوري بسحب الجنسية المصرية من ستة من الإخوان المسلمين، فقد صدر القرار وأذيع ونشر في الوقائع المصرية رغم عدم توقيع محمد نجيب على القرار، فليس من حق محمد نجيب بعد ذلك أن يقول أنه كان مضطرًا للموافقة أو التصديق على بعض القرارات.

وعندما تفاقمت الأمور وأصبح مجلس قيادة الثورة يأخذ ما يراه من قرارات بغض النظر عن حضور نجيب لتلك الاجتماعات من عدمه، وشعر الرجل أنه لم يعد يمارس سلطاته كاملة قدم استقالته في ٢٢ فبراير ١٩٥٤م لأسباب لم يشر إليها في استقالته.

وخلال اليوم التالي من قبول استقالة محمد نجيب في ٢٥ فبراير ١٩٥٤م خرجت المظاهرات في شوارع مصر وكان على رأسها طُلاب الجامعات تهتف بحياة محمد نجيب وسقوط جمال عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة وتطالب بعودة الجيش لثكناته، مما اضطر مجلس قيادة الثورة – في ٢٦ فبراير – إلى التراجع عن قراره وإعادة محمد نجيب، وأن يستقيل مجلس الثورة، وتُشكل حكومة مدنية برئاسة خالد محي الدين، ورغم عودة نجيب منتصرًا ومحاولته المطالبة بسلطات جديدة استفادةً من تأييد الجماهير له مثل حق الاعتراض على قرارات مجلس الوزراء، أو الاعتراض على تعيين قادة الكتائب والألوية في الجيش، لكن الأحداث بعد ذلك أكدت أن تراجع مجلس قيادة الثورة عن قراره كان إلى حين، أو إلى أن تتوافر الظروف المناسبة لإقصاء محمد نجيب دون حدوث رد فعل من جانب الجماهير.

فرغم أن مجلس قيادة الثورة اتخذ بعد عودة محمد نجيب عددًا من القرارات المهمة التي أعلنها في ٥ مارس ١٩٥٤م بشأن إعادة الحياة النيابية إلى

البلاد وسيادة جو من التفاؤل فيها، لكن هذا التفاؤل لم يستمر إلا أيامًا، بسبب استمرار محمد نجيب في المطالبة بمزيد من السلطات مثل حق اعتراضه على قرارات مجلس قيادة الثورة وإلغاء الرقابة على الصحف.

ولا بد أن أضيف هنا عاملاً مهماً أسهم في تدهور الموقف، ودفع بعد ذلك إلى التراجع عن قرارات ٥ مارس، وهو أنه بعد إلغاء الرقابة على الصحف، شنت بعض الصحف والمجلات وعلى رأسها جريدة " المصري " حملة شديدة ضد ضباط الثورة، تتعلق بالتصرفات الشخصية والذمم المالية، كما صدرت قرارات في الاتجاه نفسه من الجامعة، ونقابة المحامين، تنتقد تصرفات ضباط الجيش، مما أثار مخاوف أعضاء مجلس قيادة الثورة من المستقبل، وجعلهم يقفون ضد الديموقراطية لصالح استمرار الثورة، وحفاظًا على السلطة التي أصبح من العسير عليهم أن يتخلوا عنها لأي سبب كان، وبدأ عبد الناصر يرتب لأمر التراجع عن تنفيذ قرارات ٥ مارس ١٩٥٤م.

ففي ١٩ مارس وقعت ستة انفجارات في أماكن متفرقة منها الجامعة، والسكك الحديدية، ومحل جروبي، وقد ذكر عبد اللطيف البغدادي في مذكراته فيما بعد أن عبد الناصر الذي دبر هذه الانفجارات لإثارة مخاوف الشعب من الاندفاع في طريق الديمقراطية.

وبعد فترة من التوتر اجتمع مجلس قيادة الثورة في ٢٥ مارس حيث أعلن عددًا من القرارات السياسية من أهمها :

- يسمح بقيام الأحزاب.
- حل مجلس قيادة الثورة في ٢٤ يوليو المقبل باعتبار الثورة قد انتهت وتسليم البلاد لممثلي الأمة الذين يجرى انتخابهم في انتخابات حرة.

وخلال الأيام الأخيرة من مارس ١٩٥٤م أضرب عمال النقل وعمال السكك الحديدية واعتصموا مطالبين باستمرار الثورة وإلغاء قرارات ٥ مارس، وسارت مظاهرات في الشوارع تهتف بسقوط الديموقراطية، وقد اتضح فيما بعد طبقًا لما ذكره عبد اللطيف البغدادي وخالد محي الدين في مذكراتهما أن جمال عبد الناصر هو الذي دفع لقيادات العمال (الصاوي أحمد الصاوي) أربعة آلاف جنيه لشل حركة المواصلات في البلاد.

وفي مساء ٢٨ مارس اجتمع مجلس قيادة الثورة بمنزل محمد نجيب وقرر الجميع إلغاء القرارات الديمقراطية والرجوع عنها، ووقع جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة على القرار باستثناء خالد محي الدين الذي اختفى بالإسكندرية حتى لا يحضر الاجتماع ويوقع على القرار.

وتم في اليوم الثاني ٢٩ مارس ١٩٥٤م الاعتداء على الدكتور عبد الرزاق السنهوري رئيس مجلس الدولة بمبنى المجلس بواسطة عمال مديرية التحرير وضباط البوليس الحربي وجنوده.

وهكذا توافرت الظروف المناسبة للإحاطة بمحمد نجيب في الوقت المناسب ففي ١٤ نوفمبر ١٩٥٤م نقل محمد نجيب من القصر الجمهوري بعابدين إلى فيللا زينب الوكيل بالمرج، حيث ظل شبه معتقل طوال عهد عبد الناصر، وإن كان قد سمح له ببعض الزيارات العائلية بعد ست سنوات من تحديد إقامته إلى أن رفع السادات تلك القيود بعد وصوله إلى السلطة عام ١٩٧١م.

وخلال السنوات من ١٩٥٤م حتى ١٩٧٠م ــ أي خلال حياة عبد الناصر ــ عومل محمد نجيب معاملةً مهينةً لا تليق به كإنسان فضلاً عن كونه الرجل الذي قاد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وأول رئيس للجمهورية في مصر، حيث شغل الرجل خلال تحديد إقامته بالقراءة، وتعلم اللغات، وتربية القطط والكلاب.

وخلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م تم نقله إلى صعيد مصر حيث قضى في منزل زوج شقيقة أحمد أنور قائد البوليس الحربي تسعة وخمسين يومًا، ويذكر نجيب في مذكراته أنه تعرض خلالها لمعاملة مهينة، ويضيف أنه يعتقد أن جمال عبد الناصر أبعده عن القاهرة خوفًا من مطالبة الجماهير بعودته، وإن كان من المعتقد أن يكون ذلك قد تم خوفًا من تردي الأمور وقيام الإنجليز بإعادة محمد نجيب إلى حكم مصر.

وأما بالنسبة لثروته فعندما أعفى الرجل من منصبه في ١٤ نوفمبر ١٩٥٤م كان رصيده في البنك الأهلي فرع مصر الجديدة ٨٩٩ جنيهًا – طبقًا لما رواه عادل حمودة – كما كان معاشه مائة جنيه، رفع بعد ذلك إلى مائتي جنيه ثم زادها السادات مائة جنيه أخرى.

وأما بالنسبة لأبنائه فخلال عهد عبد الناصر قبض على ابنه الأول " فاروق " بتهمة الاعتداء على النظام، ثم أفرج عنه بعد أقل من نصف عام مريضًا بالقلب، حيث مات عام ١٩٦٩م، أما ابنه الثاني "علي " فقد قتل في ألمانيا قبل ذلك بعام في ظروف غير محققة، حيث نقل جثمانه إلى مصر ودفن دون أن يسمح لوالده باستقبال جثمانه أو قراءة الفاتحة على قبره. أما ابنه الثالث " يوسف " منذ حياة والده وهو يعمل على سيارة أجرة في ضواحي القاهرة. تلك لمحة سريعة لما عانته أسرة محمد نجيب خلال حياته وبعدها.

بعد هذا العرض الموجز عن دور محمد نجيب في ثورة يوليو، وعلى ضوء ما نشر من مذكرات لقادة الثورة ورجالاتها وذكريات، وباعتباري كنت معاصرًا لأحداث الثورة من بدايتها ومتابعًا ، يمكنني في اطمئنان أن أؤكد على النقاط التالية عند تقييمنا لدور محمد نجيب :

أولاً : أنه ليس صحيحًا ما ورد في بعض المراجع من أن محمد نجيب لم يعرف بالثورة إلا في وقت متأخر، حيث يؤكد خالد محي الدين في مذكراته أن

علاقة نجيب بالضباط الأحرار ومعرفته بوجودهم كانت منذ فترة مبكرة، وأنه كان يعتزم تقديم استقالته من الجيش بعد نقله المفاجئ من سلاح الحدود إلى سلاح المشاة، لكن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر زاراه في ذلك الوقت وأقنعاه بعدم تقديم الاستقالة وأن يرد الصفعة إلى الملك بترشيح نفسه رئيسًا لنادي الضباط. وهي الفكرة التي اقترحها رشاد مهنا في اجتماع لجنة القاهرة، ويعني هذا الكلام أن كانت هناك علاقة قوية بين محمد نجيب وقيادة الضباط الأحرار على الأقل قبيل انتخابات نادي الضباط التي تمت في ٣ يناير ١٩٥٢م

ثانيًا : أن محمد نجيب رغب في المشاركة في التحرك منذ اللحظة الأولى لقيام الحركة، لكن قيادة الضباط الأحرار كانت تريد إبعاده عن أي مشاركة فعلية عن عمد لضمان سلامته حتى يمكنه لحظة الانتصار أن يتولى القيادة، كما أن نجيبًا ـ كما أكد خالد محي الدين ـ كان صاحب فكرة الإسراع باعتقال القادة المجتمعين في كوبري القبة، حيث إنه هو الذي أبلغ عبد الحكيم عامر بما علمه من أخيه اللواء علي نجيب قائد قسم القاهرة عن موعد مؤتمر كبار الضباط في العاشرة مساء ٢٢ يوليو لإجهاض الحركة المتوقعة، حيث سارع عبد الحكيم بإبلاغ تلك المعلومات لجمال عبد الناصر، حيث خرجا معًا بملابسهما المدنية لإبلاغ ذلك إلى بعض قوات الحركة للإسراع بالتوجه إلى القيادة واعتقال قادة الجيش، حيث التقيا بيوسف صديق وأبلغاه بتلك المعلومات حيث سارع باقتحام قيادة الجيش، ولم يكن ذلك ضمن مهمته المحددة في تلك العملية.

ثالثًا : أن وجود رتبة كبيرة على رأس الضباط الشبان الذين قاموا بالثورة كان عاملاً أساسيًا في نجاحها، خاصة وأن نجيبًا كان يتمتع بقبول شعبي كبير فضلاً عن تاريخه العسكري المشرف.

ولا شك أن مجرد قبول محمد نجيب لقيادة انقلاب أو حركة عسكرية كان في حد ذاته موقفًا وطنيًا شجاعًا حيث كان أول من سيتعرض للمحاكمة العسكرية وربما الإعدام في حالة فشل الحركة. ولعل أفضل كلمة يمكن استخدامها في هذا المجال للتعبير عن دوره ـ وهي كلمة وردت في مذكرات نجيب ـ دون أن يهتم بها الكثيرون أنه كان غطاءً لتنظيم الضباط الأحرار، الذين كانوا في حاجة إلى قائد كبير يتوارون وراءه ويتحركون من خلاله. أو كما قال خالد محي الدين يومًا ما : إنه كان الواجهة التي تتحرك جماعة الضابط الأحرار في إطارها. فلم يكن كما يردد البعض شكلاً أو صورةً، وإنما كان قائدًا حقيقيًا للثورة بغض النظر عن دوره المحدود قبل الثورة، وفي هذا القول جزء كبير من الحقيقة.

رابعًا : أنه منذ قيام الثورة كان جمال عبد الناصر هو محرك الأحداث وصانعها، وكان هو الرجل الذي يقف خلف المسرح يحرك الستائر والعرائس، رغم أن هذا الدور لم يكن مرئيًا للجماهير حتى أزمة مارس ١٩٥٤م، ورغم بعض الكتابات عن عبد الناصر باعتباره الرجل الثاني، حيث إن الجماهير لم تكن تجد أمامها سوى نجيب قائدًا للثورة.

خامسًا : أنه بينما اعتمد محمد نجيب منذ بداية الثورة على الجماهير التي التفت حوله وأعطته كل التقدير والحب، اعتمد أيضًا على الإخـوان المسلمين حتى عودته بعد استقالته الأولى والتي كان للإخوان المسلمين دور أساسي في تحريك الجماهير بعد إقالته وملأت ساحة قصر عابدين يوم عودة نجيب حاملين عبد القادر عودة على أكتافهم ولم تنصرف من الميدان إلا بعد أن طلب منها عبد القادر عودة ذلك بعد أن دعاه نجيب إلى الوقوف في الشرفة إلى جواره.

أقول إنه بينما اعتمد نجيب على الجماهير والإخوان المسلمين حتى أزمة مارس ــ كما يؤكد خالد محي الدين ــ فقد اعتمد عبد الناصر أساسًا على السيطرة على الجيش والشرطة وأجهزة المخابرات المختلفة والبوليس الحربي وأعمال الوزارات المختلفة، إضافةً إلى كون عبد الناصر قادرًا على اتخاذ ما يراه من قرارات في مجلس قيادة الثورة، أما بالنسبة للجماهير فهى لم تكن غائبةً عن نظر عبد الناصر وفكره، لكن الظروف لم تكن قد سمحت بعد باستمالتها وكسبها.

وفي تقديري أن هناك ثلاثة أخطاء ارتكبها محمد نجيب، وتسببت فيما بعد في سرعة التخلص منه :

الأول : أنه كان خلال الأشهر الأولى بعد نجاح الثورة مؤيدًا لانفراد مجلس القيادة بالسلطة، وكان بعد ذلك من أنصار مد فترة الحكم الانتقالي لمدة أكثر من ثلاث سنوات، مما أسهم في زيادة التوجه نحو الحكم الفردي، ولم يتحدث عن الديموقراطية إلا فيما بعد عندما بدأ يفقد سلطته.

وأما الخطأ الثاني : فيتمثل في تفرغه للزيارات والاحتفالات حتى أنه يذكر في مذكراته أنه قام خلال العام الأول من الثورة بـــ ٨٦٩ زيارةً للوحدات العسكرية بالجيش، فإذا أضفنا إلى ذلك الزيارات والاحتفالات الشعبية التي كان يشارك فيها، والتي لم تكن تقل عن الزيارات العسكرية، لتبين لنا أنه كان يقوم في المتوسط بأربع أو خمس زيارات في اليوم، مما ترتب عليه إهماله لمسئولياته الأساسية كرئيس للوزراء ثم رئيس للجمهورية فيما بعد، تاركًا لعبد الناصر السيطرة الفعلية على مقدرات الدولة وأجهزتها الرئيسية.

وأما الخطأ الثالث : فيتمثل في أن محمد نجيب بعد عودته منتصرًا على يد الشعب في ٢٥ فبراير ١٩٥٤ ظل يطالب بالمزيد من السلطات، مما أسهم في دفع أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى التراجع النهائي عن فكرة الديموقراطية، وتجميد سلطاته قبل الإطاحة به في نوفمبر ١٩٥٤م.

وقد انتقل محمد نجيب إلى رحاب الله في ٢٨ أغسطس ١٩٨٥م، أي أنه عاش أكثر من ٨٣ عامًا باعتباره مولودًا في ٧ يوليو ١٩٠٢م كما يرجح في مذكراته.

وأخيرًا، فإن دور محمد نجيب الأساسي في ثورة يوليو أنه كان قائدها في بدايتها، وأنه كان ذلك الوجه المقبول الذي قدمته الحركة إلى الشعب المصري مما أسهم إلى حد كبير في نجاح الثورة وتقبل الجماهير لها، وهو دور يستحق أن يسجل له كموقف وطني شجاع في لحظة حرجة من تاريخ مصر. فوجوده على رأس حركة الجيش كان عاملاً هامًا في نجاح الحركة منذ قيامها، وليس صحيحًا إذن ما تردده بعض المراجع من أن دوره كان ثانويًا أو أنه لم يعرف بالحركة إلا قبيل نجاحها، أو أنه كان مجرد صورة. لقد تعرض الرجل في حياته لظلم كبير، ولا يجب أن يظلم في مماته أيضًا، ولتكن هذه هي كلمة التاريخ.

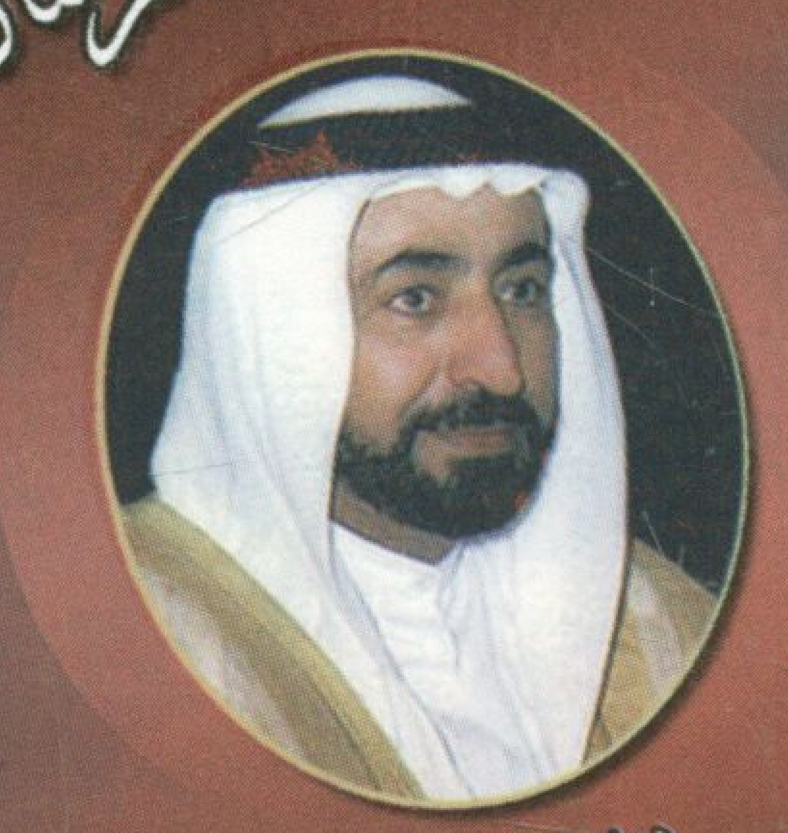
مراجع الدراسة

- أنور السادات، البحث عن الذات. قصة حياتي، الطبعة الأولى، القاهرة، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.
- خالد محي الدين، والآن أتكلم، الطبعة الأولى، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢م.
- طارق حبيب، ملفات ثورة يوليو، الطبعة الأولى، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٧م.
- عادل حمودة، مقال بجريدة الأهرام، ٢٠٠٢/٧/٢٠م.
- عبد اللطيف البغدادي، مذكرات، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٧٧م، الجزء الأول.
- علي فاضل حسن، مقال بجريدة الأهرام، ٢٠٠٢/٧/٢٢م.
- محمد نجيب، كلمتي للتاريخ، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨١م.
- محمد نجيب، كنت رئيسًا لمصر، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٨٤م.
- وحيد رأفت، فصول من ثورة ٢٣ يوليو، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٨م.

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

سلطان بن محمد القاسمي

أمير من هذا الزمان



دراسات مهداة
إلى سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي
بمناسبة بلوغه سن السبعين

تحرير
عُبادة كُحيلة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

